

الدار المصرية للتأليف والترجمة

المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأبناء والنشر

الحياة اليومية في مصر

في عهد الرعامسة

تأليف

بيير مونتييه



ترجمة
عزير موش منصور

مراجعة

عبد الحكيم الدواخلي



mohamed khatab

الحياة اليومية في مصر

في عهد الرعامسة

من القرن الثالث عشر الى القرن الثاني عشر قبل الميلاد

تأليف

بيير مونتييه

مراجعة

عبد الحميد الدواخلى

ترجمة

عزيم مرقس منصور

المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر

الدار المصرية للتأليف والترجمة

هذه ترجمة إلى اللغة العربية لكتاب :

LA QUOTIDIENNE EN EGYPTE

AU TEMPS DES RAMSES

(X III -- X II Siecles

AVANT J. C.)

PAR

PIERRE MONTET

Traduction Par :

AZIZ MORCOS MANSOUR.

محتويات الكتاب

صفحة

١

المقدمة

الفصل الأول : المساكن ١٣

١ - المدن ١٢ ٢ - القصور ٢٤ ٣ - المنازل ٢٨
٤ - الأثاث ٣٥

الفصل الثاني : الزمن ٤١

١ - الفصول ٤١ (٢) - الأعياد والأجازات ٤٦
٢ - أيام السعد وأيام النحس ٤٨ ٤ - التوقيت ٥١
٥ - الليل ٥٥

الفصل الثالث : الأسرة ٦١

- الزواج ٦١ ٢ - الزوجة ٦٧ ٣ - الأولاد ٧٤ ٤ - الخدم ٧٢
والمبيد ٧٢ ٥ - الحيوانات الأليفة ٨٧

الفصل الرابع : الأعمال المنزلية ٩٢

١ - العناية بالنظافة ٩٢ ٢ - الري ٩٧ ٣ - الطعام ١٠٠
٤ - الطبخ ١١١ ٥ - المنجز ١١٥ ٦ - المشروبات ١١٧
٧ - الوجبات ١١٩ ٨ - السهر ١٢١ ٩ - الولائم ١٢٣
١٠ - الألعاب ١٣٣

الفصل الخامس : الحياة في الريف ١٣٩

- ١ - الفلاحون ١٣٩ ٢ - رى الحدائق ١٤٠ ٣ - جنى العنب ١٤٢ ٤ - الحرث والبذر ١٤٦ ٥ - الحصاد ١٥٦ ٦ - الكتان ١٦٢ ٧ - أعداء الزراعة ١٦٤ ٨ - تربية الماشية ١٣٥ ٩ - كان المستنقعات ١٨٠ ١٠ - الصيد في الصحراء ١٧٦

الفصل السادس : الحرف والفنون ٨١

- ١ - عمال المهاجر ١٨١ ٢ - عمال المناجم ١٨٩ ٣ - العمل في المصانع ١٩٦ ٤ - النقاشون ١٩٧ ٥ - الصياغ وتجار الحلي والجواهر ٢٠١ ٦ - صناعة الأخشاب ٢٠٦ ٧ - صناعة الجلود ٢١٠ ٨ - حالة الفنانين والصناع ٢١٠ ٩ - البناءون وذوو الحرف الصغيرة ٢١٧ ١٠ - أصحاب الأعمال والعمال ٢٢٩ ١١ - التجارة والنقود ٢٢٣

الفصل السابع : الأسفار ٢٢٩

- ١ - التنقلات داخل القطر ٢٢٩ ٢ - السفر في الصحراء ٢٣٦ ٣ - السفر إلى جبل ٢٤١ ٤ - السفر في البحر الأحمر ٢٤٨

الفصل الثامن : فرهون ٢٦١

- ١ - واجب الملوك الأسمى ٢٦١ ٢ - تزيين الملك ٢٦٩ ٣ - الملك في عمله ٢٧٢ ٤ - حق منح العفو ٢٧٦

- د - الهيئات الملكية ٢٧٧ ٦ - استقبال السفراء
 الأجناب ٢٨٣ ٧ - المباحج الملكية : الرياضة ٢٨٤
 (٨) حفلات الصيد الملكية ٢٨٩ ٩ - الملك في حياته
 الشخصية ٢٩١ ١٠ - دسائس الحريم ٢٩٥ ١١ - أفكار
 ملكية ٢٩٧

٣٠١ الفصل التاسع : الجيش والحرب

- ١ - مزايا ومتاعب مهنة العسكرية ٣٠١ ٢ - الخدمة
 الداخلية ٤٠٧ ٣ - الجيش في الحرب ٣١١ ٤ - تجميع
 الأسلحة وتوزيعها ٣١٠ ٥ - نظام المسير ٣١٧ ٦ - الموقعة
 ٣٢٠ ٧ - حرب - ا - صار ٣٢٢ ٨ - الحرب في بلاد النوبة
 ٣٣٦ ٩ - عودة النصر ٣٣٦

٣٣٩ الفصل العاشر : الكتبة والقضاة

- ١ - الإدارة ٣٣٩ ٢ - تعيين الموظفين وتدريبهم ٣٤١
 ٣ - الحكام الصالحون والظالمون ٣٤٦ ٤ - المحافظة على
 النظام ٣٤٩ ٥ - المحكمة ٣٦١ ٦ - دطاي الدول الأجنبية ٣٦٤

٣٧١ الفصل الحادي عشر : النشاط الداخلي داخل المعابد

- ١ - التقوى ٣٧١ ٢ - الكتبة ٣٧٦ ٣ - العبادة ٣٨٠
 ٤ - خروج المعبود ٣٨٧ (٥) - خروج المعبودين ٣٨٨
 (٦) - عيد أوبت الجبل ٣٩٤ (٧) - عيد الوادي ٣٩٨ ٨ -
 الأسرار الدينية ٣٩٩ ٩ - بيت الحياة ٤٠٤

(و)

الفصل الثاني عشر : الجنائزات ٢٠٧

- ١- الشيخوخة ٤٠٧ ٢- وزن الأعمال ٤١٠ ٣- إعداد
- المقبرة ٤٢٧ ٤- واجبات كاهن الروح ٤١٧ ٥- التحنيط
- ٤٣١ ٦- الدفن وتكوين موكب الجنائز ٤٣٤ ٧- عبور
- النيل ٤٣٥ ٨- الصعود إلى المقبرة ٤٣٧ ٩- وطأاً أيتها
- المومياء ٤٣٨ ١٠- الوجبة الجنائزية ٤٤١ ١١- العلاقة
- بين الأحياء والأموات ٤٤٣

مراجع ٢٥٠

- مراجع عامة ٤٥٣ تلخيصات رئيسية ٤٥٤ بيانات
- المقدمة ٤٥٨ الفصل الأول ٤٥٩ الفصل الثاني ٤٦٢
- الفصل الثالث ٤٦٤ الفصل الرابع ٤٦٩ الفصل الخامس
- ٤٧٥ الفصل السادس ٤٨١ الفصل السابع ٤٨٦
- الفصل الثامن ٤٩٠ الفصل التاسع ٤٩٤ الفصل
- العاشر ٤٩٧ الفصل الحادي عشر ٥٠٠ الفصل
- الثاني عشر ٥٠٥

مقدمة المترجم

الأستاذ بيير مونتيه مؤلف هذا الكتاب غنى عن التعريف ، فهو بين علماء الآثار المصرية في مقدمة الصف وعيدهم دون منازع . ألف الكثير من الكتب في علوم الآثار المصرية تعتبر مراجع هامة لا للقارىء العادى الذى يصبو إلى المعرفة والاطلاع فحسب ولكن للعالم المتخصص الراغب فى الاستزادة من العلم والتعمق فيه ، وكشف — منذ ربع قرن مضى — مقبرة الملك يسوسنس شرق الدلتا وهو عمل بلى فى الأهمية كشف مقبرة الملك توت عنخ آمون .

وفى كتابه هذا قدم لنا المؤلف صوراً واضحة عن دقائق الحياة اليومية فى فترة من تاريخ مصر عندما تولى عرشها ملوك الأسرتين التاسعة عشرة والعشرين الذين أطلقوا على أنفسهم اسم « رمسيس » خلال القرنين الثالث عشر والثانى عشر قبل الميلاد .

وقد أبدع المؤلف فى إيراد الحقائق وتصويرها بقلمه فى صدق وأمانة وفى نزاهة العالم الباحث المدقق مستنداً إلى ما دون فى أوراق البردى أو سجل على جدران المعابد والآثار أو ما كشف عنه العلم والحفريات الحديثة .

وعندما اعترضنى صعوبة اختلاف النطق بالأسماء المصرية القديمة أضفت كتابتها بالحروف اللاتينية لضبط النطق بها ، وكذلك مع أسماء المؤلفين الأجانب .

(ح)

وقد التزمت النص الفرنسي للكتاب في الترجمة ، ولكن لتوضيح بعض النقاط أضفت بعض التعليقات في الهامش .

ولا يفوتني أن أتقدم بمجزيل الشكر لكل من كان له فضل المعاونة .
وللاستاذ صبرى سبيع الذى عهدت إليه بمراجعة الترجمة وقام بها مشكوراً .

وأخيراً أسأل الله التوفيق في خدمة العلم

عزير مرقس منصور

المعادي في ١٤ يونيو ١٩٦٥

مفتش بمنطقة جنوب القاهرة التعليمية

مقدمة

كان اهتمام قدماء المصريين بالآلهة والموتى يفوق إلى حد بعيد ، اهتمامهم بأنفسهم . فكانوا إذا شرعوا في تشييد قصر للملايين السنين أو أرادوا بناء مسكن أبدى في غرب طيبة جلبوا لها الأحجار والمعادن والأخشاب الجيدة ، مهما بعدت أماكنها أو ارتفعت أثمانها ، كيلا تضارعا مبان أخرى في جمالها ومتانتها .

ومع هذا فإن منازلهم التي يعيشون فيها كانت تبني باللبن ، وكانوا يقلدون بالرسم الأحجار والمعادن . ولذلك بقيت المعابد والمقابر مددا أطول من المدن حتى أن مجموعات المتاحف تضم من التوابيت واللوحات وتمائيل الملوك والآلهة ، أكثر من الأدوات المخصصة لسد حاجات الأحياء ، ونصوص المراسم الدينية وكتب الموتى فهي بدورها تفوق المذكرات والقصص من حيث الكم .

هل نستطيع في هذه الظروف أن نحاول وصف الحياة اليومية لرعايا فرعون دون أن نضطر إلى الاكتفاء بالملاحظات السطحية^(١) والأحكام الطائشة التي درنها الرحالة الأغريق والرومان ؟ يميل المحدثون إلى الاعتقاد بأن المصريين القدماء كانوا يولدون في لفائف جنائزية ، فقد كتب جاستون ماسپرو ، عندما ترجم الأغاني الغرامية الأولى ، أنه لا يمكن تصور أحد المصريين القدماء يقوم بدور عاشق ، جاثيا أمام محبوبته . والواقع أن سعادة الحياة على ضفاف النيل جعلت قلوب المصريين تفيض اعترافا بجمال الآلهة ،

(م ١ - الحياة في مصر)

صادة كل المخلوقات . وقد دفعهم هذا السبب نفسه إلى الإيمان في الاستمتاع
بأطياب الحياة ، حتى وهم في القبور .

وقد اعتقدوا أنهم حققوا هذه الغاية عندما غطوا جدران مقابرهم
بالنقوش الغائرة والرسوم الملونة التي تمثل الشخص الرفاد داخل التابوت
يعيش في أرضه تصحبه زوجته وأولاده وأقاربه وخدمه وليف من
الصناع والفلاحين . إنه يحجب أرضه مسائرا على قدميه أو محمولا على محفة
أو جالسا في قارب ، ويمكنه أن يكتفى بالاستمتاع بالمنظر وهو جالس
في مقعد مريح بينما يتحرك كل شيء أمام عينيه . وقد يساهم في العمل فيركب
زورقا ويصيد بالعصى العصفوري في أعشاشها بين الأغصان الملتفة لنبات
البردى أو يصيد بالحرايب الأسماك الضخمة التي تبلغ حجم الإنسان أو يترقب
تلبط البرى ويشير للصائدين ويضرب بسهامه الماعز البرى والغزلان .

ويحرص جميع خلصائه على حضور زينته فيقوم بعضهم بتقليم أظافر يديه
ووجليه ، بينما يقدم له أحد النظار تقريراً عن سير الأعمال ويلقى بعض
الحراس تحت أقدامه في كثير من العنف بعض الخدم غير الأمناء .
والموسيقيون والراقصات على أهبة الاستعداد دائما لتشريف أذنيه وإبهاج
عينيه . وفي ساعات القبط خلال النهار يشارك زوجته ألعابا لا تختلف كثيرا
عن لعبتي الشطرنج والسبيجة المعروفتين لدينا .

ولكن يشبع الفنان رغبات عميله كان عليه ألا ينسى أية حرفة من
الحرف ، فالسكان الذين يعيشون على شواطئ البحيرات كانوا يمارسون
صيد الطيور والأسماك ويتخذون من نبات البردى المادة الأساسية للصناعة
الأكواخ وحدها ولكن لعمل القوارب الخفيفة التي تصلح لمطاردة التماسيح
وفرس النهر خلال الأعشاب المائية ، وأحيانا للوصول إلى الغابات السكيفة

حيث تتجمع الطيور أو لاكتشاف مواطن تجمع الأسماك . وكان الصيادون قبل قيامهم برحلة الصيد يجربون قواربهم عما كان يتبع لهم اختبار قوتهم ومهارتهم وكانوا يضعون تيجانا من الأزهار فوق رؤوسهم ويتسلحون بمضى طويلة ويتدافعون في الماء ويتبادلون الشتائم . وعند عودتهم متصلحين إلى القرية يتولون عمل شبا كههم وآلاتهم وإصلاحها ويقومون بحفظ الأسماك وتربية الدواجن . وكان الفلاح يحرق الأرض ويبذر الحب ويقتلع الكتان ثم يحصد القمح ويربطه حزما ثم تحمله الخير إلى القرية وهناك يفرش لتطاه الثيران والخير وحتى الأغنام إذا لزم الأمر ، ليفصل الحب عن القش . وبينما يقوم البعض بجمع القش يكيل الآخرون الحبوب ويحملونها إلى المخازن . وعقب الانتهاء من هذه الأعمال يكون العنب قد فضع وحان الوقت لقطفه وعصره وتعبثته في زلع محكمة الإغلاق . وعلى مدار السنة يقوم الطحانون بطحن الغلال وتسلم الدقيق إلى صانعي الجمعة والخبازين . أما المواد التي يستعملها الصانع عادة فهي الغرين والحجر والخشب والمعادن ، ونظراً لندرة الأخشاب فإن الأدوات التي يحتاجها الزراع والكرامون وصانعو الخمر والخبازون والطهاة ، كانت تصنع من الفخار أما الأواني الجميلة فكانت من الأحجار وخاصة الجرانيت والشيست والمرمر والحجر السماقي . وكانت الكئوس الصغيرة تصنع من البلور .

وكان المصريون يحبون الحلى فكانت مصانع الصاغة تخرج منها العقود والأساور والخواتم والتيجان وقلائد الصفا والتأتم . وكانت هذه الأشياء الصغيرة الجميلة توضع في خزائن ولكن فتيات الدار كن يخرجنها من مخابثها لكي يتزين بها لحظات . أما النحاتون فكانوا يقومون بنحت صورة لرب الدار جالسا أو واقفا وحده أو محاطا بأفراد عائلته ، سواء كانت هذه الصورة

منحوتة في المرمر أو الجرانيت أو خشب الأبنوس أو خشب شجر الطلع . كان التجارون يصنعون الصوانات والحزائن والأسرة والعصى والمقاعد ذات المتكثات .

وأخيرًا كان التجارون يقطعون الأشجار ويشذبونها ويبنون المراكب والصنادل والسفن التي كانت تستخدم كوسيلة للنقل بين أرجاء البلاد وتركيز المحاصيل الزراعية أو توصيل الحجاج إلى أيدرس (العراية المدفونة) وإلى مدينتي ييه أو دب . وكما قال الرجل الذي نجا من الغرق بعد أن ألقى به في جزيرة الثعبان الطيب بأنه لا يوجد شيء إلا وهو موجود في هذه الجزيرة . ولا ينقص الصورة إلا كل ما يشير إلى النشاط الخاص بصاحب المقبرة أثناء حياته . وتكرر المناظر نفسها التي تسجل أعمال صاحب المقبرة سواء كان من رجال الجيش أو من رجال البلاط وسواء كان حلاقًا أو طبيبًا أو مهندسًا أو وزيرًا . والنصوص المدونة الهيروغليفية التي تحيط برسوم الأشخاص أو تشغل فراغ المباني تتناول وصف المناظر بنفس العبارات والنعوت ولا غرو فقد كان مصدر النصوص والصور واحدًا .

وقد كانت هناك أنماط من الرسوم في متناول أيدي الفنانين المكلفين بزخرفة المقابر . وقد كان كل فنان يقتبس ما يروق له ويضعه كيفما يريد .

ويظهر أنه بديء بتكوين هذه الأنماط وتنسيقها من أول عهد الأسرة الرابعة ثم ازداد خلال الدولة القديمة بفضل الفنانين الذين كان لا ينقصهم الخيال ولا تفوتهم الدعاية ومثال ذلك صورة عابر سبيل يتنزه فرصة غياب الراعي فيحلب بقرته ، أو صورة فرد خفيف الحركة يقبض على خادم امتد يده إلى سلمة ملوأة بالتين أو صورة أنثى فرس البحر وهي على وشك الولادة ، بينما يتربص تمساح ، المولود الصغير ليلتهمه دفعة واحدة أو صورة

طفل صغير يقدم لآليه قطعة من الحبل في طول اليد ليربط بها زورقا . ويمكن أن نضيف الكثير من الأمثلة إلى ما سبق^(٢) .

ولم يغب عن بال الرسامين أن هدفهم الأساسي هو تدوين الأعمال اليومية في المزارع الكبرى ، كذلك لم يهمل الفنانون مطلقا معين هذه الصورة المعبرة فزينوا بها جدران مقابر الدولة الوسطى في بني حسن ومير والبرشا وطيه وأسوان . وقد استمر استعمالها لعدة قرون عندما نقل الفراعنة مقر حكمهم إلى مدينة طيه . وقد لجأ الفنانون في أول عهد البطالة إلى استعمال هذه النماذج في زخرفة الأثر الرائع الذي بنى على هيئة معبد ودفن فيه بت أوزيريس أحد نبلاء المدينة العتيقة التي كانت معبوداتها الآلهة الثمانية والذي كان رئيسا لكهنة هرموبوليس* وكاهنا للمعبود تحوت والمعبودات الأخرى .

على أننا نعيد عن الصواب إذا اعتقدنا أن هذه المقابر ذات الرسوم المتكررة قد بلغت مدى الاتقان والكمال الذي وصلت إليه في عهد الأهرام الكبرى . ففي بني حسن احتلت الألعاب والمصارعات والمعارك والصحراء مكانا أكبر من ذي قبل . كذلك نرى مناظر جنود المقاطعات وهي تتدرب وتناصر القلاع . لقد خطا الفن خطواته الأولى . فقد أضيف الآن إلى مجموعة المناظر القديمة تمثيل الأحداث التي كان لها أثر في مهنة الشخص : فهؤلاء بدو جاءوا من بلاد العرب وتقدموا إلى حاكم مقاطعة «الماعز البرى» ليقاضوا مسجوعا أخضر محبوب ، وليثبتوا حسن نيتهم أهدوا له غزالا ووعلا اصطادوهما في الصحراء . ونجد هذه الرسوم في مقبرة خنوم حتب

بين المناظر التي تمثل الصيد ومرور قطعان الماشية^(٢) . أما محافظ مقاطعة الأرنب ، فإنه لم يستقبل أحدا قادما من بعيد . ولكنه أوصى النحاتين الذين كانت مقار أعمالهم قريبة من محاجر الرخام في حاتوب ، وهو غير بعيد عن مقر إقامته ، أن يصنعوا له تماثلا طوله ثلاث عشرة ذراعا . ولما انتهوا من عمل التمثال وأخرجوه من المشغل وضعوه فوق زحافة أخذ يجرها مئات من الرجال من مختلف الأعمار انتظموا في أربعة صفوف وساروا ببطء إلى المعبد في طريق ضيق ممتلئ بالأحجار والحصى . وكان المتفرجون المتراصون في صفين على جانبي الطريق يتصايحون وبصفقون إعجابا كلما تقدم إلى الأمام^(٣) . والواقع أننا نشاهد في مقابر الدولة القديمة رسوما تمثل نقل التماثيل بحجمها الطبيعي وهي تنقل إلى المقابر . ولم يكن هناك ضرورة لتجديد كل أشداء المقاطعة ، إذ كانت هذه إحدى المراسيم الجنائزية العادية . ولكن حقوق حطب قد آثر أن يثير دهشة زائري مقبرته ويبين مدى ثرائه وحظوته في قصر الملك بعمل يعد شاذا للغاية .

وفي عهد الإمبراطورية الحديثة كانت الموضوعات التي تزين مقابر الخاصة تتكون من ثلاث مجموعات كبيرة : فنجد أولا الرسوم المأخوذة من المجموعة القديمة بعد أن نسقت طبقا المذوق الحديث الذي تغير تغيرا ملحوظا خلال ألف عام . ثم تأتي المجموعة الثانية وتمثل المناظر التاريخية مثل رخ مارع الوزير ومن خبر رع النبي الأول لآمون* ومثل هوى الابن الملكي** لكوش ، وقد كان لهم دور في الأحداث الكبيرة وقد رسموا وهم

* معناها رئيس كهنة آمون .

** الابن الملكي تعبير يعني الحاكم .

يقدمون إلى جلالة الملك شخصيات أجنبية كبيرة من كريت وسوريا وبلاد النوبة أتوا ليكونوا في «حى فرعون» أو يلتبسوا منه نسمة الحياة . وقد وردت الرسوم تمثلهم وقد جبوا الضرائب وأقاموا العدالة وراقبوا الأعمال ودربوا المجندين حديثا . وفيما مضى كان تاريخ حياة صاحب المقبرة يقص علينا بحفره على جدران المقبرة أما الآن فقد أصبحت الأحداث ترسم بالصور . وأخيرا فإن التعبد للآلهة الذى لم يكن حتى ذلك الوقت موضوعا للرسوم أصبح مصدر وحى لكثير من اللوحات . وخصص لرسوم الحفلات الجنائزية مساحة أوسع من ذى قبل ، إذ أصبحنا نرى كل الخطوات من صنع أثاث جنازى يمكن أن يملأ مخزنا كبيرا وإعداده ووكب الجنازة وعبور نهر النيل ومواراة الميت القبر وعويل الندابات ثم الوداع الأخير .

إن المعابد ليست سوى كتاب كبير من الحجر استخدم الحفار كل أسطحه أما البواكى والأعمدة وقواعدها وجوانب الأبواب فقد حليت برسوم الأشخاص والكتابات الهيروغليفية وكذلك الجدران الداخلية والخارجية . أما فى المعابد الأكثر كمالا والتي ترجع إلى العهد المتأخر فقد كانت رسومها ونقوشها مقصورة على الطقوس الدينية وحدها . وفى العمود الأقدم زمنا فإن كان المعبد بيتا للآلهة فهو أيضا أثر مشيد لتجديد الملك . وكان فرعون ابن الإله ولذا فقد كان كل ما يفعله يتحقق بإذن الإله وغالبا يتم بمعاونته ، وعلى هذا فالإشادة بالأعمال العظيمة لعهد من العمود تعد وسيلة لتجديد الآلهة . ولذلك نرى المناظر المقتبسة من حياة الملك قد اختلطت بالمناظر الدينية . وقد اهتموا خاصة بالتذكير بكل ما قام به الملك فى سبيل تجميل الهيكل وإرضاء الآلهة مثل الحملة إلى بلاد البخور ووقائع حروب

سوريا وليبيا وبلاد النوبة والعودة منها محملين بالغنائم يتقدمهم الأسرى الذين يصبحون عبيدا للمعبد . وتكمل هذه المجموعة بتلك الرسوم التي تمثل رحلات الصيد الملكية وخروج الإله* وسط الجمهور المبهج المبهور ، وتتضاعف أهمية الرسوم بتلك النصوص التي تشرحها وتسجل الأحاديث والأوامر والأغاني .

لذلك فحالة وصف الحياة اليومية في مصر القديمة ليست بالمهمة الشاقة وإن كان قد كتب علينا أن نجهل بعض مظاهرها . إن الآثار لم تحفظ لنا غصب تلك النقوش والرسوم الملونة والتماثيل واللوحات والتواييت والأدوات التي تستعمل في الطقوس الدينية مما يعد أكثر من الكفاية — بل قدمت لنا أيضا أشياء متنوعة وعما لا ريب فيه أننا نفضل على الآثار الجنائزى لتوت عنخ آمون أو إيسوسنيس^(٥) أثاث قصر من قصور رمسيس والواقع أن حاجات الميت هي نفس حاجات الأحياء ، وفضلا عن هذا ، فكثيرا ما كانت بعض الأيادي التقية تضع في القبر أدوات كان الميت قد استعملها أو ارتداها أو تمثل ذكريات عائلية .

ومن البديهي أنه ينبغي لنا أن نراعى منتهى الحذر حين ننقل هذه الوقائع التي مضى عليها أكثر من ثلاثة آلاف سنة فالأشياء ربما تكون قد تغيرت ببطء مصر الفرعونية عنها في أية حضارة أخرى ، ذلك أن النيل الذي يبعث الحياة على شاطئيه ، سيد جبار لم تتغير أوامره . وبالرغم من ذلك فإن الأخلاق والنظم والفنون والعقائد لم تبق دائما ثابتة ومع أن هذه الحقيقة لم ينكرها أحد من علماء الآثار المصريين إلا أنها ظلت مهمة علميا .

* يعنى الملك .

وفي بعض المؤلفات الحديثة وردت نصوص من جميع العصور مختلطة غير مرتبة . ويحاول العلماء بعض الأحيان تفسير ماورد من غموض في نص قديم فيستعينون بما كتبه ديودور أو بولوتارك ، إن لم يكن جامبليك ولا يزالون يجرون على تسمية أشهر السنة بأسماء لم يستعملها المصريون إلا في عصور متأخرة . وبذلك يسود الرأي القائل بأن مصر بقيت كما هي دون أدنى تغيير منذ نشأتها التاريخية السحيقة .

ولتفادى الوقوع في مثل هذا الخطأ كان علينا أن نختار عصراً من العصور ، بعد أن تجنبنا العهدين الوسيطيين ، عهد الإنهيار الطويل الذي تلى حرب الأدناس وكذا النهضة الصاوية شغلت مصر تماماً بتحنيط الحيوانات المقدسة ونسخ كتب السحر ، كما تجنبنا عصر البطالمة الذي لا يدخل في اختصاص علماء الآثار المصرية . .

واهتم المؤلف بعصر الأهرامات الكبرى والعصر الذي بنى فيه قصر اللايرنث* وبذلك العهد المجيد الذي حكم فيه الملوك الذين كانوا يحملون أسماء تحتمس وأمنحتب ، وبالفرة التي سادت فيها عبادة قرص الشمس ذي الأشعة التي تنتهى بأيدى** ، وعهد الأسرتين التاسعة عشرة والعشرين الذي يعد امتداداً طبيعياً لتلك الفترة من الزمن .

ولسلك من هذه العصور ما تتميز به : فعهد الدولة القديمة هو عصر شباب عصر ، إذ ظهرت فيه تقريباً كل ما خلقت مصر من حضارة عظيمة وأصيلة . غير أن اختيارنا قد وقع أخيراً على العصر الذي عاش فيه الملوك سبتى ورمسيس باعتباره أفضل الأزمنة الملائمة لهدفنا . وهذه الفترة قصيرة المدى ،

* في اليوم

** عبادة آتن

بدأت حوالى عام ١٣٢٠ قبل الميلاد بتجديد فى النسل — ويقصد المصريون بهذا أن أسرة عديدة الأفراد كثيرة الذرية قد وضعت حداً للمنازعات على تولى العرش، كما أدخلت الكثير من التعديلات، فقبل ذلك كان ملوك مصر سادة الأقليمين، إما من منف أو طيبة أو أن شأنهم قد علا فى أقاليم مصر الوسطى بين قفط والفيوم. ولأول مرة اعتلى عرش هورس رجال من الدلتا قام أجدادهم منذ أكثر من أربع مائة عام بخدمة معبود سىء السمعة لأنه قتل أخاه الأواهو الإله ست. وانتهى هذا العهد حوالى عام ١١٠٠ (قبل الميلاد) بتولى أسرة جديدة بعد أن تخلصت مصر نهائياً من نسل رمسيس ومن معبوده على السواء^(٦). ويتميز هذا العصر الذى استمر قرنين بأن تولى الحكم خلاله ثلاثة ملوك عظماء هم: سبتى الأول ورمسيس الثانى ورمسيس الثالث. وتركت مصر وراءها تاريخاً حافلاً بالأحداث. وبعد أن اجتازت أزمة عصية، أتاح لها حكامها الجدد السلام الدينى الذى ظل زمناً مستقراً ولم يضطرب إلا حوالى عام ١١٠٠، وقد أحرزت جيوش مصر انتصارات رائعة كما تدخلت مصر فى شئون الشعوب الأخرى أكثر من تدخلها فى أية فترة أخرى. وقد عاش كثير من المصريين خارج بلادهم، ولكن الأجانب الذين عاشوا فى مصر كانوا أكثر منهم عدداً. وكان الرعامسة من أعظم الملوك تشييداً، فالحسكوس قد دمروا كل ما اعترض طريقهم ولم يستطع ملوك طيبة أن يشموا ترميم ما تهدم ولكنهم شيدوا الكثير من المباني فى طيبة. وبعد ثورة أخناتون الدينية كان من الضرورى إعادة تجديد ما قاموا به، مثل بهو الأعمدة فى الكرنك وصرح معبد الأقصر ومعبد الرامسيوم ومدينة حابو وهذه مبان أخرى كبيرة كانت أو صغيرة فى.

المدينة ذات المائة باب . وكان لرئيس الأول ومن خلفه من ملوك
النصيب الأوفر في إقامة هذه المباني ، دون أن يهتموا ركناً من أركان
أمبراطوريتهم الشاسعة الممتدة من بلاد النوبة إلى برميسيس وبيتوم ، فكم
من مدن شيدوها ومبان ومنشآت وسعوا مبانيها أو رعموها أو أسسوها 1

ونمدنا مباني تلك الفترة ومقابر الملوك والملكات وخاصة مباني
معاصريهم بمستندات وفيرة يكملها عدد كبير من أوراق البردي ، يرجع
تاريخها إلى القرنين الثالث عشر والثاني عشر ، متضمنة القصص والمجاذلات
ومجموعات الرسائل وقوائم بأنواع المهن وعمالها وعقود ومحاضر التحقيق .
وأهم من هذه كلها ، الوصية السياسية التي خلفها لنا رئيس الثالث .

هذه هي المراجع التي وضعها بصفة دائمة نصب عيني أثناء تدوين هذا
الكتاب ، وهذا لا يعني أنني لم انتفع بالرجوع إلى مصادر أقدم أو أحدث
عهداً من هذه المراجع . وإذا عارضت الآراء التي تحفل بها المراجع وتعد
تاريخ مصر فترة متماسكة عمرها ثلاثة آلاف سنة وتطبق على جميع مظاهر
الحضارة الفرعونية ما لا يصح حدوثه إلا خلال فترة معينة ، فلم نخفل
ملاحظة أن الكثير من العادات والنظم والعقائد قد لقيت في مصر حياة
شديدة القسوة . وحينما يسلم المؤلف الكلاسيكي بصحة نص محفور
على جدران معبد في طيبة فمن حقنا على الأقل في مثل هذا الأمر ، أن
ننتقد أن المصريين في عهد الرعامسة كانوا يتصرفون تماماً مثل أجدادهم
وخلفائهم . وقد اغترفت من كل منهل ما استطعت إلى ذلك سبيلاً دون أن
أناثر بتلك الألوان الزائفة لأقدم صورة معبرة للحياة اليومية في مصر في
عهد الرعامسة .

الفصل الأول

المساكن

١ - المر

تحولت مدن الفراعنة إلى تلال من الأتربة تختلط بها بقايا من الفخار وأطلال ضئيلة ، ولا عجب في ذلك إذ كانت المدن والقصور تشيد بالطوب اللبن . ومع كل ، فقد كان بعضها أحسن حالا مما هي عليه الآن وقت أن كان العلماء ، الذين أحضرهم بوناپرت معه ، يقومون بحصرها وقد هدم الكثير منها في الزمن الحاضر بالإضافة إلى ما تهدم منها في الماضي بوساطة الأهالي الذين لم يعودوا يقنعون بأخذ السبلخ من الخرائب وانتزاع الأحجار الكبيرة منها بل اعتادوا أيضاً تلك العادة المؤسفة في البحث عن الآثار . ولا يوجد غير مدينتين يمكن أن نتحدث عنهما بشيء من الاطمئنان فهما مدينتان عمرهما قصير ، يرجع الفضل في إنشائهما إلى أوامر صادرة من السلطة الملكية ، وقد هجرنا أيضاً بغتة بعد حياة قصيرة ، أقدمهما هي مدينة حتب سنوسرت التي أنشأها في الفيوم الملك سنوسرت الثاني وبقيت عامرة لمدة تقل عن قرن من الزمن ، والمدينة الثانية هي أختيانون وقد أخذها أمنحتب الرابع عاصمة للملكة بعد نزاع مع كهنة آمون . وقد بقي خلفاؤه مقيمين بها حتى اليوم الذي نقل فيه توت عنخ آمون بلاطه إلى طيبة وقد يكون من المفيد أن نشير إليها اختصاراً قبل أن نتناول بالوصف مدن العاصمة . كانت المدينة التي أنشأها سنوسرت محاطة بسور طوله أربعائة متر وعرضه ثلثائة وخمسون متراً وكانت تكني لإبواء عدد كبير من الأهالي في مساحة ضيقة (١).

وكان المعبد مشيداً خارج الأسوار ، وأقيم جدار سميك يقسم المدينة إلى منطقتين خصصت إحداهما للأغنياء والأخرى للفقراء : ويشق المنطقة الأخيرة طريق عرضه تسعة أمتار يتقاطع بزوايا قائمة مع شوارع أقل منه اتساعاً . كانت المنازل متقاربة وظهورها متلاصقة بحيث تطل واجهاتها على الشارع ، أما الغرف والدهاليز فكانت ضيقة إلى حد كبير . أما الحى الذى تعيش فيه طبقة الأغنياء فكانت تخرقه شوارع فضيحة تؤدى إلى القصر وإلى مساكن كبار الموظفين . وكانت مساحتها تعادل نحو خمسين مرة مساحة المساكن المخصصة للطبقة الشعبية . وكانت المساكن والشوارع تشغل كل الميدان . وكان المصريون يحبون دائماً الحداثق . ويروى لنا حور خوف* - هذا المكتشف الذى أحضر من النوبة** قرماً راقصاً هدية لمولاه فرعون الصغير - أنه بنى منزلاً وحفر حوضاً وزرع أشجاراً . . . وقد سجلت سيدة عاشت فى عهد سنوسرت ، على لوحة حجرية ، أنها أحبت الأشجار كثيراً وكذلك غرس رمسيس الثالث الأشجار فى أمكنة متفرقة . ولكن لم يفرس منها شيئاً فى هذه المدينة ، سواء أكانت أشجاراً للزينة أم للزينة .

أما عاصمة أخناتون فكانت مدينة مترفة^(٢) تقع بين النيل والجبل فى مكان نصف دائرى . ويحترق المدينة من أقصاها إلى أدناها طريق يوازي النيل ويتقاطع مع الشوارع الأخرى التى تؤدى إلى شاطئ النهر وإلى جبانة المدينة وحاجر الرخام .

* هكذا ورد فى الأصل وصحة الاسم هو خوف - حر .

** ربما يقصد المؤلف المنطقة الاستوائية جنوب السودان حيث يعيش الأقزام .

أما قصر فرعون والمعبد والمباني الحكومية والمحلات التجارية فتشغل الحى الرئيسى بالمدينة . وتقع فى الشوارع منازل ضيقة ، تجاور منازل عظيمة وزعها رجال الآثار على أعضاء الأسرة الملكية .

وقد خصصت مساحات فسيحة لزراعة الأشجار والحدائق ، سواء داخل المنازل أو فى أراضى المدينة . أما عمال الجبانة والمحاجر فقد عزلت مساكنهم داخل قرية أحيطت بأسوار . وقد هجرت هذه المدينة على حين غرة حتى أنه لم يكن مستطاعا تعديل ما فعله سكانها الأصليون . وبعبس ذلك كانت المدن التى عمرت زمناً طويلا - وهى الأكثر عدداً - فقد سادت الفوضى إلى أبعد الحدود . فمثلا « من نفر » - ثابت هو الجمال ، جمال الملك أو جمال المعبود - وهى التى سماها الإغريق ممفيس ، فكانت تسمى أيضاً « غنخ تاوى » - حياة الأرضين « وحاح كاتاح » - قصر روح المعبود « تاح « رسخات » - « شجرة الجيز » ، وكل اسم من هذه الأسماء يصلح أن يكون مستعملا لاسم أى من هذه المدينة أما فى الأصل فكان يراد بها إما القصر الملكى وملحقاته وإما معبد « تاح » ، معبود المدينة وإما معبد حاتحور المعروف فى منف باسم « سيدة شجرة الجيز » ، وكان الحال كذلك أيضاً فى طيبة ، المدينة ذات المائة باب ، كما وصفها هوميروس مكان يطلق عليها اسم آيات مثل الإقليم الرابع فى الصعيد الذى كانت تتبعه ، كما كان يطلق عليها اسم « أويت » فى عهد الامبراطورية الحديثة . وكان البعض يترجم هذا الاسم بمعنى « حريم » والبعض الآخر « معبد صغير » أو بمعنى « قصر » ، والسكان الذى يشغله الآن الموقع الأثرى الذى يطلق عليه قرية السكرانك كان يعرف باسم أويت آمون (٢) فى عهد أمنحتب الثالث وكان طريق الكباش يربطه بمعبد الأقصر المسمى أويت الأوسط . ويحيط بكل من المعبدين « أويت آمون »

« ولطوب الأوسط » سور من الطوب اللبن به أبواب كثيرة بنيت قوائمها بالحجر الجيري وأبوابها من خشب الصنوبر اللبناني المصنف بالبرونز والمطعم بالذهب .

وتغلق هذه الأبواب في وقت الخطر . وقد ذكر في عنخي أن هذه الأبواب كانت تغلق وهو يقترب من المدينة ولا تشير النصوص التي بين أيدينا إلى إغلاق هذه الأبواب في أى وقت على مدار السنة زمن السلم ونحن نميل إلى الاعتقاد بأن حرية المرور كانت مكفولة سواء في النهار أو في الليل .

وفي داخل المدينة بين السور وبين المعبد بنيت المساكن والدكاكين والمخازن التي اختفت الآن تماما فوق مساحة شاسعة . وكذلك خططت الحدائق والبيسات التي كانت تسحر البصر . وكانت قطعان أغنام آمون ترعى في الزراب وقد رسمت إحدى هذه الحدائق على جدران بهو حوليات تحتمس الثالث حيث سجل عليها أنواع الأشجار والنباتات التي استوردها من سوريا^(١) وبين السورين على جانبي طريق الكباش وعلى امتداد شاطئ النهر شيدت القصور والمساكن الحكومية . وكانت رغبة كل ملك في أن يكون له قصره وكادت الملكات والأمراء وكبار الموظفين ألا يكونوا أقل رغبة في امتلاك مثل هذه القصور ولما كانت هذه المدينة قد ظلت تنمو طوال عهد ثلاث أسر ملكية متوالية فرما كانت منازل الطبقة الفقيرة والطبقة المتوسطة تبنى بين هذه القصور الفخمة بدلا من أن تبنى في منطقة منفصلة كما حدث في عهد الملك « حتب سنوسرت » .

وفي مواجهة الأقصر والكرنك على الشاطئ الغربي للنيل نشأت مدينة ثانية هي جاميه Tjamé والأجدر وصفها بأنها مجموعة مباني ضخمة تراكمت

حولها منازل ودكاكين، وكان يحيط بهذه المباني جدار من الطوب اللبن بلغ طوله أربعائة متر أو أكثر (٥) وعرضه ثلاثائة متر، ولا يقل طول الجدار الذى بناه أمنتب الثالث عن ٥٠٠ متر وبلغ سمك أساس هذه المباني العظيمة نحو ١٥ متراً وارتفاعه نحو ٢٠ متراً أو أكثر. وكان يحفى ما بداخله من مبان تماماً دون أن يظهر منها غير الطرف الهرمى للسلاسل أو أعلى الأبراج أو التيجان التى تعلو رؤس التماثيل الضخمة. وقد قاست غالية هذه المدن مقاساة شديدة من الإنسان ومن الزمن على السواء، فتمتالاً ممنون موجودان الآن وسط حقول القمح ولم يقاما هنا ليظلا فى مثل هذه العزلة الفريدة، ولكنهما كانا يزنان مدخل معبد عظيم كانت تحوطه مبان من الطين يسكنها الكثيرون من الأهالى وتوجد بها كميات وافرة من البضائع. وقد قاوم هذان التمثالان تقلبات الزمن، أما ما عداهما فقد أصبح دمناء. وقد لقي سواهما من التماثيل الضخمة فى غير هذا المكان نفس المصير. وهذه البقايا الأثرية التى قد تكشف عنها أعمال سريعة من الحفائر الأثرية سرعان ما تختفى تحت ثرى الاراضى الزراعية.

أما معبد رمسيس الثالث فى مدينة حابو، ومعبد الرمسيوم فى الشمال، وعلى امتداد شمال معبد سيتى الأول ثم معبد الملكة حتشبسوت المدرج - الدير البحرى - فهى لاتزال حتى الآن، مبان أثرية رائعة. ويمكننا أن نلم بالحالة التى كانت تبدو بها هذه المدن المسورة، عند ما كانت حديثة البناء بمقارنتها بمدينة حابو (٦). فبعد أن يرسو القارب على سفح سلم مزدوج، يجتاز الزائر جداراً غير مرتفع بين رواقين للحراس وهذا السور مزود بتحصينات، ويفصل طريق دائرى بين هذا السور وبين السور الكبير المبنى باللبن. ويحترق هذا السور باب مدرع يماثل المجدل السورى وهو عبارة عن برجين متماثلين تفصل بينهما مسافة قدرها ستة أمتار يحوطها مبنى به فتحة تتسع لمروء عربية. أما النقوش الغائرة التى تغطي الجدران فهى تتغنى

بمضى سلطان فرعون . كما رسم أعداء مصر الآلهاء من ليبيين وعرب وزنوج
ونوبيين وهم يحملون الجزية فوق رموسهم ويشعر الإنسان بشيء من الرهبة
وهو يسير بين هذه الجدران .

أما في القاعات العليا فكانت موضوعات الرسم أشد بهجة ، فقد رسم
الفنان رمسيس وهو يداعب ذفن غادة مصرية ظريفة بينما يقوم ندماؤه على
خدمته ومع ذلك فلم يكن هذا البناء إلا ملاذاً في حالة الاضطرابات فالقصر
والحریم كانا يوجدان على مسافة أبعد من ذلك إذ كانا يقعان بجوار المعبد ،
ولم يكن يقم هناك عادة غير الحراس .

وبعد اختراق البوابة نجد فناء متسعاً ينتهي بجوار سور ثالث يوجد
بداخله المعبد وقاعات الحریم والقصر والأفنية والمباني ، كما توجد مساكن
صغيرة شديدة الالتصاق تماماً على أحد جوانب السور بينما يحيط بحر رئيسي
بالجوانب الأخرى لهذا السور الثالث . وكان كهنة المعبد وعدد وفير من
الأهالي هم السكان الدائمون لهذه المدينة الصغيرة ، حيث كان يقيم فرعون
عند ما يحضر مع نسائه وخدمته العديدين إلى الشاطئ الغربي . وعلى هذا النحو
كان قصر رمسيس حاكماً أون في أملاك آمون وكذلك الرمسوم . وهكذا كان
الحال في العشرين أو الثلاثين مدينة ملكية في الضفة الغربية من النيل .

وبالرغم من مظهرها الخارجي الخشن فقد حوت من الداخل مزيجاً من
روائع الفن الهندسي ومن القصور المموهة بالذهب تقوم بجانبها أكواخ معتمة
قائمة . ولا شك أنه حدث في وقت ما أن أمراء مصر العظام وأميراتها
القاتلات ممن كانوا موضع نحر مصر وحاشيتهم كانوا يسرعون الخطأ بين
هذه الطرقات وتلك الأفنية . وكان صدى الضحكات والأغاني ورنين الموسيقى
يملاً تلك المساكن الملكية . وعندما ينتهي الحفل كان لا يسمح باجتياز

البوابة المحصنة إلا لقطعان الأغنام وصفوف العبيد الذين يحملون الأمتعة على رؤسهم أو على أكتافهم وللجنود ركبة الحسابات والبائنين والعمال يعمرون جميعا خلال الغبار والضوضاء ثم يتفرقون إلى المصانع والخوانيت والاسطبلات والمذابح بينما يتوجه التلاميذ والصبية لينالوا قسطهم من العلم ونصيحتهم من ضربات العصي . (٧)

ولم تكن مدن الدلتا أقل من مدن الصعيد فخامة في مبانيها وعماراتها أوفى قدمها التاريخي، تلك المدن التي اجتاحتها الهكسوس وأهل شأنها ملوك الأسرة الثامنة عشرة ، قد رمت ووسعت وازدادت جمالا بفضل الملوك الرعامسة . وكان رمسيس الثاني معجبا بالجزء الشرقي من الدلتا إذ أنها كانت مهد عائلته وكان يجد فيها الجو الملائم والأراضي ذات العشب الأخضر وساحات المياه الشاسعة وكروم العنب التي تفتح نبيذا أحلى مذاقا من العسل . وعلى جانب الفرع الثاني لل النيل وسط مراعي تذررها الرياح كانت توجد مدينة قديمة عاش فيها الكهنة وكانت مركزاً لعبادة الإله «ست» كما كانت مركزاً أيضاً لمدرسة فنية ذات طراز أصيل ، ويرجع تاريخها إلى عهد بعيد ، هذه المدينة هي حات وا عرت وقد اتخذها الهكسوس عاصمة للملكهم . ومنذ أن طردهم الملك أخحوزا أخذت المدينة في الاضمحلال وقد انتقل إليها رمسيس بعد أن انتهى مباشرة من دفن أبيه وقام بآخر الواجبات الجنائزية .

وعلى الفور بدأ القيام بالأعمال العظيمة التي أعادت إلى المدينة القديمة رونقها فأخذت تنمو حتى أصبحت عاصمة فريدة في نوعها (٨) وكما كان الحال في طيبة ، كان المعبد وسائر المباني داخل سور من الطوب اللبن ، له أربعة أبواب تمتد أمامها الترع والطرق من الجهات الأربع . ولأجل بناء قبس الأقداس في المعابد وتوفير اللوحات والمسلات ، أحضرت من أسوان كتل من الأحجار ذات أحجام غير مألوفة ، دون أدنى اعتبار لبعد المسافة

أو صعوبة النقل ، بعد أن تم صقلها وتكسيته حتى بلغت ذروة الإتقان .
ونحتوا كذلك أسودا ذات أوجه آدمية عابسة من صخور الجرانيت
الأسود ، كما نحتوا تماثيل أبوالهول من صخور الجرانيت الوردى اللون وقد
وضعت بحيث يواجه أحدها الآخر على طول الطريق الضيق المرصوف
بأحجار البازلت ، بينما كانت أسود راقدة تسهر على حراسة الأبواب وتماثيل
لمجموعة معبودات يحوى كل منها معبودين أو ثلاثة معا ، وتماثيل ضخمة واقفة
أو جالسة ، ينافس الكثير منها مثيلاتها الموجودة في طيبة ويفوق تلك التى
على شاكلتها في منف . وقد كانت متراصة أمام البوابات ذات الأبراج .

كان القصر متلألأ بالذهب واللازورد والفيروز مزدانا بالزهور في كافة
أرجائه والطرق التى أحسن تظليلها تخترق الريف المزروع بطريقة تدعو
إلى الإعجاب . وكانت البضائع الواردة من سوريا ومن الجزر ومن بلاد بونت
مكدسة في الخوانيت . وكانت فرق من المشاة وحمل السهام والأقواس وراكبي
العربات الخرية ورجال البحرية لهم معسكراتهم بجوار القصر ووفد الكثيرون
من المصريين ليسكنوا بجوار الشمس * . قال الكاتب باباسا : ما أحلى
الإقامة هناك ، فليس للمرء أية أمنية يتسارى فيها الصغير والكبير . .
والناس جميعا سواء ، في الإفشاء بطلباتهم . .

ومثلها مثل سائر المدن الكبرى الأخرى حيث يخاطب المصريون الليبيون
والزنج . غير أن الآسيويين كانوا قد تدفقوا بصفة خاصة قبل عصر الخروج
وحى بعده ، وكان من بينهم نسل أبناء يعقوب ، وغيرهم من البدو الرحل ،
من سمح لهم بالإقامة في مصر ولم يرغبوا مطلقاً بعد ذلك في مغادرتها ،
كما كان من بينهم الأمري الذين أتى بهم من بلاد كنعان وهاصور

ونهارينا* وتحول أبنائهم بمعنى الزمن إلى عمال زراعيين أو إلى عمال مهنة حرة. وسرعان ما اتسعت المدينة الملكية بعد أن أضيفت إليها أحياء شاسعة الأرجاء تحوى الكثير من المساكن والخوانيت. وسرعان ما أصبح لهذه الأحياء الجديدة معبدها الخاص وقد أحيط بأسوار من الطوب اللبن مثل أى معبد كبير. وكان من الضروري تخصيص مكان للجبانة (٩) لأن أهل الدلتا لم يعتادوا مثل أهل الصعيد دفن موتاهم في الصحراء القريبة منهم، ولذلك شيدوا مقابرهم ومقابر حيواناتهم المقدسة إما خارج السور وإما داخله على بعد خطوات من المعبد. ونظرا لعنق المكان، لم يكن في استطاعتهم بناء عمارات ضخمة على غرار مثيلاتها في منف.

وكانت المقابر التي في تانيس أو أتريب صغيرة الحجم إلى أبعد الحدود بغض النظر عن مكانة الشخص الذى يدفن فيها.

لم يترك رمسيس الثانى لمن خلفه ما يشغلهم كثيرا في شئون البناء، ولذلك ركز رمسيس الثالث اهتمامه برعاية الحداثق والمشائل والإكثار منها، قائلا:

« لقد أخضبت الأرض كلها بزراعة الأشجار وغرس النباتات، بحيث أصبح في استطاعة الناس الجلوس تحت ظلها، (١٠). وقد شيد حداثق كثيرة في مقر عرش جده العظيم، تتخللها طرق تؤدي إلى الريف، زرعت بالكروم وأشجار الزيتون وعلى جانبي الطريق المقدس* انتشرت الزهور اليافعة (١١) وفي أون أمر الملك بتنظيف بحيرات المعبد المقدسة ورفع القافورات التي تراكت منذ وجدت الخليفة، وجدد غرس الأشجار

* هي أراضي فلسطين وسوريا وشمال القرات وأرض الجزيرة.
** كانت هذه الطرق خاصة محرمة على العامة.

والنباتات في كل مكان وزرع البساتين الياقة بالكروم ليقدم للمعبود توم النيذ والمشروبات الروحية ، كما زرع أشجار الزيتون التي تنتج أجود الزيوت المصرية لتبقى شعلة النيران متقدة في معبدك المقدس . ومعبود هورس الذي كان في طى النسيان تماما ، أصبح في مقدمة المعابد . لقد أوليت جل اهتمامي لزراعة أشجار الأخشاب المقدسة النامية في داخل أسواره . كما عانيت بغرس أوراق البردى على نحو ما تزرع في مستنقعات أخيب (حيث عاش هورس زمن طفولته) وكان عالم النسيان قد أتى عليه منذ العهد الغابر . لقد عملت على ازدهار أشجار الأخشاب المقدسة في معبدك وغرستها في نفس الأماكن التي اقتلعت منها وعينت البستانين للعناية بها حتى يقطر منها الخمر للشراب والقرايين ، (١٢) .

وهذا جمع بين النافع والمتع . وقد لاحظ هيرودوت أن معبد بوبسط المحاط بالأشجار الضخمة كان من أروع ما شاهد في كافة أنحاء مصر . ولا شك أن المسافر في القرن الثاني عشر قبل الميلاد كان يستطيع أن يحس نفس هذا الشعور خلال زيارته لكثير من المدن المصرية ، فنظر المساحات الخضراء بأن يعوض خشونة منظر الأسوار الضخمة المبنية باللبن ، وكان سكان المدن يتمتعون بالنسيم العليل على شواطئ فروع النيل تحت ظلال الأشجار الضخمة ، وفي أفنية المعبد كان الزهور والورود أثرها في إظهار جمال التماثيل .

كانت المياه الكثيرة لازمة للحيوان والنبات والإنسان على السواء . وكان الانتقال لجلب المياه من الترع ، أمرا مقلقا حقا ، حتى لو كانت مجارى المياه قريبة من أبواب الأسوار ، كما كانت عليه الحال في مدينة حابو وفي بي رمسيس ، وفي أكثر المدن التي تحوطها أسوار ، شيدت أحواض من الحجر . (١٣) وقد أقيم سلم يؤدي إلى سطح المياه على مدار العام ، ووجود الآبار

أمر مؤكد منذ عهد الإمبراطورية الحديثة ، على الأقل ، وقد اكتشف بعضها في الأملاك الخاصة وكذلك في أحياء المدن . (١٤) وقد وجدت أربع آبار على الأقل داخل أسوار مدينة برمسيس ببيت بالحجر بناية تامة (١٥) وأصغرها في غرب المعبد وقطرها ثلاثة أمتار وعشرة سقمترات ، كان النزول إليها بواسطة سلم مستقيم مسقوف تبلغ درجاته ثلاثا وعشرين درجة يؤدي إلى سلم حلزوني داخل البئر عدد درجاته اثنتا عشرة درجة .

أما البئر الكبير فتوجد جنوبي المعبد وقطرها نحو خمسة أمتار ويؤدي إلى البئر سلم مسقوف أيضا تبلغ درجاته أربعة وأربعين درجة من سطحين ، وتتوسطها بسطة للاستراحة ، ويمكن الوصول إلى مياه هذه البئر مهما قل المنسوب ، بسلم حلزوني على شكل حدوة ، للماء الأباريق بالمياه . أما في فترة زمنية أخرى فكانت المياه ترفع بطريقة أيسر بواسطة الشادوف وتصب في حوض وتنقل منه إلى حوض آخر داخل مبنى المعبد بواسطة قناة من الحجر . وفي القسم الشرقي من المدينة ، اكتشف على عمق كبير ، كثير من القنوات المصنوعة من أنابيب من الفخار من مختلف الأشكال وأكثرها مصنوع من أوان خزفية متداخلة في بعضها قد أحكم وصلها بالاسمنت . ولم يتمكن أحد حتى اليوم ، أن يتتبع امتداد هذه القنوات واكتشاف بدايتها ونهايتها ، كما لا نستطيع تحديد تاريخها ، إذ أننا نجهل ما إذا كانت قد أعدت لنقل المياه الصالحة للشرب أو خصصت لتصرف مياه المجارى . على أنه يجدر بنا أن نشير إلى وجود هذه المنشآت التي تدل على أن الإدارة الفرعونية كانت تشدد الخير الأهالي وتحرص على الصحة العامة .

كان للعقارات الملكية أو المقدسة قوة جاذبية عجيبة على من يقيمون حولها ، ففي أزمنة الاضطراب كان الأهالي الذين يتباهون بالذعر يقتصبونها

ليقيموا بها ويرفضون تركها ، ويشيدون منازلهم في الحدائق والبساتين وبذلك يشوهون جمال التصميم الذى أراده لها مشيدوها السابقون . كانوا يسربون إلى ساحة المعبد المقدسة الخارجية وقيمون فوق الأسوار ، يعطلون إقامة الشعائر الدينية ويقفون حجر عثرة فى سبيل الحراس .

وقد لاحظ أواج حرر سنة ، أحد الأطباء الذين عاشوا فى عصر الملك قيز ، بعض الأجانب يقيمون فى معبد الإلهة نايت ، معبودة سايس (١٦) فتألم لما رأى ، ولما كان ذا كلة مسموعة لدى الملك فقد حصل على أمر بطرد جميع أولئك الأجانب ، غير المرغوب فيهم وهدم منازلهم والتخلص من نجاستهم حتى يمكن الاحتفال بالأعياد والمواكب كما كان متبعاً من قبل .

وقد لاحظ أحد السحرة أيضاً ويدعى جد حر وكان يعيش فى أثرب أن أناساً من عامة الشعب بنوا أكوأخهم بالطوب اللبن فوق جبانة الصقور المقدسة . (١٧) ولما لم يكن له مثل نفوذ الطبيب الصاوى فقد حاول معهم طريق الإقناع واستطاع أن يحلى المعتصين عن المكان الذى احتلوه والانتقال إلى مكان أفضل ارشدهم إليه ، وكان فى الحقيقة موقع مستنقعات ، غير أن علاج ذلك كان فى متناول أيديهم ، إذ كان من المستطاع هدم المنازل الداخلية واستخدامها فى ردم المستنقعات . وهكذا شيدت مساكن الطبقة العليا من أهالى أثرب فى مكان حسن الموقع لطيف الجو ، يكاد يكون قليل الرطوبة زمن الفيضان . وفى تانيس لاحظنا بأنفسنا زحف الآهالى بمساكنهم على المعبد . ووجدنا الكثير من المساكن فى أفنية المعبد وعلى أسواره ، وشخصية ذات أهمية اسمها بان مريت ، بنى منزله فى الفناء الأول للمعبد ملاصقاً للصرح كي تستطيع تماثله الاستفادة من الاحتفالات المقدسة . (١٨) وقد عاش بان مريت فى عصر متأخر عن طبيب سايس وساحر أثرب . واسكن مصر هى بلد التقاليد وسنقدم أدلة على ذلك . فالحقائق التى أشرنا

إلها مؤيدة بمستندات تفتى إلى عصر متأخر ، يغلب على ظنى أنها ظاهرة تكرر أكثر من مرة على مر الزمن ، إذ كان الأهالى يفتنون فرصة عدم يقظة السلطات أو ضعفها ليهجروا الأحياء التى لا تروقه وينتقلوا إلى داخل الأسوار الكبرى ليحتموا بها وربما ليطسوا على الأموال . وعندما تتيقظ السلطات فإنها كانت تطرد الغاصبين فيستعيد المعبد والعاصمة عظمهما إلى أن تتكرر هذه المحاولة من جديد .

وفى عهد سبتي الأول وسنوسرت العظيم ورمسيس الثالث لم يجرؤ أحد على الاقتراب من أرض لا يملكها ، ولكن حدث ذلك فى الوقت بين حكم مرى إن بتاح وسات ناخت ، بل حدث أسوأ من ذلك فى عهد آخر ملوك الرعامسة .

٢ - الفهرس

كثيرا ما أثار القصر الملكى فى مدينة في رمسيس إعجاب الكثيرين من المعاصرين ، ومن سوء الحظ أن وصفهم له غير محدد وحتى مكانه أيضا غير معروف بالضبط ، ولم تسفر الحفائر عن أية معلومات دقيقة . ونحن نعرف أنه كان فى الدلتا قصور ملكية أخرى فقد عثر على بقايا قصر فى قنطير وهى قرية تظلها أشجار النخيل البديعة على بعد ٢٥ كيلومترا جنوبى مدينة في رمسيس (١٩) ، حيث كان فرعون ينتظر خطيبته إبنة ملك الحبشيين ، التى جاءت فى فصل الشتاء مخترقة آسيا الصغرى وسوريا لتلقاه ، خطر له خاطر طريف هو تشييد قصر حصين فى الصحراء بين مهر وفيثيا حيث كان ينتظرها . وبالرغم من بعد القصر ووجوده فى مكان ناء إلا أنه

كان مكتظا بكل ما كانت تشبهه الأنفس. وكانت كل جهة من جهات القصر الأربع تحت حماية أحد المعبودات، فكان آمون يحمي الناحية الغربية ومونتخ الناحية الجنوبية، وعشتروت الناحية الشرقية وأواجيت الناحية الشمالية. ولتمجيد ملك مصر وزوجته الآسيوية وضع معبودان مصريان ومعبودان آسيويان لأن ست. منذ ذلك الوقت اتخذ زينة الشعر والملابس التي يتميز بها المعبود بعل، ولم يعد يشبه معبودات المصريين. وأقيمت أربعة تماثيل ذات أسماء كالأحياء هي: رمسيس ميا آمون، له الحياة والصحة والقوة، ومونتو في الأرضين سحر مصر، وشمس الأمراء الذي أصبح في منزلة الإله والوريث والباشا. (٢٠)

كان لرمسيس الثالث قصر أطلق عليه اسم «بيت الهناء» يقع داخل مدينته، غربي طيبة، وقد وجدت بقاياها التي تولى دراستها علماء الآثار المصرية بمعهد الدراسات الشرقية بشيكاجو، (٢١) وكانت واجهة هذا القصر تطل على الفناء الخارجي للمعبد. أما النقوش المحفورة التي كانت تزين هذه الواجهة، وترى من بين أعمدة الهو، فقد أحسن اختيارها في عناية تامة لتظهر مدى سلطان الملك. فقد رسم رمسيس وهو يقتل أعداءه بضربات من دبوسه. كما رسم أيضا الملك يتبعه حرسه في أحسن زينة وهو يزور حظائر الخيل. وكذلك رسم وهو يمتطي عربته متقلدا أسلحته الحربية في طريقه ليتولى قيادة الجيش أثناء المعركة. ثم رسم أخيرا وهو جالس مع رجال حاشيته يشاهد خيره جنده وهم يتصارعون ويتمنون. كانت الشرفة المخصصة لظهور الملك في الحفلات العامة تتوسط هذه الواجهة وقد زينت أفخم زينة، في مقدمتها أربعة أعمدة طويلة على هيئة ساق البردى يعلوها أفرز ذو ثلاثة طوابق، رسم قرص الشمس المنحج على الطابق الأدنى، ورسمت زينات من خوص النخيل على الطابق الأوسط، بينما رسم على الطابق الأعلى رموس الثعابين تتوجها تيجان على هيئة قرص الشمس. وكان الملك يظهر في هذه الشرفة

عندما كان يسمح للأهالى بالتجمع فى فناء المعبد فى عيد آمون ، ومنها كان يوزع عليهم العطايا . كانت الشرفة متصلة بالمساكن الملكية ، وكان يتوسط هذه المساكن عدة غرف ذات أعمدة ، منها قاعة العرش وغرفة الملك وحمامه الخاص . وتفصل ردهة بين هذا الجزء الرئيسى وبين جناح الملك الذى كان يحوى الكثير من الغرف والحمامات . وكانت هناك ممرات طويلة مستقيمة تيسر الذهاب والمراقبة أيضا ، لأن رمسيس الثالث وقد علمته التجارب ، كان حذرا .

ويبدو أن النقوش الداخلية لقاعة العرش كانت عابسة ، كما يتضح من اللوحات الصغيرة المموهة بالطين التى اكتشفت منذ ٥٠ عاما أو من القطع الصغيرة ذات النقوش الغائرة التى اكتشفتها أخيرا البعثة الأمريكية . رسم الملك فى كل مكان على هيئة أبو الهول وقد جثم على مؤخرته ، وقد سجل اسمه بالكتابة الهيروغليفية ، وبشاهد أعداء مصر أمامه ، وقد قيدت أقدامهم وهم فى ملابسهم الثمينة المزركشة بزينة البربر وقد بذلت عناية كبيرة فى رسم أشكالهم وزينة شعرهم وحليهم . وقد وسم الليديون بالوشم بينما حلى الزوج أذانهم بالأقراط ، أما السوريون فكانوا يتزينون بحلى كبيرة تتدل من رقابهم . أما بائل شاسو الرجل فكانوا يضعون أمشاطا وسط شعرهم الطويل المرسل إلى الخلف .^(٢٧) وليس من المستبعد أن نعتقد أن الرسوم والزينات التى كانت تحلى القاعات الخاصة بالملك والملسكة كانت ذات موضوعات أكثر رقة وطلاقة .

كانت المساحة التى يشغلها مسكن الملك غير بالغة الاتساع إذ كانت عبارة عن مربع يقل طول ضلعه عن أربعين مترا وكانت إقامة الملك فيه غير طويلة

المدى ، فقد كان في استطاعته الإقامة في الجانب الآخر من النهر . أما في الدلتا فلم يكن له إلا أن يختار بين منف وأون وى رمسيس ، وكانت كلها تترقب استقباله . وقد شيد بين أون وبوسط ، في المكان الذى أطلق عليه العرب أسم تل اليهودية ، مبنى حديث العهد ، اكتشفت فيه لوحات موهمة بالمينا تماثل تماما تلك التى وجدت في مدينة حابو . (٢٢) وقد أتى الزمن تماماً على قصور الملك سبتي والملوك الرعامسة حتى أننا إذا أردنا أن نكون فكرة حقيقية عن قصر فرعون في عصر الأمباطورية الحديثة كان علينا أن نتخيل أنفسنا في قصر أخناتون الذى تولى الحكم قبلهم بوقت قصير . كان بلاط أرضية القاعات ذات الأعمدة تمثل مستقماً يزخر بالأسماك ونباتات البردى ، تطير خلال أغصانها الطيور المائية ويحوطها الغاب والبردى ، وعمجول تقفز وسط أجسام ويط برى يطير خوفانها . وفوق رموس الأعمدة كانت تلتف أغصان الكروم والنباتات العارشة . وزينت تيجان الأعمدة والأفاريز بالنقوش الزاهية وعلى حواجز الجدران رسمت نقوش تمثل مناظر الحياة العائلية ، فالملك والملكة يجلسان وجها لوجه .

كان أخناتون يجلس على مقعد وفرتي على وسادة وعلى ركبتيها طفل رضيع ، وكانت كبرى الأميرات تعانق شقيقها الصغرى ، وتلعب أميرتان صغيرتان على الأرض . (٢٣) وقد قيل في مبالغة بأنهم يرد في الفن المصرى القديم كل ما يضاهاى هذا الرسم رقة . والواقع أن المستنقعات ونباتات البردى والطيور والحوانات التى تقفز أو تركض كانت ضمن الموضوعات المألوفة . وفي مدينة حابو رأينا الملك محاطاً بمحظيات رائعات الجمال . ونحن لانخشى شيئاً حين نؤكد أن قصور فرعون في عهد الأسرتين التاسعة عشرة والعشرين كانت مزينة دائماً بأغنى النقوش وكذلك الحال في عهد أخناتون ، إذ كانت الجدران والسقوف والأفاريز والأعمدة والأرضيات بهجة للعين والنفس .

وكانت نخامة الأثاث وروعة الحلى والملابس تكمّل هذه المجموعة سموا وروعة .

٣ - المنازل

لم تدخر كبار الشخصيات جهدا في محاكاة المساكن الملكية من حيث الفخامة والرفاهية ، كانت مساحة مساكنهم في المدينة أو في الريف تبلغ نحو هكتار* أو تزيد ، كما كانت على نسق المعابد أو القصور الملكية يحوطها سور عريض مرتفع له باب حجري يؤدي إلى حيث يقيم رب البيت ، بينما توجد أبواب ثانوية وهي عبارة عن فتحات صغيرة في السور تؤدي إلى الحدائق ويستعملها عامة الناس . هكذا كان منزل المرأة الغادرة تبوبوي التي استقبلت فيه حبيبها في مدينة بوبسط بينما كان منزل أبوي بمائل معبدا صغيرا . فيه رواق ذو أعمدة على هيئة سيقان البردى يسبق واجهة المبنى . بينما يستند سطح العمود لإفريز مزخرف برسوم من سعف النخيل . وكان باب المدخل الرئيسي من الحجر الكبير المنحوت وأسكفة الباب مزخرفة بدورها بسعف النخيل . (٢٥) وكان المنزل الذي قابل فيه الملك آي زوجته نفرحتب وكافأها ، له شرفة ذات أعمدة تسند سطحها خفيفا يغطي جميع جهات المنزل وتقوم أطرافه على أعمدة عالية رفيعة يتكون منها رواق حول المنزل. (٢٦) يمكن أن نكون فكرة عن الشكل الخارجي لذين المنزلين على ضوء الرسوم التي رسمها كل من أبوي ونفرحتب على جدران مقبرتهما ، ولمعرفة التنظيم الداخلي لها يحسن أن نزور حفائر تل العمارنة . من باب المدخل يعبر المرء دهليزا قبل أن يصل

* الهكتار يبلغ عشرة آلاف متر مربع أي ما يوازي فدانين ونصف الفدان .

إلى قاعات الاستقبال ذات الأعمدة التي يستند إليها السقف . وهذه القاعات العامة تمتد بواسطة خزائن الملابس مبنية بالطوب وتستخدم كأصونة لللباس الداخلية وللثياب ، كما توجد غرف صغيرة تخزن فيها المواد الغذائية والمرطبات . أما الغرف المخصصة لرب البيت وقاعة الحمام ودورة المياه فتشغل باقى المبنى . ونرى جدران الحمام قد كسيت بالأحجار ، وفى أحد الأركان نشاهد كتلة مرتفعة من الحجر ومثبتة فى البناء ومحاطة من الخلف بجدار ساتر يصعد عليها أحد الخدم ليصب المياه على المستحم . وبعد أن يفرغ المستحم من الاغتسال يجلس على مقعد قريب للتدليك . وتطلى دورة المياه التى تقع خلف الحمام بالجير ، وبها مقعد من حجر السكس مثقوب الوسط يوضع فوق صناديق من الطين تملأ بالمال (٢٧) وفى كل منزل مهم كان متواضعا ، توجد عدة أفنية ، فى أحدها صوامع للغلال على هيئة خلية النحل . وتقع مرقد السكلاب وحظائر الحيوان فى الشمال ، وفى الشرق توجد عادة على التوالى ، المطبخ والخبز وبيوت صغيرة من الطوب بأبوابها إلى الخدم . وكان على الخدم فى هذه الحالة أن يسيروا مسافة طويلة لإحضار أطباق الطعام لسادتهم .

ويوجد مدخل للخدم يؤدى إلى حجرات الاستقبال ، أما المنازل الصغيرة، المخصصة للخدم، فتقسم فى أغلب الأحيان إلى أربع غرف، المدخل وحجرة فى الوسط يستند سقفاها إلى عمود ومطبخ وحجرة نوم فى الداخل . ويتجمع كل أفراد الأسرة الواحدة فى هذا المكان الضيق الذى يتقاسمونه مع المواشى ، وهناك سلم يؤدى إلى سطح المنزل . وتقع بيوت المديرين فى نهاية هذا الحى ، وتكون مبانيها عادة واسعة ومريحة (٢٨) وتجلب المياه الصالحة للشرب عادة من بئر حجرية .

أما الحدائق فكانت تقسم إلى مربعات ومستطيلات تتقاطع عموديا ومستقيمة تماما، وتزرع بالأشجار وتظلل بالكروم وتغص بها الزهور التي كان المصريون يعنون بها عناية تامة . وقد جمع أنا Anna في حديقته كافة الأشجار التي تنمو في وادي النيل مثل النخيل ونخيل الدوم وشجر جوز الهند التي كانت تسمى نخيل الكوكو وشجرة الجيز وشجرة زيت النخيل* وشجر العناب والليخ والطلع والمان والسر والائل والصفصاف وأنواع أخرى من الأشجار لا نعرف مدلولها وتبلغ ثمانية عشر نوعا. (٢٩)

وزرع الوزر رخ مارع في حديقته المحاطة بأسوار قوية كل أنواع الأشجار والنباتات التي كانت معروفة في عصره. (٣٠) وكثيرا ما كانوا يشيدون تحت الأشجار أكشاكا لا تخلو من جمال وإن بنيت بمواد خفيفة الوزن . وكان السادة يتناولون فيها طعامهم صيفا . وكانت الخصاص الخشبية تجثم في كل مكان ، حيث كانت المشروبات تتلج في أزيار كبيرة تخفيها أوراق الأشجار بجوار الموائد والرفوف حيث رص الخدم بعناية فائقة كل مشروبات المطبخ المصري .

ولا يمكن أن نتخيل وجود حديقة دون بركة ماء ، وهذه تكون عادة إما مربعة أو مستطيلة الشكل ومبنية بالحجر ، وتطفو نباتات النيلوفر فوق سطح المياه ويعوم فيها البط . وتؤدي درجات من سلم إلى هذه البركة حيث أعد قارب لتلبية مسرات أصحاب المنزل (٣١) في غالب الأحيان .

وتتكون بيوت الطبقة الوسطى عادة من عدة طوابق ، وتوجد أحيانا صوامع الغلال فوق سطوحها ، ولا تزخرف واجهة البيت بأية زخارف .

* هذه الشجرة نادرة الآن في مصر . ولسكنها متفجرة في السودان .

ويقع الباب قرب أحد أركان الجدار وهو يتكون من عمودين قائمين وأسكفة وعتبة من الحجر . ولا يتسرب الضوء إلى الطابق الأرضي إلا عن طريق هذا الباب ، أما النوافذ وعددها اثنتان أو أربع أو ثمانية نوافذ في الطابق الواحد فكانت صغيرة ومربعة ومزودة بستائر لتحجب السكان من الحر والقيار . وقد عثرتُ في تانيس على نافذة من الحجر لا يزيد طول ضلعها على ذراع واحدة وكانت عبارة عن قطعة من البلاط المثقوب كالذنته وتقوم مقام الستارة ، كما عثرتُ أيضا فوق نافذة مربعة على إطارين منقوشين باسم الملك مري إن پتاح . وقد رسمت على بعض النقوش بطييه ، خطوط أفقية على الجدران كأنها عملت بالبلوط السميك أو زخرفت بالألواح . وفي تانيس ظهر تفسير هذه الخطوط إذ اتضح أن البنائين يضعون الملاط على السطح الأفقي للبناء بينما يكتفون بالطين بين الفواصل الرأسية . وحينما يتم البناء نجد أن الجدار قد أصبح مخططا بخطوط أفقية بيضاء .

ونخصص الغرف في الطابق الأرضي في غالب الأحيان للحرف المنزلية ، حدث هذا في طييه ، على سبيل المثال ، في منزل أحد الأهالي المدعو تحوى نفر حيث كان النساء يغزلن بينما يعمل الرجال بالنسج على الأنوال ، وفي الغرف المجاورة كانوا يطحنون الحبوب ويعدون الخبز . ويعيش أصحاب المنزل في الطابق الأول في غرفة أكثر اتساعا ، ينفذ إليها الضوء من خلال نوافذ صغيرة مرتفعة . وتسند سقفها أعمدة على هيئة ساق اللوتس . ويبدو أن الباب كان مزدانا بلوحات طعمت به بالطين إذ لم يكن الخشب نفسه قد نقش مباشرة . ولم تكن ثمة نقوش على حواجز الجدران وإن كان من المألوف لدى المصريين أن يخطوا بالرسوم كل مذهبهم من

سطوح عالية . وقد عثرت في تانيس بأحد المنازل ، التى تنتمى إلى العصر المتأخر ، على حواجز جدران داخلية طليت بالملاط وبها لوحات قديمة عليها راقصات ومراكب ، ولاريب فى أن هذه الوسيلة كانت قديمة العهد ، مما يحملنا على الاعتقاد بأن غرف المنازل تماثل غرف المقابر فى طييه حيث كانت ترسم كرمه على السقف بينما ترسم مناظر الصيد والرحلة إلى مدينة أوزيريس المقدسة * ومناظر أخرى مماثلة كانت ترسم فوق الجدران الداخلية .

وكان سقف الطابق الثانى منخفضا إلى حد لا يحتاج الإنسان معه إلى الوقوف على أطراف أصابع قدميه لكى يلس السقف بأصبعه . وتخصص فى هذا الطابق غرفة لرب البيت ليتولى فيها زينتته . كان يجلس على مقعد مريح ذى مساند جانبية ويحمل إليه الخدم الأبريق والطشت والمروحة والمذبة ، وأمامه يجلس الكتبة القرفضاء يقرأون البريد ويسجلون الأرقام . ولا يتوقف خدم آخرون عن الحركة فوق درجات السلم وفى الممرات ، وهم يعملون صرراً على رسمهم وجراراً مملوءة بالماء معلقة فى طرفى عصا يحملونها على أكتافهم . (٢٢)

كان نفس هذا النظام سائداً فى منزل أحد الأشخاص المدعو ماحو ، فكانت الجرار مكمومة فى الطابق الأرضى . أما الطابق الأول فكانت توجد به حجرة الطعام ، وكان الطابق الثانى مملوءاً بالدروع والأسلحة وأدوات أخرى كثيرة ، ولما كان ماحو رئيساً للشرطة ، فالتنا نعتقد أنه كان ينام الليل هنا ليستطيع فى حالة استدعائه بغتة أثناء الليل أن يحمل سلاحه ويعدو فوراً خلف المجرمين . كانت سطوح المنازل عادة مسطحة ، ويمكن الصعود

إليها إما بدرجات سلم مبنى أو بوساطة سلم متحرك . أقام البعض عليها ، مثل تحوتى حطب صوامع للغلال ، وأقام آخرون سورا من الخشب * على حافة السطح حماية لأطفالهم أو تجنباً لنظرات متطاعة إليهم وهم ينامون ليلاً في العراء . وأقام كل من نب آمون ونختى على سطحى منزليهما بناء إضافياً على هيئة مثلث هرمى بزاوية قائمة فسر بأنه يثر للتهوية . **

ومع ذلك فإن المنازل ذات الأسطح المديية لم تكن بمجولة في مصر ، ففى إحدى مقابر أبو رواش ، بالقرب من القاهرة ، التى تعاصر زمن الملك دن *** الذى عاش فى عهد يرجع إلى ألقى عام قبل عصر الرعامسة ، قد وجدت قطعتين من أدوات اللعب المصنوعة من العاج وهى تمثل منازل ذات سطوح مائلة ومكونة من مثلثين ومن شكلى شبه المنحرف . (٢٢)

وبناء السطوح على هذه الصورة العلية فى مثل هذا العهد العتيق ليدعو حقاً إلى الدهشة لأن مثل هذه الفكرة لا يمكن تصورهما إلا فى بلد تكثر فيها الأمطار أو تتوافر فيها الأخشاب ، أما فى مصر فلا توجد أقطار إلا فى المنطقة الساحلية . وحتى فى هذا المكان ، وإلى يومنا هذا ، فكل المنازل تعلوها سطوح مستوية . ومن المحتمل أن تمثل قطعنا أبو رواش نوعاً من المساكن الدخيلة على مصر ، إذ ليس لدينا أى برهان على أن مثل هذه المساكن كانت سائدة فى أى مكان بالإقليم المصرى فى عهد الرعامسة .

وحتى فى طيبة لم تكن المساكن متلاصقة تلاصقا شديداً . ولم تكن

* على هيئة الدائنة .

** هى المروفة باسم مصيدة الهواء أو منقف ولا تزال تشاهد فى المباني القديمة لاسيما فى الصعيد .

*** رابع ملوك الأسرة الأولى وحكم حوالى عام ٢٩٠٠ قبل الميلاد .

الأرض غالبية الثمن لتحول دون إمكان زرع أشجار إما في فناء صغير داخل المسكن أو أمام واجهته . ففي منزل نب آمون تظهر نخلتان وكأنهما ناهيتان فوق سطح المنزل ، ومع ذلك فقد كانتا مثقلتين بشمار البلح . كما تظلل باب منزل فخت نخلة وشجرة حمير . وقد رسم على جدار المقبرة رقم ٢٣ في طيبة منزل مرتفع أكثر عما هو عريض ، بين صفين من الأشجار ، بينما في مقبرة أخرى معروفة برقم ٢٥٤ نرى أمام منزل ، ثلاثة أشجار رمان زرعت في أصص من الفخار المزخرف بألوان عديدة كما نشاهد أمامه أيضا شجرتان من الدوم . (٢٤) وقد بذل المصريون كل جهدهم ، حتى الطبقات الفقيرة منهم ، لتكون مساكنهم جميلة ومريحة ، كما عنوا عناية كبيرة بالعمل على وقاية أنفسهم من أعداء الراحة المنزلية وهي عديدة كالخشرات والقران والأبراص والثعابين والطيور الجارحة . وتحوى بردية ايرس الطبيعة بعض الوصفات النافعة . (٢٥) فإذا أردنا التخلص من الحشرات المنزلية فينبغي غسل المنزل بمحلول النطرون أو طلاء جدرانها بمادة تسمى « بيت » تصحن مع الفحم . وإذا وضعنا ملح النطرون أو سمكة مجففة من البلطى أو حتى بذور البصل في مدخل جحر الثعبان ، فالثعبان لا يغادر جحره ، أما دهن طيور الصفارى فجده مفيد ضد الذباب ، وبويضات السمك ضد البراغيث ، وإذا وضعنا دهن قط على الزكائب أو على الصرر فالقران لا تقربها . ولإبعاد الحشرات القارضة عن الغلال يحرق في المخزن روث الغزلان أو تطلي الجدران أو الأرضية بمحلول من هذا الروث .

وهاك وصفة مؤكدة لمنع الحداة من الخطف ، يزرع في الأرض فرع من شجرة اللبخ وتوضع بجانبه كمكة ، ويتلى عليها ما يلي : « كانت حداة تنخطف من المدينة ومن الريف . . طيرى ، أطبخها ثم كليها » . وترديد هذا

الكلام على فرع شجرة اللبخ ، بعد أن توضع عليه فطيرة هي الوسيلة الكفيلة بمنع الحداة من الخطف .

ورائحة البخور ناجمة في تنقية هواء قاعات الثياب . ولم تكن هذه الوسيلة في تناول جميع الناس ، إذ كان يجب أن يضاف للبخور صمغ التريبتين وبعض المواد الأخرى المصرية والأجنبية . وهذه الوصفة مثل سابقتها دليل على الرغبة في الإبقاء على المنزل نظيفاً نقياً . كانت هذه الرغبة الطبيعية تحمل السلطات على إصدار أوامر عامة لنزع المياه القذرة ورفع القمامة وفضلات المنازل . ومع ذلك ، فلا نستطيع الجزم بذلك لعدم وجود مستندات تؤيد ما نقول .

٤ - الأثاث

يتألف الأثاث ، في أغلب الأحيان في قاعات الاستقبال في القصور الملكية وفي مساكن الأغنياء من مقاعد مختلفة الأشكال ، صناعتها بسيطة في معظم الحالات وتماثل صندوقاً مربعاً ، له مسند لا يزيد طوله عن طول اليد الواحدة . وزخرفت جوانبها بغرس من قشور نباتية .

كانت جودة المواد الخام التي يصنع منها الأثاث ، ودقة الصناعة تعوضان ببساطة صنعه . غير أن المقاعد ذات المتكأين المثقوبة من ناحية إلى أخرى ، كانت أكثر منها غمامة ومريحة إلى أبعد الحدود ، لها أربع قوائم على هيئة أرجل الأسد ومسند كبير ومرفقان . أما المقاعد المخصصة للملك والملكة فكانت أكثر روعة ، تحلى مساندها ومتكأتهما من الواجهة والخلف بنقوش مستمدة من موضوعات النحت الرفيع سواء أكانت منقوشة على الخشب أم على الجلد ، أم المعدن المطروق كالذهب والفضة والنحاس وترصع

بلا حجار الكريمة ، وقد يمثل الملك على هيئة عقاب أو على هيئة أبو الهول
بحميه ثعبان الكوبرا أو الصقر أو العقاب الذى يمزق بمخالبه أميويًا أو
زنجياً . وتشاهد كائنات غريبة* مثل أولئك الذين استجلبوا بشن غال من
بلاد هونت أو من أعلى النيل ، وهم يرقصون على دقات الطبول . والملك
يتناول من يد الملكة الزهرة التى تجلب الحب . بينما تربط الملكة عقداً
حول رقبة زوجها ، وترى رسوم تمثل رهوس أسود أو عقبان أو نساء على
حافة المقعد . وفى الناحية الأمامية للبنكآت وبين قوائم المقعد تنمو
النباتات الرمزية للجنوب والشمال وتكون علامة هيروغليفية كبيرة هى
رمز الاتحاد. (٣٦)

وكان هناك نوعان من المقاعد التى لا مساند لها ، وأكثرها بساطة
تلك التى كانت أرجلها رأسية ، وأكثر منها غخامة تلك التى كانت أرجلها
مقاطعة على هيئة العلامة × وتنتهى برأس بطة ، وكانت القضبان بدورها
تنتهى برهوس حيوانات وكانت الأرضية تفرش بالحصر وعليها الكثير من
الوسائد (٣٧) وكانت الوسائد توضع أيضاً خلف ظهور الجالسين على المقاعد
وتحت أقدامهم . وإذا كان عدد الناس يزيد عن عدد المقاعد ، فيجاس آخر
من يأتى أو أصغر الموجودين سناً على الوسائد أو حتى على الحصر .

وإذا كانت قاعة الطعام منفصلة عن قاعة الاستقبال ، فإنها تزود بمقاعد
وتجلب لها مناضد مستديرة للضيوف ، وموائد وأرفف توضع عليها
سلات الفاكة وأطباق اللحوم والخضراوات والأواني والأكواب . وهذا
الأثاث كثير العدد واسكنه صغير الحجم . ولم يفكر المصريون إطلاقاً فى

عمل مناخذ كبيرة يمكن أن يجتمع حولها عدد كبير من الضيوف، فكان من عادة المصرى أن يتناول الطعام وحده أو ضمن مجموعة من اثنين .

ومنذ أقدم الأزمنة ، كان يستعمل نوعان من أواني المائدة فكانت الآنية العادية من الفخار أما الآنية الفاخرة فكانت من الحجر ، وكانت تصنع غالباً من حجر الشست الأسود أو الأزرق ومن الرخام الأبيض . وكانت فى النادر تصنع من الرخام الأحمر . أما الأواني الكبيرة الحجم فكانت تصنع من الجرانيت . وكانت الكنثوس الصغيرة الحجم تصنع من الحجر الصخرى المتبلور (الكريستال) وكانت تصنع من هذه المواد المختلفة الآنية ذات الشكل الأسطوانى أو البيضاوى والكنثوس والاقداح والأكواب والأطباق والبرانى ذات الصنبور والأباريق وسلاطين الحساء والأواني ذات القاعدة ، وقد رسم بعض الصناع من وهبوا خيالاً واسعاً ، على سطح أبريق الشبكة التى يقدم داخلها هذا الأبريق ، أو يشكلون إناء على هيئة مركب أو حيوان . (٢٨)

ولم تتوقف إطلاقاً صناعة الأواني الجميلة من الأحجار ، ومقابر عهد الامبراطورية الحديثة تقدم لنا منها مجموعة هامة ، ومع ذلك فقد كانت الآنية المفضلة هى التى تصنع من الذهب أو الفضة ، وكانوا يصنعون أباريق تستخدم فى الطقوس الدينية ، ويصنعون كثيراً غيرها للاستعمال الدينى (٢٩)

وكانت تحضر المشروبات الساخنة فى أوان على هيئة غلايات ذات مصفاة داخلية مثبتة داخل الصنبور ، وتشبه أباريق الشاي التى تستعمل فى الوقت الحاضر . كما كان من الممكن صب المشروب الساخن خلال مصفاة يتسرب منها السائل فى قده يمسكه الشارب ، لو فضل ذلك . وقد هيم الأبريق

المشهور ذو الماعز وهو أحد كنوز بوبسط ليسكون إناء لحفظ اللبن. وكانت
الأواني المخصصة للمشروبات ، ذات أشكال مختلفة ، فيها أقداح ذات
قاع مستدير وصنبور ، وآنية مستديرة ذات مقبض وصنبور وأقداح في
نهايتها مقبض طويل تماثل معيار اللبن في فرنسا . وكانت الفناجيل ذات
المقبضين والأواني المستطيلة المزينة بملائمة الزبد والفطائر . وكان يصير
رمسيس الثالث ، عند قيامه بحملة حربية على أن يجعل ضابط الإمدادات
معه إناء كبيرا من الذهب ذا مقبض ، سعته ثلاثة لترات تقريبا ، كما يحمل قنبلة
المياه (٤٠) وكان الذين لا يستطيعون استعمال هذه الأواني ، التي تعد على درجة
كبيرة من الفخامة ، يكتفون بأوان من الفخار . وكان صناع الفخار
ينتجون منذ زمن قطعا جميلة من الفخار الجيد النوع ويرسمون عليها
زخارف هندسية أو صور أزهار أورسوما حية مثل تلك التي نراها محفورة
على الأواني المعدنية وتمثل طائرا يلتهم سمكة وحيوانات تتسابق
راكضة .

ومنذ أول عهد الامبراطورية الحديثة استوردت مصر من الخارج ، من
الجزر ومن سوريا ومن بلاد النوبة ، أدوات كالية فاخرة مثل أواني الخلط
وجرار الخمر وقواعد الأواني المصنوعة من المعادن والأحجار الكريمة والتي
لم تكن الحاجة إليها ماسة ولكنها كانت تستخدم كوسيلة لتكوين مجموعات
من شتى أنواع النباتات والحيوان في البلاد الأجنبية ، الحقيقي منها أو الخيال
على السواء . وكان للعباد نصيب وافر من معظم هذه الأشياء الثمينة ولكن
فرعون كان يحتفظ لنفسه ببعض النماذج الجميلة منها . وقد انتشر ذوق هذا
القطع الأجنبية الجميلة بين الأهالي . فبدأ الصياغ المصريون في صناعة مثيلاتها

وكان من ضمن الأعمال المكلف بها الأمير قنامون Qenamoun الذى كان يشغل مناصب عليا ، تقديم هدايا رأس السنة إلى الملك ، وقد سجل على جدران مقبرته ، المجموعة الكاملة لتلك الهدايا التى صنعت فى المصانع الملكية. (١١) ويلاحظ بصفة خاصة قطعة من الأثاث رسمت عليها غابة من نخيل الدوم ونخيلات سورية وقد تشابكت مع نباتات النيلوفر وزهور الألفجوران. وترى قروود تقفز فوق سيقان النباتات لتجنى جمارالنخيل. وهناك قطع أثاث أخرى تتفق والذوق التقليدى . وتمايل من الأبنوس وأخرى من الأبنوس المطعم بالذهب تمثل الملك والملسكة فى أشكال مختلفة ، إما فوق قاعدة أر فى صوان أو على شكل أبو الهول ذى الرأس الأدمى ، أو رأس الباز ، أو ماعز وغزلان مستلقية فوق الموائد والصناديق وأعتقد أن كل هذه القطع كانت مخصصة لتأثيث القصور الملكية وقاعات الاستقبال .

أما فى غرف النوم فكان السرير هو القطعة الأساسية . وكان من الأسرة ما هو بسيط الصنع إلى أبعد الحدود . إطار خشبى تقوم عليه عارضة تحملها أربع قوائم ، تمايل فى أغلب الأحيان أرجل الثور أو الأسد . وقد حفظت لنا مقبرة نوت عنخ آمون أسرة فاخرة ، كل ناحية منها على هيئة حيوان كامل ، البقرة والفهد ، وفرس البحر . وتحتوى الغرفة أيضا على أصونة من الخشب المشغول بالمرصعات حيث كانت توضع بها الملابس الداخلية والثياب . أما أدوات الزينة كالمرامى والأمشاط ودبابيس الشعر والشعور المستعارة فكانت تحفظ فى صناديق وخزائن مختلفة الأحجام . وأما مستحضرات التجميل كالمرامى والروائح العطرية فكانت توضع فى أوان من الزجاج الطبيعى أو من العاج . أما القاعات المخصصة لأفراد الأسرة كالأطفال والبنات فكانت تترك بها الآلات الموسيقية وصناديق اللعب .

أما قاعات المكاتب فكانت تؤثت بأصونة ذات طابع خاص تزدحم فيها المخطوطات وملفات الرقوق وأوراق البردى وجميع الأدوات التي يحتاج اليها الكاتب . وعندما تكتب ورقة البردى كانت تطوى وتربط ثم تختم وتوضع الملفات في ربطات ، وتحفظ الربطات في حقائب من الجلد . وهذه تحفظ بدورها في الأصونة . (١٢) ولم يكن الكتاب في حاجة إلى مناضد ليكتبوا عليها ، وكان يكفي الكاتب أن يبسط ورقة البردى على ركبته وهو جالس ، وفي بعض الأحيان كان يكتب وهو واقف قابضا على ورقة البردى باليد اليسرى ، دون أن تطوى الورقة . وعندما يفرغ من الكتابة يضع كل أدوات الكتابة داخل ما يشبه حقيبة غير رخصة ، ذات سطح مستو ، مزودة بقل ينزلق ليسدها ، وفي نهايتها سير تعلق منه .

أما أثاث المطابخ فيكون من مناضد ذات أربع قوائم وأوعية من الفخار السميك ذات الأشكال والأحجام المختلفة . وكانت الأفران تصنع من الصلصال الذي يتحمل الثيران . أما المواقد المعدنية ذات القوائم الطويلة التي كان يشوى عليها الأوز ، فلم تكن تستخدم ، كما اعتقد ، إلا في المعابد ، ولم يكن يلجأ إلى استعمالها طباط يهوى مهنته .

أما في المنازل الصغيرة ، حيث كان يتجمع كل أفراد الأسرة في غرفة لا تتجاوز مساحتها عشرين مترا مربعا فكانت تقل قطع الأثاث فيها حتى تصبح مجرد حصير ، وبعض أوان من الفخار . وهنا كانت بعض الأرفف والصناديق الخشبية تعد على أنها دليل على الثراء .

الفصل الثاني

الزمن

١ - الفصول

لم تكن السنة بالنسبة للبصريين مجرد الوقت الذى تستغرقه دورة الشمس بل المدة اللازمة التى يستغرقها محصول من المحصولات . وكانوا يكتبون كلمة سنة بالهيروغليفيه رنبت وهى عبارة عن رسم يمثل غصنا صغيراً به برعم ، وهذا الرمز المكتابى يوجد فى مجموعة مشتقات مثل : رنبي ومعناها ، نضر - قوى ، ورنبت ومعناها المحصولات السنوية .

ولكن المحاصيل فى مصر تعتمد على الفيضان . وفى أوائل يونيه من كل عام تعاني البلاد من الجفاف وتنخفض المياه فى مجرى النيل وتهدد الصحراء . بابتلاع أرض الوادى ، ويستولى على الناس شعور بالقلق الشديد ويقابل المصريون هبات الطبيعة السخية بعاطفة من الاعتراف بالجميل ، مترجعة بالخوف - الخوف مثلاً من تشويه الإله حين يقطع حجر من الحجر ، أو من خنقه حين تبذر حبة فى الأرض التى شقها الحراث ، والخوف من سحقه عندما توطأ الغلال لدرسها أو قطع رأسه عندما تقطع السنابل . وعلى قدر ما كانت تعي ذاكرة الناس ، فإن الفيضان لم يتخلف إطلاقاً . وكان يأتى أحيانا عالياً جداً وأحياناً أخرى منخفضاً ، إلا أنه كان دائماً سخياً يروى الأرض العطشى ، وبالرغم من أن التجربة لم تفشل إطلاقاً ، فإن سكان شاطئ النهر

لم يكونوا ليطمئنتوا اطمئنتانا كاملا ، حينما يضرع إليك الناس كل عام لتنجهم
الماء اللازم لهم طوال العام ، بروى القوى والضعيف على السواء . ويخرج
كل رجل ومعه معداته ، دون أن يتقاعس أحد انكالا على جاره ، لقد تجرد
الكل من ملابسهم ، أما أبناء الطبقة الراقية فلا يتزينون ولا يهضبون في
الليل بالأغاني .^(١) لقد فرضت التقوى على المصريين أن يضعوا النيل في
صف الآلهة منذ أقدم العصور ، أطلقوا عليه اسم حابي Hapi وصوروه في
هيئة رجل شديد الامتلاء ، له ثديان متدليان وبطن مكشتر ، يشده حزام ،
وفي قدميه نعل . وهذه إحدى علامات الأراء ، ويتوج رأسه إكليل من
النباتات المائية ، ويداه تشران علامات الحياة أو يحمل بين يديه مائدة مثقلة
بالقرايين تكاد تختفي تماما تحت أكوام من السمك والبط وباقات الزهور
وسنابل القمح . وكانت بلاد كثيرة تحمل اسم حابي ، ويطلق عليه أبو الآلهة ،
لذا كان من الواجب ألا يكون الشعب أقل إكراما له عن الآلهة الأخرى .
ولم يقصر رمسيس الثالث في ذلك ، فطوال مدة حكمه في مدينة أون وفي
مدينة منف مدى ثلاث سنوات ، أنشأ رمسيس أسفار حابي أو جددها حيث
سطر فيها أنواع مختلفة كثيرة من الأطعمة والمحصولات ، وكانت تصنع
للمعبود حابي آلاف من التماثيل الصغيرة من الذهب والفضة والنحاس أو
الرصاص والغيروز واللازورد والقيشاني ومن مواد أخرى ، وكذلك كانت
تصنع خواتم وتماثيل وأقراط وتماثيل صغيرة لزوجة حابي واسمها ربيت^(٢)
وفي اللحظة التي يجب أن يرتفع فيها منسوب مياه الفيضان كانت
تقدم القرايين للمعبود حابي في كثير من المعابد وتلقى أسفار النيل في بركة
معبد « رع حر أختي » في مدينة أون ، الذي كان يسمى قبحو Qebhou .
وكان ارتفاعه يماثل ارتفاع نهر النيل عند الشلال وربما كانوا يلقون فيها
أيضا تماثيل صغيرة^(٣) وكانوا يكررون احتفالهم مرة أخرى بعد شهرين .

عندما يصل الفيضان إلى أقصى ارتفاعه ، ونهر النيل الذى يخترق أرض الوادى وينساب فى يسر بين الصحراوين محولا المدن إلى جزر ، والقرى إلى جزر صغيرة ، والجسور إلى سدود ، يبدأ منسوب مياهه فى الانخفاض . وبعد أربعة شهور من ابتداء ظهور الفيضان تعود مياه النيل إلى مجراها العادى . وهذه الفترة التى تستمر أربعة شهور ، كان المصريون يعدونها أرل فصول السنة وسموها آخت أى الفيضان .

وبمجرد أن تنحسر المياه عن الأرض كان الفلاحون ينتشرون فى الحقول دون أن يتركوا للأرض الوقت لتجف ، فيحرقوها ويبذروا الحب فيها ، وبعد ذلك لم يكن لديهم لمدة أربعة شهور أو خمسة إلا أن يرووها ، ويأتى بعدئذ موسم الحصاد . وبعد الحصاد يدرسون الجيوب ويحزنها ، إلى غير ذلك من مختلف الأعمال التى كانوا يقومون بها . وعلى هذا فهناك فصل للفيضان آخت ، يعقبه فصل لانحسار المياه عن الأرض ييريت ثم فصل المحصولات شيمو وعلى هذا فمجموع فصول السنة عند المصريين ثلاثة فصول بدلا من أربعة كما كان الحال عند العبرانيين والإغريق .

ومهما كانت ظاهرة الفيضان منتظمة فإنه كان من العسير تحديد ابتداء السنة اعتمادا على مجرد ملاحظة ارتفاع مياه الفيضان ، ولكن فى الوقت الذى تبدأ فيه مياه النيل فى الارتفاع يحدث فى هذه الآونة حدث يمكن أن يكون مرشدا لمنشى التقويم ، فإن النجم سيربوس واسمه بالمصرى القديم سوبديت Sôpdit (الأبرق من الشعرى الثانية) ، والذى لم يكن يظهر منذ مدة طويلة ، يبرز للحظة بسيطة فى الشرق تماما قبيل شروق الشمس مباشرة .

ولم يفت المصريين أن يربطوا بين هاتين الظاهرتين فإنهم كانوا يعزون الفيضان إلى دموع إيزيس وكانوا يعتبرون ظهور النجم بمثابة احتفال بهذه المعبودة . ولذلك اعتبروا إيزيس شقيقة السنة ، واليوم الذى تظهر فيه النجمة سوبديت اعتبر أول أيام السنة . وقد سجلت هذه المعادلة فى كتاب « بيت الحياة » الذى كان عبارة عن سجل للتقاليد والمعلومات التى ظلت سائدة منذ عهد الدولة القديمة حتى العصر المتأخر .^(١) وتقوم رمسيس الثالث الذى حفر على سور خارجى لمعبده فى مدينة حابو ، نص فيه على أن عيد الآلهة سوبديت الذى يحتفل به عند بزوغ هذه النجمة يتفق مع أول يوم من أيام السنة .^(٢) وفى أغنية عاطفية يقارن المحب حبيبته بالنجمة التى تظهر فى بدء السنة الكاملة رنيت نفرت^(٣) لأنه كان ثمة ستة عرجاء مهمة تسمى رنيت جاب حيث لا يظهر المعبود شو اطلاقا ويحل الشتاء محل الصيف ولا تنتظم الشهور فى أوقاتها . والآلهى لا يحبون هذه السنة ، فىقول الكاتب « ننجى من هذه السنة العرجاء »^(٤) فالمزارعون والصيادون وصيادو الأسماك والمكتشفون والأطباء والكهنة كل أولئك كانوا مضطرين إلى إحياء معظم احتفالات الأعياد فى أوقات معينة ، ويشاركهم فى هذا كل من كانت أعماله تتوقف على الظواهر الطبيعية فيستعملون السنة الكاملة حيث بقيت الشهور والفصول دون تغير ، وحيث كان آخيت يستمر أربعة شهور ، يكون قد امتلأ النيل خلاها ب مياه الفيضان ، ويرت يوافق وقت البذر الذى يتفق وموسم الاعتدال ، وشمو يوافق موسم الحصاد والأيام الحارة . ولهذا كانوا يقولون عن فرعون إنه ملطف للحرارة فى فصل شمو ، وركن أدفاته الشمس فى فصل پريت .^(٥) وكان عمال المناجم الذين يستخرجون الفيروز من سيناء يعلمون أنه

لا يجب الانتظار إلى شهور فصل شمو لأن الجبال تكون خلال هذا الفصل الرديء ملتصقة مثل الحديد المنصهر ، مما يؤثر في لون الأحجار الكريمة. (٩)
وكان الأطباء والبيطريون يعلمون أن بعض الأمراض والتوقعات يتفشى موسمياً ، فالبعض منها يظهر خلال فصل پريت ، والبعض الآخر في فصل شمو .

وقد بلغت بهم الدقة في العلاج بأن وصفوا أن تعطى بعض العقاقير في الشهر الثالث أو الرابع من فصل پريت ، بينما تعطى عقاقير أخرى في الشهرين الأولين من هذا الفصل نفسه . وعلى النقيض من ذلك كانت بعض التركيبات الأخرى مفيدة خلال فصل آخت أو پريت أو شمو ، ومعنى آخر في أي وقت طوال العام. (١٠) ورغبة في التيسير وسهولة الاستعمال قسمت فصول السنة الثلاثة إلى اثني عشر شهراً كل شهر ، يتكون من ثلاثين يوماً . وقد كان هذا لا يزال مستعملاً في عصر رمسيس كما كان مستعملاً من قبل في أقدم العهود السابقة ، حسب ترتيبها في الفصل ، فيقال : الشهر الأول أو الثاني أو الثالث أو الرابع من آخت أو من پريت أو من شمو . والأسماء التي أخذت من الأعياد الشهرية لم تستعمل إلا في العصر الصاوي وكانت تضاف خمسة أيام في آخر الشهر الرابع من فصل شمو لتكملة العدد ٣٦٥ . فكيف استطاعوا إذن التوصل إلى أن يبقى التقويم ثابتاً وبحولاً دون تأخير بده السنة يوماً كل ٤ سنوات ؟ لا توجد مستندات فرعونية تذكر ذلك . ولكن سترابون ذكر بطريقة غير مألوفة ، أنهم كانوا يضيفون يوماً في بعض المناسبات عندما تسكمل كسور الأيام الزائدة كل سنة يوماً كاملاً. (١١) وكان من الأفضل أن يضيفوا يوماً كل ٤ سنوات ، وقد تم

هذا عندما أتيح لمصر الحظ السعيد في أن يتولى عرشها ملوك مثل الملك سبتى أو ابنه . ونستطيع أن ندرك أن هذا اليوم الإضافي قد أهمل أمره تماماً خلال أيام الاضطرابات ، وبذلك اختل التقويم إلى أن لفت علماء ديت الحياة نظر أحد الفراعنة المتورين إلى ذلك ، فظم التقويم وجعله متمشياً مع الطبيعة وأعاد بدء السنة إلى يوم عيد سويديت .

٢ - الأعياد والأجازات

لم يكن أول يوم في السنة عيد المعبودة سويديت فحسب ، ولكنه كان عيداً يحتفل به في كافة أرجاء البلاد . وفي معبد أوب واوات ، كان أهل المنزل يقدمون هداياهم لسيدهم ، (١٢) ويعني هذا كما أعتقد ، أن كهنة المعبد كانوا يقدمون للمعبود القرايين التي كان القرويون قد أحضروها في الأيام السابقة . وقد سجل الأمير قن آمون Qenamoun على مقبرته صور الهدايا الثمينة التي قدمها بمعرفته للملك بمناسبة يوم رأس السنة . (١٣) فهل يكنى هذا للاعتقاد بأن كل المصريين كانوا يتبادلون في ابتداء السنة التمنيات والهدايا؟

لقد كانت الأعياد ، طوال السنة عديدة جداً ولا حصر لها . وخاصة في فصل آخيت حين كانت تتوقف الأعمال الزراعية . وكان عيد أوبت الكبير يستمر زهاء شهر خلال هذا الفصل . أنا لا أجزم أن الأهالي كلهم كانوا يحصلون على أجازة لمدة شهر ولكن من المؤكد أن حشوداً عديدة كانت تحتفل بالمركب المقدسة لآمون ويتبعون ركابها من شاطئ النهر عندما تتجه إلى أوبت الجنوبية ، وكان المصريون يتركون بسرور بالغ أعمالهم ليشاركوا في أعياد بوسطة ، فيركبون القوارب ومعهم نساؤهم يحملن الصاجات ، والرجال لا يسكفون طوال الطريق

عن الغناء والرقص وتبادل الدعابات مع من يصادفونهم في الطريق . ويقال
لأنهم خلال العيد كانوا يشربون كميات وفيرة من النبيذ تفوق ما كانوا
يتناولونه طول العام . وعيد تيخي وهي كلمة تعني « السكر » كان يحتفل
به في اليوم الأول من الشهر الثاني — وكان من الأعياد المحبوبة التي لا
يتخلى عنها . وكان اليوم الأول من الشهر الأول من فصل البذر يحتفل به
كعطلة عامة في مصر كلها . وكان من الواجب أن يحتفل كل إقليم في كل مدينة
مرة في السنة على الأقل بالمعبود المحلي الذي كان سيدهم وحاميهم . ولما
كانت آلهة المصريين مغرمة بالرحلات وبكرم الضيافة فكان كل معبد ،
مهما كانت درجة أهميته يستضيف العدد الوفير من هذه الآلهة .

وكان لاحتاح معبود منف أملاك داخل حدود الكرنك وكان لو اُجبت
سيدة إيميت Imit أملاك في تانيس . فالأهالي الذين لم يكن في مقدورهم التخلي
عن واجب الاحتفال بمعبودهم المحلي كانوا لا يستطيعون أن يهملوا الاحتفال
بالآلهة الصديقة ، فكانوا يتعطرون ويزينون بالملابس الجديدة ثم يتوجهون
للمعبد لتقديم القرابين ، وكان يسمح لهم بتناول الشراب والأطعمة والصياح
أكثر من المعتاد . وكانت بعض الأعياد متصلة في النفوس ومحترمة إلى حد
كبير ، حتى أنه إذا لم يكن للمعبود المحتفى به هيكل في المعبد المجاور كان يحتفى
به في البيوت ذاتها ، وفي هذه الأثناء لا يمارس إنسان أى عمل جديد ، وفي بعض
الآحيان لا يمارس أى عمل إطلاقاً . وقد كان من حق الفلاح والعامل أن
يقولوا ، كما قال الاسكافي في قصص لافونتين * إن الخورى ، يشيد دائماً في
عطته الأسبوعية بسيرة أحد القديسين الجدد ، ويظهر ، من ناحية أخرى

أن أول كل عشرة أيام كان بمثابة أيام الاحاد . وقد نقش على لوحة السنة الثامنة التى أقيمت فى معبد حاتحور بمدينة أون ، خطاب رميس الثانى للعمال الذين قاموا بتجميل معابده وقصوره : « لقد ملأت لكم الصوامع بكافة الأشياء ، فطائر ولحوم وحلوى ونعال وملابس وروائح عطرية تعطرون بها رؤوسكم كل عشرة أيام وملابسكم لطول العام ، ونعال لأقدامكم كل يوم. (١١) ولم يكن من المعقول أن يطلب من هؤلاء الذين يفرطون فى زينتهم وتمتلىء بطونهم بالطعام الشهى الدسم أكثر من المعتاد ، أن يؤدوا أعمالهم .

٣ - أيام العمر والنحس

بعد أن يتمم المصرى واجباته نحو الآلهة ويراعى العطلة الدينية ، كان لا يستطيع أن يستمتع بالملذات أو يودى أعمالا نافعة دون أن يحتاط لأمره ، وكانت الأيام مقسمة إلى ثلاثة أقسام مختلفة :

أيام سعيدة ، وأيام منذرة ، وأيام معاكسة عدائية ، وذلك وفقا للأحداث التى طبعت بها وقت أن كانت الآلهة على الأرض ، فى نهاية الشهر الثالث من موسم الفيضان توقف المعبودان هورس وست عن النضال الخفيف الذى كان ناشبا بينهما . ومنذ تلك اللحظة ساد السلام جميع أرجاء العالم ، وأعطى هورس ملكية القطر المصرى بأكمله ، بينما استولى ست على الصحراء على مدى اتساعها وأصبح الإلهان فى صفاء دائم ورتام مستقر أمام الآلهة الذين سادهم السرور ، لأن التزاع كان قد امتد إلى جميع سكان السماء . وتوج هورس رأسه بالتاج الأبيض بينما لبس ست التاج الأحمر . كانت هذه الأيام الثلاثة سعيدة ، وكان أول يوم فى الشهر الثانى من فصل پريت من الأيام السعيدة أيضاً لأن رع رفع السماء بقوة ساعديه فى ذلك اليوم .

وكذلك اليوم الثانى عشر من الشهر الثالث من هذا الفصل ذاته (پریت)
لأن تحوت أخذ مكان عظمة توم ، فى حوض حقيقى المعبد ، .

ولكن سرعان ما عادت إلى القيام بأعماله الشريرة . فى اليوم الثالث
من الشهر الثانى من فصل پریت ، اعترض ست وأعوانه طريق ملاحه
المعبود شو . فكان هذا يوما منذرا ، مثل اليوم الثالث عشر من نفس
الشهر ، الذى أصبح من الأيام المخيفة إذ كانت عين المعبودة سخمت تغذف
فيه بالآبوتة . أما يوم ٢٦ من الشهر الأول من فصل آخيت فلم يكن فقط
يوما مشيرا للقلق ، ولكنه كان يوم نفس بكل ما فى هذه الكلمة من معنى ، إذ
أنه كان يوم الذكرى السنوية لوقوع المعركة الكبرى بين هورس وست .
فقد اتخذ المعبودان هيئة البشر وأخذتا يتصارعان على الضلوع ثم تغيرا على
هيئة عجل البحر وأمضيا ثلاثة أيام وثلاث ليال على هذه الحال . إلى أن
قامت إيزيس أم هورس وأخت ست وأجبرتهما على أن يتخليا عن هذه
الهيئة المزرية حين طعنهما بربحها . ويوم ميلاد ست وهو اليوم الثالث
من أيام النسيء كان يوما مشئوما . فالملوك كانوا يمضون طيلة هذا اليوم حتى
الليل دون أن يتفرغوا لأى عمل بل دون أن يعنوا حتى بإصلاح
أنفسهم .

وكان سلوك الأفراد ينظم أيضا وفقا لطبيعة الأيام ، فى خلال أيام
النفس كان من المستحسن عدم مغادرة البيت سواء كان عند غروب الشمس
أو فى الليل أو حتى فى أية ساعة من ساعات النهار . وكان من المحرم
الاستحمام أو ركوب قارب أو القيام برحلة أو أكل سمك أو أى شيء
آخر يخرج من المياه أو ذبح عزة أو عجل أو بطة . كما كان الاقتراب من
النساء محرما فى يوم ١٩ من الشهر الأول من فصل پریت . وفى أيام أخرى
(م ٤ — الحياة فى مصر)

كثيرة ، ومن فعل ذلك وقع فريسة للهلاك بالوباء وكانوا لا يجرؤون ، على إشعال النار في بيوتهم ، وحرّم عليهم الاستماع إلى الأغاني المرحّة أو النطق باسم ست ، معبود الشجار والقسوة والشقاء ومن كان ينطق بهذا الاسم ، في غير الليل دبّت في بيته مشاجرات ومنازعات دائمة .

كيف عرف المصري ما كان يمكن عمله أو ما كان يمكن القيام به بمقدار ثم ما حرّم عليه الإتيان به أصلاً ؟ لاشك أنهم اعتمدوا في ذلك على التقاليد الموروثة ، ولكن كانت لديهم تقاويم بأيام السعد وأيام النحس ، تعين ذكرتهم وتبين لهم الحالات المشكوك فيها ، ولدنيا أجزاء كبيرة من أحد هذه التقاويم وبعض أجزاء من تقويمين آخرين. (١٥) ويخيل لي ، لو أن الحظ وانأنا فحصلنا على تقويم كامل لوجدنا المرجع الذي استند إليه المصريون في اعتبار الشيء مسموحاً به أو محرماً . ولم تكن مصر وقتذاك ينقصها وحى الغيب . وتنتائج تقويم أيام السعد وأيام النحس كانت ترد دون شك من المعابد التي كان فيها الوحي الغيبي . وكثيراً ما كانت هذه التقاويم متناقضة دون شك فكان المصري الذي يشعر بحاجة ملحة إلى الخروج من بيته أو السفر أو العمل في يوم من أيام النحس ، يستشير وحياً آخر يعتبر هذه الأيام سعيدة ، وهي التي كان يعتبرها الوحي الأول من أيام الشؤم . وفي مراكر عبادة أوزيريس وهورس وآمون كانت تصرفات ست تذكر بكل حرارة ولكن في باريميس Papremis (١٦) وفي شرق الدلتا بأجمعه وفي وسط الدلتا وفي الاقليم الحادى عشر في الوجه القبلى وفي نوبيت Nonbit وفي الهنسا Oxyrrhinque وبالأجمال في كافة الأماكن التي كان يحج فيها ست ، كانت نفس هذه التصرفات تلقى تأييداً كبيراً وتعتبر من الأعمال العظمية ، ويوم الاحتفال السنوى بها كان يعد من الأيام السعيدة ، ولنغرض مع ذلك أنه لم

تكن لدى المصرى السبل الميسرة ليستشير وحيا آخر أو كان لا يؤمن إلا بوحى نبوته ، لقد كان يرشد إلى ذلك وربما كتبت فى نهاية التقويم السبل التى كانت تخرجه من مأزقه وتؤمنه على القيام بعمله كأن يتصل بزوجه دون خطر أو يستحم دون أن يبتلعه تمساح أو أن يلقي ثورا دون أن يموت فى الحال . وكان عليه أن يتلو تعاويذ ملائمة للمناسبة التى هو فيها أو أن يلبس تيممة ، والأفضل من كل ذلك أن يتوجه إلى المعبد ليقدم قربانا صغيرا .

٢ - الترفيت

إن المصريين الذين قسموا السنة إلى اثنى عشر شهرا ، قد قسموا النهار أيضا إلى اثنتى عشرة ساعة وجعلوا الليل اثنتى عشرة ساعة كذلك ويظهر أنهم لم يقسموا الساعة بدورها إلى وحدات صغيرة .

فالسكمة «آت» التى نعبر عنها بلحظة ، لاتوازى أى مدة من الزمن محددة . وكان للساعات أسماء ، فالساعة الأولى من النهار كانت تسمى البارقة ، والسادسة تسمى القائمة والثانية عشرة «رع يتحد بالحياة» والساعة الأولى فى الليل كانت تسمى «هزيمة أعداء رع» والساعة الثانية عشرة ليلا كانت تسمى «تلك التى تشاهد جمال رع» .(٧)

وقد يحملنا هذا على اللظن بأن تسمية الساعات بهذه الأسماء يجعلها تتغير من يوم إلى آخر، ولكن ليس هذا بصحيح . ففى زمن الاعتدالين يتساوى الليل والنهار وفى بقية الأزمئة الأخرى كان المصريون يعرفون أن الشمس قد تتأخر أو تتقدم ولم يكن هذا يقلقهم كما هو الحال بالنسبة لنا

الآن ، فإنه لا يضيقنا أن تكون الساعة السادسة صباحاً أو الثامنة مساءً ،
تمثل أوقاتاً تختلف في الشتاء عنها في الصيف .

ولم يكن يستعمل الأسماء التي سبق أن ذكرناها ، غير السكينة والعلاء
ونجد بياناً بها على المقابر لأن حركة الشمس في الأقاليم الإثنى عشر من العالم
السفلى كانت تدخل النقوش الجنائزية وكان الأميون يكتفون بتحديد
الساعات بواسطة الأرقام ، وتؤدي بنا هذه الملاحظة إلى التساؤل عما إذا
كان المصريون قد شغفوا بمعرفة الساعة ، وعما إذا كانت لديهم الوسائل التي
تمكنهم من ذلك . لقد كانت هناك طبقة من السكينة تسمى أونوت Ounout
اشتقت من كلمة أونوت Ounout التي تعنى ساعة ، كما لو كانوا يشتغلون
بالتناوب من ساعة إلى أخرى ليأرسوا مراسيم دينية دائمة .

كان أحد كبار الموظفين في عهد پي الأول Papi* يزعم أنه كان يعد
كل ساعات العمل التي تفرضها الدولة ، كما كان يحصى الحبوب والمواشي
والمواد التي تحصل كضرائب . (١٨) وفي الخطاب الذي أرسله الملك نفر كارع
إلى حُر خوف** ، أوصى المكتشف الذي أحضر إلى البلاط قوماً
راقصاً ، أن يشرف على هذا الشيء الثمين ، رجال يقظون يعدون كل
ساعة*** (١٩) وقد يكون من المبالغة أن نعتقد بناء على هذا النص
أن أجهزة قياس الزمن كانت واسعة الانتشار ، فلم يكن الملك نفر
كارع إلا صبياً حينما كتب لحر خوف . فن الجائز أنه كان
قد تصور في سذاجة أن الأجهزة التي رآها في القصر كانت في متناول
الناس جميعاً . وعلى كل حال ، فالأجهزة التي تقيس الزمن كانت موجودة

* أحد ملوك الأسرة السادسة .

** خوف حر

*** في النص حرفياً : عصر مرات كل ليلة .

فى ذلك الوقت ويمكن أن نشاهد فى متاحفنا أمثلة منها ، وهى تنتمى إلى العهد فيما بين الأسرة الثامنة عشرة حتى العصر المتأخر .

وفى الليل كان من المستطاع تعيين الساعة بملاحظة النجوم وبالاستعانة بمسطرة مشقوفة وزاويتين بهما خيط ينتهى بثقل من الرصاص ، وينبغى أن يقوم اثنان بهذه العملية ، فأحدهما راصد والثانى شاهد — ويجب أن يقفا تماما فى اتجاه النجم القطبى ، ويستعين الراصد بلوحة قد أعدت من قبل لهذا الغرض صالحة للاستعمال لمدة خمسة عشر يوماً فقط ، وبواسطتها يمكن قراءة أن نجمة معروفة بالذات يجب أن تكون موجودة فى الساعة الأولى فوق وسط الشاهد ، وفى ساعة أخرى يجب أن يكون نجم آخر فوق العين اليسرى أو العين اليمنى للشاهد.^(٢٠) وإذا أعدت رؤية النجوم كانوا يستعملون آلية قعبة الشكل طولها ذراع تقريباً ومثقوبة من أسفل.^(٢١) وكانت سعة الإناء وقطر الثقب قد أعدت حسابياً بحيث تنسكب المياه من الثقب فى مدة اثنتى عشرة ساعة تماماً وغالباً ما تزين الواجهة الخارجية للإناء بأشكال فلكية. أو بسطور كتابات ونقوش تتعلق بأشكال رسمت أفقياً : فى أعلى الواجهة توجد معبودات الاثنى عشر شهراً وأسفلها رموز العشيرات الست والثلاثين ، وأسفل هذه عبارة إهداء الأثر ، وأخيراً رسم فى كوة صغيرة فرد وهو الحيوان المقدس لتحوت معبود العلماء والكتاب . وكان بين ساقى القرد ذلك الثقب الذى تنسكب منه المياه — وفى الداخل كان هناك إثنا عشر شريطاً رأسياً يفصل بين الواحد والآخر أفاريز ذات عدد مساو رسمت عليها رموز الحياة والزمن والاستقرار . وفيها ثقب غير عميقة وعلى أبعاد متساوية تقريباً وكان كل شريط يخصص عادة لشهر معين بالذات ، ولكن نظراً لأن الثقب كلها متماثلة فكانت تستخدم عملياً لكل الأوقات . وكان من المستطاع استعمال الساعة

المائية خلال النهار والليل على السواء . ولكن في إقليم مثل مصر حيث لا تغيب الشمس أبدا كان من المستحسن استعمال المزولة . وكان منها نوعان: النوع الأول كان يقاس به طول الظل ، والنوع الثاني كان يعين به زاوية اتجاه الظل . (٢٣) وقبلها كان الجمهور يهتم باستعمال تلك الأجهزة . وكان أمرا غير مألوف أن يحدد توقيت وقوع حادث ما صغيرا كان أو كبيرا . وثمة امرأة شابة ، دونت قصتها على لوحة تذكارية ضمن مقتنيات المتحف البريطاني تخبرنا أن ابنها قد ولد في الساعة الرابعة من الليل ولكنها كانت زوجة أحد رجال الدين . (٢٤) وكانت الساعة تقترب من الساعة نهارا عندما بلغ تحتمس الثالث مشارف بحيرة قينا (Qina) في سوريا ونصب الخيام . ولكن لم يذكر لنا المؤرخ أن هذه الدقة في تحديد الوقت كانت نتيجة استعمال المزولة . (٢٥) وكان مجرد ملاحظة الشمس كافيا للدلالة على أن الوقت قد تجاوز قليلا منتصف النهار . وعندما يصل المؤرخ إلى سرد أحداث الواقعة كان يقول ببساطة إن في السنة الثالثة والعشرين في الشهر الأول من الصيف ، في اليوم الحادى والعشرين وهو يوم عيد رى ، إستيقظ صاحب الجلالة مبكرا . وفي سرد قصة هروب سنوحى اكتفى القصاص بأن استعمل عبارات غير دقيقة مثل « أضيئت الأرض » ، « في ساعة تناول العشاء » ، « في ساعة الغسق » ، وكانت هذه الطريقة في التعبير مناسبة للمقام لأن الهارب المسكين لم يكن في حاجة مطلقا إلى استعمال أجهزة لمعرفة الوقت تضايقه مهما كانت خفيفة الحمل . (٢٥) وكانت نفس هذه العبارات أو عبارات أخرى تمانلها تماما ، يعثر عليها في سجل وصف معركة قادش . وفي ورقة البردى المعروفة باسم أبوت Abbott التي تقص علينا تحقيقا قضائيا كما وردت في محاضر التحقيق . بل إن هذه العبارات المقتضية في ذكر التوقيت . لم تستعمل إطلاقا في اللوحات التي تمثل وزراء وهو يستقبل محصل الضرائب أو التي تمثل رؤساء المصالح أو مجالس الملك وهو

يستقبل مندوب الدول الأجنبية ، وكثيرا ما كان يذكر أن فرعون قد عقد المجلس الملكي ولكنهم كانوا يفضلون وقت الاعتقاد ولا يذكرونه ولو على وجه التقريب . ويزعم ديودور أن الملك كان يستيقظ في ساعة مبكرة من الصباح وأن وقته كان موزعا بطريقة دقيقة بين العمل والعبادة والراحة . (٢٦) وليس من المحقق أن ما ذكره ديودور غير صحيح ، غير أنه قلما يبدو أن مثل هذا النشاط يذب في رعاية السعداء . فكانوا يعتمدون قبل كل شيء على شعورهم بالجوع أو على مدى ارتفاع الشمس لتقدير الوقت أثناء النهار ، وفي الليل بينما كان الصالحون من الناس ينامون ، كان الآخرون لا يزالون إطلافا بمعرفة الوقت . والساعات المائتة والمزاويل لم تكن أجهزة يستخدمها المدينون ولا رجال الجيش ولكنها كانت جزءا من أثاث المعابد يرجع إليها رجال الدين الانتباه لأداء الشعائر الدينية في أوقاتها بدقة .

٥ - الليل

كان الأزواج ، لاسيما في الطبقات الموسرة ، ينامون في غرف مستقلة . وبحسبى أن أحد الملوك كان حزينا جدا لأنه لم ينجب ولذا ذكرنا ، فتوسل إلى معبودات عصره أن تمنحه إناقة قررت الاستجابة لمطلبه ، فأمنى الليل مع زوجته فحملت على التو . (٢٧) وليس ثمة شك في أنه إذا اعتاد الملك أن يقضى لياليه بجانب زوجته لكان مؤلف كتاب « الأمير الموعود » قد عبر عن ذلك بطريقة أخرى . (٢٨) وكثيرا ما تمثل الرسوم المنقوشة على قطع الخزف مناظر غرف الحريم دون أن يظهر فيها الزوج ، والأشخاص الذين يظهرون فيها هم النساء وصغار الأطفال دون غيرهم ، فترى المرأة ممددة تارة على السرير ترتدى ثوبا شفافا وقد تكون جالسة منهمكة في

تجميل نفسها بمعاونة خادمتها ، أو قد ترضع طفلها أحيانا . والسرير هو القطعة الأساسية للأثاث وأحيانا تكون قوائم السرير على هيئة المعبود بس Bess ذى الوجه العايس فهو آت من الجنوب . ومن مزاياه أنه يحمى أهل البيت من الحوادث المنزلية ، كالسقوط مثلا . وترى أدوات التجميل وقد صفت تحت السرير بجانب مقعد صغير بدون مسند والسقف مسند بعرق خشب محمول على أعمدة صغيرة على هيئة البردى ، وتحوط هذه الأعمدة أكاليل من أوراق الأشجار الطيعة أو الصناعية ممتدة حتى السقف .

وأثاث غرفة الزوج ، تحتوى مثل غرفة الزوجة ، على سرير ومقعد بدون مسند وموطىء للقدم وصناديق مليئة بالملابس ، كما توجد بالغرفة أدوات الزينة .

وكان المصريون يقلقون كثيراً بسبب أحلامهم ، وكان فرعون نفسه أشد قلقاً ، ذهب الأمير تحتمس ذات يوم للصيد فقام من شدة الإعياء فى ظل أبو الهول ورأى فى الحلم هذا المعبود يأمره بأن يزعج من حوله الرمال التى كانت تخنقه ووعدته جزاء هذا العمل أن يمنحه ملكاً سعيداً . (٢٩) ولم يتردد الأمير فى إنجاز هذا الأمر . وفى المناسبات العصيبة كان فرعون يعتمد على تفسير الأحلام ، فعلى السنة الخامسة من حكم الملك مرى إن بتاح ، اجتمعت شعوب التيرسان Tyrsènes والساردان Sardanes والليسين Lyciens والأكاين Achéens والليبين لمهاجمة الدلتا مجتمعين ، فأراد الملك أن يرد هجومهم ، إلا أن المعبود بتاح ظهر له فى الحلم وأمره أن يبقى فى مكانه وأن يبعث فرق الجيش إلى الأراضى التى كان يحتلها العدو . (٣٠) وكان فرعون يستعين بمفسرى الأحلام عندما يستعصى عليه تفسير الحلم ، وقد حصل (سيدنا) يوسف على ثروته بفضل تفسير حلم البقرات السمان والبقرات العجاف وحلم السنايل . وكان ملك صغير من ملوك

الحبشة ، حين كانت الحبشة على قدم المساواة مع مصر ، قد رأى ذات ليلة شعبانين أحدهما عن يمينه والآخر عن يساره فاستيقظ واختفى الشعبانان . فكان هذا حلماً أخبره المفسرون بأن حالم هذا الحلم موعود بمستقبل باهر . ولما كان هذا الملك مسيطراً على الوجه القبلي فإنه سوف يغزو مصر الشمالية . الوجه البحري ، ويضع فوق رأسه النسر ، رمز الجنوب ، بجانب الشعبان السكويرا رمز الشمال . (٢١)

أما أفراد الشعب الذين لم يكن لديهم مفسر قدير ، فلم يسعهم إلا الاطلاع على أحد المؤلفات من النوع الذى كتب على بردية شستريتي الثالثة Chester Bratty III التى ترجع إلى عصر الرعامسة . (٢٢) وهذا المؤلف مقسم إلى قسمين ، يحتوى القسم الأول على أحلام أتباع هورس ، إذ كان الناس يعتبرونهم الصفوة من المصريين . وفى عهد الرعامسة لم يكن من المستطاع إخفاء أن سلالة أتباع ست كانوا كثيرى العدد جداً وذوى نفوذ كبير لأن الأسرة المالكة كانت تتحدّر مباشرة من المعبود ست ، كما أن مؤسسى الأسرة المالكة كانوا من كبار كهنتها . وكان لزاماً على الناس أن يتقبلوا سوء الطالع قبولاً حسناً . وكان أتباع ست يتبادلون الجملات مع كهنة وأتباع آمون وهورس . على أن هؤلاء كانوا فى أعماق نفوسهم يخفون دائماً أتباع ست . وكانوا يقولون إن المشاجرات والسباب وسفك الدماء كانت من خصال أتباع ست وأن هؤلاء لم يكونوا يفرقون جنسياً بين المرأة والرجل إذ كانوا يذكرون دون شك ما كان قد فعله ذات ليلة معبودهم الفاجر مع ابن أخيه هورس . (٢٣) ومهما كان مركز أحد السنتين ، حتى وإن كان من معارف الملك حقيقة فإنه يظل يعد فرداً عادياً من عامة الشعب . وإذا توفى فلن يكون من سكان الغرب بل يبقى فى الصحراء فريسة للطيور الجارحة والحيوانات المفترسة . وعلى هذا فقد كان كتاب تفسير الأحلام يتناول تفسير أحلام

أتباع ست على حدة في القسم الثاني منه . ولو وصلنا هذا المؤلف كاملا فربما وصلنا على أقسام أخرى كثيرة من تفسير الأحلام . وفي زمن هيرودوت كان لدى المصريين سبع طرق غيبية ولكل منها أساليبها الخاصة بالعرافة. (٢١) ولكن لم يصل إلى أبدينا في الوقت الحاضر ، إلا بداية القسم الثاني . وعلى هذا لم يكن لدينا من سبل لمعرفة ما كان يحلم به المصريون وكيف كانوا يفسرون أحلامهم إلا بالرجوع إلى ما ذكر عن أحلام أتباع هورس بالرغم مما يعتورها من نقص في كثير من أجزاء البردية .

وفي معظم الأحوال كان مفسر الأحلام يلجأ إلى طريقة القياس : فالحلم الطيب يبشر بالحصول على كسب ، والحلم الرديء ينبيء بنكبة ، فإذا رأى الحلم بأنه يعطى خبزا أبيض فهذا حسن ، وسوف يسر بما سيحصل عليه . فإذا رأى نفسه يلبس وجه قهقري ، فسوف يكون رئيسا أو سييدا . وإذا رأى نفسه أمام من يكبره ، فهذا فال حسن أيضا . وأن الروح العظيم الحارس له سوف يرفع شأنه . وبالعكس ذلك فليس من الفأل الطيب أن يحلم المرء أنه يرتشف جعة ساخنة ، فإنه سيفقد شيئا من أملاكه ، وإذا شك الإنسان نفسه بشوكة فهذا دليل على الكذب ، وإذا انتزعت منه أظفاره فهذا معناه أنه سيحرم من ثمرة عمل يديه . وإذا سقطت أسنانه فمعناه أن أحد الذين يتعلق بهم سيقبض حقه . وإذا أطل داخل بئر فسيخرج به في السجن . وإذا تساقط ساري مركب فإن معبوده سوف يرفع شأنه . وإذا تسلم مواد غذائية من المعبد فالمعبد سيمنحه الحياة ، وإذا غطس في النيل فعنى ذلك أنه نظمه من خطاياهم .

ولم تكن كل الأحوال سهلة كهذه وإلا أصبح فن تفسير الأحلام في تناول الجميع ولم تكن هناك حاجة إلى مؤلف يحتوى على طريقة تفسير

الأحلام . وهاك بعض الحالات التي يكون فيها للحلم معان غير متوقعة ، فإذا رأى الحلم أنه يداعب زوجته في الشمس فهذا ردىء ، إذ أن معناه سوف يراه بأثسا . وإذا كان يشم أحجارا فعناه أن الآلهة قد غضت عنه البصر . أما إذا كان يطل من شرفة فعنى ذلك أن الآلهة سوف تستجيب لابتهاالاته . وإذا كان الحلم يرى نفسه يقود مركبا فعنى ذلك أن أموره تسير على مايرام .

وكان الأمير أهتجب يمارس في شغف تفسير الأحلام ومع ذلك فإن الحلم بقيادة السفن كان بنىء أيضا عن خسران قضية . كذلك نرى من العسير أن يفسر كيف يكون الحلم بحب الوالد المتوفى حماية من الأدنى لمن رأى آسويين .

ويتخلص مفسر الأحلام أحيانا عندما يرى نفسه في مازق بأن يلجأ إلى التلاعب بمعانى الألفاظ ، فأكل لحم الخمار بنىء بالعظمة لأن كلبى حمار وعظم متشابهتان في النطق . وإذا كان تسلم قيثارة يعد أمرا سيئا ، فذلك لأن كلمة بوانيه التي تعنى قيثارة تذكر بكلمة بين التي معناها سيء . أما الأحلام الفاحشة ، وهى كثيرة الحدوث ، فعادة لا يكون تفسيرها طيبا . والذي يحلم أنه ارتكب فاحشة مع حداة ، فسر ذلك بأنه سوف يسرق ، ربما لأن الحدأة تحطف ، ولدينا بالفعل تعويذة لمنع هذا الطائر من الخطف والسرقة . ولا يجب أن يكون الإنسان مطمئنا تماما إذا ما رأى في الحلم أشياء تتعلق بالشعائر الدينية ، فخرق البخور للآلهة في الحياة العامة عمل مشكور ، أما الذى يعمل ذلك في الحلم فعناه أن قوة الإله ستكون موجهة ضده .

أما الذى يرى حلما مفزعا فلا يجوز أن يتطرق اليأس إلى قلبه ، فالبقرات

العجاف وسنابل القمح المحترقة كانت مجرد تنبيه لاتخاذ الحيطة أكثر مما كانت
نذيراً بوقوع كارثة مروعة لامفر منها .

وفي مثل هذه الحال ، يحسن أن يبتهل الإنسان إلى إيزيس لتعاضده
وتحميه من النتائج الوخيمة التي لا يفي ست بنووت عن العمل على إنجازها .

ولأجل إبطال نتائج الأحلام المزعجة ، يؤخذ بعض الخبز مع قليل
من الحشائش الخضراء ويبلل بالجمعة ويضاف إليها البخور ثم يمسح الوجه
بهذا الخليط ، وبهذا تمحى الأحلام السيئة .

الفصل الثالث

الأسرة

١ - الزواج

سواء كانت الدار كبيرة أو صغيرة وسواء كانت مؤنثة بأنغر الرياش أو كانت تحوى حصيرة بسيطة فقد كان لكل رب أسرة منزله خاص به . فانشاء دار واتخاذ شريكه فى الحياة كان معناهما واحدا أى أنهما مترادفان . ولذلك كان الحكيم يتاح حث ينصح أتباعه بأن يقوموا باتمام الأمرين معا فى الوقت المناسب . (١) وفى قصة الأخوين ، كان للأخ الكبير زوجة ومنزل ، أما الصغير فكان لا يملك شيئا ، وكان يعيش مع أخيه تابعا له ، يرعى ما شئته وينام فى الإسطل . وكان أحوزا قبل أن يشتهر فى إحصار أواريس Haouārit قد أمضى شبابه محترفا أعمال الملاحاة الشاقة وكان ينام فى شبكة معلقة ، كجندى قديم ، وانتهر فرصة هدوء مؤقت بعد المعركة ليعود إلى بلده فخيبت Nekhabit ليشيد منزلا ويتزوج ، على أنه قد كتب عليه ألا يستمتع طويلا بالسلام العائلى لأن الحرب قامت مرة ثانية ، ولم ينس جنود فرعون المحاربون أن أحوزا كان شجاعا وعرفوه أنهم لا يستطيعون أن يخوضوا حرا بالاشتراك فيها . (٢)

تقول لنا شخصية كبيرة من أتباع الملكة أنها زوجته من إحدى وصيفاتها ، وعندما ترمى زوجته بوصيفة أخرى ، ولم يضره هذا فى شيء . لأن الملكة لم تكن تبخل على وصيفاتها فتمنحنهن الهبات والصدقات السخى . (٣) لذلك ينبغى أن نعرف أنه فى كثير من الحالات كان الآباء أو الرؤساء هم الذين يقررون

الزواج. (١) ومع كل فإن الأغانى الغرامية المدونة على أوراق البردى المحفوظة في متاحف لندن وتورين تبين أن الشبان كانوا يتمتعون بحرية كبيرة في اختيار شريكه الحياة . فالأغنية الغرامية التالية يصف فيها شاب فتاة جميلة فيقول : « شعرها أسود ، بل أشد سوادا من الليل ومن حبوب أشجار الخوخ البرى ، وشفاها حراء ، بل أشد حمرة من العقيق ، ومن البلح الناصج ، ونهداها بارزان في تناسق جميل فوق صدرها ».

وهذا وصف رائع لمحـب، وليفـت نظـرها لـجأ إلى حيلة . وهى قوله : « أود أن أرقـد فى المنزل وأصطـنع المـرض ، سوف يحضـر جـيرانى لـزيارتى وستكون أختى معهم ، وستسخر من الأطباء ، لأنها تعلم حقيقة مرضى » . (٢) ولم تنجح الحيلة ، لأن الشاب مرض حقيقة ، وهذا يماثل ما أورده الشاعر الشهير أندريه شنير André Chenier : « اليوم مضت سبعة أيام دون أن أشاهد خلاها أختى ، ودخلنى السأم وانتابنى الذبول ولم يعد جسمى يتعرف على نفسه ، إذا عادنى كبار الأطباء فدواؤهم لا يشفىنى ، ولا يستطيع الكهنة لوصول معى إلى شئ . ولم يعرف أحد تشخيص مرضى . إن ما فعلته هو ما يجعلنى أبقي على قيد الحياة . إن اسمها هو الذى يشتد به عضدى . إن تردد سلها على هو الذى يبعث فى الحياة . إن أختى أنجعتلى من جميع الأدوية أكثر فائدة من كل الكتب . إن زيارتها تشفىنى . وإذا مارأيتها تدب مافية فى جسمى . عندما تفتح عينيها يعود الشباب إلى جسمى . وحينما تكلم أصبح قويا . وعندما أقبلها ، يفر المرض من بدنى . ولكنها غابت فى منذ سبعة أيام » . (٣)

والفتاة بدورها ليست عديمة الشعور حينما ترى شابا جميلا ، فهى تقول :

« إن نبرات صوت أخى قد اضطرب لها قلبي ، (٧) غير أنها تفكر فى المستقبل وتعتمد على والدتها : « ومع أنه يسكن بجوار منزل والدتى إلا أنى لأستطيع أن أتوجه إليه ، وتحسن والدتى صنعا إذا ما اهتمت هى بأمرى هذا ، (٨) وتأمل أن يفهم الشاب الظريف حالتها ويقوم هو بالخطوات الأولى « آه لو أرسل رسولاً لوالدتى . يا أخى لقد جعلتنى المعبودة أور* من نصيبك كزوجة ، تعال إلى حتى أرى جمالك . إن والدتى ووالدتى فى فرح وسرور ، ويهلل لك كل الرجال فى صوت واحد ويدعوك لى يا أخى . » (٩)

وفى نفس الوقت فإن الأخ من جانبه ، المتلهف للحب ، يتضرع للمعبودة أور سيدة السرور والموسيقى والأغاني والحفلات والحب : « إني أعبد نوبيت Noubit وأقدم لجلالتها كل تمجيد ، أحبي سيدة السماء ، وأعظم حاتمور وأحبي معبودتى وأبعث إليها بطلبتى فتستجيب وتختار لى سيدة ، لقد أتت إلى بنفسها لترانى ، فاعظم ماحدث لى ، إني فرح ومغتبط ، لقد كبرت ا . » (١٠)

وقد تقابل المحبان وتفاهما ، ولكن كليات الارتباط لم ينطقا بها بعد ، فالفتاة موزعة بين الخوف والأمل وتقول : « كنت أمر بالقرب من داره فوجدت بابها مفتوحا ، كان أخى واقفا بجانب أمه وإخوته وأخواته وأمر خبه قلب كل من مر بالطريق . فهو شاب كامل ليس له مثيل ! وأن أخى شخص ممتاز . نظر إلى عند مرورى . أنا وحدى ابتهجت ، كم كان غلبي يهتز طرباً لأن أخى رآنى ، إني لأسأل الإله أن يجعل والدتك تعرف خيثة قلبي ، فتحضر لتسكن بجوارى . »

ليت المعبودة نويت* نضع هذه الأمانة في قلب أمه، فأتجه بسرعة صوب
أخى وأقبله على مرأى من زملائه (١١). (كان المصريون يقبلون بعضهم
بكمالاتهم وليس بالشفاه كما كان يفعل الإغريق وقد قلدهم في العصر
المتأخر) وإلى أن يتم ذلك كله، كانت الأشجار وعصافير الحديقة تلتقي
اعتراقات الحبيبة التي كانت تتصور أنها قد أصبحت سيدة الدار تنزه
معه متكأة على ذراع حبيبها. (١٢) وإذا كانت الأمور لا تسير بسرعة
كما يتمناها الحبان، بأن تقوم عقبات في طريقهما، فالمسئولية تقع على
عاتقهما. كان الوالدان موافقين ولم يثيرا اعتراضاً على ما اختاره أولادهما،
أما إذا عارضاهما مجرد شكليات. والدليل على ذلك أن فرعون فكر في أن
يزوج ابنته أهوري Abouri لأحد قواد المشاة وابنه تنوفر كابتاح لابنة
قائد مشاة آخر ولكنه لم يتم هذا الزواج، وزوجهما لبعضهما عندما
لاحظ أنها يحبان بعضهما حباً عتيقاً. (١٣) وفي قصة الأمير الموعود
يصل الأمير إلى مدينة نهارينا Naharina حيث يوجد شبان في مثل سنه
مجمعين لمحاولة اعتلاء سور. وكان ملك البلاد قد قرر أنه لا يوافق
على زواج ابنته إلا للشخص الباسل الذي يستطيع الوصول أولاً
إلى نافذة الجميلة التي تسكن القصر المقام على الجبل. فاشترك الأمير
متكرراً في المباراة مع بقية الشبان متظاهراً أنه ابن ضابط مصري.
ترك منزل عائلته لأن والده تزوج بسيدة أخرى كانت تكرهه وجعلت
حياته جحيماً. استطاع الأمير الفوز في المباراة، غضب الملك وأقسم ألا
يزوج ابنته لهارب من مصر ولكن لم يكن هذا رأى الأميرة، لأن مجرد
روية هذا المصري قد هز أعطاف قلبها وذكرت أنها إن لم تتزوجه فسوف
تموت لساعتها. أمام هذا التهديد فترت معارضة الوالد فأحسن استقبال
هذا الشاب الغريب واهتم بقصته غير أنه كان يحمل أن القدي أمامه هو

ابن فرعون ولكنه غمره بعطفه وقبله زوجاً لابنته وغمره بالهدايا ، لأنه شعر نحوه بمجاذبية إلهية .

وفي الأغاني الغرامية ينادى الشاب محبوبته الغالية « يا أختى ، وتنادى الفتاة حبيبها « يا أختى ، ، على أنه لوحظ أن المحبين لا يعيشون تحت سقف واحد وأن أهل الشاب هم غير أهل الفتاة .

وبعد الزواج يستمر الرجل ينادى زوجته سونيت Sonit بمعنى أخت . وليس هيميت Himit بمعنى زوجة . (١٥) وقد استقر هذا النظام في نهاية الأمر في الثامنة عشرة تقريباً ولا نعرف متى انتهى ولكنه استمر بالتأكيد طوال عهد الإمبراطورية الحديثة .

وأمام المحاكم كانوا لا يستعملون سوى الألفاظ الدقيقة ، لذلك استعملت كلمات سن Son الأخ وهاي Hav الزوج وهيميت Himit الزوجة وقد قرر الإغريق أولاً وتبعهم كثيرون من المؤرخين الحديثين ، أن الزواج بين الأخوة كان القاعدة المطردة في مصر القديمة (١٦) إذ يوجد فرائع تزوجوا أخواتهم أو بناتهم أيضاً ولكن يمكننا أن نقرر في هذا الشأن ، ما قرره القضاة الملكيون لقميز Cambyse عندما سألهم إذا كان القانون يسمح لمن يشاء بزواج أخته ، فأجابوه بأنه لا يوجد قانون يسمح بذلك ، ولكن يوجد قانون آخر يعطى الملك الحق في أن يفعل ما يشاء . (١٧) وحتى الآن لا يمكن أن نذكر أن فرداً مصرياً واحداً من طبقة النبلاء أو من الطبقة الوسطى أو من عامة الشعب قد تزوج أخته من أبيه وأمه . ولكن يبدو أن الزواج بين الخال وابنة الأخت كان مسموحاً به إذ وجد دلي مقبرة أمنمحات Amonemhat أن ابنة أخته باكت آمون Baket Amon تجلس بجوار (م م - الحياة في مصر)

عالمها ، كما لو كانت زوجته. (١٨)

والإشارة إلى الزواج نادرة في النصوص والوثائق المصرية، وحينما أراد فرعون كما ورد في قصة ستنا خامواس أن يزوج أولاده قال : « فليحضر أهوري إلى منزل تنوفر كإبتاح هذه الليلة بالذات . وتحمل مع الأميرة كل أنواع الهدايا . وقد نفذت أوامر فرعون ، وتقول العروس الشابة : « أتواني كعروس إلى منزل تنوفر كإبتاح . وقد أمر فرعون أن تجلب لي هدية عرس وسوار من الذهب والفضة ، قدمها لي كل أفراد البيت المالكة ، (١٩) . وكان انتقال العروس من بيت أبيها إلى بيت خطيبها مع صداقها هي الخطوة الأساسية في حفلة الزواج . ويخيل إلى أن هذا الموكب كان جميلاً ورائعاً . ولا يقل بهجة وصخباً عن مواكب حملة القرابين عند تقديمها إلى المعابد أو مواكب الأجانب وهم يلتسمون أن يصبحوا في حضي الملك ، أو مواكب الجنائز التي كان المصريون يعتبرونها حفلات لتغيير مكان الإقامة . ومن المرجح أن الخطيب كان يتقدم موكب عروسه ، فتحن نعلم أن رمسيس الثاني ذهب إلى أحد قصوره الكائنة بين مصر وفينيقيا لينتظر قدوم ابنة الملك خاتوسيل Khattousil التي عبرت إبان الشتاء جزءاً من آسيا الصغرى وسوريا كلها لتصبح الزوجة الأولى للملك .

وكان من عادة المصريين أن يدونوا الحوادث الهامة في وثائق . ومن الجائز أن يتقدم العروسان إلى موظف حكومي ليقيد أسماءهما مع تفاصيل اتفاقية الزواج . وعندما تذهب سيدة متزوجة إلى المحكمة ينادونها باسمها محروفاً باسم زوجها ، مثلاً موتامويا Moutemouia زوجة كاتب الكتب المقدسة نسيامون Nesiamon . وتؤكد نطمة من الخرف وجدت في طيبة أن الزوج يسام بثلاث الأعباء المالية وتسام الزوجة بالثلث . وبعد وفاة أحدهما فإن الشخص الذي لا يزال على قيد الحياة ينتفع بالدخل كله

ولكن لا يستطيع أن يتصرف إلا في الجزء الذى يخصه . (٢٠) فتلا تنازل
حلاق لعبد عن دخل محله وزوجه ابنة أخته اليقمة ، فأعطيت مهرأ من
ثروة الحلاق الشخصية التى كان قبل زواجه ، قد سجل قسمها بين زوجته
وأخته. (٢١)

ومن العسير أن نعتقد أن الدين لم يتناول بالتنظيم موضوعا ذا أهمية
عظمى مثل الزواج ، وعندما يتولى رجل متزوج الحج إلى أيديوس (العرابة
المدفونة) كانت تصحبه دائما زوجته . وغالبا ما يذهب الزوجان معا إلى
المعبد . لقد فعل هذا نفرحتب Nefrhotep الحارس الاول لقطمان آمون ،
فرافقته زوجته سيدة الدار المدروحة من حانخور ، سيدة القوصية Cusae
ومغنية آمون عندما يعبدون وقت بزوغه فوق الأفق الشرقى وحر آختى
Harakhtie عند أفروله فى الأفق الغربى . لذلك يبدو لى ، بالرغم من عدم وجود
وثائق قاطعة ، أن الأزواج وربما كل أفرادهم كانوا يتوجهون إلى معبد الإله
المحلى حيث يقدمون الذبائح والقرايين ويتقبلون البركة .

وبعد أن يتم المكتبة والكهنة طقوسهم الدينية ويذهب العروسان إلى
منزلها ، ينصرف المدعوون . وهنا أنجاسر وأقترض ، نظراً لما كان يتصف به
المصريون من ولع بإقامة المآدب العائلية بأنه قبل أن يترك العروسان وحدهما ،
كانوا يحتفلون كيوم عيد وكانوا يتناولون الشراب والطعام بقدر ما تسمح به
ظروفهم المادية أو غرورهم وحب الظهور .

٢ - الزوجة

يعطينا الرسامون والتحاتون فكرة لطيفة عن الأسرة المصرية . فالوالد
والوالدة يتماسان فى حب بالأيدي أو بالخصر ، وملتصق الأطفال الصغار

بوالديهم مهما كانت منهم. (٢٢) وأثناء حكم اخناتون Akheraton صورت
المشاعر المتدفقة للزوجين الملوك فرسموا الملكة جالسة على ركبتى الملك .
والملك والملكة يغمران أولادهما بالقبلات ، والأطفال بدورهم ، جزاء هذا
العطف بلاطفون ذفن والدم أو والدمهم بأيديهم الصغيرة . وزال هذا الطابع
بزوال بدعته لأنه لم يكن إلا مظهرا أو نتيجة لها ، ومنذ ابتداء الأسرة
التاسعة عشرة يعود الفن المصرى إلى صرامته وأصبحنا نشاهد على جدران
المقابر الزوج والزوجة جالسين بصفة دائمة بجانب بعضهما متحدثين إلى
الأبد ، كما لو كان يراد أن تصورهما كذلك فى هذه الحياة الدنيا .

لم تتعلق النصوص الأدبية المرأة المصرية ، فصورتها مستهتره ، تهتم
بزيتها ، هوائية ، ليس فى قدرتها أن تكتم سرا كاذبة ، محبة للانتقام ، غير وفية
بطبيعتها ، يرى فيها الرواة وعلماء الأخلاق بذرة كل خطية وجراب كل
خبث . (٢٣)

فى أحد الأيام كان الملك سنفرى Snefroui متضايقا ضيقا شديدا ،
وللتخفيف عنه فكروا فى تسيير زورق فى غدير بالساتين الملكية ، وكان
بالزورق عشرون فتاة كلهن عرايا إلا من غلالة رقيقة . فقدت إحدى الفتيات
المجدفات حليتها من الفيروز الجديد ، فتوقفت عن التجديف فقال لها الملك :
« استمرى فى التجديف وسأعوضك عنها » فردت عليه قائلة : « أفضل حليتي
على مثيلتها . » فسكت الملك وأحضر فى الحال الساحر الذى استطاع بطريقته
الخاصة الفريدة أن يعثر على الحلية المفقودة حينما وضع نصف الماء فوق
النصف الآخر . (٢٤) وفى قصة أخرى لمح الآلهة التسعة يتاور Bythou
وحيدانى وادى البلوط فاشفقوا على وحدته ووهبوا له سيدة لامتيل لها ، لأن
كل إله كان قد منحها خير ما ينصف به . وابتدأت بمخالفة أوامره ثم بخيانته فيها

بعد . ولما تقمص يتاور هيئة ثور وأصبحت زوجته السابقة محظية لفرعون تمكنت أثناء مداعبة أميرها وسيدها أن تحصل على أمر بذبح الثور.

إلا أن يتاور تقمص شجرة لبخ فطلبت أن تقطع الشجرة . وعندما كان يتاور خادما بسيطا في حفل أخيه الأكبر ، اكتسب أول خبرة له في غدر النساء ، وكان في وقت نثر البذور ، وكانت الأرض قد انحسرت عنها مياه الفيضان وصالحة للحراث ، وكان الأخوان قد خرجا إلى الحقول لبذرهما ، ولكن لم تكن البذور كافية فعاد يتاور وحده إلى المنزل لإحضار البذور ، وعندما قفل راجعا من المخزن وهو يحمل بسهولة جوالا ثقيلًا ، لمحت زوجته أخيه فاعجبت به وفي الحال اشتتهه ، وقالت له : « تعال لنضطجع معاً ساعة وسأصنع لك ملابس جميلة ، فانقلب يتاور كنمر من الجنوب وقال لها : وأنت لي بمثابة أم وزوجك بمثابة أب ، وحذار أن تنفوهي بمثل هذا القول الفاحش مرة أخرى ، ولن أبوح لأحد بما حدث . ، وذهب تاركا وراءه الخاتمة ذليلة والحقد يملأ قلبها . ولما كان الزوج سريع الانفعال قليل التبصر ، لذلك كان العربدة لهذه المخلوقة السيئة السلوك التي حملت زوجها أنوبو Anoupu على الاعتقاد بأن أخاه حاول أن يروادها عن نفسها وزعمت أنها صدته ، ولن يهدأ لها بال إلا إذا عوقب بالموت. (٢٠)

في زمن قديم كانت زوجة تشرفاتى في البلاط تخون زوجها مع شاب حديث السن وكانت تغمره بالهدايا . وكانت زوجة كاهن من كهنة رع تخونه أيضا وملأت بيته بثلاثة أولاد من الزنى وكان عذرها لزوجها أن الإله رع نفسه هو والدهم وهو الذى أراد أن يعطى لمصر ثلاثة ملوك أقياء خيرين. (٢١)

وقد حدث ذات يوم أن زوجة روديديت Roudidit غضبت مع خادماتها وطردها ، ففكرت الخادمة التي كانت على علم بكل شيء أن تبلغ الأمر

أصاحب الشأن ، ولكن لسوء حظها أطلعت أولا أخاها على هذا السر ، فضر بها ضربا مبرحا جزاء الثقة والإخلاص . (٢٧) وهذه قصة تبوبوت Tabobout وهي سيدة عريقة من أصل كريم إذ كانت من خادمات المعبد وليست من بنات الشوارع . أصرت أن يحرم عشيقها أولاده من ميراثهم وأن يقتلهم بعد ذلك . (٢٨) وسيدة نبيلة أخرى رأت الحقيقة متنكرة على هيئة شاب جميل ، فوهبته نفسها وبعد أن أشبعت نزواتها منه لم تعد تهتم بأمره إلى حد أن جاءها في أحد الأيام يقول أمام بابها فانتظر طويلا ، قبل أن تبوح لابنها أن هذا المتسول هو أبوه (٢٩) .

وهكذا نرى أن كل ما جاء عن المرأة في القصص المصرية ، لم يكن منصفاً للمرأة ، وبالعكس فالرجل كان هو المخلص الأمين ، المحب العطوف الخدوم المتصف بالاروة والعقل . وجاء في نفس هذه القصص أن فرعون كان ذا تفكير محدود يحاول تحقيق رغباته ونزواته بالإلتجاء إلى كتابه وسحرته في كل مناسبة ، وهذه كانت طبيعة الجنس البشري وبالرغم من ذلك فالواقع أن الكهنة من الملوك المصريين كانوا مثال الشجاعة في الحرب ، ماهرين في إدارة شئون الدولة كما أن كثيرات من المصريات كن زوجات مثاليات صالحات ، وأمهات طيبات ، كذلك كانت السيدة الشابة التي دونت قصتها على لوحة التذكارية في المتحف البريطاني والتي جاء فيها : « أيها العلماء والكهنة والأمراء والنبل والناس أجمعين وكل من يدخل هذا السرداب * ، استمعوا إلى : ولدت في اليوم التاسع من الشهر الرابع لموسم الفيضان في السنة التاسعة من حكم بطليموس الثالث عشر . وفي اليوم الأول من الشهر الثالث من صيف عام ٢٢ زوجني والدي لـ كاهن كبير اسمه بشر ينبتاح . . . Pcherenptah ابن بتوباستي Petoubasti . وكم حز في قلبي أن أنجب له

ثلاث بنات دون أن أنجب له ولدا ، فصليت مع هذا الكاهن الكبير وشاهد
المعبود Imhotep بن پتاح أن يكون عطوفا فوهبني ولدا لمن
لا نسل له : استجاب إلى تضرعاتنا كما فعل مع كل من تضرع له . وفي نظير
الأعمال الطيبة التي قام بها هذا الكاهن الكبير فقد حملت وأنجبت ولدا .
في الساعة الأولى من اليوم الخامس في الشهر الثالث من الصيف في السنة
السادسة من حكم الملك كليوباترا في يوم عيد تقديم القرابين حيث كانت
توضع الهدايا على مذبح هذا المعبود العظيم امحبت الملقب بتوباسطى .
وقد سر جميع الناس لهذا الحادث السعيد ووافقوا الأجل في اليوم
السادس من الشهر الثاني من فصل الشتاء في السنة السادسة ، وقد
وضعني زوجي الكاهن الكبير يشر يفتاح في الجبانة ، وقام بكافة المراسم
التي تؤدي للأشخاص الأوفياء السكاملين ، وقام بتكفيني بأعظم طريقة
وواراني التراب في مقبرة خلف راكوتي (٣٠) * . ماتت خاضعة لإرادة والدها
ومطبعة حتى وهى في قبرها لرغبات زوجها البائس تا امحبت Ta Imhotep
ماتت في زهرة شبابها ، مأسوفا عليها من زوجها الذي لم يرض عنها بالمال
في سبيل دفنها ، في جلال ووقار .

وأمام هذه القصة المؤثرة يجدر بنا إنماما للفائدة قراءة الرثاء الذي رثى
به رجل زوجته ، ودون على بردية ، في متحف ليدن :

« لقد كنت شابا عندما تزوجتك ، وأثناء وجودي معك حصلت على
أرفع المناصب ، ولم أترك يوما ، ولم أعذب قلبك إطلاقا . هذا ما فعلته عندما
كنت شابا وعندما شغلت أكبر وظائف فرعون له الحياة والصحة والقوة ،

لم أهرّك وبالعكس كنت أقول لنفسي لتكن سعادتي معك وكنت أرفض كل وشاية بك وكنت أقول : إنى أعمل مستوحيا قلبك ، لكن انظري إلى ما حدث لى عندما كلفت أن أدرب ضباط جيش فرعون وجنوده كنت أكلّفهم أن يذبّطحوا على بطونهم أمامك ومعهم أشياء طيبة كثيرة لكي يضعوها أمامك ، لم أخف عنك شيئا من أرباحى حتى هذا اليوم من حياتى ، لم يحدث لى أن خدعتك إطلاقا كما يفعل الفلاح الذى يتسلل إلى بيت سواه ، لم أحاول أن أرسل عطورا أو فطائر أو ملابس إلى بيت أخرى ، قائلا : « إن زوجتى هناك ، لأنى لم أشأ أن أغضبك عندما أصبت بالمرض الذى ابتليت به ، لم أرد أن أسبب لك حزنا فأحضرت لك طيبيا كبيرا قام بعلاجك وعمل كل ما أمرت به . ولما تبع فرعون عندما ذهب إلى الجنوب ، فأليك ما اتبعته معك : « أمضيت مدة ثمانية أشهر دون أن أتناول طعاما أو شرابا يلائم رجلا فى مستوى ، ولما عدت إلى منف طلبت من فرعون منحنى اجازة وتوجهت إلى المسكن الذى تستقرن فيه (إلى قبرك) وبكبت كثيرا أمامك أنا وأتباعى وهذا ما فعلته إلى الآن : بقيت ثلاث سنوات وحيدا وسوف لا أدخل بيتا آخر وإن كان هذا عملا لست ملزما به ، وأما بيت أخواتى ولسكنى لم أتردد على واحدة منهن ، . (٢١)

هذا الزوج المثالى ، هذا الأرمل الذى يحل مصابه عن العزاء يبين لنا بوضوح أن أشخاصا كثيرين غيره كانوا يستطيعون أن يسلكوا طريقا آخر بمعنى أنه بمجرد أن يتولى منصبا كبيرا فإنه يطلق زوجته غير العريقة الأصل التى سبق أن تزوج بها قبل أن يرتقى إلى منصبه وقد أجاز لنفسه كل الحرية وإذا أصبح أرملا فإنه لا يبقى ثلاث سنوات يقضيها فى النحيب والبكاء إلى أن يضر جسده . إن أعواما حافلة بمثل هذا الوفاء وهذا الصبر تبرز لنا أن نشيد بصفاته الفاضلة ونعطف عليه .

ورد في النصوص المصرية أن المرأة الخائنة كانت تعاقب بالموت ، فعندما علم أنوبو Anoupu الأخ الأكبر ، ولو متأخراً ، حقيقة ما حدث لأخيه الأصغر اعتراه الحزن وجلس يندبه ، ولما عاد إلى بيته قتل زوجته وألقى بها للسكلاب. (٢٢) وفي آخر القصة رفع بيتاوو أمام كبار قضاة جلالة الملك له الحياة والصحة والقوة دعوى ضد زوجته ، وليس لدينا نص المحاكمة ولكن قرر المحاكمات أنه يجب أن يقضى عليها بالسكين. (٢٣) أما زوجة أوبا إمر Ouba iner التي كانت تخونه وتستولى على أرزاقه ، فقد أحرقت وألقي برمادها في نهر النيل ، وكذلك عوقب عشيقها. (٢٤) كان هذا هو القانون : ينصح الكاتب أنى Ang قائلا : احذر المرأة التي تتسلل في الخفاء ، لا تتبعها لاهى ولا مثيلتها . والزوجة التي يكون زوجها بعيدا عنها وترسل إليك قصاصات أو خطابات تدعوك إليها كل يوم عندما لا يكون هناك شهود فإن حارلت إيقاعك في شراكها فهذه جريمة عقابها الموت إذا ما اكتشف الأمر ، حتى ولو لم تصل في إجرامها حتى النهاية . (٢٥) وليس لدينا من الوثائق ما يثبت ما إذا كان الزوج الزاني يقع تحت طائلة العقاب ، لقد كان من حق الرجل أن يدخل لو شاء محظيات في بيته .

وفي فصل جنازى* خصص باب لجمع صلة القرابة بين من رقدوا في الجبانة ، وقرأ أن العائلة تتكون من الأب والام والأصدقاء والشركاء ، والأطفال والزوجات وشخصية تسمى باسم لم يفسر لنا هو : أينبت حنت Int-hot. ثم العزيزات والخدم. (٢٦) وكان تعدد الزوجات معروفا ولكنه في الحقيقة لم يكن واسع الانتشار. ونعلم أن أحد أفراد العصابات الذى اشترك في نهب المقابر كان له أربع زوجات ، اثنتان كانتا على قيد الحياة حينما كانت قضيته معروضة أمام المحكمة وكانتا على وفاق تام (٢٧) وفي بلد حيث كان

للعصا دور كبير ، كان للزوج الحق في تأديب زوجته ، والآخر أخته ، على شرط ألا يسيء الاستعمال . وكان الشاتم يعاقب . كان الفرد يتعهد أمام القضاة بعدم إهانة زوجته وإلا عوقب بمائة ضربة وحرمان الانتفاع بأى عقار مشترك بينهما . وكان والد الزوجة هو الذى يطالب السلطات بحمايتها. (٢٨)

كان هذا عملا سديدا ولكن يجب ألا ننسى أن « معروف » Marouf كان مصرية وأن أكثر من امرأة شريرة قد لعبت ، بمعاونة الحكام ، بعض الأدوار الملتوية على زوجها.

٣ - الزورور

ينصح الكاتب أنى قراه أن يتزوجوا فى سن مبكرة وأن ينجبوا الكثير من الأولاد ، كانت النصيحة غير مجدية ، فالمصريون كانوا يحبون الأولاد ، قال الثعبان الطيب للبحار الغريق : « سوف تصل بلدك فى خلال شهرين وتضم أطفالك إلى صدرك وستمضى حياة سعيدة مع عائلتك. (٢٩) ، الذى يقوم بزيارة مقابر منف وتل العمارنة وطيبه أو يشاهد اللوحات الجنائزية فى العراية المدفونة أو على المجموعات المنحوتة فسوف يرى فى كل مكان الكثير من رسوم الأطفال . وعندما طاف أحد كبار الملاك مثل T١ بأملاكه ووصل إلى حيث يشتغل العمال بالحصاد سرعان ما فرس الحصر واحضرت المقاعد واجتمع أفراد العائلة حول كبيرها وأمسك الأطفال بأيديهم عصا والدم .

وإذا شاء « تى » أن يتبع الصيادين فى مركب أو يجرب مهارته فى صيد الطيور التى تعيش على قمم الأشجار أو ليشرف حاتحور المعبودة الجميلة سيدة ايمائو Imau أو سيدة شجرة الجميز فى الموسم المناسب فى غابة البردى فلا يتم سروره إلا إذا وجدت معه زوجته وأطفاله ، فالصبيان الصغار يترنونه

على عصا الرماية والرماح ويوقعون جيداً في ذلك . لما كان أمنتبب الثاني Amenhotep II طفلاً مدلالاً كان يتمرن على ألعاب القوى وكان والده غوراً بذلك . (١٠) ويصطحب الراعى أطفاله إلى الحقل وإذا عطش الرجل العجوز يقف الطفل الصغير على أطراف أصابعه ويقدم له القلة حتى شفثيه . وأولاده المال كانوا يدورون بالمصنع يحاولين القيام بتأدية خدمات . كان اختاتون والمملكة فقرت إينى Nefert It يصحبهما دائماً الأميرات الصغيرات عندما يخرجان ، وإذا جلس في القصر تجلس الأميرات بجانبها ، وليس في أوقات الراحة فقط ولكن أثناء تأدية الأعمال الرسمية أيضاً فكان يجلسن على مناكب الملك والمملكة باطمئنان وبداعبن ذقونهما في رقة بالغة واطمئنان . وكانت الأميرات الكبيرات يشتركن في تسليم النياشين والأوسمة . وبدافع من شوق مفاجيء غنيفة يضم الوالدان بنتهما الصغيرات بين ذراعيهما ويكادان يلتزمانهن بالقبلات . ولم يكن رمسيس الثاني أقل غوراً بأولاده المائة والستين وأكثر . ويذكر سترابون Strabon بدعشة تقليداً خاصاً كان يتمسك به المصريون كثيراً وهو أن يتولوا تربية كل الأولاد الذين كانوا يرزقون بهم . (١١) وكانت هذه الكثرة في إنجاب الأطفال في العائلات المصرية عكس ما اعتاد عليه الإغريق نتيجة لخصوبة الأرض واعتدال المناخ . وكما يقول ديودور Diodore إن الأولاد لا يكفون الأبوين شيئاً تقريباً ، وطالما هم في سن الطفولة ، فهم يسرون حفاة الأقدام عراة الأبدان ، ويتحلل الذكور بقلادة والبنات بمشط ووشاح . وكلهم يتغذون بعيذان وسبقان نبات البردى سراء كان نبتاً أو مسلوفاً . (١٢)

وهذا لا يكفون آباءهم إلا القليل من النفقات .

ومع أن ولادة جميع الأطفال كانت تلقى ترحيباً كبيراً فإن الرغبة الشديدة

في إنجاب الذكور كانت شائعة لدى كافة الناس . فقد علينا ما سبق ما خطر
ببال بشر يبتاح كبير كهنة المعبود يتاح في هذا الصدد إذ بدأ قصة
« الأمير الموعود ، بالعبارة التالية : « حدث ذات مرة أن ملكاً لم ينجب
ولداً ذكراً فكان شديد الحزن بسبب ذلك . فتضرع للآلهة طالباً أن
ينجب ولداً ذكراً ، فقررت الآلهة أن تمنحه ولداً . ودور الابن هو أن يحیی
إسم أبيه وواجه كما نصت على ذلك مئات النقوش وأن يتولى دفنه ويعنى
بصيانة مقبرته . (١٢)

لقد كان المصريون جدّ شغوفين بمعرفة المستقبل وكانوا يعتمدون في
هذا على مجموعة من سبع معبودات معروفة باسم « الحانحورات » ، لمعرفة ما قد
قدر للمولود الجديد فكانت هذه المعبودات تقوم بحتفة عن الأنظار حول
وسادة الطفل وتخبر بصفة قاطعة نوع الموت الذي سوف يلقاه . « سوف
تموت بحد السكين ، هذا ما قالته عن البنت التي كانت الآلهة ترغب في جعلها
زوجة لبيتاوو . (١٣) كما أن الآلهة قررت بأن الولد الذي كان الملك يتمناه منذ
زمن طويل بأنه « سوف يقتله التماسيح أو الثعبان أو ربما قتله السكلب » (١٤)
وبما أن هذه المعبودات قد أغفلت الإشارة إلى السن التي سوف يحدث فيها
هذا الحادث المحتوم ، فقد اتخذت كل التدابير في بادئ الأمر على أساس
ذلك حتى يبلغ الأمير سن الشباب ، وعندئذ أبدى الشاب ملاحظة بأن كل
هذه الحيلة لن تجدى نفعا وأنه لا يستطيع أن يتفادى ما قد كتب عليه .
لذلك طلب أن يترك حراً ليتصرف حسب ما يلمه قلبه . إننا لانعلم ما إذا
كانت الحانحورات تتنازل للإهتمام بكل الأفراد ولكن كان في مقدور كل
رب أسرة أن يقرأ طالع ابنه ، عن طريق النجوم .

يقول هيرودوت Héródote : « من بين الاصطلاحات التي اتفق عليها

المصريون أنهم كانوا يحددون المعبود الذى ينتمى إليه كل شهر وكل يوم . وما سوف يكون المصير المقدر للولود حسب يوم مولده ، وكيف سيموت وكيف يجب أن يكون^(٤٦) ، ووفقا لما جاء بتقويم أيام السعد وأيام النحس . فإن كل من ولد فى اليوم الرابع من الشهر الأول لفصل پريت سيموت أكبر سنا من كل أقاربه وسيلبغ من العمر أكثر من عمر أبيه ، فكان هذا اليوم ، يوما سعيدا . وكان يعتبر مفيدا جدا أن يولد الإنسان فى اليوم التاسع من الشهر الثانى من آخيت إذ سوف يموت بسبب الشبخوخة ، وأكثر من ذلك من كان يولد فى اليوم التاسع والعشرين إذ سيكون محترما حين يلقى منيته . وعلى العكس من ذلك لم تكن الأيام الرابع والخامس والسادس من هذا الشهر تبشر بما هو حسن إطلاقا ، فإن مواليد هذه الأيام سوف يموتون بالحمى أو بسبب العشق أو بتأثير الجحر .

وينبغى أن يخشى بأس القمحا من ولد فى اليوم الثالث والعشرين . أما يوم ٢٧ فانه لم يكن خيرا من سابقه . فالعبيان هو الذى يخشى بأسه^(٤٧) والظروف التى تبدو عديمة الاهمية فى ظاهرها قد تكون ذات عواقب خطيرة . وقد سجل فى بردية إيبيرس Ebers الطبية بعض هذه الحالات ، فاذا نطق المولود بكلمة هى Hii ، عاش ، وإذا قال مبي Mbi فسوف يموت . وإذا نبر صوته مثل أفين شجرة البلوط ، أو أدار وجهه تجاه الأرض فسوف يموت^(٤٨) . وكان الأشخاص المتضلعون فى دينهم يعلمون بأن أوزيريس حين قذف به إلى شاطئه جبيل Byblos ابتلعت شجرة بلوط كانت تصنع المعجزات . إذا كان صوت الطفل يذكر بأفين شجر البلوط ، المألوف لجميع من سافروا إلى سوريا ، فإن ذلك لا يمكن أن يكون فالأ حسنا .

وسواء أكان والدها الطفل مطمئن أو جزعين فإنهما كانا يبادران إلى تسمية المولود ، وكان هذا أمرا ضروريا لأن المصريين لم يكن لديهم ألقاب . فعندما تبنت ابنة فرعون الطفل الذى عثر عليه داخل السلة أعطته فى التو إسمها كتب له أن يكون خالدا وتصور كثير من الناس منذ أقدم العصور ، وفى عصرنا الحالى بأن هذا الإسم كان يشير إلى الظروف التى افتتحت بالعثور عليه ، وعملوا جاهدين على أن يوجدوا اشتقاقا لإسمه ، فكلمة موشيه Mosché لا تؤدى معنى ، المنقذ من المياه ، وهى ليست سوى كتابة الكلمة المصرية القديمة موسىه Mosé التى هى المقطع الأخير من تحتمس Thoutmosé أو احموس Ahmosé أو ما شابهها من الأسماء والأميرة التى أنقذت الطفل ، قد حلت محل أبويه لتعطيه إسمها ، لأن المفروض أنه كان يتيم .

وأسماء المصريين قصيرة جدا فى بعض الأحيان مثل تى Ti . آبى Abi ، توى Toui ، تو To . وقد تكون أحيانا جملة كاملة مثل « جد پتاح ابوف عنخ Djed Ptah iouf ānkh » يقول پتاح بأنه سيحيى . وقد حولت أسماء نكرة وصفات ومفاعيل إلى أسماء أعلام مثل چاوو Djaou ومعناه عصا ، شدو Chedou ومعناه قربه ، نختى Nekhti ومعناه القوى ، وشيرى Chery ومعناه الصغير ، وتا ميت Ta mit ومعناه القطة .

وكان معظم الآباء يؤثرون أن يضعوا أطفالهم تحت رعاية إلهى المعبودات : والأطفال الذين ينتمون إلى المعبود حر Hor يسمون باسم حورء Hori والذين ينتمون إلى المعبود ست Seth يطلق عليهم اسم سبتى Sétoi والذين ينتمون إلى آمون ، يسمون امنى Ameni . وكان المؤرج مانيتو يعتبر نفسه تحت حماية المعبود مونتو الطيبى Montou .

وقد يدل معنى الاسم على رضى المعبود ، ولهذا فقد حظينا بأسماء لا تحصى
مثل : آمون حتب Amon hotep وخنوم حتب Khnoum hotep
وإتاج حتب ، الذى يتقدم (على الولد) ، واسم امنمحات Amonemhat
يعنى آمون يحميه أو أنه والد (للطفل) . وأسماء سنوسرت Senousert
التي نقلها الإغريق سيزوستريس Sesostris هم أبناء المعبودة أوسرت
Ousert ، والملقبون بأسماء سيامون Siamon هم أبناء المعبود آمون .
وموت نجم Mout Nedjem معناها أن المعبودة موت Mout لطيفة ،
وبذلك يمكننا أن ندرك مدى حظوة المعبودات في مختلف عصور التاريخ .
وصارت سيدة جليل في عهد الدولة المتوسطة شقيقة عدد كبير من
السيدات المصريات . ونحن نعلم أنه منذ أن تولى رمسيس الأول العرش
حتى حرب الفجار ، استعملت أسماء ست ناختي Seth Nekhti وست ام
أويا Seth em ouia . ست داخل قارب (رع) ، إذ أن الأسرة المالكة
كانت غيرة بانحدارها مباشرة من قاتل أوزيريس .

واعتبر ست بعد هذه الحرب ، في كل مكان . معبودا محترقا ولم يوجد
بعد ذلك ، طفل واحد يحمل اسمه ، ولم تكن رعاية الملك أقل فائدة من
رعاية المعبود ، لأن الملك كان بدوره بمثابة معبود . وفي عهد الأسرة الثامنة
عشرة عرفت الأسماء جسر كارع سنب Djoserkarêsonb ومن خير رع
سنب وفي ما رع نخت Nimârênekht وبعد ذلك انتشرت أسماء رمسيس
نخت طوال حكم أسرتين ملكيتين .

وكان مجال اختيار الأسماء متسما كما نرى . وكان يمكن أن يتهدى الوالدان
إلى اختيار الاسم بتأثير بعض الأحداث الخارجية مثل حلم من الأحلام ، ذلك
أن ستناخامواس Setna Khamois لم يكن قد أنجب طفلا ذكرا . فأمنست

زوجته ليلة في معبد يتاح فظهر لها المعبود في المنام وطلب منها القيام بعمل ما فبادرت بتنفيذه ، فحملت . وحمل الزوج بدوره أنه ينبغي له أن يطلق على طفله اسم سنوزيريس . (٤٩)

وبعد أن يطلق الوالدان اسماً على مولودهما ، لم يكن عليهما بعد ذلك إلا أن يسجلاه أمام الهيئة المختصة . وقد أنجبت هذا الطفل الصغير الموجود أمامك — هذا ما قالته الأميرة أهورى Abouri زوجة تنوفر كابتاح Nenoferkaptah لقد سميناه ميراب وسجل في سجلات بيت الحياة . (٥٠)

وبيت الحياة الذى سوف نتاح لنا فرصة التحدث عنه عدة مرات ، كان عبارة عن معبد مصرى يحتفظ فيه الفلكيون والمفكرون والماورخون بكافة العناصر العلمية التى أهدى إليها العلماء وكانوا يعملون على تنمية هذا الكنز ، وكانت هذه المناصب السامية لا تتعارض وبعض المهام البسيطة الأخرى التى كانوا يقومون بها . وربما كان بيت الحياة يجمع بجانب العلماء بعض صفار الكتبة الذين كانوا يقومون بتسجيل المواليد وعقود الزواج والوفيات . ونظراً لأنه لا يوجد من الأسانيد ما يؤيد هذا الغرض ، فربما كان من الحكمة قبول رأى ما سبرو Maspero الذى قال بأن الأهالى كانوا يأتون بوالدهم إلى بيت الحياة لقراءة الطالع وبالتالى لمعرفة ما يجب اخذاه من الإحتياطات المناسبة لتفادى أو تأخير الأحداث المسكرة بقدر المستطاع التى قد تنتاب هذا الطفل ، إذ لم يكن مراب Merab ابن تنوفر كابتاح وأهورى طفلاً عادياً ، وعلى كل حال فإن السلطات المدنية كان لديها دون شك سجل للمواليد والزواج والوفيات . وكان المتهمون والشهود يذكرون فى الوثائق القضائية بأسمائهم ، يتلوها أسماء آبائهم وأمهاتهم مع ذكر منهم ، لأن الأسماء التى تطلق على كل طفل كانت عديدة جداً إلى حد أن التشابه بين

الاسماء كان لا يحصى . فكان أمنتب صنى الملك أمنتب الثالث ، يلقب أيضا باسم هوى Hony إلا أن اسم أمنتب قد بلغ عددا كبيرا إلى حد أن أصحاب اسم أمنتب الذين أضيف إلى اسمهم لقب هوى Hony أصبحوا بدورهم عديدين جداً .

فكان صنى أمنتب الثالث قد اتخذ عادة حسنة جداً بأن أضاف إلى اسمه وإلى لقبه ، اسم والده حابي Hapi . ولم تكن إضافة هذه الألقاب على الاسماء محض مصادفة بل كان لها طابع رسمى ، وهذا برهان جديد على مدى عناية السلطات بسجلات الحالة المدنية للأفراد .

كان الطفل الحديث السن يبقى فى حضانه أمه ، تحمله على صدرها غالبا فى خرج يعلق فى رقبتها حتى تنبى يداها طليقتين .^(٥١) . ويعبر الكاتب أنى Any عن تقديره لتضحية الأمهات المصريات بقوله : « رد إلى والدك كل ما فعلته لك . أعطها الحزن بكثرة واحملها كما حملتك ، لقد كنت عبثا ثقيلا عليها . ولذلك بعد أن أكلت شهور الحبل ، وحملتك على عنقها ، وثديها فى فك طوال ثلاث سنوات ولم تكن تشعر باشمزاز بسبب أوساخك ،^(٥٢) أما الملكات وغيرهن أيضا فربما لم يكن يعانين مثل هذا العناء ، وأم قن آمون كان يطلق عليها لقب المرضعة الكبرى ، إذ كانت هى التى تولت رعاية المعبود .

ولم يكن هذا المعبود سوى فرعون أمنتب الثانى الذى ظل معترفا بالجميل لمرضعته . فكان يتردد عليها بزياراته ويجلس على ركبتيها كما كان الحال أثناء طفولته^(٥٣) . وكثيرا ما كان يعهد بالأمرام الصغار إلى الشخصيات الكبرى التى ألفت عمرها فى خدمه الملك . فإن باحيرى Paberi أمير جنى Tjeni ومحافظ إقليم نخبيت Nekhabit (الكاب) قد رسم على مقبرته وهو يحمل على

(٦ م - الحياة فى مصر)

وكعبه طفلا صغيرا عاريا ، تتدل خصلة من شعر رأسه على خده الأيمن وهذا هو طفل الملك أراج موزيه Oundj mosé . وضيف هذا الحاكم العظيم إلى ألقابه لقب رائد الطفل الملوكى . (٥٥) ويروى أحد جنود حروب التحرير القدماء وهو احموزا بن نخيت Ahmose de Nekhabit فيقول : « بلغت شيخوخة سعيدة وأنا احد الذين يعيشون فى كنف الملك . . أما الزوجة المقدسة ، الزوجة الملكية الكبرى ماكارع Makara فقد أغدقنى نعمها ، لأنى توليت تربية ابنتها الكبرى الأميرة نفوروع Nefereure منذ أن كانت طفلة رضيعة . » (٥٥)

هذا المحارب العجوز لم يكن فى استطاعته أن يخصص الكثير من وقته للطفلة لأننا نعرف أن لها مربيا آخر هو كبير المهندسين المعارين ، « سنموت Senmout » الذى يرجع إليه الفضل فى إقامة أهرامات الجبل فى مصر وهو المدير البحرى والذى أقام أيضا مسلات الكرنك . وهذا الفنان العظيم كان على تقام تام مع الطفلة . وقد مثل الحفارون فى تعبير قوى وبساطة تامة هذا العطف المتبادل بإقامة تماثيل لسنموت ، على شكل مكعب مغطى بالنقوش المهيروغليفية ويبرز منه خشب رأس الرائد وأمامه رأس الأميرة الصغير للاغاية .

وبين الوقت الذى لا يمكن للطفل أن يكتب فيه بمجرد قلادة فى عنقه تكون بمثابة ملابس له ، فكان يعطى للذكر إزار نصفى وحزام وللطفلة رداء . وكان يوم تسلم مثل هذه الأشياء يوما غالدا فى حياته . أذ لم ينس رجال البلاط الطاعنون فى السن مثل أونى Ouni وبتاح شبس Ptah Chépsis أنهما تقلدا الحزام والإزار للمرة الأولى فى عهد الملك الفلانى . وربما يكون هذا

اليوم متفقا في حقيقة الأمر مع اليوم الذي دخلا فيه المدرسة . وكان من عادة الفلاحين والعمال والصناع أن يبقى الولد في المنزل يتدرب على رعي القطيع واستعمال الأدوات ، حتى يمكنه أن يمارس بدوره الحرفة التي مارسها أبوه من من قبله .

٤ - الحرم والمير

لم يكن من اليسير دائما أن نميز من بين أولئك الذين يتبعون شخصية بارزة من الذين يعاونونه في أداء أعماله الرسمية ومن يقوم على خدمته ومن يتولى خدمة أفراد أسرته . على أن المصريين لم يخلطوا بين كل فئة وأخرى ، فحاي حيفاي Hapi Djefai حاكم اسيوط ، نراه يتصرف قارة في إيراد ممتلكات بيت أبيه وبعبارة أخرى في ثروته الشخصية وقارة يتصرف في إيراد بيت الأمير أو بمعنى آخر الممتلكات التي يديرها الحساب الدولة . وكان يدفع من مال أبيه أجور أولئك الذين كانوا يقومون بالطقوس الجنائزية الخاصة به ، ولما كانت الطقوس الجنائزية تعد استمرارا للحياة الدنيا ، فيمكننا أن نعتبر أن أجور الخدم الخصوصيين كانت تدفع من مال من يقومون على خدمته .

تؤدي عدة ألفاظ مصرية قديمة معنى كلمة خادم أو أجير في لغتنا الحديثة ، فلفظ « المستمعون » يطلق على من يجيبون النداء ، وأباوو Oubou لمن يقدمون الشراب ويمرر عنه كتابة برسم إناه . وكذا الشمسو وهذا اللفظ يكتب باستعمال رمز مركب يتكون من عصا طويلة منحنية وحصير أو غطاء ملتف مربوط بسير من الجلد ومكينة صغيرة . وكان « الشمسو » يصحب سيده كلما خرج ، وعندما يقف ، يسط له الحصير على الأرض ويقدم له العصا الطويلة ليمسكها بيده وكان يسكنس له من حين

إلى آخر الحصار وإذ ذاك كان يستطيع المخدم أن يقابل ركلاده ويستمع للتقارير التي يعرضونها عليه ويقوم شمسو آخر بحمل صندل سيده عندما يسير . وحينما يقف يسمح له قدميه (٥١) ويضع فيهما الثعل . أما الأبواو فكانوا مكلفين بخدمة سيدم في السقاية والطعام . كانوا يقومون بخدمة المائدة مقرين من أسيادهم وكان في استطاعتهم استماع الأسرار وتذكير السيد بأمر هام في الوقت المناسب وعلى ذلك فقد كانت وظيفتهم تضى عليهم أهمية خاصة ، وإننا لنجد سقاة فرعون يشتركون في جميع لجان التحقيق العليا .

وقد يكون الذين ذكرناهم ، إذا لم يكن قد جانبا الصواب ، هم خلم أحرار بمعنى أنه كان في مقدورهم ترك خدمة سيدم إذا ما أرادوا ذلك ، أو يحترفون حرفة أخرى ، أو يشترون أملاكاً ويستمتعون بها إذا توفرت لديهم الإمكانيات المادية ويحظون بالخدمة بدورهم .

ويتاو* بعد أن أخطأ أخوه الأكبر في حقه خطأ جسيماً ، أعلنه بأنه لا يريد أن يستمر في خدمته وأن أتو Anouper يجب أن يعفى شخصياً بمأشيته . وهذه حالة نرى فيها السيد والخدام أشقاء ، ولكن يحق لنا أن نعتقد أنه حتى إذا لم يكن بينهما صلة قرابة ، فإن يتاو كان سيرك عمله .

وروديديت السيدة التي أنجبت ثلاثة ملوك أمرت بضرب خا منها بالسوط بعد نزاع بينهما فتركها الخادمة في الحال دون أدنى تعقيب . حقاً ، لقد كان أخوها أول من عاقبها ثم تلاه الفساح الذي كان أداة الانتقام الإلهي ، غير أن سبب عقابها هو أنها أرادت أن تطلع الملك على سر روديديت ، لا بسبب تركها الخدمة . وطبعاً أنه كان في استطاعة المخدم أن يطرد خادمه بسهولة تامة . وعلى العكس من ذلك ، كان الذين يسمون همو Demou

أو بسكو brkou يعتبرون عبيدا حقيقيين وبصفة خاصة في عصر الإمبراطورية الحديثة .

ولم يكونوا يعاملون معاملة شديدة فحسب ، بل كان يقتنى أشرم إذا ما هربوا . أبلغ كاتب رئيسه قائلا : « هرب عبدان من نفر حتب رئيس الأسطبل لأنه أمر بضربهما ، ومنذ أن هربا لم يقم أحد ببحث الأرض . وأرسل هذا لإخطار سيدى ، » (٥٧) وقد هرب عاملان في يوم ما من قصر رمسيس ، إما لأنهما عوقبا بالضرب وإما لأنهما آثرا الحرية . وقد كلف كا كم أور Ka kem our رئيس رماة السهام من چيكو Tjeku* للبحث عنهما ، فسافر من بي رمسيس ووصل إلى أسوار چيكو في اليوم التالى وقيل له إن الهارين شوهدا في طريقهما صوب الجنوب فاتجه الضابط إلى القلعة ولكنه علم أن الهارين أجتازا أسوار المدينة شمال بوابة سبتى مرى إن بتاح فاوقف البحث عنهما وصرف النظر عن هذا الأمر . (٥٨) ولم يكن مثل هذا الحظ يوافق جميع العبيد ففي مقبرة نفر حتب Neferhotep نرى كاتب يقوم بحصر أسماء العبيد أمام سيده ، فأحد العبيد مقيد اليدين ومربوط بحبل يمر منه . وعبدان آخران يؤدبهما أحد الشرطة وقد قيدت أرجلهما . هذا المنظر يمكن أن يسمى « عودة الهارين » . (٥٩)

وفى أغلب الأحيان ، إن لم يكن دائما ، كان هؤلاء العبيد من أصل أجنبى وقموا فى الأسر نتيجة حملة انتصر فيها المصريون فى بلاد النوبة أو ليبيا أو الصحراء الشرقية أو سوريا . وكان فرعون أو ممثله الرسمى ، القائد

* حصن على الحدود الشمالية الغربية ، قريبا من تل السخولة .

المفوض منه لإعلان الحرب وإصدار الأوامر ، يهيم إما إلى الشخص الذى أسرمه إذا كان قد تولى ذلك بمجهوده الفردى أو يوزعهم على الرجال المحاربين إذا كان عدد كبير قد أسر فى إحدى المواقع دفعة واحدة ، وبهذه الوسيلة استطاع البطل أحموزا خلال مدة خدمته الطويلة أن يأسر تسعة عشر عبداً ، عشر نساء ، وتسعة رجال ، ومعظم أسمائهم أجنبية مثل : يا مچاىو Pa Medjaïou ويا مچو pa Amou واستارومى Istaroummi وهديت كوش Hedit kouch .

أما بقية العبيد الذين يحملون أسماء مصرية فيحتمل أن يكونوا قد أعطوا لأحموزا أثناء حملة الدلتا ، ما لم يكن سيدهم قد غير أسمائهم الأجنبية الكنعانية أو النوبية إلى أسماء مصرية كما كان الحال مع يوسف (٦٠)

كان فى إمكان السيد أن يؤجر عبده أو يبيعه ، احتاج رجل إلى ملابس فأجر خدمات جارية سورية لمدة يومين أو ثلاثة أيام ، ولم يذكر نوع العمل الذى قامت به هذه الجارية ولكن الأجر المطلوب كان باهظاً . وقد تسرب الشك فى أن أحد سكان طيبة قد اشترك فى نهب المقابر إذ لوحظ أن مستوى معيشته ارتفع فجأة وقد استجوب القاضى زوجته أقاتلا : « بأية وسيلة حصلت على العبيد الذين كانوا معه ؟ » فأجابت : « لم أر لنقود التى اشتراهم بها . لقد كان مسافراً عندما كان معهم » . (٦١)

وتشير إحدى أوراق بردى القاهرة وقد نشرت حديثاً ، إلى بعض معلومات عن طريقة شراء العبد ، فإن تاجراً اسمه رايا Raia يعرض على أحد عملائه شراء جارية سورية صغيرة السن ويتم الاتفاق على الثمن ولكنه لا يدفع فضة ولا ذهباً ، ولكنه يدفع أصنافاً مختلفة تقدر قيمتها حسب وزنها

فضة ، وتسجل في المحكمة العهود والإيمان المخلطة التي يحلفها الشهود وتصبح الجارية ملكاً لمن يدفع الثمن ويطلق عليها فوراً اسم مصرى. (٦٢)

وعندما قررت الحكومة أن تعاقب بشدة سرقات المقابر انهم عدد كبير من العبيد ولم تخفف المحكمة العقوبة عليهم بل بالعكس ضاعفت جلدتهم بل زادت إلى ثلاثة أضعاف ، وليس ثمة شك في أن المتهمين الأحرار لم يعاملوا معاملة أفضل من معاملة العبيد . وكان السيد يضرب عبده ، كما كان الرعاة وملتزمو الأموال المعاملون في الدفع والممتنعون عن التسديد يضربون بدورهم ومن النادر مثلاً : أن نجد شخصاً مثل نجم أبه Nedjem ab الذي عاش في الدولة القديمة ، يزعم أنه يستطيع القول بأنه لم يجلد مطلقاً أمام الكبراء منذ أن ولد . (٦٣) ومن يدرينا فقد يكون المخلوق السعيد قد ضرب في الخفاء بالعصا أكثر من مرة ، دون أن يشاهده أحد وهو أمر لا يفخر به . وبالاختصار ، فإذا واجهنا الموانع التي كانت تحول بين أفراد عامة الشعب وبين رفع مستواهم الطبقي . وجدنا الفروق غير كبيرة بين الأفراد الأحرار في الطبقات الدنيا وبين من يسميهم عبيداً . لقد سبق أن أشرنا إلى مستند جاء فيه أن عبداً سابقاً لحلاق كان قد حصل من سيده على عقد تحرره ، وخلفه في مهنته وتزوج بابنة أخته . أن العبيد الذين أوتوا بعض المهارة كانوا يعرفون كيف يتخلصون من غير عبوديتهم ويندمجون في الفئات الشعبية .

٥ - الحيوانات الأليفة

أن الكلب رفيق الرجل ومساعد في الصيد ، فكان يسمح له بدخول المنزل واحتلال مكانه بهدوء تحت مقعد سيده ، وينام ، كما تفعل سائر الكلاب ، أعنى بعين مفتوحة : (٦٤) أما كلب الراعي فإنه لا يترك سيده أبداً ويترقب أوامره ، إما بصوته ، أو بإشارة منه ليجمع القطيع أو يقوده في السير. (٦٥)

وكلاب الراعى أو كلاب الحراسة هى فى الغالب نوع من كلاب الصيد - السلوقى ، طويلة الأرجل ، مرتفعة ، طويلة الذيل ومستطيلة الفك وأذناها متدلية كبيرة تارة ومدببة وقائمة تارة أخرى . ولم نعد نرى فى الإمبراطورية الحديثة ، كلاب السلوقى القديمة ذات الذيل المستدير الشكل ، ولا كلاب الحراسة ذات الحجم المتوسط التى كانت أذناها مستقيمة ، ولم نعد نرى أيضا الكلاب قصيرة القامة التى كانت شائعة إبان الدولة المتوسطة . وكان هناك نوع آخر صغير الحجم يسمى كتكيت Ketket بجانب فصيلة السلوقى ، وقد قدم لولى العهد كلب من نوع كتكيت ولكنه طلب كلبا أصيلا ورفض فى امتهان الكلب الصغير الذى قدم إليه .

كانت كلاب الصيد ذات قيد عادة وأن تركت أحيانا طليقة . والقرود نوع آخر من الحيوانات الأليفة وكان يعد نفسه مسئولاً عن مراقبة الكلاب ، وقد ورد على مقبرة مونتوخر خبشف Montou bir khopechef (١٧) قرود قد أمسك بجمل قيد به كلب ، وأخذ يشد الجبل حتى أصبح قصيراً . ولم يكن الكلب راضياً عن هذه الحركة فالتفت محتجاً على تلك المعاملة . وربما كان لا يكتفى بمجرد النباح .

وكانت تطلق على الكلاب أسماء فأحد الكلاب من عهد الأسرة الأولى كان يسمى نب Neb « السيد » . وقد دفن بالقرب من سيده . وقد عثر على لوحة محفور عليها اسمه وصورته ، وقد أطلق الملك انتف Antef ، أسماء بربرية على كلابه الأربعة وكان غفورا بها حتى أنه رسمها على لوحة يمكن مشاهدتها فى المتحف المصرى بالقاهرة .

وقد أقام أمام مقبرته تماثلاً ، غير موجود اليوم ولكن أشار إليه

تقرير المستشارين عن نهب المقابر الملكية والكلب باهيك Bahika ، وهي كلمة باللغة البربرية تعني « المها » ، كان يقف بين ساقى الملك .

وفي العراية المدفونة كان يوجد مدفن للكلاب بين مدافن النساء ورمأة السهام والأقزام . وفي أسيوط كانت توجد مقبرة أخرى للكلاب ، حيث وجد تمثال كلب من الحجر الجيري الموجود حالياً في متحف الوفرة وبغض النظر عن الجرس المعلق في عنقه فإنه لا يبدو كلب حراسة سهل المعاملة .

ولم يحرم المصريون الكلاب من شرف الحفلات الجنائزية أو المقدسة . ولكن يلاحظ أن الفنانين لم يرسّموا لوحة يدل فيها أحد كلباً أو يلعب معه . ويدل هذا على عدم الابتذال .

وقد بلغ الفرد مكانة قريبة من قلب الرجل ، فنذ الدولة القديمة كان له مطلق الحرية في دخول البيت ، وكان يسلي الجميع بحركات وجهه المضحكة وقفراته وبالأخص بالأعْيى المفاجئة التي كان يقوم بها بمعارفة الأقزام وحذب الظهور الذين يكونون جزءاً من حاشية أى منزل كبير . وكان الأقزام الأشد تقدراً هم الذين جلبوا من بلاد شديدة البعد . فحر خوف قد نال من ملكه حسن التقدير اعترافاً بالجميل ومن علماء الآثار الشهرة لأنه خلال إحدى بعثاته في أقصى الجنوب أنى بقرم كان يرقص رقصة الآلهة . ولم يحدث مثل هذا الأمر منذ عهد أسيسي Asesi قبل ذلك بقرن مضى . ونرى إحدى المقابر الفخمة حول هرم خفرع ، وهي مقبرة القزم سنب ، وقد وجد بجوار مقابر حكام منات خوفو ، مقابر للأقزام ومحدودى الظهور* ، ولكننا لم نعد نشاهد هذه الظاهرة في عهد الإمبراطورية الحديثة ، ولا حول مقابر الملوك ولا بجوار قبور الأفراد .

* يدل هنا على أن الأقزام والمحدودى الظهور كانوا مقربين لى هؤلاء الحكام .

وعلى العكس من ذلك لم تفقد القُرود شيئاً مطلقاً من امتيازاتها ، فقد وجد ث . لوريه V. Loret في مقبرة تحتمس الثالث مومياء قرد ولم يكن وجوده هناك مجرد رمز لآلهة الكتابة والعلوم فحسب ، وإنما لأنه أدخل البهجة في نفس الملك خلال حياته وكان يأمل أن يستمر أيضاً في إبهاجه في العالم الآخر في ملاكة أوزيريس ، وهذا يماثل مومياء الكلب التي عثر عليها في مدخل مقبرة بوسنس Psousennés . وللقرد شعف شديد بمقاعد سادتهم فإذا لم يكن في البيت أقزام أو محدودبو الظهور فالأطفال ، وأطفال الزوج الصغار هم زملاؤهم المقربون في اللعب . وأحيانا كانوا ضحاياهم (٦٩) وعندما تنضج ، الفاكة تشاهد القرد وهي تسلق الأشجار (٧٠) وكانت تلهم من البلع والتين أكثر مما تجمع ، دون أن يشير هذا نائرة البستاق فأراضى البلاد المصرية شديدة الخصوبة ويجب أن يعيش الجميع . إنه آمون الذى خلق كل الكائنات وحار يأتى بالمياه لينتفع بها كل الأحياء ، وكان القرد يتفاهم مع الكلب والقط بسهولة أكثر مما يفعل مع أوزة النيل إذ كان من طباعها حب الشجار غير أنه كان يقوم طباعها إذا اقتضى الأمر ذلك . (٧١)

ويظهر أن القط لم يكن يسمح له بدخول البيوت حتى عهد الدولة المتوسطة . وكان يعيش بجانب المستنقعات ويغير على الأوكار مثل سنور الزباد* والحيوانات الصغيرة التى تعيش على اقتراس الطيور . (٧٢) ولم تكن المنافسة بين الصيادين لتقلقه مطلقاً فبينما كان هؤلاء يسرون في حذر شديد وفي سكون تام بين أشجار البردى ، وقبل أن يلقوا بعض الرماية ، كان

* حيوان من أكلة الحوم له رائحة خافتة تستخدم في عمل الطيور .

القط يقفز قفزتين فيمسك بين أسنانه بطة برية ، وهاهو ذا يمسك أيضا عصفورين (٧٣) وقد سمح له بأن يصبح ضيف البيت ولكنه لم يفقد استقلال طباعه أو ينسى غريزته كصيد ، فكان يقبى تحت مقعد سيده ، ولكنه كان أكثر شجاعة من الكلب فيقفز على ركبة سيده متى شاء ويعمل مخالبه في رداءه الفاخر المصنوع من الكتان (٧٤) وقد قبل القط أن يوضع طوق في عنقه وكان لا يضيق ذرعا بالطوق إلا إذا ربط في قائمة المقعد أو إذا وضع إناء اللبن بعيدا عنه فيدرك عندئذ أنهم يريدون السخرية به ، فيقف شعره وتبرز مخالبه ويشد الحبل المربوط به بكل قوته. (٧٥) وفي الأحوال العادية يعيش القط في وثام مع بقية الحيوانات الأليفة والأوزة سمون Simon

وقد رسم على أحد الآثار الصغيرة قطعة صغيرة وأمامها أوزة ، ولهدوئها رهبة ، ولكن يجب ألا ننسى أنها رمزان للإله آمون القدير ولزوجته موت فهما يتصرفان بوقار كما يجب أن تكون عليه الحيوانات المقدسة ، على أن في مقدورهما استعمال المخالب أو المنقار ، إذا ما أثارهما الغضب ، وليس ثمة أى دليل على أن القط هو الذى سيفوز في المعركة. (٧٦)

لم يجهل المصريون أن القط مصدر رعب للفيران. (٧٧) ولكنى يرغبوه في البقاء بالبيت دون أى قيد ، كان سيده يقدم اليه سمكة طيبة فيلتمها القط وهو قابع تحت مقعده. (٧٨) ذهب أبوى Apouy فى أحد الأيام ، إلى فاربه الذى كان على هيئة بطة ليصطاد الطيور المائية وكانت تصحبه زوجته وخادمه وأخذوا معهم القط ، وهو بذاته الذى رأيناه يعمل مخالبه فى رداء سيده ، وطبقا لغزيرة أجداده المتوحشين كان يغير القط على أوكار الطيور ولكن سادته كانوا يعرفون تماما اللحظة المناسبة التى يتادون عليه فيها لإعادته إلى البيت. (٧٩)

ومن الطيور المازلية ، عرف المصريون منذ زمن طويل أوزة

النيل سمون Smou التي يطلق عليها علماء الأحياء اسم Chevalopex (٨٠) وبدلان وضعا مع مثيلاتها في مكان مغلق فقد تركت طليقة تدخل الأقبية والحدائق وتسرّب داخل البيوت . ولهذا نرى خوفا ، عندما أراد اختيار معلومات ساحر كان يفخر بأنه يستطيع إعادة رأس مقطوع إلى مكانها ، قد فكر على التو في إحضار أوزة سمون . وكانت الأوزة تقسم مع القط ذلك الفضاء الممتاز الذي يحبه مقعد رب البيت . وكانت ذات طباع مستقلة ، فلم تستغل تلك الخطوة وكانت ترتاد من وقت إلى آخر شواطئ النيل لتتريض . وأضرار الأوزة عديدة : فكانت تفسد البلح في الفصل الحار من السنة وثمر الدوم في فصل الشتاء . أما بقية السنة فكانت تلاحق الفلاحين فلا تمكنهم من نثر الحبوب في الأرض .

وبالرغم من أن المصريين كانوا ينعوتونها بالحيوان البشع ، فإنهم مع ذلك كانوا متسامحين معها : لقد امتنعوا عن صيدها وتقديمها فوق موائد القرابين الإلهية . وكانوا يتسلون بشرائها وطباعها العدوانية وصراخها المزعج . (٨١) وربما كان في استطاعتها أن تكون حارسة أمينة يقظة ، مثلها في هذا مثل الكلب . وإذا ما اقتضى الأمر تقويمها ، فإن القرود يتولى ذلك الأمر في سرور وإن تحمل في سبيل ذلك بعض عضات من منقارها .

الفصل الرابع

الأعمال المنزلية

١ - العناية بالنظافة

كان قدماء المصريين يعنون عناية كبيرة بالنظافة ، ويهتمون بأبدانهم وملابسهم ومسكنهم. (١) وحين صدر العفو عن سنوحى ، عاد إلى مصر . كان من بين مظاهر الفرحة الكثيرة التى طرب لها أنه خلع الملابس الصوفية الملوثة التى كان يرتديها أثناء إقامته مع البدو (٢) واستبدلها بملابس من الكتان. (٣) ولكى ينس الماضى فعل ما فعله أوليس Ulysses عند الفيسيين (Phaeacians) إذ أزال شعر جسمه وتمشط وتذلك لآبزيت الأشجار فحسب ولكن بأخضر أنواع العطور أيضا التى قد تكون محفوظة فى أناء من الزجاج الطبيعى ومن الذهب ، مثل ذلك الاناء الذى كان يستعمله أبى شمو Abiehemou ملك جبيل والذى كان امنمحات الثالث قد اهداه له .

كان المصريون يغتسلون عدة مرات فى اليوم فى الصباح عند الاستيقاظ من النوم وقبل تناول الوجبات الرئيسية وبعد الفراغ منها . كانت أدوات الاغتسال تتكون من طست و إبريق ذى صنوبر توضع عادة تحت مائدته مستديرة ذات ثلاثة أرجل محملة بألوان الطعام . واسم الطست شأوتى Chaouty ويظهر أنه مشتق من المقطع chā بمعنى رمل ، والخادمة التى تصب الماء تسمى حسميت Hesmoyt مشتق من كلمة حسمن Hesmēn بمعنى النظرون ويعتقد أنه كان يوضع نظرون فى مياه الإبريق ورمال فى الطست . أما مياه معضضة الفم فكانت نوع آخر من الملح يسمى بدو Badou وأطلق اسم سوابو Souabou المشتقة من أواب Ouab بمعنى نظيف أو نقي على معجون

جاف يحتوى على مادة لآثرغية ولتنظيف وإزالة الشحم كالرماد أو
الصلصال . (١) .

وبعد أول اغتسال يتوجه الرجال إلى الحلاقين وإلى مقلى أظافر الأيدي
والأرجل ، كذلك يتجه النساء إلى محلات التزيين . ويعتبر استيقاظ الملك
حدثا عظيما في البلاط ويعتبر كبار الشخصيات الاشتراك في هذا الحفل فخرا
كبارا لهم وأنهم جديرون بأن يوصفوا بالدقة والمواظبة . (٢) وكذلك كان
بالنسبة للوزراء وكبار الحكام والمحافظين فكان لهم مثل هذا الحفل ، كان
الأخوة والمعارف الأقارب يلتفون حول رئيسهم ويجلس الكتاب القرفصاء
لتسجيل الأوامر بأقلامهم المشرعة أو يفردون ورقة طويلة من البردى
تحتوى على أسماء وأرقام وأعمال فرغوا من العمل فيها أو لا يزال العمل
جاريا ويتناول عمال تقليم الأظافر الأيدي والأرجل ، ويتولى الحلاق حلقة
الدقن ويقص الشعر مستعملا موسى منحنى السلاح ذا كلابة وهو تحسين للنوع
القديم الذى كان على هيئة سكين النجار ، ذلك النوع الذى كان سائدا في
الدولة المتوسطة ، وكانت هذه الأمواس تحفظ في أجرية من جلد مزودة
بخطقات صغيرة وكانت توضع الأجرية بجانب مشابك الشعر والمسنان
ومقصات تقليم أظافر الأرجل والأيدي في صناديق أنيقة من الأبنوس . (٣)

ويخرج الرجل من هناك نظيفا منتعشا . ذقه قصيرة الشعر مربعة
الشكل ورأسه قد نزع شعره تماما أو صار على الأقل قصيرا ، وبأى بعد
ذلك دور الاختصائين والصيدالة الذين كانوا يحملون الروائح العطرية
والطيب في أوان مختومة من البللور أو المرمر أو الزجاج الطبيعى ، كما
يحملون مساحيق خضراء وسوداء لتجميل العيون داخل أكياس صغيرة
ربطت من أعلى بأشرطة (٤) .

وكانت العيون الكحيلة المستطيلة تروق المصريين ، كما كانت تلك المساحيق وسيلتهم لحماية العيون شديدة الحساسية من أنواع الرمد التي يسببها انعكاس الضوء والرياح والغبار والحشرات .

ولم تكن تنقصهم مواد التجميل ، ولتفادى الرائحة الكريهة التي تنبعث من الجسم حين تشتد الحرارة . كانوا يدلكون أنفسهم عدة أيام متتالية بقطر أساسه زيت النفط ويسمى سونتى Sonte ومن البخور المسمى أتى Anti الذي كان يخلط بمحبوب غير معروفة وبمادة عطرية أخرى . وكانت بعض تركيبات أخرى تستعمل في مواضع التقاء عضوين من أعضاء الجسم .

وكان لديهم منتجات للتجميل ولتجديد البشرة ولتقوية الجسم ، وأخرى لإزالة البقع وحبوب الوجه . فكانوا يستعملون مثلاً لتقوية البشرة مسحوق المرمر أو مسحوق النظرون أو ملح الشبال ممزوجا بالعسل ، كما توجد وصفات أخرى أساس تركيبها لبن الأتان أما جلد الرأس فقد كانوا يعنون به عناية كبيرة دائمة ، تتمثل تارة في اقتراع الشعر الأشيب أو تسرب الشيب إلى شعر الحواجب . وتارة أخرى في العمل على تلافى الصلع أو إعادة نمو الشعر . وكانوا يعلمون أن زيت الخروع أحسن علاج لذلك ، كما كانوا يعرفون كيف يعملون إلى إزالة شعر الجسم والعداز . وكان في متناول النساء تركيب خاص تسقط به شعر ضرتها (٨) إذا ما أرادت الكيد لها .

ولدينا وصفة عليية د دونت في نهاية بحث خاص بالجراحة ذات عنوان ينطوي على بعض الإدعاء هو « إعادة الشيخ إلى الشباب » ، يحصل على قرون وتجفف ثم تقصص وتفصل البذور عن القرون ثم تعمل عجينة من هذه البذور وتخلط بكمية مساوية لها من القرون وتترك حتى تدبخر المياه ثم تغسل وتترك ثانية لتجف ثم يصحن مسحوقا ، وإذا عملت عجينة من هذا المسحوق وسخنت

على النار فإننا نرى طبقة خفيفة من الزيت تطفو على السطح . ويصب هذا الزيت بعد تصفيته في آنية من الحجر الصاب مثل الزجاج الطبيعى . وهذا الزيت الثمين يكسب البشرة لونا لا مثيل له وهو دواء مضمون لعلاج الصلع وبقع الشمس وتجاعيد الشيخوخة والبقع الحمراء التى تشوه الجلد . (٩)

وهذا الدواء الهام قد استعمل بنجاح ملايين المرات وليس له عيب سوى أن تحضيره يتطلب وقتا طويلا وأن السكية التى يحصل عليها منه قليلة ولذلك كان باهظ التكاليف . كان أفراد الطبقات الفقيرة يذهبون إلى حلاق يجلس تحت ظلال شجرة فى العراء ، وانتظارا لدورهم كانوا يتحدثون أو ييقون جالسين دون أن يتمددوا ، فيحنون ظهورهم ويضعون رؤوسهم بين أيديهم ويسندون جباههم على ركبهم وقد يحدث أن يجلس اثنان أحيانا على مقعد واحد مستدير دون مسند والعميل الذى يصيبه الدور يجلس على مقعد ذى ثلاث أرجل ويسلم رأسه للحلاق فيجعله أملى كحجر على شاطئ البحر . (١٠)

أما زينة المرأة الغنية فكانت حدنا هاما مثل زينة زوجها . وبين لنا نقش بارز كيف يتم تزيين إحدى محظيات البلاط . (١١) فقد جلست هذه السيدة على مقعد مريح ذى مسند كبير للظهر ، ومتكئات أخرى جانبية ، ممسكة بيدها مرآتها التى على هيئة قرص من الفضة اللامعة ولها مقبض من الأبنوس والذهب على شكل عمود يماثل ساق نبات البردى ، ولم تقف عاملة الزينة دون عمل فبأصابعها الرقيقة الماهرة نراها قد فرغت من عمل مجموعة من الضفائر الصغيرة رغم أن شعر المحظية كان قد قص قصيرا إلى حد ما ، وبمشبك من عاج ، حجزت خصلات الشعر المتناثرة التى لم تناولها بعد ، وكان هذا العمل يتطلب وقتا طويلا . ولأجل الترفيه عن السيدة كان خادم قد كلف بإحضار كأس وصب فيها من قنينة ، قائلا عندما يمس الكأس شففى

سديته : ، في صحة قرينك (الكا) ، . وأما زوجة أنوبو Anopou المتوسطة الحال والتي كان زوجها فلاحاً ومالكاً صغيراً فكانت تقوم بعمل زيتتها بنفسها عندما يكون زوجها وأخوه في الحقل . وهي لا تحب أن يضايقها أحد . وكانت إذا قامت لقضاء أمر أفسد زيتتها في الطريق ، اضطرت إلى إعادة الكرة من جديد^(١٢) .

٢ - الزينة

حينما كان الرجل يتزين ، كان لا يرتدى إلا ملابس الصباح البسيطة ، وهي الإزار ، ويظل عارى الرأس حافى القدمين لا يتزين بالخلى أو يتزين بالقليل منها ، وبعد أن تم زينهته يمكنه أن يحتفظ بإزار الصباح حتى ولو كان مضطراً إلى مغادرة منزله ، يزين معصمه بزواج أو أكثر من الأساور ، ويضع خاتماً في أصبعه ، وحول رقبته عقد يتألف من خمسة أو ستة صفوف من حبات الخرز ، قد ضم طرفاه بمشبكين على هيئة رأس الصقر ، وإذا أضاف دلالية ، من حجر اليشب أو من العقيق معلقة في خيط طويل ، أصبح في هذه الحالة كامل الزينة واستطاع أن يزور ضياعه ويستقبل رجال الأعمال أو يتردد على بعض المسكاتب . وفي وسعه إذا شاء أن يستبدل الإزار برداء كامل ويحتذى نعلا في رجله ،^(١٣) وكانت النعال معروفة منذ أقدم العصور ولكنهم كانوا يحرمون على عدم استعمالها إلا في المناسبات ، فالملك ناورم الطاعن في السن كان يسير حافى القدمين يتبعه خدومه ، وكان أحدهم يحمل نعلى الملك . وأوفى Ouni أخذ الإحتياطات الكافية بمنع الجنود من سلب النعال من أيدي المارة ،^(١٤) من الأيدي واپس من الأقدام . وعندما يذهب القرويون لإنجاز أعمالهم ، كانوا يحملون النعال في أيديهم أو يربطونها في طرف العصا ، وكانوا ينتعلونها حينما يصلون إلى المسكان (٢٢ - الحياة في مصر)

المقصود . وفي عهد الإمبراطورية الحديثة ، وخاصة خلال حكم الرعامسة استعملت النعال بوفرة ، فكانت تصنع من ورق البردى المضفور أو من الجلد أو من الذهب أيضاً .

وفي مقدمة النعل سير يمر بين أصبعي القدم الأول والثاني ويلتف حول أعلى القدم حيث يتصل بسيور على جانبي النعل ربطت على هيئة عقدة خلف الكعب . وإذا كان النعل من الذهب فتكون السيور بدورها من الذهب . وفي هذه الحال لابد أنها كانت تسبب جروحاً لمن ينتعلها وخاصة لأولئك الذين كانوا لا ينتعلونها إلا قليلاً . (١٥)

وقد أشارت بعض أوراق البردى الطبية إلى أن المصريين كثيراً ما كانوا يعانون من أقدامهم . (١٦)

وكان بعض المصريين يرتدون ثياباً لا زخرف فيها ، ذات حمالات ، وكانت تمتد بطول الجسم من الصدر إلى أخمص القدم . غير أن أكثر المصريين كانوا يفضلون أن يرتدوا بدلاً من تلك الثياب البسيطة ، ملابس ذات ثنيات لها فتحات واسعة عند الرقبة ، تناسب مع الجزء الأعلى من الجسم وتوسع عند نهاية الثوب ، أما الأثام فقصيرة نوعاً وتنتهي بانسياب . وفوق هذا الثوب حزام عريض مصنوع من شال ذي ثنيات من نفس قماش الثوب ، وتنتهي طرفاه على هيئة منشقة مثلثة الشكل . أما الزي الكامل للاحتفالات فكان يتطلب شعراً مستعاراً يحيط تماماً بالرأس ، ومجموعة كبيرة نفيسة من الحلى والعقود والدلايات وحلى الصدور المزودة بالسلاسل وأساور للرسغ والذراع ونعال للقدمين . (١٧) وكانت ملابس سيدة المجتمع لا تختلف كثيراً عن ملابس زوجها فكانت تشمل قيصاً

شفافاً جداً ، وفوقه ثوب أبيض شفاف ذو ثنيات مثل ملابس الرجال ، يعقد على النهد الأيسر بينما يكشف النهد الأيمن ويمتد مفتوحاً من تحت حزام الوسط. حتى القدمين. أما الأكام المزركشة بالخممل فإنها تترك السواعد مكشوفة ، وتكشف عن جمال الأيدي الطويلة المنسقة والأرْسُغ المكتظة بالأساور ذات الأشكال المختلفة : إذ كان منها ما هو على شكل رقيقتين مزخرفتين من الذهب تربطهما مفصلتان ، وأقراط من الذهب المصمت وعقود من اللؤلؤ ، والخنيل المنتفة والشرائط من الذهب . وكان الشعر المستعار المجدد ينسدل فوق الأكتاف والظهر ، ويتألق بين الشعر تاج جميل من الفيروز واللآلئ والذهب ، قد ثبت خلف الشعر بشريطين تدلّ منهما الطرر .

وفوق هذا الزخرف المعقد للشعر ، كن يضمن قعاً يحفظان توازنه بأعجوبة . ولم يعرف بعد ما كان يتركب هذا القمع ، ولكن نعتقد أنه كان نوعاً من الدهانات المعطرة . ولم يكن هذا الشكل المخروطى مقصوراً على النساء وحدهن فقد كان الرجال بدورهم يضعونه فوق رؤوسهم في غالب الأحيان. (١٩)

والملابس التي سبق أن وصفناها لا تلائم إلا فئة الأعيان الذين لا عمل معين لهم ، أما طبقه العمال فكان أفرادها يرتدون ملابس أكثر فائدة عملية . وكان الفلاحون والصناع يكتفون - كما هو الحال في العهد السابق - بإزار له حزام في حجم اليد دون حلية أو زركشة يختلف عن إزار الأسويين الذي كان ينتهى بطرر تزينه .

أما أفراد الطبقات المتوسطة فكانوا لا يقلون عن أفراد الطبقات

الغنية في الولع بالحلى والجواهر . وكانوا يستعصون عن الذهب بحلى من الخنزف والبرونز . والنساء عترفت الموسيقى كن يرتدين ملابس مثل سيدات المجتمع : رداء طويلا شفافاً ، وكثيراً ما كن لا يرتدين ملابس إطلاقاً ويكتفين ببعض الحلى وبجزام وعقد وأساور وأقراط . أما خادومات المنزل الصغيرات ، وكثيراً ما كان من العسير تمييزهن من الأطفال ، فكن يسرن عراة الأجسام لا سيما عندما يستقبل سادتهم الضيوف عارضين على المعجبين فى جرأة عجية أجسامهن النحيلة الرشيقة .

٣ - الطعام

كان المصريون يقدرون دائماً قيمة أراضهم الزراعية ولا يعنون عليها بمجهودهم ، ومع ذلك كانوا يخشون شر المجاعة . كانوا يعلمون أن فيضاً ضعيفاً جداً أو جارفاً يستتبعهما محصول ضئيل . وكان واجب الحكومة يفر عن عليها أن تتخذ الإحتياطات التموينية اللازمة على نحو ما أشار به يوسف على فرعون ، بعد أن فسر حلم البقرات والسنابل لمواجهة الموقف وسد العجز . وهذه الإحتياطات الأولية قد أهملت دون ريب فى السنوات الأخيرة التى سبقت سقوط الرعامسة . سئلت امرأة عن مصدر الذهب الذى وجد عندها فأجاب : « لقد حصلنا عليه ثمناً للشعير فى سنة الضياع ، عندما نفشت المجاعة » (٢٠) .

وكانت الحرب على أشدها عندئذ ضد الكفار ، والعصابات منتشرة فى كل مكان ، فى المعابد والقصور والضياع ، يقتلون ويسرقون ويحرقون مواد الطعام . وكان الفلاحون لا يفرطون فى المواد الغذائية إلا بعد تسلم ثمنها وزنا بالذهب . وقد أشعرت مثل هذه الأحوال الشعب بالنتم على غزو

المكسوس . ولكن قدماء المصريين عاشوا في رغد من العيش طوال أجيال بين هاتين الفترتين العصبيتين ، إذ كانت الخيرات عيمة في عهد سبتى وعلى الأخص في عهد الرعامسة العظام ، ونشاهد في النقوش البارزة في المعابد أو المرسومة في مقابر الخاصة كيات كبيرة من القرايين وشبانا يحملون الطعام أو يفودون الماشية . وقد دون في بردية هاريس Harris الكبيرى تفاصيل لسخاء رمسيس الثالث نحو الآلهة وبأنه يفضل تقديم مأكولات كقرايين بدلا من المعادن الثمينة والملابس والعطور . وكل هذا يدل على أن المصريين كانوا يميلون إلى الجيد من الطعام ، حتى لو كانوا على سفر خارج بلادهم : فعندما ما كان سنوحى في مقاطعة إيا Iaa بسوريا وجد تينا وعنبا وفيزا أوهر من المياه ، وعسلا وزيتا وكل أنواع الفاكهة والشعير والنشا وقطعانا لا حصر لها من الماشية ، وعلى الجملة ، كل ما يوجد من الخيرات تقريبا في أحسن مزارع مصر ويقول أيضاً : « كنت أصنع الفطائر كالعادة ، وأتناول النبيذ مع الطعام كل يوم . وأكل اللحم والطيور المشوية بجانب الحيوانات البرية التي كانت تصاد من أجلى وتوضع تحت تصرفى ، فضلا عن الصيد الذى كانت تحضره لى كلابى » . (٢١) ولم يكن فى استطاعته وهو فى مصر أن يحصل على أكثر من هذا . ولم يكن البحار الفريق بدوره سىء الحظ فى الجزيرة التى لجأ إليها فى البحر الأحمر ، فقد قال : « وجدت هناك تينا وعنبا وكافة الخضروات والكرات الكبير والخيار والبطيخ والشمام فى حالته الطبيعية وأسماكا وطيورا ولم يكن هناك شىء غير موجود بها » . (٢٢)

ولنعد إلى مصر لحصر الموارد الغذائية .

ولتبدأ باللحوم ؛ كان المصريون دائماً من أكثر الناس أكلا للحوم . فناظر القضاين وأفواج الحيوانات المخصصة للذبيح تنطى جدران المقابر .

وكان العجل أكبر مصدر للحوم . وباسم ابوا loua كان يعرف الثور الأفريقى ، وهو حيوان كبير الجسم ذو قرنين كبيرين عادة ، سريع الجرى . وبفضل نظام مناسب فى غذائه ضخيم حجمه وزاد وزنه ، وحينما يصير غير قادر تقريباً على السير يصبح صالحاً للذبح . ويمكن أن يشاهد هذا المنظر فى مواكب أيدوس وفى مدينة حابو (٢٢) فكان السائق يضع حبلاً فى أنف الحيوان ويربط به الشفة السفلى أيضاً ليتمكن من السيطرة عليه . والحيوانات التى تفوز فى السبق تزين بوضع ريش النعام وعلين صغيرين بين قرنها . وعندما يصل الموكب إلى مدخل المعبد يستقبله كاهن يحمل مبخرة متقدة بيده الممتدة تجاه الحيوان ، وقد وصف هذا المنظر بالكلمات الآتية :
 « تكريس العجل الطاهر الفم للجزر النقى لمعبد رمسيس ميامون الذى يجاور تا أور Ta Our » . ولا يقبل الفاحصون سوى الحيوانات السليمة ويعادون الكشف عليها بعد الذبيح .

وكانوا يطلقون أسم أنجو Ondjou على العجول الصغيرة التى لا قرون لها أو ذات القرون الصغيرة ، ويطلقون أسم نجا Naga على العجول ذات القرون الكبيرة والأجسام الضخمة ولكنها أكثر توحشاً من العجول المسماة أبوا وبالتالى يصعب تسميتها ، ولذلك ترى ضامرة الأجسام دائماً فى رسومها . وبعض الصفات التى تطلق على أنواع الحيوانات المعدة للذبح لا يمكن معرفة كنهها إلا بصعوبة ، فعلى سبيل المثال : والعجول التى فى مقدمة القطيع أو العجول الصغيرة * . أما العجل المسمى حريسا Herysa فهو على ما أعتقد أجهل ما فى الخطيرة من حيوان . ووردت أحياناً إشارة إلى ثيران العمل التى تنتمى فى الأصل إلى سوريا أو ثيران بلاد كوش (٢٤)

وفى عهد الدولة القديمة ، كانت الحيوانات الصغيرة التى تقطن الصحراء

ذات قيمة كبرى كصدر غذائي. وقد كان المصريون يتوجهون إلى الصحراء لصيد الماعز البرى Oryx والغزلان والوعول . وكان يسعدهم جدا صيد هذه الحيوانات حية ليربوها في حدائقهم ، غير أن تربية الحيوانات بهذه الوسيلة فقدت الكثير من أهميتها في عهد الرعامسة .

فكان رمسيس الثالث يبعث بالصيادين إلى الصحراء لاصطياد الماعز البرى . وقد قدم في عهده لمعبد آمون الكبير ٥٤ عددًا من الماعز البرى ووعلا واحدًا و ٨١ غزالا . وسجل في كشف تكميلي أنه قدم ٢٠٦٠٢ عجلا و ٣٦٧ من المها والطيوس والغزلان . (٢٥) ويشاهد في موكب أيدوس معزة برية جميلة ذات قرون مستقيمة ولها تسمية غريبة : «عجل المها من حظيرة رمسيس» . ونرى بين الفينة والفينة رسم أحد الماعز البرى بدلا من العجل في المناظر التي تمثل الذبح ، ولكن لم أجد رسم البقر الوحشى مشتركا مع رسم العجول في مناظر الولائم . وعلى ذلك يمكن الحكم بأن حيوانات الصحراء لم تكن تصاد لغرض الطعام بل كانوا يفضلون تقديمها قربانا للمعبودات مثل المها والغزلان ، وذلك ذكرى للعهد السالف حين كان المصريون يعتمدون على صيد الحيوان لا على تربيتها . ولا يوجد على ما أعلم أى مستند يمكن أن يؤيد أن قدماء المصريين كانوا يأكلون لحم الخنازير أو الماعز أو الخراف ، ولكن لا يوجد أيضا ما ينفي ذلك ، وحتى في الصعيد كثيرا ما نرى مثل هذه الحيوانات في المزارع .

وتنتهى مهمة الرعاة حينما يساق العجل إلى المجزر . (٢٦) وعندئذ يبدأ دور الجزارين . وهؤلاء كان يتراوح عددهم بين أربعة أو خمسة رجال يهاجمون الحيوان في عزم ويجهزون عليه بطريقة لا تختلف عما كان متبعًا في العهود السالفة: فيبدأون أولا بإدخال القدم اليسرى الأمامية للضحية في عقدة من الحبل ويلقون بالطرف الآخر للحبل فوق ظهر الحيوان فيتلقفه جزاء

آخر ويشده مما يضطر الحيوان إلى رفع قدمه المربوطة عن الأرض ، وفي هذه الحالة يفقد الحيوان توازنه فيسقط على الأرض ويهجم عليه جمع من الجزارين ، ويحجم أشدهم جرأة على رقبة ويمسك بقرن الحيوان ويشد رأسه إلى الخلف . ويتعلق جزار آخر بذيل البهيم . ويحاول ثالث رفع إحدى القدمين الخلفيتين إلى أعلى حتى يسقط الحيوان على ظهره ، وعندئذ تربط رجلاه الخلفيتين مع القدم الأمامية السابق إدخالها في العقدة ، ويصبح من المتعذر عليه أن ينهض ثانية ، أما القدم الأمامية الأخرى فتبقى دون قيد ، ولا يمكن أن تكون ذات فائدة للحيوان المغلوب على أمره الذي يحاول أن يؤخر ساعة أجله المحتوم فيقوص ظهره ، ويمسك جزار قوى الشكيمة رأس الحيوان ويطوح به إلى الخلف ويظل ممسكا به دون حركة ويسند القرنين على الأرض فيصبح النحر مرتفعاً إلى أعلا . وليس لدى الجزارين من أسلحة سوى سكين حادة ذات مقبض قوى مستديرة الطرف حتى لا يشق الجلد . وطول هذه السكين يزيد قليلا عن طول اليد الواحدة وقد علق المسن في جانب من المثزر . ويذبح رئيس الجزارين الضحية ويجمع الدم في إناء ، وإذا تمت هذه العملية في مجزر المعبد ، تقدم كاهن وسكب فوق الجرح سائلا من إبريق . وقد يكون هذا الكاهن أحيانا أحد موظفي الخدمات الصحية . يضع الجزار يده المخصبة بالدم تحت أنف الكاهن قائلا : « انظر هذا الدم » فيرد عليه وهو ينحني ليتأكد من سلامة الفديحة زيادة في الحرص ، وفي تلك اللحظة يبدأ تقطيع أوصال الحيوان بسرعة فائقة . تقطع أولا الساق اليمنى التي تركت بدون قيد عند إيقاع الحيوان على الأرض . ويمسكها مساعد الجزار رأسيا ويجذبها إليه ثم يحركها أن تطلب الأمر ذلك كي ييسر للجزار عملية تقطيع للمراقب وهو يدخل سكينه في المفاصل . وبعد أن تفصل الساق تتحرك اللحمين بكاملها وبعدئذ تفصل الرأس عن الجسم الذي يشرح ثم يسلخ الجلد

ويستخرج القلب . وتحل بعد ذلك أقدام الحيوان الثلاث من قيودها ثم تقطع بدورها . وتقسّم الساقان الخلفيتان إلى ثلاثة أجزاء هي الفخذة سوت Sout والركبة أبووال Joul والرجل انست Inset . ثم تقطع الأضلاع إلى أجزاء كثيرة منها القطعة المسماة « الفيليت » - لحم الكتف وهي قطع اللحوم الممتازة وبعدها القطع الجانبية أي الفيليه الكاذبة « بيت الكلاروى » التي تليها في الجودة ومن أجزاء اللحوم الممتازة الكبد والطحال إذ أن كثيرين كانوا يولعون بأكلها ، ويعنى الجزار عناية كبيرة بالأمعاء ، فيخرجها على مهل ليفرغ ما بها . وهكذا يستمر العدل وفقا للتعليمات والأوامر على النحو التالى : « أسرع أيها الزميل ! استحلفك بميثاك أن تسرع ! خلصنا من هذه الفخذة ! خلصنا من القلب ! » .

وإذا كان العمل جاريا داخل أحد المعابد ، فإن حضور رئيس الاحتفالات أو مجرد ذكر اسمه كفيل يجعلهم يبذلون جهدا مضاعفا . « إنهض أيها الصديق وأسرع ، استخرج هذه الضلوع من مكانها قبل أن يحضر الرئيس ويقوم بصف العمل على المائدة . هذا هو لحم الكتف ضعه على هذه المائدة المستديرة » . وينفذ المخاطب الأمر دون أدنى تذر قاتلا : « أنى أفعل ما يسرك . . أنى أفعل ما يرضيك » . وفي بعض الأحيان يخاطب الجزار نفسه عندما يتركه مساعدته بقوله : « من العسير على أن أفعل كل هذا وحدى » .

ولم تكن الديكة والدجاج معروفة في ذلك الوقت ، ولكن الدواجن واستهلاكها كانا يقومان على نطاق واسع . وفي بردية هاريس الكبرى كانت تعد الدواجن بمئات الألوف . وقد قدمت هبة من الحيوانات ذرات الأربع بلغ مقدارها ٢٠٢٩ وعدد من الطيور مقدارها ٢٥٠ و ١٢٦

منها ٥٧,٨١٠ حمامة و ٢٠-٢٥ من الطيور المائية التي تصاد حية من المستنقعات و ٦,٨٢٠ من الأوز و Ro* و ١,٥٣٤ من الأوز نرب Terp** و ٢,٠٦٠ من الطيور التي تفرخ، و ١,٤١٠ من طيور البشاروش ذات الأرجل الطويلة و ١٦٠ من طيور الكركى . أما السمان بارت Part فقد بلغ عدداً هائلاً هو ٢١٧٠٠ و ١,٢٤٠ وهذه القائمة تعتبر جزءاً ضئيلاً إلى حد ما إذا قورنت بالقائمة التي يمكن عملها حينما نرجع إلى مناظر الصيد و تربية الحيوانات التي دونت على جدران مقابر الدولتين القديمة والوسطى .

وتوجد ثلاثة أنواع من طيور الكركى هي المسماة جات وأيوو وجا، ويمكن أن يضيف إليها أفراخها الصغيرة المسماة أوجا (أو أوزة) . والأوز والبط والحمام و بط الماء كانت مقسمة إلى خمسة عشر نوعاً ، وليس ثمة شك في أنها لم تكن قد انقرضت في عهد الرعامسة . ولكن هواة تربية الطيور كانوا قد قصروا جهدهم على الأنواع القليلة التي اعتقدوا أنها ذات فائدة أهم من غيرها . (٢٧)

وقد ورد في لوحة الملك الآتيوى پيخنخى Piankhi أنه بعد أن استولى على مصر ، رفض أن يجلس على مائدته أمراء الصعيد والدلتا ، لأنهم كانوا فاسقين و يأكلون الأسماك ، وكانت تقاليد القصر الملكى تعد هذا جريمة لا تغتفر ، ماعدا نمروت الذى كان لا يأكل السمك ، وربما كان سبب ذلك راجعاً إلى أنه كان يعيش في مدينة كهنة الأشمونين (٢٨) ولم تكن قائمة طعام الموتى في الامبراطورية الحديثة وكذلك في العهود السابقة تحوى

* هو المعروف عند سكان شمال الدلتا بالبط الشهران .
** بالسلطان

الأسماك ، وكان ممنوعا في بعض المحافظات وفي بعض المدن وكذا في بعض الفصول أكل هذا النوع أو ذاك من الأسماك . يدل كل هذا على أنه لم يكن يمنعني ما زحافيا هو طاهر ونجس ، فإن كافة الأهل ، حتى من هم في المعابد لم يتوزعوا عن أكل الأسماك ولكنهم حسب ما اعتقد يمتنعون عن أكل الأنواع الرديئة القليلة الغذاء مثل السمك المسمى بو Bou أى الردىء المعاف ، والنوع المسمى شب Chép أى الندامة أو الأشف* ، فكان سكان الدلتا وكذلك الذين يعيشون على ضفاف بحيرة الفيوم صيادى أسماك محترفين ، وقد عثر ماريت Mariette بحمة تانيس على مجموعة من أحجار الجرانيت تمثل رجلين ضخى الجسم غزيرى شعر الرأس والذقن ، يسيران جنبا إلى جنب في خطوة واحدة وبجملان مائدة يتدلى منها نوع فاخر من السمك (البياض) .

وتسجل بردية هاريس كيات وفيرة من الأسماك من بين ما يوزع من الطعام في معابد طيبة وأون ومنف : ٤٤١٠٠٠ من الأسماك الكاملة من أنواع مختلفة وخاصة من البورى ، والقرموط والسمال . وهى من الأسماك المتوسطة الحجم .

أما سمك البلطى الكبير الحجم وسمك البياض فقد بلغ من ثقله ما يستلزم رجلين لحمل الواحدة منها . (٢٩) ولكى يحملوها كانوا يدخلون عصا طويلة تحتق أذنها ثم يضعان طرفى العصا فوق أكتافهما ويسيران بخطى نشيطة بينما يتدلى ذيلها على أرض الطريق . وسمكة كبيرة مثل هذه كانت تكفى وحدها لإطعام أسر بأكملها .

أما أنواع الخضر فقد وردت في تقويم مدينة حابو تحت الوصف العام للمحاصيل السنوية رينبوت وهى إما معروضة على موائد

* هذا النوع من السمك ذو لحم ناعم وسلسلة مفردة وأشواك

أو مربوطة في حزم . وقد ذكر على حدة البصل والسكرات وهما صنفان
كانا معروفين منذ أزمنة سحيقة القدم . وبما يحكى أن تاجرا من عهد النولة
القديمة قال لعمله عندما تقدم إليه ومعه رغيف : « ضعه جانبا وسأعطيك
بصلا جيدا حجو » . Ebers .

أما السكرات ياقت Iaqet فقد ورد ذكره في بردية ايبرس الطبية Ebers
وفي قصة خوفو والسحرة ، كما أن البحار الغريق كان قد عثر عليه في جزيرته
التي وجد فيها كل شيء . وأما الثوم فكانت له مكانة كبيرة عند المصريين .

وقد زعم هيرودوت أن العمال الذين كانوا يعملون في بناء أهرام
خوفو قد أكلوا من الفجل والبصل والثوم ما تقدر قيمته بألف وستائة
وزنة من الفضة . ويجوز أن يكون هذا الزعم صحيحا ولو أن هذه البيانات
لم تدون على الآثار كما اعتقد هيرودوت ، ومهما يكن الأمر فقد وجدت في
مقابر طيبة بعض ربطات من الثوم ، والاسم المصرى القديم للثوم هو
خيزان Khizan وقد حقه فيكتور لوريه V. Lorel في بردية هاريس
الكبرى وفي ترجمة العهد القديم باللغة القبطية . (٢٠) وقد وزع رمسيس
الثالث كميات وفيرة منه على المعابد ، وقد أبدى العبرانيون ، وهم في طريقهم
إلى أرض الميعاد أسفهم على الخيار والبطيخ والسكرات الكبير والبصل
والثوم التي كانت موجودة بكثرة في مصر (٢١) وكان البطيخ والخيار والشمام
يظهر كثيرا على موائد القرابين بجانب حزم البردى التي ظن البعض خطأ
أنها حزم من الهليون (والإسبرج) ، وقد زعم المؤرخون الكلاسيك أن
الدين كان ينعى أكل الفول والحمص ليعتاد الناس ، كما كان يعتقد ديودور ،

رياضة أنفسهم على الحرمان من بعض الأشياء . (٢٢) على أنه قد وجد في الواقع ببعض المقابر الفول والبازلة والخص . ونعلم أن كهنة أون ومنف قد أخذوا الفول في عهد رمسيس الثالث (٢٣) . والواقع أن الخص يشبه إلى حد كبير رأس الصقر ، وخاصة رأس الصقر الذي يغطي الإناث الكانوبي الثالث المخصص لحفظ أحشاء الموتى ، المسمى قبح سنوف ، ولكن لم يكن ذلك سببا للامتناع عن تناوله ، غير أنه يحتمل أن يحدث ذلك في بعض الأيام وفي بعض الأماكن . أما الخس فكان يزرع في الحدائق على مقربة من البيوت ويغمر بالماء وكان نبات المعبود مين *Mia* الذي أقيم تمثاله في أغلب الأحيان تجاه مربع من نبات الخس . ولكن هذا المعبود (إله التناسل) لم يكن المعبود الوحيد الذي كان يأكل الخس . ويروى مؤلف قصة النزاع بين هورس وست أن إيزيس توجهت إلى حديقة ست وسألت البستان عن أنواع الخضر التي كان يأكلها ست فاجاب البستاني : « لم يكن يأكل ست شيئا أما سوى نبات الخس » . وفي اليوم التالي ذهب ست إلى الحديقة حسب عادته اليومية وأكل أيضا نبات الخس . وكان ست فاسقا ولكن مين كان يفوقه مجونا . وقد لوحظ أن الخس يجعل الرجال شبقين والنساء خصيات ، ولذلك كانت تستهلك منه كميات عظيمة . والخس الأخضر الجميل كان يوجد دائما بوفرة على موائد القرابين . وما لا ريب فيه أنه كان يؤكل كما يفعل العرب اليوم ، نيتا مع الزيت والملح . (٢٤)

ولم يكن لقدماء المصريين حظ الحديثين ، لأنهم لم يعرفوا البرتقال ولا الليمون ولا الموز . أما الكثرى والخوخ واللوز والكرز فلم تظهر على الموائد إلا في عهد الرومان . ولكنهم كانوا يأكلون خلال الصيف ، في

تختلف العصور ، العنب والتين والبلح والجوز الذى كان أصفر حجماً وأقل حلاوة من التين . وفى أقليم مصر لم يكن البلح يوجد إلا فى نواحي طيبة ، أما دوم النخيل ، وإن كان صالحاً للأكل ، فقد كان يستخدم فى أغراض طيبة ، أما جـوز الهند فكان فاكهة غريبة مفضلة لدى بعض الخاصة . واستمر المصريون فى زراعة أشجار الرمان والزيتون والتفاح التى أدخلت فى عهد الهكسوس ، وكانت تعطى ثماراً طيباً . وكان زيت الزيتون يستعمل فى الإضاءة كما كان يستعمل فى الطعام . وقبل أن يعرف المصريون شجرة الزيتون ، كانوا يزرعون أشجاراً أخرى تدهم بالزيت وأهمها شجرة نخيل الزيت بالك ويمكن إضافة أشجار الهندباء والبنق والعناب والزيتون إلى قائمة الأشجار المثمرة .

ولا ينبغي أن ننسى أن عدداً كبيراً من أسماء الأشجار والنباتات لم يتيسر التعرف عليه بعد . ولا يمكن حصر موارد المصريين من الفاكهة والخضر بكل دقة . وكانت الطبقات الفقيرة تكسب فى بعض الأحيان بمص سيقان نبات البردى كما يصون الآن عيدان القصب وبعض عصير النباتات المائية التى وجدت أكواب مملوءة منها فى المقابر . (٢٥)

أما اللبن فكان طعاماً لذيذاً ، وكانوا يضعونه فى أوان من الفخار يضاوية الشكل ، يسدون فوهاتها بأعشاب لحايتها من الحشرات وحتى لا يكون إغلاقها محكما . ولمنتجات الألبان أسماء كثيرة منها : القشدة ، الزبد ، اللبن . ولكن ترجمة هذه الأسماء ليست دائماً مؤكدة . وكانوا يضعون الملح فى بعض الأدوية والأطعمة الخاصة . ولا يوجد ثمة سبب لعدم استعمالهم اللبن على نطاق واسع . وكانوا يستعملون مسحوق الخروب والعسل (٢٦) فى تحلية الأطعمة والمشروبات ، وعلامة نجم Nodjem وتعنى « حلو » أو « حلاوة » ،

تمثل قرن خروب . وكان المصريون يبحثون عن عسل النحل البرى وشبهه ،
فى أماكن نائية فى الصحراء ، وهذه الحرفة كانت تتطلب مهارة خاصة .
فالباحثون عن العسل يشتركون مع الرجال الذين يجمعون صمغ ، التريبتينه ،
من الوديان الصحراوية . وكان الملك يرسل فى صحبهم حرسا من حملة السهام
لحمايتهم مما يتعرضون له من أخطار عندما يبتعدون عن وادى النيل ،
ولم يكن هذا ليحول بينهم وبين تربية النحل فى الحدائق وكانت جرار
الفخار تستعمل كخلايا للنحل . ويسير مربى النحل بين خلاياه دون خوف
ويعد بيديه النحل حتى يتمكن من جمع أقراص العسل . ويحفظ العسل فى
جرار حجرية كبيرة مختومة .

٤ - الطبخ

كانت أدوات الطهى بدائية إلى حد ما ، والقطعة الأساسية هى موقد
مشتقل من الفخار ، اسطوانى الشكل يكاد يبلغ إرتفاعه متراً تقريباً ، فى
أسفله فتحة يدخل منها الهواء ويخرج منها الرماد ، وفى داخله قضيب أو جملة
أسياف يوضع عليها الوقود . وكان لابد من وجود فتحة يتصاعد منها الدخان
ولكن لم يرسم لنا الرسامون إطلاقاً موقداً له مدخنة . كان يوضع فوق
الموقد أنهاء له مقبضان ، يختلف فى الحجم واسكن قطره يزيد قليلا عن أعلى
الموقد . وعند الضرورة كان يستغنى الطهاة عن الموقد بأن يضعوا الإناء
فوق ثلاثة أحجار ويوقدوا تحته بعض الخشب والفحم . وكانت تستعمل أيضاً
أفران من المعدن على هيئة صناديق بدون قاع ، قليلة الارتفاع ويوضع
الوقود منتوراً على السطح ذى الثقوب ، وقد عثر فى مقبرة الملك پسوسنس
على قرن صغير ، ينطبق عليه الوصف المذكور ، يرجع تاريخه إلى عهد

ميسر الثانى . وكان تسرب الهواء إلى الموقد فى هذه الحالة عسيراً فكان طامى لا يكف عن تحريك مروحة حتى تستمر النيران متوهجة لا تنبهر ليلة قيامه بالطهى. (٢٨)

ولا يوجد الفحم الحجرى لا بمصر ولا بالبلاد المجاورة لها . فالطهاة مثل سائر أصحاب الحرف الذين يستعملون الأفران مثل صانع الفخار والخزف وسباك البرونز ، لم يكن فى متناول أيديهم سوى الفحم الخشبى أو الخطب أو الخشب . وقد ذكر لغم الخشب جابت Djabet فى عقود أسبوط كأحدى المواد ذات القيمة والنفع .

وكميات الفحم التى سجلت ضمن تقويم مدينة حابو وفى بردية هاريس ضئيلة جداً . وكانت تسلم داخل أكياس أو فى سلال .

ولأجل إيقاد النيران كان قدماء المصريين يستعملون ما يعرف باسم «خشب الشراق» ، وكان وقتذاك صنفاً نادر الوجود حتى أن معبداً مهماً مثل معبد الكرنك كان لا يحصل منه إلا على ستين قطعة فى الشهر فقط أى على قطعتين فى اليوم الواحد .

وكان معروفاً منذ زمن سحيق ، إذ أن إحدى العلامات المهيروغليفية التى ترمز إليه وجدت فى فهرست قديم ، وهى عبارة عن قطعتين إحداهما تمثل عوداً رفيماً من أعلا ومميكاً عند القاعدة والأخرى تمثل إناه . وكانوا يحضرون «الخشب الشرقى» من جنوب الوادى . وقد وجد البحار الغربى فى جزيرته فى البحر الأحمر هذا الصنف من الخشب فى متناول يده فأوقد النيران بسرعة وقدم ذبيحة للآلهة وأعد لنفسه طعاماً . وبعض العائلات

التي لم يكن لها نصيب في التوزيع الرسمي للخشب الشراق ، كانت تجد مشقة بالغة عندما تحتاج إلى النيران ولم يكن ثمة مخرج لها إلا أن تطلب من أحد الجيران الظرفاء الذين يقدرون ظروف الغير أن يمنحها قطعة من الحجر .

وإلى جانب المواعد والأفران ومواد الوقود والأخشاب النارية ، فإن أدوات المطبخ كانت تضم أيضاً آنية الطبخ والدسوت والدلاء والأباريق والزلع الفخارية والحفائب والأكياس والسلال والأسبنة التي كانت تستعمل في نقل المواد القويونية والموائد ذات القوائم الثلاث أو الأربع لتقطع وإعداد الأسماك واللحوم أو لفرز الحضر والمناضد المنخفضة التي يشتغلون عليها وهم جناة ، والخطاطيف التي يعلقون عليها اللحوم والطيور .

ونعلم أنه يستعمل في اللغة المصرية القديمة فعنان للدلالة على طهي الطعام : الفعل الأول psy والثاني أشر Acher ويستعمل الفعل الأول للدلالة على طهي اللبن كما يدل أيضاً على طهي اللحم . ومن ذلك يتضح أنه يمكن ترجمة هذا الفعل بكلمة « فليان » ، وفي بعض الحالات ترسم حلة كبيرة على النار ، وكانت قطع اللحم تطفو فوق سطح الإناء ، ومن هذا يمكن أن نستنتج أنها كانت تطفو فوق سطح ماء يغلي . ولا يعلم أحد إذا كان اللحم المشار إليه يقدم كما هو أو مفروماً مع الخضار والتوابل أو على هيئة شرائح مستديرة أو مبططة . ولم يترك قدماء المصريين كتاباً عن الطهي ولكن يمكن أخذ فكرة عن مهارتهم في هذا الشأن من أوراق البردي الطبية حيث وصفت وصفات ضد الأمراض والزلات المعوية .

ولم يكونوا يجهلون أن الزبد والقشدة سمي Sny ودسم الأوز ودهن لحوم العجول الصغيرة كانت صالحة جداً في تحضير الأطعمة . (٢١) وفي (٨٢ - الحياة في مصر)

مطبخ رخمارع Rekharé رسم قدر صغير الحجم يوضع فوق الموقد يدل على أنه لا يمكن استعماله كقدر لطهى اللحم .

وطبقا لما ورد فى القصة ، فى الوقت الذى يضع الطباخ الدهن داخل القدر ، كان على مساعده أن يحرك ما بداخل القدر بأداة طويلة المقبض لانعلم تماما ما إذا كانت تنتهى على هيئة شوكة أو على شكل مغرفة . ويحتمل أن تكون محتويات القدر طعاما متبلا .

أما كلمة أشر Acher فتستعمل للطعام المشوى . وكانوا يفضلون الدواجن المشوية . فكان الطباخ بعد أن ينزع الريش وينظف الأوزة أو البطة يقطع رأسها وأطراف أجنحتها وأرجلها ويضعها فى سفود يمسك يده ماداً ذراعه فوق موقد تنبعث منه نار هادئة . ولم تكن الدواجن وحدها هى التى تجهز بهذه الطريقة فقد وجدت أيضا قطعة من اللحم أطلق عليها اسم أشر أى مشوية . وهذه القطعة لم يستطع التحقق منها جيدا — كما أن لحم الكتف « الفيلتو » ، يعنى « اللحم الممتاز » ، و « الفيليه » ، الكاذب « بيت الكلاوى » ، ها ha ومعناها الحرفى « لحم » ، كانت تشوى بدورها على السفود .

وإليك ما لاحظته هيرودوت فيما يتعلق بالأسماك والطيور ، كانوا يأكلون بعض أنواع الأسماك المجففة فى الشمس أو نيئة ويأكلون أنواعا أخرى مملحة فى الماء والملح . ومن بين الطيور ، كانوا يأكلون السمان والبط وبعض أصناف العصافير الصغيرة نيئة بعد تليحها . أما باقى الطيور والأسماك فكانت تؤكل مشوية أو مسلوقة . (١٠)

وتؤكد الوثائق المرسومة والنصوص فى جملتها هذه الشهادة أما أسماك البورى والبط فكانت توضع فى قفوف وتفرغ فوق الأرض ويجلس رجل على مقعد خشبي وييده سكين ليشق بطن هذه

الاسماك لتجفيفها ويهني السيد وزوجته بهذه العملية دون أن يسدوا أنوفهم . أما بويضات السمك البورى فتوضع جانباً ليعمل منها البطارخ . (١١) وكانت ترسل كميات كبيرة من الاسماك المجففة المشقوقة إلى المعابد في نفس الوقت مع الاسماك المسماة كاملة ، وربما كانت في الواقع أسماكاً طازجة . وترسل إلى المعابد أيضاً بعض الاواني المملوءة بالاسماك المحفوظة بالزبد . وربما كان هذا يشير إلى إحدى طرق حفظ الاسماك غير أننا لا نعرف عنها شيئاً أكثر من ذلك .

وتوجد أيضاً في بعض الأحيان طيور مائية كانت تشق في نفس المكان الذي تجفف فيه الاسماك ، لتحليتها وتجفيفها دون شك . وهذه الطيور المائية التي ترسل إلى المعابد كانت إما حية أو معدة للأكل في خلال مدة قصيرة أو مشقوقة أو مجففة حتى يمكن حفظها بعض الوقت . (١٢)

٥ - الخبز

يمكن عد خمسة عشر اسماً لأنواع الخبز والفطائر الواردة في الكتابات الخاصة بالدولة القديمة . فضلاً عن ألفاظ أخرى يمكن العثور عليها في بعض النصوص . ونحن عاجزون تماماً عن وصف هذا الخبز على وجه التحديد أو هذه الفطائر التي يمكن أن تختلف في صنعها طبقاً لنوع الدقيق وشكلها ودرجة خبزها . وكيفية فضجها في الفرن وبما تمزج به من عسل وابن وفاكهة وبيض ودهن أرزبد . ومصدر الدقيق ثلاثة أنواع من الغلة وهي الشعير أبوت lot والأذرة بوتى Boti والقمح سوت Sout وكان الأغنياء يختزنون ثمناتهم من الحبوب بالقرب من منازلهم أو فوق سطوحها . وكانوا يستطيعون طحن الحبوب وصنع الخبز داخل المنازل . ويقعون ذلك أيضاً في المعابد ولكن من المحتمل

أن يعمل بعض الطحانين والخبازين لحسابهم الخاص لصالح بعض الزبائن من عامة الشعب .

وبعد أن تنقى الحبوب من كافة الشوائب تسلم لجماعة يزيد عدد النساء فيها عن الرجال ، (١٢) ويقوم الرجال بالعمل الأول فيضغون قليلاً من الحبوب في مدق من الحجر ويتولى بالتناوب شخصان أو ثلاثة أشخاص أقوياء طحنها بواسطة مدقة ثقيلة يبلغ طولها ذراعين . وتقوم المغربلات بأخذ الطحين وغربلته بفصل النخالة عن الدقيق ويضعن النخالة جانباً لتكون غذاء للحيوانات ويعد الباقي للطحن . ولم تكن الطاحونة ذات الشكل المخروطي قد استعملت بعد ، ويتكون هذا الجهاز من مدق من جزئين وحجر كبير . وتوضع الحبوب في الجزء الأعلى وعندما تضغط الطاحونة على الحبوب تطرد الدقيق إلى الجزء الأسفل ثم ينخل ويعيدون الكرة حتى يأخذ الدقيق النعومة المطلوبة وهم يغنون : « لننعم آلهة هذا الاقليم على سيدى بالقوة والصحة » .

وكانوا لا يعدون يوماً إلا كمية الدقيق التي تسكنى لعمل الخبز ، وفعلاً ورد في المناظر المرسومة أن الخبازين كانوا يعملون جنباً إلى جنب مع الطحانين ، وفي بعض الأحيان كانوا يتوسطونهم . وتوفيراً للوقت كانت امرأة تقوم بوضع قوالب مخروطية الشكل فوق النار بحيث تصل النار إلى جوانب المخروط الداخلية ، وتمسك بيد مروحة تزيد النيران اشتعالاً ، ونحى يدها الأخرى عنها ، وعندما تصل الحرارة إلى الدرجة المطلوبة يضعون هذه القوالب على لوحة ذات ثقب مستديرة يملأونها بالعجين المختمر ، ثم تغلق فتحة القالب العليا وينتظرون حتى ينضج الخبز ثم يحبونه من الفرن ويرفعونه من القوالب ثم يعفونه ، لأن المصريين يتكون كل شيء ، وتحمل السلال الممتلئة إلى أرتك السعداء الذين يأكلون الخبز .

وهذه الطريقة في صناعة الخبز كانت متبعة منذ عهد الدولة القديمة . وكانت بطيئة وتتطلب عدداً كبيراً من العمال الذين كان يجب إطعامهم إن لم يدفع لهم أجر . وقد يأتى طفل ومعه طاسته الصغيرة في الوقت الذى تقوم فيه أمه برص العجين وتبطينه بكتنا يديها ويلتمس منها أن تعطيه قطعة من الفطير لأنه يشعر بالجوع ، ويعبرونه بأنه مثل عجل البحر ، ويوبخونه بأنه يأكل أكثر من عبد من عبيد الملك (١١) .

وفي عصر الإمبراطورية الحديثة ، كانت تستعمل نفس هذه الطريقة ولكن كانت توجد أفران يمكن خبز عدد رفير من الأرزعة فيها في آن واحد. (١٢) وكانوا يعرفون أيضاً كيف يخبرون فطائر رقيقة بوضعها وسط رمال ملتهبة كما يفعل البدو الآن .

٦ - المشروبات

كانت الجعة هي المشروب الوطنى لقدماء المصريين (١٣) . كانوا يشربونها في كل مكان ، في المنزل والحقول ، في المركب والحانات . ولما صدر العفو عن سنوحى أبجر من طريق هورس ، إلى إيتى تاوى Ity Taoui ، عاد من جديد إلى الحياة المصرية وأخذ يشرب الجعة التى كان قد حرم منها منذ مدة طويلة . والجعة المصرية كانت تصنع من الشعير والخنطة والبلاغ ، وكانت أدوات صنعها تتكون من قوالب كالتى يستخدمها الخباز ولكن بشكل أكبر ، وسلّة وبمجموعة كبيرة من الجرار وصحاف من الفخار . وكانوا يبدأون بصنع الخبز وكما كانوا يفعلون في الخباز ، كانوا يضعون قوالب كثيرة حول الموقد . وفي نفس الوقت كانوا يجهزون عجينة تسمى واجيت Ouadjit أى (الطازجة) ويسكبونها في قوالب شديدة الحرارة جداً ، ولكنها لا تلبث في القوالب إلا وقتاً

قصيراً ، تلفح فيه الحرارة جانبي الرغيف ويظل لبابه نيئاً . وهذا الخبز غير الناضج تماماً يقطع إلى فئات ويوضع في طست كبير ويخلط بالسائل السكرى الناتج من نقع البلح ثم يقلب ويصفى . وبعد قليل يختم السائل ولا يبقى بعد ذلك إلا تفريغه في الجرار وسدها بطبق صغير وكية من الجبس .

وبعد تجهيزها على هذه الصورة ، يمكن نقل الجرار إلى أية جهة . أما الاستهلاك فقد كانت الجعة توضع في جرار صغيرة تسع الواحدة منها لترأ أو لترين . والذين يتعاطون الجعة كانوا يضعونها في أفداح حجرية أو خزفية أو معدنية . أما الجعة المرة التي كان النوبيون يصنعونها بنفس الطريقة تقريباً فلا يمكن الاحتفاظ بها إلا زمناً قصيراً . وكانوا يعدون الملك المتوفى بأن يقدموا له خبزاً لا يتفتت وجعة لا تخمض . ومعنى هذا أن الجعة التي كان يتعاطاها الأحياء يمكن أن يتغير طعمها إلى الحموضة .

ومنذ أن سعت مصر بحكم أسرة من الدلتا فإن هواة عصير العنب ، الذى يعد هبة أوزوريس ، قد زاد عددهم أكثر من أى وقت مضى ، وعلى هذا ، فقد راجت تجارة النبيذ . وكان أحد موظفي القصر الملكى قد عهدت إليه شئون الثمنون فكان يعمد مدينة في رمسيس بثلاث سفن محملة بالنبيذ منها سفينة يمتلكها هو ، وسفینتان مقدمتان من قصر ملايين السنين إلى أوزيرمارع Ousirmare . وهذه السفن كانت تحمل واحداً وعشرين شخصاً وألف وخمسةائة جرة مسدودة من النبيذ وخمسين جرة من شراب يسمى شده Chedeh وخمسين من شراب آخر يسمى پا أور Pa our كما كانت محملة بسلال من العنب والرمان وأخرى لا تعرف محتوياتها (١٧) ويمكن أن نفترض أن أحد هذين المشروبين هو شراب الرمان والآخر

شراب من منتجات النبيذ . ومهما يكن الأمر فكثيرا ما كان الشراب المسمى شده يقترن اسمه بالنبيذ ، وكان الشبان من الطلاب يسكرون من هذا الشراب أو من ذلك بالرغم من غضب معلمهم انشيوخ من الكتبة .

وقد وجد في الرميوم كمية كبيرة من جرار النبيذ المكسورة دون ريب . وقد كتب عليها بالمداد بالرسم الميراطيقى يانات هامة تتعلق خاصة بمكان ورودها (١٨) . وكانت كل السكروم تقريبا موجودة في الدلتا ولا سيما في المنطقة الشرقية . وكان يقرأ أيضاً : « نبيذ جيد من ثامن تصفية » أو نبيذ من ثالث تصفية أو « نبيذ حلو » . وإني أفترض أن النبيذ الحلو هو النبيذ الطازج وأن الثالث والثامن هو ثالث وثامن تصفية وأن تصفية النبيذ تعتبر في الحقيقة إحدى الطرق التي تحول دون فسادة ، كما يعد عليه طريقة أخرى للإبقاء عليه صالحا . ولدينا نقش في بنى حسن يدولى أنه يتعلق بهذه العملية ، وإن كان قد أصابه التلف. (١٩) ولا أعرف ما إذا كان المصريون القدماء يدهنون الجرار من الداخل بالقطران كما كان الإغريق يفعلون . وهو أمر مشكوك فيه لأن المزية القيمة التي كانوا يقدرونها في النبيذ هي حلاوته التي تفوق حلاوة العسل .

٧ - الوجبات

انتهينا من سرد قائمة أهم المصادر التي تم تلخيصها الأسر المصرية وتستخدمها في وجبات الطعام خلال السنة . ولا توجد وثائق تساعدنا على وصف تفاصيل دقائق وجبات الطعام التي تقدم في المنازل على أنه يوجد شيء واحد لاشك فيه وهو أن المصريين كانوا يأكلون وهم قاعدون إما فرادى أو اثنين سويا على مائدة صغيرة يضعون عليها مختلف أنواع الأطعمة من لحوم وطيور وخضر

وفاكة وشراخ خبز صفت بشكل قعى على الطريقة الألبانية Kougerhopf ويجلس الأطفال على وسائل أو على الحصر .

ولا يجتمع أفراد العائلة صباحاً عند تناول طعام الإفطار، وكان الطعام يقدم لرب الأسرة حينما يفرغ من الاغتسال وارتداء ملابسه . كان يقدم له قطعة من الخبز وكوب من الجعة وشريحة من لحم الفخذ وقطعة من الفطائر شنس Chens . أما الأم فكانت تتناول وجبة الإفطار وقت زيتها أو بعد ذلك مباشرة . وعلى إحدى الرسوم في طيه. (٥٠) نرى خادمة تحمل كأساً تقدمها لسيدتها التي لاتزال يدها مشغولة بالمرآة ، وتوجد بالقرب منها مائدة عليها قفة وإفانان .

أما فائمة طعام الوجبتين الأساسيتين ، فكانت على ما نعتقد تحتوى على لحوم وطيور وخضر وفاكة الموسم وخبز وفطائر والجعة التي تلتزمها دائماً . وليس من المؤكد إطلاقاً أن المصريين ، حتى الأقباء منهم ، كانوا يتناولون اللحوم في كل الوجبات . ولا يجب أن ننسى أن القطار المصرى من البلاد الحارة وأن تجارة التجزئة لا تكاد توجد بها .

فالأشخاص الذين يقدرون على أن يذبحوا ثوراً هم أولئك الذين يكونون على ثقة من أكله خلال ثلاثة أيام أو أربعة ، وهم كبار الملاك من يشتغل لديهم عدد كبير من العمال ، ورجال الدين بالمعابد ، وأولئك الذين يقيمون حفلات للطبقات الشعبية خلال الأعياد ومواسم الحج لحسب .

ولا أعرف إلا رسماً بارزاً واحداً لحسب يبين لنا أشخاصاً يتناولون الطعام سوياً ، وأنه يوجد في أحد مقابر العمارنة ، والآكلون هم اخطاتون وأسرنه. (٥١) ونرى الملك يقضم بأسنانه كسفاً مشوياً، بينما تأكل الملكة

أحد الدواجن ، أما الملكة الأم فتضع شينا في قها بينما تدارل باليد الأخرى قطعة من الطعام لإحدى الأميرات الصغيرات الجالسة على وسادة بالقرب منها . وبحوار الآكلين ، توجد موائد محملة بالطعام واسكن لا نرى أطباقا ولا أكوابا ولا أقداحا . وهذه الظاهرة تدعو إلى كثير من الدهشة لأن مجموعاتنا الأثرية تحتوي على أطقم من الأدوات المنزلية بها أطباق مختلفة الأشكال ومتعددة الأنواع ، منها ما هو خاص بقناول الحساء والطعام المدهوك والأطباق المملوءة بالصلصة والخشاف ومشبهات الطعام والقشدة . ولذلك فإنى أعتقد أنهم كانوا يوزعون على الآكلين لا الأطباق وحدها بل السكاكين لتقطيع المأكولات والملاعق والشوك ، وهذه الأدوات ، وإن لم تكن واسعة الانتشار ، إلا أنها موجودة في المتاحف . ويضم متحف اللوفر مجموعة رائعة من الملاعق المصنوعة من الخشب وقد زينت مقابضها بأشكال جميلة لطيفة للغاية وفي الغالب لم تستعمل أبدا . وقد عثرت فوق مقبرة أو سركون الثانى Osorkon II على ملعقة كان تجويفها مسوكا بيد يمتد منها مقبض على شكل ماسورة من المعدن . ويلاحظ أيضا أن طاقما من أدوات الاغتسال مكون من إبريق وطست يوجد غالبا تحت المائدة الجانبية المملوءة بالطعام . ويثبت هذا أن المصريين كثيرا ما كانوا يتناولون الطعام بأصابعهم .

أما فترة بعد الظهر فكانت تتخللها وجبة خفيفة من الطعام بين الرابعة والخامسة مساء تليها فترة من العمل أو التسلية .

٨ - السفر

لا يعود الفلاح من الحقل في الخريف والشتاء إلا حينما يرخى الليل سدوله .

وكان ينتظر أن يكون بيته مضاء . وكان أنزبو عندما يدخل منزله الغارق في الظلمات ينزاه في الحال شعور بوقوع كارثة . وحتى الفلاحين كانت نضاء منازلهم خلال السهرات . كما كان تلاميذ المدارس والصناع يتممون أعمالهم على ضوء المصابيح وقت تبليج الصبح .^(٤٣) وكانوا يستخدمون زيت الخروع وزيت الزيتون في إضاءة المصابيح ، على أن متاحفنا لا تحوى الكثير من أدوات الإنارة . وقد عثرت في إحدى مقابر الأسرة الأولى على مصباح جميل من الحجر على هيئة زورق من ورق البردى به حلقة أفقية لإدخال الفتيل ^(٤٤) وتوجد مصابيح أخرى على شكل زهرة الزنبق . وتوجد في متحف اللوفر أقداح صغيرة مستديرة ومسطحة ، مصنوعة من الطين لا يزال عالقا بها بقايا فتائل أطرافها سوداء ، حتى الآن ، وكانت مشبعة بالمواد الدهنية دون شك ، وهذه هي المصابيح الشائعة التي كان يستعملها عمال الجبانات ، عندما كانوا يبنون المقابر . وكانت تصنع شموع أيضا لإضاءة المعابد في ليلة رأس السنة ومساء ليلة رأس السنة وفي ليلة عيد واجا Ouaga . وكانت هذه الأشياء ذات قيمة كبرى حتى أن موظف المعبد الذي كان يقوم بمحراستها كان يتناول أجراً عالياً لأجل تسليمها بعد الاستعمال إلى كاهن قرين* حان جفای Hapi Djefai الذي كان يضيئها أمام تمثاله .^(٤٥) وكانوا يدعون للمتوفى بأن يبقى مصباحه منارا حتى شروق الشمس . وكانوا يقدمون له بمناسبة أيلام النفس الخمسة الخطرة ،** خمسة أوان ذات شكل مخروطي ولها أيد تجعلها تبدو كالأشجار ، ويزود الجزء الأعلى منها بمادة الشمع ، ويمكن

* كاهن القرين أو كاهن الروح هو المسئول عن إقامة الطقوس الدينية للميت .
** تقع في نهاية العام .

إشعاله ، وتضاء هذه المسارج للميت أثناء وحدته ، ولا يوجد ثمة دليل على أن هذه المسارج كانت تنار للأحياء. (٥٦)

ولا تعطينا هذه المعلومات القليلة فكرة كافية واضحة عن كيفية إنارة المساجن وما كان السهر يستمر طويلا. إذ أن من عادة المصريين أن يستيقظوا عند بزوغ الفجر ويناموا مبكرين فيما عدا الكهنة والحراس الذين يتولون العمل ليلا. وكان الملك امنمحات الأول عندما كان يقصر علينا حدث قلب نظام الحكم الذى تعلم منه مدى وجود الإنسان ونكرانه للجميل ذكر أنه بعد أن تناول وجبة العشاء مسيت Messy كان الليل قد أقبل فتراخى نحو ساعة ثم استلقى على سريره بعد أن أنهكه التعب فنام لتوه. (٥٧) وهكذا كان المصريون ، بعد تناول العشاء يقضون ساعة أو ساعتين حول مسراج مدخن ثم لا يلبث أن يسود السكون أرجاء المنزل .

٩ - التوراة

كانت الأعمال التى يقوم بها الثرى المصرى تترك له الكثير من أوقات الفراغ ، ولم تكن تنقصه الوسائل لملتها . فالصيد فى الصحراء والتنزه والزيارات المقدسة للمعابد وصيد السمك والطيور فى المستنقعات وارتداد الحانات كان ضمن ما يفرغه من حين لآخر . ولكن وجدت فى متناول يده وسائل أخرى للترفيه لا يمكن تجاهلها . وهذه الوسائل هى التى تزيد الاهتمام بها أولا .

لقد كان من أكبر دواعى سرور المصريين أن يجمعوا عددا كبيرا من الأقارب والأصدقاء حول الموائد لتناول طعام الغداء أو العشاء . وقد وجدت مناظر كثيرة على جدران المقابر تمثل مآدب فى المنازل الأبدية (المقابر) وفى القصور الدائمة (المعابد). كان المدعوون أشباحا ولكن هذه المآدب تماثل من كافة النواحي ، تلك التى كان يقيمها صاحب المقبرة عندما كان

يعيش في الحياة الدنيا . فن هذه النقوش ومن بعض القطع الأدبية ومن القصص يمكننا أن نذكر صورة عن مادبة أقيمت لأصدقاء في بيت كريم .

كان يسمى هذه الولية - دون ريب - حركة كبيرة في الخازن والمطبخ وفي كافة أرجاء البيت . ويذبح نور طبقا للطرق المألوفة ، ثم يسلخ ويقطع إلى أجزاء وفق أصنافها المختلفة ، ثم تجهز قطع الشئ والتوابل والصلصة وتنشوى الأوز على السفود وتعد جرار الجمعة والنيذ والمشروبات الروحية . وتوضع الفاكهة على شكل هرمي في الأطباق والسلال . وتحفظ جميع هذه الأطعمة بعيدا عن الذباب والتراب . وتستخرج من الصوانات الكؤوس الذهبية والفضية والأطباق المصنوعة من المرمر والفخار المظلي . ويرد الماء في الأريار . وتفصل أرجاء المنزل وتدعك جيدا ثم تلمع ، كما تكنس عمرات الحديقة وتنتشل منها كل الأوراق المتساقطة من الأشجار . ويستدعى الموسيقيون والمغنون والرافضون من الجنسين . ويستعد البوابون بدورهم . ولا يبقى بعد ذلك سوى حضور المدعوين ليتناولوا الطعام .

وإذا كان من المتوقع حضور شخصيات عظيمة ، وقف رب البيت على مقربة من المدخل ، مخزقا الحديقة مع ضيوفه . وهكذا كان يفعل رجال الدين عندما يأتي الملك إلى المعبد . وحينما يعود رب البيت من القصر الملكي حاملا الهدايا الملكية ، كان يجد أقاربه مجتمعين أمام الباب الرئيسي للبيت . وكان من المحتمل أن يظل رب البيت جالسا في حجرة الاستقبال كما كان يفعل فرعون وهو ينتظر في قاعة الاجتماعات . وكان الأولاد والخدم هم الذين يستقبلون القادمين .

وكان المصريون لا ينضب معهم حين يقبلون التحيات ، فإذا استطاعوا استفاد كل عبارات المديح عندما يتحدثون عن فضائلهم وكل ما ورد من ألفاظ - كما جاء في اللوحات التذكارية التي دونوها للأجيال

القادمة — كان على المدعويين أن يردوا على من يحيمهم من مضيفيهم بنفس
العبارات التي قرأناها في البردية التي ترجع إلى عهد الرعامسة : « فلتحل نعمة
آمون في قلبك ولنمنحك شيخوخة سعيدة ! وتقضى كل أيام حياتك في
سعادة وسرور ، وأن تصل إلى أعلا مراتب الشرف والتمجيد ، ولتكن
شفتاك طاهرتين وأعضاء جسمك قوية ، وعيناك حادتي البصر ، إنك لمكسو
بالسكتان ، تركب عربتك ويديك سوط ذهبي المقبض ، وتمسك يداك أعنة
جديدة ، وخيولك مطهمة من سوريا ، ويجرى الزنوج أمامك ليفسحوا لك
الطريق ، وتركب قاربك المصنوع من خشب الصنوبر المازين كله من مقدمته
إلى مؤخرته . وتصل إلى قصرك الجميل المحصن الذي شيدته بنفسك ، وفك
ملى بالنيذ والجمعة والخبز واللحوم والحلوى . ولحوم الثيران قطعت إلى
أجزاء ، وجرار الننيذ قد نزعت عنها أغطيتها . وغناء شجي تتردد أنغامه
على مقربة منك ، وينشر حامل الروائح العطرية عبيرها حولك . ويقف
أمامك رئيس البساتين ومعه أكاليل الزهور ، ورئيس الواحات يقدم لك
السماني ، كما يقدم رئيس الصيادين الأسماك . وتصل مركبك من سوريا محملة
بجميع الأشياء الطيبة وحظيرتك ملاءى بالعجول ، وتوفى الغزالات في
خدمتك ، وتبقى ويتهاوى أعداؤك . وليس فيك ما ترمى به من شر . وتدخل
أمام مجمع الآلهة التسعة وتخرج منه منتصراً . » (٥٨)

وكان للداعين حق اختيار أى تعبير من التعبيرات المختلفة .
فكانوا يستطيعون في لهجة شفيعة ، أن يتمتموا قائلين : « مرحباً
مرحباً ، أو : خبز وجمعة ، أو يستنزلوا بركة الآلهة على القادمين :
« حياة ورحمة وقوة بحق آمون رع سونتير . أطلب إلى براحراختي
وست ونفتيس وإلى جميع الآلهة والآلهات في البلاد الطيبة أن تمنحك

الصحة والحياة وأن أتمكن من أن أراك في سفوان العافية وأن أضحك بين ذراعيّ. (١٩) وإليك ما يقدم من تمنيات لأحد رجال البلاط الملكي : « أطلب من پراحراختى من وقت شروقها إلى غروبها وإلى جميع آلهة پي رمسيس وإلى روح پراحراختى الكبيرة ، أن تمنحك الحياة والصحة والقوة في رعاية سيدك الملك الطيب أمون رع سونتير بأن رع ميسامون له الحياة والصحة والقوة كل يوم ، (٢٠) .

وبعد أن تستنفذ التمنيات والتحيات ، وبعد أن يتم العناق الطويل ، لم يبق لهم إلا أن يتوجهوا إلى أماكنهم ، فيجلس أصحاب المنزل على مقاعد ذات ظهور عالية وكلها زخارف موهت بالذهب والفضة والفيروز والعقيق واللازورد . وتخصص بعض المقاعد الفاخرة لكبار المدعوين ، أما الباقون فيجلسون على مقاعد على شكل × أو على مقاعد ذات قوائم رأسية . أما الطبقات المتواضعة فتجلس على الحصر في بساطة تامة . وتفضل الفتيات الجلوس على وسائد من الجلد جيدة الصنع ، ويصطف الرجال في ناحية والنساء في الناحية الأخرى . (٢١) وينصح الحكيم پتاح حتب ، الذي حنكته التجارب ، ألا يطيل المدعوون من الشباب بل ومن الرجال المتقدمين في السن أيضا ، النظر إلى ناحية السيدات مادامت الدعوة موجهة من منزل صديق . (٢٢) ولم تكن هذه القاعدة مطردة دائما . فعندما يسمح باختلاط الرجال والنساء كانت الأسر يجلس أفرادها دائما بجوار بعضهم دون تفرقة . وكان في استطاعة الرجل أن يجلس بجوار زوجته لو أراد ذلك . أما الخدم والخاديات فكانوا يطوفون بالمدعوين يوزعون عليهم الزهور والروائح العطرية ، والخاديات دائما صغيرات وجميلات . وكن

غالبا يرتدين ملابس جد شفافة لا تستر شيئا من مفاتهن . بل كن لا يضمن على أجسامهن في غالب الأحيان سوى عقد وحزام ، ولا يطول الوقت حتى تكون زهور اللوتس قد وزعت على الرجال والنساء على السواء ، يمسك بها كل فرد في يده ، ولا نلبث أن نجد كلا منهم يضع فوق رأسه قعا أبيض اللون . وتضع الخادومات هذا القمع من دهان معطر قد أعد في إناء كبير . وكان يضع هذا الدهان أيضا فوق رأسه كل من أصحاب المنزل والفتيات الصغيرات والخادومات إذ أنه كان من مستلزمات حفلات الاستقبال . والعبارة التي ذكرناها من قبل : « إن حامل العطر يعبق المسكان بروائح البخور ، ما هي إلا تنويه يقصد به ذكر هذه العادة الضرورية . ولا يعد اليوم سعيداً دون روائح عطرية . ولم يكن هذا الأمر عديم الجدوى إذ الغرض منه إخفاء روائح الجمرة والنيدز واللحوم المشوية . والخادومات اللاتي يضعن هذا القمع فوق رؤوسهن لم يظهرن ضيقا به إطلاقاً أثناء قيامهن بخدمة المدعوين . والرسامون الذين لم يحرموا أنفسهم من تصوير رسوم مضحكة أو مسلية على جدران المقابر ، لم يظهروا أبدا هذا القمع المعطر متديلا من فوق الرؤوس . وبينما كانت الخادومات يضعن هذا القمع بمهارة فوق رأس المدعو ، كن أيضا يصلحن وضع عقده إن رأين أنه بدأ يهتز ليسقط .

وقد حان الوقت لتقديم كل ما أعده الطباخون وصانعو الحلوى لهذه الحفلة . ووجد منه ما يرضى كل الرغبات فإن بتاح حنب الحكيم إذ كان ينصح المدعوين بأن يعضوا من أبصارهم ويتعفقا في أفواهم ، فإنه ينصح ، من ناحية أخرى ، بإشباع رغبات المدعوين بقدر المستطاع ، وذلك حتى ينال الداعي عطف الآلهة وحسن الذكرى بين الناس . ولذلك ينبغي أن تستمتع الأذن

تماط كما تستمتع حاسة الذوق، ففي الوقت الذي يجلس فيه المدهورون في أماكنهم لتناول الطعام، كان الموسيقيون يدخلون معهم آلاتهم، فالمصريون كانوا في كافة العهود مولعين بالموسيقى حتى قبل اختراع أية آلة موسيقية، إذ كانوا وقتذاك يصغفون بالأبدى لدعم الغناء. فالمزمار والقيثار والقانون كانت معروفة في عهد الأهرامات. وكانت تشترك آلتان في العزف معا وأحيانا ثلاث آلات أو يمكن إضافة القيثارة أو أية آلة أخرى إلى إحداها، أو استعمال الآلات الثلاث معا لمصاحبة الغناء والتصفيق بالأبدى. ومنذ عصر الإمبراطورية الحديثة كانت مجموعات الآلات الموسيقية في تقدم مستمر بفضل ما أمكن اقتباسه من الشعوب المجاورة، فأصبحت القيثارة كبيرة الحجم وتضاعف حجم صندوق الرنين مع زيادة في عدد الأوتار. وصنعت قيثارات يمكن حملها باليد وأخرى في أحجام متوسطة ذات قوائم. وقيثارات ضخمة كانت في الواقع قطعاً فنية رائعة الصنع، وقد زينت بأشكال على هيئة زهور أو بأشكال هندسية وزودت برأس من الخشب المذهب ركب في الطرف الأعلى منها أو لبس في القاعدة. أما القانون فهو من أصل أسيوى، فقبائل عامو Amou من الرعاة الرحل - عندما قدموا إلى منات خوفو في مقاطعة الماعز البرى - كانوا يستخدمون هذه الآلة، وثمة موسيقيون من أصل أجنى يستخدمون أحيانا أنواعا من القانون ذات قائمة واحدة وصندوق رنان كبير على هيئة نصف عمود. والقانون الصغير الحجم يمكن حملها ويكون في الغالب جميل الشكل إلى أبعد حد، وليس له سوى خمسة أوتار. أما المزمار المزدوج فلم يكن مثل ما كان عليه من قبل، مكونا من قصبين ضمت إحداها إلى الأخرى غصب، ولكنه أصبح مكونا من قصبين تكونان زاوية حادة. أما العود فهو عبارة عن صندوق مستطيل به ستة ثقوب أو ثمانية ومسطح من الناحيتين وله يد طويلة مزينة بمحلات

مرتفعة شدت عليها أربعة أوتار . أما الطبل فكانت مستديرة أو مربعة وتستعمل خاصة في الحفلات الشعبية والدينية . وكانت هناك آلات أخرى لإحداث الصوت مثل الصاجات والصلاصل ولو أنها كانت الرمز المقدس للمعبودة حاتحور إلا أن هذه المعبودة كانت راعية حفلات المآدب والموسيقى أيضا . والصناجات كانت تسمى بالمصرية القديمة منات Menat وكانت تصنع من قطعتين متشابهتين من العاج أو من الخشب وكانت تعلق في العقود وتتدلى منها ، أما الصلصال فكانت عبارة عن رأس حاتحور مركبة فوق مقبض ، وقد استبدلت القرون بزائدين طويلتين من المعدن وبينهما خيوط معدنية مشدودة تخرق صنوج صغيرة من المعدن أيضا . وعندما تحرك أو تهز هذه الصلاصل يصدر عنها صوت يدعم الغناء ويضبط الإيقاع . وتشبه هذه الصناجات ، المصفقات الخشبية الأسبانية المعروفة اليوم ، والذين شاهدوا راقصا أو راقصة إسبانية يرقصان على أنغام الصاجات وصفقوا لهما يمكنهم أن يتصوروا بسهولة الدور الرائع الذي كانت تؤديه الصلاصل والصاجات في عهد قدماء المصريين . وكان البغنيات من الوسائل ما يمكنهم من مساعدة أنفسهم بالتصفيق بأيديهن أثناء الغناء . وكان الرقص يكمل الاستعراض . ويشترك أحيانا مع الرقص إحدى الهلوانات التي كانت تمبل إلى الخلف فيتدلى شعر رأسها حتى يلامس الأرض . (٣)

وبعد أن ينتهى الجميع من إشباع بطونهم بالطعام ، يطول الاجتماع وتستمر الأغاني والموسيقى والرقص ، ويتناولون الحلوى مرة أخرى في لذة وبهجة ، لأن غرضهم الأوحد كان إرضاء نهمهم وكان المننون ينشدون الأشعار ويتغنون فيها بكرم الداعي أو بنعم الآلهة : « أن كاله (الداعي) مكنون في كل القلوب .. عمل المعبود يتاح كل هذا يديه ، لئلا البركة

(٩٢ - الحياة في مصر)

قلبه .. ملكت القنوت بالمياه المتدفقة الجديدة وغمرت الأرض بحبه .. وقال آخر : « إنه ليوم سعيد هذا الذى نشيد فيه بجمال آمون ، ما أحلى الليل بأصوات عالية تصل إلى عنان السماء .. وكان من الأوفق تقديم الشكر للمعبودات واسكن لا يجهل أحد أن المدة التى يقضيها الإنسان على الأرض ليستمتع فيها بخيرات المعبودات ، قصيرة الأمد . فلنتفع إذن بهذا اليوم السعيد الذى تتحد فيه رحمة الآلهة بكرم الداعى وبكل بعضها بعضا . وقد ردد عازف القيثارة نفر حتب Neferhotep هذه الحقائق فى إحدى المآدب :

« منذ بدأ العالم وأجساد البشر تبنى وتعود إلى التراب وتحل محلها أجيال شابة جديدة ، وطالما يشرق رع (الشمس) فى الصبح ويغرب توم Toutm ليستريح فى مانو Maou ، فإن الرجال يتناسلون والنساء يلدن ، ومن خلال أنوفهم يتنسمون عبير الحياة ، ولكن لا بد لهم من يوم ينتقل فيه كل مولود إلى مكانه الموعود . أيها الكاهن اصنع بوما سعيدا ، وتوزع عليك العطور من أغنى الأنواع وتقرب الروائح الزكية إلى أنفك لتقرعينا ، ولتحوط القلائد والزنايق أكتافك ، ولتحلى رقبة أختك الحميمية الجالسة بقربك ، وليشغف آذانك الغناء وموسيقى القيثارة . تحلى عن كافة الآلام والأمراض ولا تفكر إلا فى المسرات ، حتى يحى اليوم الذى يجب فيه الرحيل إلى أرض السكون . اجعل هذا اليوم سعيدا يا نفر حتب يا صاحب الصوت الحق والاب الآلهى الممتاز ، إنك صاحب الأيدى الطاهرة وقد أدركت كل ما انتاب الأجداد : انهدمت جدران منازلهم وأزيلت أما كنهم ، وأصبحوا هم أنفسهم وكانهم لم يخلقوا أبدا ، منذ الأزل ، أما جدرانك فتينة وقد زرعت أشجار الجيز على حافة بركة حديثك ، وروحك باقية تحتها ، تشرب من مياهها ، اتبع قلبك بإرادة قوية طالما أنك حى ترزق على هذه الأرض .

اعط خبزاً لمن ليس له مأوى حتى تسكتسب طيب السمعة إلى الأبد . ليكن يوماً سعيداً . . تخيل اليوم الذى يقودونك فيه إلى حيث يختلط الرجال من كافة الأجناس ، ولا يوجد قط إنسان أخذ أمواله معه وإن يستطيع العودة إلى الحياة (١٤)

ويذكرنا عازف قيثارة آخر بعدم جدوى مجهودات الإنسان للتغلب على الموت ، فصر في عهد الرعامسة ، كانت بلداً قديماً وكان من اليسير على الإنسان أن يقدر ما حل بالآهرام . . فالآلهة الذين كانوا يعيشون فى الماضى والذين يرقدون فى أهرامهم ، والمومياءات والأرواح التى تحويها الأهرام التى بنوها قصوراً مشيدة . قد زالت أما كنهم من الوجود ، فإذا أصابهم ؟ لقد سمعت أقوال إِمحَتَب Imhotep وحرد ديف Hardidif فى أغنيات كثيرة جداً . لقد تهدمت أسوار مبانيهم وزالت أما كتبها ، كالم أنهم لم يجدوا من قبل أبداً ولم يعد أحد يزورهم ليذكر شيئاً عن فضائلهم أو يتغنى بأملأكمهم . .

• اتبع قلبك طالما أنت على قيد الحياة . ضع البخور فوق رأسك ، لبس السكتان ، تطيب بأغزر أنواع عطور الآلهة . . اتبع قلبك وهى نفسك السعادة أطول وقت مستطاع ، تقضيه على سطح الأرض . لا تستهلك قلبك إلى أن يوافيك اليوم الذى لا ينفع فيه التوسل فالآلهة الذين توقفت دقات قلوبهم ، لا يمكنهم أن يستمعوا إلى أولئك الذين يتوسلون إليهم . . (١٥)

وفى العصر المتأخر لم يكتفوا بالمقابلة شفويًا بين أحزان مملكتهم الأموات وبهجة الحياة وإلى حضن المدعوين على انتهاز الفرص للاستمتاع بسعادة الحياة وبهجتها ، فكأنوا يعرضون فى مآدب الاغنياء طبقاً لما أورده

الكتاب الإغريق الذين كانت معلوماتهم صحيحة هذه المرة على ما يظهر - أنه بعد الانتهاء من تناول الطعام ، كان يعرض تمثال صغير من الخشب يرقد داخل تابوت ، قد دهن وزين وبطابق تماما جثة ميت حقيقي ، محط بطبيعة الحال ، وليس هيكلًا عظميًا كما يعتقد بعض المتأخرين . وقد عثرت في منزل خاص في تانيس على تماثيل مومياءات محططة سليمة تمامًا لم تمسها من قبل أية يد ، طولها ذراع . وربما كانت تستخدم في نفس هذا الغرض . فكان المضيف يقدم إلى كل مدعو هذا التمثال ويقول له : « انظر هذا ، ثم اشرب وابتهج واستمتع بالحياة لأنك متى مت ستصبح مثله تمامًا . » هذا ما كانوا يفعلونه عندما كانوا يجتمعون في حفلات الشراب . وهذا ما يؤكده على الأقل هيرودوت وبلوتارك . وكان لوسيان Lucien يزعم ، وهو يتكلم كشاهد عيان ، أن الأموات كانوا يحضرون فعلاً المآدب بأنفسهم . وذكر أكثر من هذا بما لا يمكن إثباته - أن نفر حطب قد دعي الأموات للجلوس بين الأحياء وأنه مرر بينهم مومياء صغيرة أو أنه أراهم هيكلًا متحركًا من الفضة مثل تمثال تريما لسيون Trimalcion الضخم الجسم . (١١)

وفي كثير من الأحيان كان المدعوون يتبعون نصيحة عازف القيثارة الشجي ، وبجبة إحياء يوم سعيد ، يحدث أن ينقلب الاجتماع العائلي إلى مجلس شراب . وهاك مثلاً حفلة استقبال لدى باحيري Pakeri (١٢) وزوجته لقد جلس ربا البيت أحدهما بجانب الآخر ، وقد ربط في أحد قوائم المقعد الذي يجلس عليه باحيري ، قرد ، يتناول التين من أحد السلال ويلتهمه . بينما اجتمع الخدم وقوفا في الخلف . وكان والدا باحيري يجلسان على مقاعد جميلة في مواجهة ، أما أعمامه وأبناء عمومته والأصدقاء فقد كانوا يجلسون على الحصر ، وعلى أية حال فلم يقصر أحد في خدمتهم : إذ كان الخدم يرون بينهم حاملين كنوسا ذات زخارف ، بينما اهتم خدم آخرون باليديات

المدعوات . وكان يقول أحدهم وهو يقدم كأساً من الخمر : « في صحتك ، في صحة روحك - اشرب حتى تفقد الوعي ، وعش يوماً سعيداً ، واصغ إلى ما تقول » شريكك ، وتقول هذه السيدة للساق : « أعطني ١٨ معياراً من النبيذ أنظر فاني أحبه حتى أفقد الوعي من السكر » ويقول خادم آخر لا يقل تحريضاً عن سابقه : « لا عليك ، فإني إن أترك إبريق النبيذ ، أما جارتها التي كانت تنتظر دورها فتدخل وتقول « اشربي ولا تتظاهري بأنك سئمت الشراب . هل تسمحين بأن يقدم لي كأس من النبيذ ؟ .. إنه سيد المشروبات » . وعلى بعد ، نرى اثنتين من المدعوات ، عن أهملهن السقاة تأنيان بحركة تعبر عن أنهما ترفضان عرضاً وهمياً . وقد أقيمت هذه الحفلة في منزل باحيري الذي كان يعيش في مدينة نخجيت عقب انتهاء حرب التحرير . وكان سرور هؤلاء الريفين ينطوي على شيء من الخشونة ومع ذلك ففي طيبه كانوا يفضلون الاعتدال . وهي الكلمة التي أوردها بلوتارك ، ويقصد بها أن يراعى الاعتدال في كل شيء . ولكن ليس من النادر أن نجد ضمن مناظر المآدب أحد المدعوين وقد أفرط في الشراب أو الطعام حتى لعبت الخمر برأسه وغثت نفسه (٨) . فيلفظ شيئاً كريهاً من فمه ، وجيرانه الذين لا يدهشهم كثيراً ما يتحدث ، يستندون رأس المريض أو المريضة ويمددونه على السرير إذا احتاج الأمر ذلك . وفي سرعة خاطفة ترفع البقايا السكرية ويستمر الحفل .

١٠ - الولعاب :

لم تكن حفلات المآدب تقام كل يوم . فعند ما يكون رب البيت وزوجته منفردين ، فإنهما يفضلان الجلوس في الحديقة تحت كشك صغير يشربان ويستنشقان عبير ربح الشمال المنعش ، أو يقومان بجولة في قارب

يجوسان خلال بحيرتهم ، ويتسلان بصيد السمك بالخصر . على أن الزوجين كانا يفضلان التسلية بلعبة « الضامة » ، وكانوا يلعبونها على لوحة مستطيلة الشكل مقسمة إلى ثلاثين مربعا أو إلى ثلاثة وثلاثين مربعا صغيرا . فالأفضاض السوداء والبيضاء التي كانت تستعمل تماثل قطع الشطرنج التي نستعملها اليوم . وكان اللاعبون يجلسون فوق مقاعد قصيرة لا مساند لها وأرجلهم ممتدة فوق وسائد صغيرة ، ويلعب الزوجان غالبا الواحد منهما ضد الآخر ، وكانت الابنة تساعد أباهما في اللعب وهي تلف ذراعها حول رقبته . وكان بت أوزيريس Petosiris يلعب مع أصدقائه بعد تناول طعام الغداء إلى أن يحين وقت تناول الجعة في قاعة الشراب . وكان من عادة أهالي طيبة ألا ينتظروا حلول الوقت المناسب لتناول الجعة بل كانوا يفضلون أن يتناولوها وهم يلعبون .^(١١)

على أننا لا نعرف شيئا عن خطوات سير هذه اللعبة ، ويظهر أنهم كانوا يلعبونها معتمدين على « الزهر » ، وليس كما نلعبها نحن الآن ، وهي طريقة نقل قطع الضامة في حرية .

وكانت الألعاب كثيرة ومتنوعة في العصور القديمة . واللعبة التي كانت مفضلة هي لعبة الثعبان Mehen التي كانت تلعب فوق منضدة مستديرة ، رسم على سطحها ثعبان ملتف حول نفسه أو نقش بالحفر ورأسه في الوسط وأجزاء جسمه قد قطعت بخطوط كأنها مربعات . وكان اللاعبون يستعملون فيها ثلاث قطع على شكل أسود ، وثلاث قطع على شكل لبوات وكرات بيضاء وسحرة . وحينما ينتهى اللعب كانت هذه القطع تجمع وترتب في صندوق من الأبنوس ، وليس ثمة دليل على أن هذه اللعبة كانت تمارس أو لا تمارس

بعد الدولة القديمة (٧٠) ولكن لا يمكن التأكد بأنها قد أهملت ، فقد نشر داخل مقبرتين من عهد الأسرة الأولى على مجموعة رائعة من الأسود واللوات من العاج وعلى قطع عجيبة من اللعب مصنوعة من العاج ، ويمثل بعض هذه القطع منزلاً مكوناً من ثلاثة أجزاء له سطح مدبب الشكل وبعض قطع أخرى تشبه الملك ، والطاوية ، في لعبة الشطرنج التي نمارسها الآن . والبيادق عبارة عن قطع اسطوانية ، الجزء الأعلى منها مستدير الشكل ينتهي بزرار . ومن العسير التفكير في أن الألعاب المتنوعة التي اخترعها هؤلاء الأجداد الحاذقون قد أهملت أو تركت لتبقى منها لعبة واحدة أو لعبتان غسب . فقديما المصريين كانوا مولعين باللعب ، وكان الأزواج والأصدقاء يلعبون تسلية لقتل الوقت وكذلك كان المتخاصمون يلعبون سوياً لحل بعض ما قد يكون بينهم من منازعات (٧١)

وكان الأطفال يلعبون أيضاً ألعاباً لا تحتاج إلى كثير من المال ، فإذا كان عددهم كبيراً انقسموا إلى فريقين ، وفي كل فريق كان كل لاعب يحوط بذراعيه خصر اللاعب الذي يتقدمه ، وكان اللاعبان الأولان في مقدمة الفريقين يقفان متواجهين وقدم كل منهما أمام قدم خصمه ويثنى ذراعيه فوق صدره ويحاول كل منهما إسقاط الآخر ، ويشجع بقية الفريق اللاعب الذي في المقدمة قائلين له : « ذراعك أقوى منه بكثير فلا تتخاذل » ويردد الباقون ، فريقنا أقوى انتصر عليه أيها الرفيق ،

أما لعبة الجري على الأرض ، فهي عبارة عن سباق القفز على الحواجز (٧٢) إذ يجلس ولدان على الأرض متقابلين وأيديهم وسيقاتهم عمودة وأصابع الأيدي ممتدة في انفراج وكعب القدم اليسرى فوق أصابع

القدم اليمنى المستندة على الأرض ، بهذا يتم تكوين الحاجز الذى يتحتم على اللاعبين الآخرين الففز عليه دون أن يمسكوا . واللاعبون الذين يكونون هذا الحاجز يحاولون بطبيعة الحال أن يمسكوا قدم اللاعب الذى يقفز . فإذا أمسك بها انقلب على الأرض وأصبح الجدى على الأرض ، ولا يجوز لمن يقفز أن يأتى بحركات مخادعة بل عليه أن يقفز ويعلن بأعلى صوته قائلاً : « إئبب جيداً فأنا آت إليك أيها الرفيق » .

ويتبارى بعض الأولاد الآخرين فى سرعة الجرى ونظراً لأنه من اليسير الجرى على الأقدام ، لذلك كانوا يتبارون بالجرى على ركبهم ويقبضون بأيديهم على أقدامهم من الخلف . وإذا وجد من بين المجموعة ولد كبير فانه يسير على أربع ويركب فوق ظهره ولدان صغيران ، يتماسكان بالأيدي والأرجل ويتأرجحان على ظهره وهو يسير . ويلعبون أيضاً لعبة رمى الحراب على هدف معين مرسوم على الأرض ، ويحمل هذا الهدف اسم سخمو أو سشمو Sechemou ولا ندرى سبب هذه التسمية ، وسخم هو معبود المعاصر ، وله مكانة كبرى ، وكان من المتوقع أن يسمى الهدف باسم قاتل أوزيريس . وللصراع هراة فإذا توافر عدد كبير من اللاعبين فإن بعضهم يقف على هيئة برج ويضع كل لاعب ذراعيه على أكتاف جيرانه ، وعلى الباقين أن يبقوا فوق البرج ، عاملين على ألا يمسك بهم الحارس .

وفى بعض الأحيان ينقلب اللعب إلى عراك فالولد الآخرق أو المخادع كان يعاقب باللكم بالأيدي وبالركل بالأرجل . وقد كان فى بعض الأحيان يوثق بحبل كجرم حقيقى ويضربه جلادوه بعضى ينتهى طرفه فى شكل يد .

أما الفتيات فكان يفضلن الألعاب التي تحتاج إلى مهارة فكان يلعبن لعبة رمى الكور في الهواء بسرعة ولقفا تباعا ، وكانت تركب صغارهن ظهور الكبيرات ويتقاذفن الكور ، وكان يتناسكن من الخصور ويتصارعن ، ولكن لعبتهن المفضلة كانت الرقص ، فكل فتاة شابة كان عليها أن تتعلم الرقص ، ولم يكن الأمر مقصوراً فحسب على الفتيات اللاتي كن يردن أن يصبحن راقصات محترفات .

كن يربطن كرة في نهاية ظفائرهن ويمددن أذرعهن إما بالإمساك بمرآة أو بإحدى العصي المنقوشة التي يستعرنها من جيرانهم من الصبيان . وبعد أن تتم زينتتهن بهذه الكيفية كن يدرن حول أنفسهن ويقفزن ويتبايلن وأقراهن ملتفات حولهن على هيئة دائرة يغنين ويصفقن بالأيدي — وغناؤهن الذي لا نعرفه جيداً — كان عبارة عن توسل إلى حاتحور ربة كل المملكات . وهالك لعبة لا تخلو من عامل المفاجأة والإثارة : تقف فتاتان كبيرتان ظهر كل منهما ملتصق بظهر الأخرى ، ويفردن أذرعتهن يميناً وشمالاً ثم تقف أربع فتيات صغيرات إلى جانبهن وأرجلهن متجاورة . ويمسكن بأذرع الفتاتين الممتدة ويصلبن أجسامهن تماماً ويرتمعن في الهواء ، كأنما هن معلقات ثم يدرن بعد سماع إشارة البدء ثلاث مرات على الأقل ، إلا إذا سقطت إحداهن على الأرض ، فتتوقف حينئذ اللعبة .

وكثيراً ما توجد في غرف الحريم جميع الآلات الموسيقية مثل القانون والقيارة والعود والطلبة .

ولم تكن هذه الآلات موجودة عبثاً ، وإنى أعتقد أنه بعد تناول العشاء

كانت تقام حفلات الغناء والموسيقى والرقص في جو عائلي ، وكذا سرد القصص . فبردية وستكار Westcar المحفوظة في متحف برلين تظهر لنا خرفو ساهيا ، ثم مهتما اهتماما شديداً بقصص السحرة التي كان يرويها له أولاده كل بدوره

ونحن على حق تماما حين نعتقد أن هذا اللون من التسلية الملكية كان في متناول أيدي أولئك الذين يرغبون فيها .

الفصل الخامس

الحياة في الريف

١ - الفهرم

كان الكاتب المصري القديم يعد كافة المهن اليدوية حقيرة، وأحقرها جميعاً مهنة الزراعة، فسرعان ما يفنى فيها عمال الزراعة كما تستهلك الأدوات، وطالما يتعرضون لأذى سادتهم، ويستغلهم هؤلاء السادة ومحصلو الضرائب على السواء كما يسرقهم جيرانهم ويسطو عليهم المصوص وتصيبهم تقلبات الجرب بالحسرة الشديدة ويأتى على محصولاتهم الجراد والقوارض وغيرها من أعداء الإنسان، هذه هى حال رجل الحقول : تسجن زوجته ويؤخذ أولاده رهائن.

ولذلك فالرسم الكامل يضئى عليه صورة قائمة للبؤس. (١)

واكن الأمر يختلف فى نظر الإغريق، الذين أتوا من بلاد قاحلة حيث لا يمكن الحصول على محصول ضئيل إلا بعد مجهود شاق. يقول المؤرخ هيرودوت : « عندما تبذر الحبوب فما على المزارع إلا أن ينتظر فى هدوء موعد الحصاد ». وبذهب المؤرخ ديودور إلى أبعد من ذلك إذ يقرر : « بينما تتطلب الزراعة جهداً شاقاً فى بلاد كثيرة، بصفة عامة ونفقات باهظة وعناية فائقة فإنها فى مصر لا تتطلب إلا مالاً قليلاً ومجهوداً محدوداً ». (٢) ومن بين الشبان المصريين الذين تلقوا العلم فى مدارس المدن نجد فئة فضلت العودة إلى الحقول وكان هؤلاء هم المعترهون الذين رسم لهم الكاتب

هذه الصورة القائمة . أما فلاح وأمة الملح* فلم يصور لنا في صورة رجل
بأنس فقير ، بل ما أطول قائمة المنتجات الطيبة التي تخرجها أرضه ، تلك
المحصولات التي حملتها حميره وذهب لبيعها في نزنوت Nen Nisout على
أمل أن يعود ثانية إلى بيته ومعه أطايب الفطائر ازوجته وأولاده. ولا شك
أن رجلا شريراً رأى هذه القافلة الصغيرة وهي تسير في الطريق فاستولى
على الدواب وعلى ما تحمله من بضائع . غير أن السلطات العليا قد اهتمت
بأسره . ولو أننا عرفنا تفاصيل نهاية القصة لتأكدنا أن عدالة الملك وقفت
في جانبه فأنصفته . والآن الأكبر في قصة الآخرين ، وهي قصة مشهورة
أيضاً لم يكن موضعاً للشفقة إطلاقاً ، فقد كان يملك بيتاً ملكاً خالصاً له
كما يملك أرضاً زراعية ومواشى وآلات زراعية وغلالاً . وعاشت زوجته
في البيت كسيدة تقوم بزيبتها بينما يعمل زوجها وأخوه في الحقل وتقضى
طول اليوم في إدارة شئون بيتها وإعداد طعام العشاء وإضاءة المصباح قبل
أن يعود زوجها . وعندما يحضر تقدم له طستاً وإبريقاً ليغتسل .

٢ - رى الحرائق

عندما وصفنا المساكن لاحظنا مدى شغف المصريين بالحدائق ، لقد
كانت رغبة كل مالك سواء كان يعيش في المدينة أم في الريف ، أن ينشئ
له حديقة لزرع فيها الفاكهة والخضر وكان رى الحديقة هو ما يشغل باله .
وهذا العمل هو الشيء الوحيد من بين أعمال الحدائق التي لدينا عنها بعض
المعلومات . كانت الحديقة المثمرة تقسم إلى مربعات صغيرة بواسطة قنوات
تقاطع في زوايا قائمة . كانت طريقة الري التقليدية القديمة والتي كان
لا يزال يجري العمل بها خلال الدولة الوسطى هي استخدام جرار فخارية
مستديرة الشكل يعلق كل اثنين منها في طرفي نير ، وتفرغ محتوياتها في

أحد الأحواض ، وهذا يمكن رى الحديقة كلها . وكانت هذه العملية تتطلب وقتا طويلا شاقاً .^(٢)

ولا شك أن اختراع الشادوف قد لاقى ترحيباً إذ كان اختراعاً مفيداً .^(٣)

والشادوف يتكون من عمود قوى رأسى ، يبلغ طوله ضعف طول الرجل يثبت فى الأرض على حافة المياه . وإذا وجدت شجرة تصلح لذلك فى المكان المناسب نزعنا فروعها ، ثم يثبت عمود طويل أفقياً فوق العمود الرأسى وبذلك يمكن أن تتحرك فى مختلف الاتجاهات ، ويثبت حجر ثقيل فى نهاية العمود الأفقى أما فى الطرف الآخر فيثبت وعاء من الفخار أو من القماش بجبل يبلغ طوله نحو خمس أذرع أو ست . ثم يشد الجبل فيمتلىء الوعاء بالماء ثم يترك الجبل فيرفع الثقل المقابل الوعاء ، وعندما يصل إلى حافة الحوض تصب فيه المياه ثم تكرر العملية . وقد استخدمت أربعة شواذيف فى وقت واحد لرى حديقة أبوى Apouy ، ويقع كلب البستانى بنظره وعاء الماء وهو يتحرك . وكان الرى بهذه الآلة ، مع كونها بدائية مرضياً وفيه الكفاية . والدليل على ذلك الاستمرار فى استخدامها دائماً . ويظهر أنها لم تستعمل فى عصر الأمباطورية الحديثة إلا فى رى الحدائق ، ولم ترد رسومها فى المناظر التى تمثل الأعمال الزراعية فى الأراضى الواسعة . أما الساقية التى يلزم صريها الريف المصرى حالياً ، فلم تظهر ضمن مستندات العهد الفرعونى ولا نعرف الوقت الذى استعملت فيه بوادى النيل ، على أنه قد اكتشفت آثار جميلة ذات قطر كبير فى جبانة كهنة تحوت فى

هرموبوليس بالقرب من مقبرة بت أوزيريس* وأخرى في مدينة أنطوني** وفي معبد تانيس أيضا . وقد صممت الأولى دون ريب ، لتكون بئرا لساقية ولكن تاريخ هذه البئر لا يمكن أن يكون أقدم من مقبرة بت أوزيريس التي يرجع تاريخها ، كما هو معتقد إلى عهد بطليموس سوتر .

٢ - جنى العنب

كان بكل حديقة عدد من كروم العنب تمتد على الجدار أو تظلل جانبي الرواق الرئيسي . وكانت فروعها العليا المشتبكة فوق اخشاب التكسية ذات الشكل المستدير ، تتدل منها في أشد أوقات القبط عناقيد العنب الجميلة ذات الحبات الزرقاء الحلوة المذاق ، التي كان يستسيعها أهالي المدينة . وكانت زراعة الكروم في الدلتا متقدمة عن أية جهة أخرى ، ولو أن أكثره كان يعد لعمل النبيذ أكثر مما يؤكل فأكمة . وقد عرف نبيذ الكروم المزروعة في حقول (مح) ايميت الواقعة في شمالي فافوس في كل العصور ، وكذلك نبيذ مصايد (حام Ham) في سين بأقليم القلزم Piluse ونبيذ آبش Abesh الذي كان يحفظ في نوع خاص من الجرار تحميها سلال من البوص ، وقد ورد ذكرها في قائمة الأنواع الفاخرة . وحتى قبل عمل هذه القائمة كان نبيذ كروم سباحرختي بت Saba hor Khenti pet يرسل في جرار مختومة إلى مقر الفراغة في طينة*** أما أسرة الرعامسة التي نشأت أصلا في أواريس الواقعة بين ايميت وسين Sin فكانوا خبراء في أنواع النبيذ

* في تونا الجبل غرب ملوى (هرموبوليس ماجنا) .

** شرق النيل قرب ملوى .

*** في الأسرة الأولى منذ حوالي ٢٠٠٠ سنة ق م .

وبذلوا الكثير لتحسين زراعة الكروم وتجارة النبيذ . ومعظم شققات أواني النبيذ التي عثر عليها في الرميوم وقنطير وفي مقابر طيبة ، ترجع إلى عهد رمسيس الثاني ، حتى أنه كان في الإمكان عمل خريطة مؤقتة لمواقع الكروم المصرية لو لم تكن معلوماتنا عن جغرافية مملكة الفراعنة لم تزل في طور الطفولة . (٥) أما رمسيس الثالث فإنه يقول : « لقد زرعت لك كروما في واحات الجنوب والشمال بجانب كثير غيرها في الإقليم الجنوبي ، أما في الدلتا فقد زاد عددها مئات الألوف . وعينت لها بستانيين من بين الأسرى الأجانب لملاحظتها وحفرت لها أحواضا مائة مثلت بنبات النيلوفر . لقد سال الخمر والنبيذ مثل المياه الجارية لتقدم لك في طيبة المنتصرة » . (٦) .

إن الحلقة الوحيدة التي نعرفها عن زراعة الكروم وحياة منتجي النبيذ هي عملية جنى العنب . (٧) فنحن نشاهد القاطنين منتشرين تحت مكعبات الكروم ، يقطفون العناقيد الطيبة ذات الحبات الزرقاء بأصابعهم لا بالمدى ويملاؤون مقاطفهم في حذر شديد حتى لا يفسد العنب ، إذ لم تكن المقاطف من النوع الذي تنسرب منه المياه . ثم ينصرفون وهم يغنون ، حاملين مقاطفهم فوق رؤوسهم ، ليلقوا بما فيها في الدنان الكبيرة ، ثم يعودون بعد ذلك إلى الكروم . ولا علم لي مطلقا أنهم كانوا يستخدمون الحيوان في نقل محصول العنب في أية ناحية من النواحي . على أنه في البلاد التي كانت تزرع فيها الكروم على نطاق واسع ، كان من الأفضل نقل العنب من الكروم إلى مكان التقطير في قوارب لتلافي الإضرار به وضياح هذا العصر الثمين .

كانت الدنان مستديرة وعميقة ، ولا نعرف نوع المادة التي كانت تصنع

منها . على أنها لم تكن من الخشب ، فالمصريون الذين لم يعرفوا صناعة البراميل الخشبية لم يكن في استطاعتهم صناعة دنان من الخشب ، مع أن صناعة قارب من القوارب كانت عيرة بدورها . وأعتقد أنها كانت تصنع من الحجر ، لأن الجص أو الفخار أو الخزف تترك أثرا للنشع ، ولكن الحجر الصلب مثل الجرانيت أو الشيست كان من الممكن عمل دنان منها ناعمة ملمساء لا يتسرب منها العصير كما يسهل صياقتها . كانت هذه الدنان توضع أحيانا فوق قواعد يبلغ ارتفاعها نحو ذراعين أو ثلاث أذرع ، وتزين بالنقوش البارزة ، ويقام عودان صغيران متقابلان ، أما إذا لم يشأ المالك التمسك بالرفاهية فإنه كان يضع خشبتين متفرعتين تحملان عرقا من الخشب تتدل منه خمسة أو ستة حبال . وعندما يملأ الدن بالتقدر السكافي من العنب فإن قاطفي العنب يعتلونه ويمسكون الحبال بأيديهم ، وذلك لأن قاع الدن ربما كان غير مسطح ويطاؤون العنب بأقدامهم في قوة ونشاط . وفي منزل ميراميرا Mera وزير الملك پيبي الأول Pepi I شاهد موسيقيين جالسين على حصيرة يغنيان ويدقان الصنجات الخشبية لتشجيع الرجال على العمل في حماس ووطء العنب في دقات رتيبة . (٨) ولوس هناك سبب لترك مثل هذه العادة النافعة ، ومع ذلك فقد اختفى الموسيقيون في عهد الإمبراطورية الحديثة ، على أن الرجال الذين يقومون بعصر العنب بأقدامهم فوق الدنان ، كان في استطاعتهم أن يغنوا ويرقصوا داخل الدن . وينساب العصير من الدن خلال ثقب واحد أو ثقبين أو ثلاثة ثقوب ليتسرب إلى حوض كبير . وعندما يتم عصر العنب تماما ينقل ثقل العنب المدهوك ويوضع في جوال متين ويثبت قضيب في كل طرف منه ، ويحاول أربعة رجال برمه في اتجاهين مختلفين حتى يتم عصر العنب المدهوك فوق وعاء كبير أعد لهذا الغرض ، على أن هذه الطريقة لم تكن سليمة . فكان

يسير على ما يرام ووفق ما تشتهى . إن سيدة إيميت شامت أن تمنى كرومك بوفرة لأنها تمنى لك السعادة .

« إن القاطنين بمجمعون العنب ويعاونهم أولادهم في عمله . أنها الآن الساعة الثامنة من النهار ، الساعة التي تطوى ذراعها ، أتى الليل ويسقط ندى السماء كثيفاً على العنب - فلنسرع لنطأه بالأقدام ولنحضره إلى بيت سيدنا .

« كل شيء باتينامن عند الله -- سيشر به سيدنا عذاباً شاكراً اقلروحك (كا) ولنقدم سكبينة خمر إلى Cha (معبودة الكروم) حتى يمنحك محصولاً وفيراً من العنب في عام آخر . (١٠) .

لم يكن المصريون ناكرين للجعل ، ولكنهم كانوا يتصفون بعبء النظر ، فيتهزون حسن استعداد الآلهة جزاء تقواهم ليطلبوا منهم مزيداً من العطايا . وكثيراً ما نجد إلى جانب الدن ثعباناً ذا رقبة مشرعة قد تحفز للهجوم . وقد يكون بين قرنيه أحياناً قرص مثل حاتحور أو إيزيس ، وقد يستوى على عرش أنيق ، أو يرقد بجوار كومة من البردى . وقد وضع بعض المتدينين من أتباعه بجانبه مائدة صغيرة عليها خبز وحزمة من الخس وباقة من اللوتس ، كما وضع عليها كأسان : وهذا الثعبان ما هو إلا المعبودة رنوت رنوت Renoutet آلهة الحصاد وهى التى يعهد إليها أيضاً بالمحافظة على الشون والملابس والعنب وأقية الخمر . وكان يحتفل بعيدها في أول فصل شمو (الصيف) الذى يتفق وافتتاح موسم الحصاد . كما كان يحتفل عمال الكروم بعيدها ، تمجيدها بعد أن يفرغوا من عصر العنب .

٤ - المهرت والبذر

ظلت زراعة الخبواب في عهد الرعامسة الزراعة الأساسية (١١) فكانت

حقول القمح والشعير تمتد دون انقطاع من مستنقعات الدلتا حتى الشلال . وكان الفلاحون المصريون يعدون قبل كل شيء حرثا للأرض . وطالما كانت مياه الفيضان تغطي الأراضي خلال شهور فصل آخيت* الأربعة ، لم يكن لديهم الكثير ليعملوه ، ولكن لا تكاد المياه تعود إلى مجرى النهر حتى كان عليهم أن ينتهزوا فرصة الأيام التي لا تزال الأرض خلالها لينة من أثر الفيضان فيسهل العمل فيها .

وفي بعض الرسوم التي تمثل حرث الأرض تشاهد في بعض الأماكن برك المياه بما يدل على أن العمل قد بدأ قبل أن تعود المياه تماما إلى مجرى النيل . وفي مثل هذه الحالة فقط ، يمكن الاستغناء عن حرث الأرض حرثاً تمهيدياً على نحو ما يجري في الممالك الأوروبية .

كانت هذه هي اللحظة التي اختارها مؤلف قصة الأخوين ليبدأ فيها قصته ، فالأخ الأكبر يقول لأخيه الأصغر : « هيا بنا لنعد الثيران لحرث الأرض فالمياه قد انحسرت وأصبحت الأرض معدة للحرث ، إذن فاذهب أنت إلى الحقل ومعك الجيوب لتبدأ العمل غداً صباحاً ، ولا يكاد الأخ الأصغر يسمع هذا القول حتى يقوم بإعداد كل ما أشار به أخوه الأكبر . ففي صبيحة اليوم التالي حينما انحسرت المياه عن الأرض ، توجهوا إلى الحقل ومعهما الجيوب ، وأخذا يحرثان الأرض . (١٢)

وتبين لنا الرسوم أن بذر الجيوب وحرث الأرض يسيران جنباً إلى جنب إذ تبذر الجيوب أولاً ثم تحرث الأرض لتغطي تربتها الجيوب التي بذرت ، وذلك بعكس النظام المتبع في الأراضي الأوروبية حيث تخطط الأرض بالمحراث أولاً ثم تبذر الجيوب . (١٣)

كان الذى يذر الحب يملأ سلة ذات مقبضين بالحبوب يبلغ ارتفاع السلة نحو ذراع وطولها ذراع أخرى ، وقد حملها على كتفه فى طريقه من القرية إلى الحقل ، وحينما يصل يعلقها حول رقبته بحبل طويل ، بحيث يسمل عليه تناول الحب منها بيده وبذره على سطح الأرض . وكان المحراث ، لا يزال حتى عهد الرعامسة ، الآلة البدائية التى اخترعها المحراث الأوائل فى الممود العتيقة . وحتى فى العصر المتأخر ظلت كما هى ولم تستبدل بغيرها . والواقع أنها تكاد تصلح لحسب لخدش الأرض الخفيفة التى تخلو من الأحجار والأعشاب الملتفة . ويتكون المحراث من مقودين رأسيين قد ثبتا بأخشاب متقاطعة . وتحتى بزاوية ينتهى طرفها بسلاح الحرث وهو من المعدن أو ربما كان من الخشب . وبين المقودين دعامة تنتهى عند سلاح الحرث وتثبت بربطها بحبال ، ويثبت نير فى نهاية عمود طويل متصل بالمحراث ويوضع هذا النير فوق رقبتي الدابتين ويربط إلى قرونها .

وكانت الأبقار ، وليست الثيران ، هى التى تستخدم فى جر المحراث ويوحى صغر حجمها بأن العمل لم يكن شاقا أى أنه لم يكن يتطلب مجهودا كبيرا . وأنها لحقيقة معروفة أن الأبقار التى تعمل لا تدر إلا قليلا من اللبن ، وهذا يبين أنه كان هناك عدد وفير من الأبقار بعضها ليدر اللبن الكافى لسد حاجة المستهلكين والبعض الآخر لمواجهة طلبات المحراث . أما الثيران فقد خصصت لجر توابيت الموتى فى الجنائز وفى جر الكتل الثقيلة من الأحجار . واستخدم الأبقار فى الحرث يدل على أنها كانت فادرة على القيام بهذا العمل الذى لم يكن شاقا عليها ، على أن نقص كمية اللبن . نتيجة عملها فلم يكن إلا شيئا مؤقتا لا يترتب عليه العدول عن استخدامها فى أعمال الحرث .

وكان يقوم بالحراث رجلان عادة . وأشد العمل إرهاقا هو ما كان يقوم به الرجل الذى يقبض على يد المحراث ، فعندما يتحرك المحراث ، يكون هذا الرجل منتصباً تماماً وواضعا إحدى يديه على المحراث ، رافعا سوطه بيده الأخرى ليحدث صوتا فى الهواء فتتحرك الماشيتان ، وعندئذ ينثنى الرجل ويمسك المحراث بكلا يديه ويضغط عليه بكل قواه . أما زميله فعمله هو أن يقود الدواب ولكن بدلا من أن يتقدمها ووجهه إلى الخلف فإنه يسير إلى جانبها متجها إلى الأمام . وفى بعض الأحيان لا يكون هذا الزميل سوى طفل عار وخصلة شعره تغطى خده الأيمن ، وهو يحمل مقطعا صغيرا جدا ، وهو أصغر من أن يحمل سوطا أو عصا ، وعلى هذا فكانت وسيلته فى السيطرة على المواشى هو أن يصرخ فيها . وكانت زوجة المزارع فى بعض الأحيان هى التى تقوم ببذر البذور على الأرض .

وهذه الأيام الطويلة التى كانت تنقضى فى العمل ، لم تكن تخلو من أحداث . فالأخوان فى القصة كانا قد استفدنا كمية البذور التى كانت معهما وأحدهما بيتا و كان عليه أن يعود مسرعا إلى المنزل . وقد وقعت إحدى الأحداث المؤلمة التى تنبأ بها الكاتب الذى لا يحب الزراعة . لقد اصطدمت إحدى البقرات بعائق فسقطت على الأرض . واضطروا إلى كسر عمود المحراث الطويل وسحب البقرة الثانية . وهنا يسرع الرجل الذى يقود المحراث ويفك رباط الدابة التمسدة التى سقطت ويعاونها على النهوض . وبعد قليل يعود المحراث إلى عمله خيرا مما كان . (١١)

وبالرغم من أن الريف المصرى كان ينطوى على شيء من الملل ، فإنه - كما هى الحال اليوم - لم يكن خالياً من الأشجار . فأشجار النخيل الكبيرة واللبخ والعرفاء والبناب كانت تضى الحفزة الجميلة على الأرض

السوداء المحروقة . وكانت هذه الأشجار تمد الفلاح بالأخشاب اللازمة لعمل الأدوات الزراعية . وكان ظلها حبيبا للفلاح ، إذ لا يكاد يصل إلى الحقل حتى يعلق بين أفرع شجرة الجوز الرق الذي كان يذهب إليه بين الفينة والفينة ليرشف منه ، كما كان يعلق على جزع الشجرة مقطف الطعام ، ويضع على مقربة منه زيرا كبيرا مملوءا بالماء البارد . والآن يجب أن تستريح البهائم ويتجاذب الفلاحون أطراف الحديث قائلين : « هذا يوم جميل فالجوصحو معتدل ، والبهائم تنجر المحراث على خير ما يرام والسماء تمنحنا ما نطلب فلنواصل العمل لحساب الأمير » لقد حضر الأمير باحيري Pabiri الآن ليشرف على العمل وينزل من عربته بينما يقبض السائس على أعنة الجياد ويهدهى من روع الخيل . ويراها أحد الفلاحين فيخطر زملاؤه قائلا : « هم أسرع أيها الزميل في المقدمة ، وأمسك مقود البقر ، وادع الأمير ليرى ما نعمل ، ولما لم يكن لدى الأمير باحيري العدد الكافي من البقر لتشغيل كافة محاربه ، وكانوا يخشون أن تجف الأرض تماما لو أنهم انتظروا يوما أو أكثر ، لذلك كان أربعة رجال يحلون محل البهائم ويشدون أنفسهم إلى النير ويقبلون في عملهم الشاق بالغناء قائلين : « انظر البنا هانحن أولاء نعمل . لا نخشى أن تجف الأرض فهي أرض طيبة حقا ، أما سائق المحراث وواضح أنه من الساميين ، وربما كان مثل سائر زملائه من أسرى الحرب ، فكان راضيا عن حاله يجيب ساخرا : « ما أحسن قولك يا بنى . إن السنة تكون طيبة إذا خلت من الكوارث . إن الأعشاب لتنمو كثيفة تحت أقدام العجول . إنها أحسن من أى شيء آخر . » (١٥) وعندما يأتى المساء تفك كل البهائم من النير ويقدم لها الطعام وتشجع ببعض الكلمات الطيبة : « هو هو (البلاغة) بما تنصف به النيران وسيا Sia (الحكمة) بما تنصف به البقر . فلتعط الطعام فوراء . » (١٦) وحينما يتجمع القطيع يتجه إلى القرية ، ويحمل الفلاحون المحارث ،

لأنها لو تركت في الحقل لكان أمر العثور عليها مشكوكا فيه . وكما يقول الكاتب : « إنه لن يجد محراثه حيث تركه ، وسوف يستغرق البحث عنه ثلاثة أيام حتى يعثر عليه مدفونا في التراب ، غير أنه لن يجد الجلد الذي كان به لأن الذئاب تكون قد مزقته قطعاً صغيرة . » (١٧) .

لم يكن المحراث هو الوسيلة الوحيدة التي تستعمل لتغطية البذور في الأرض ، فطبقاً لطبيعة الأرض كان من المستطاع أن يستعمل المدقة والمعول أيضاً وكان المعول بدائياً مثل المحراث فهو يتكون من قطعة طويلة من الخشب فهي نماذج الحرف الكبير A وإحدى ضاعيه طويلة وكثيراً ما يتعرض المعول للاستهلاك أكثر من المحراث ، ولذلك كان الفلاح يضطر إلى أن يقضى في إصلاحه طول الليل ، ولكن هذه العملية كانت لا تفقده مرحة ، فيقول أحد العمال : « سوف أعمل أكثر مما يعمله مالك الأرض ، فاسكت إذن ! ، ويرد عليه عامل آخر قائلاً : « أسرع يا صديقي إلى العمل لأنك سوف تطلق سبيلنا في وقت مناسب . » (١٨) .

أما الأراضي التي غمرتها المياه مدة طويلة فكان من المستطاع توفير كل هذه الجهود الشاقة بإحضار قطع إليها بعد بذر البذور لتطأها أقدام الدواب . كانت الثيران والحمير شديدة الثقل أكثر من المطلوب لهذه الأرض . وفي الأزمنة السالفة ، كانوا يستعينون بقطيع من الأغنام ، وكان الراعي يحمل كمية صغيرة من الطعام في يده ليقدمها تباعاً للنعجة التي في المقدمة التي كانت تتبعه مطيعة له ثم يتبعها بقية القطيع . ولأسباب غير معروفة لنا ، استعاضوا في عصر الامبراطورية الحديثة بقطيع من الخنازير .

وقد شاهد هيرودوت قطعاً من الخنازير يعمل في الحقول . (١٩)

وقد أوحى طمر الحبوب في الأرض إلى المصريين بأفكار هامة أو بعبارة
أصح بأفكار مقبضة حزينة . فقد لاحظ الإغريق أنهم يقومون في تلك الفترة
بمراسم حفلات تماثل تلك التي تقام عادة في الجنائزات وفي أيام الحداد . وقد
رأى البعض في هذه العادات أنها غير معقولة وجنونية ، بينما يقرها البعض
الآخر (٢٠) أما المستندات الفرعونية التي في متناول أيدينا والتي استندت
إليها في وصف الأعمال التي تجري في فصل پريت فلم تشمل إلا القلة النادرة
من هذه الطقوس . كان الرعاة الذين يتوجهون إلى الأرض ومعهم
أغنامهم يتغنون بأغانى حزينة ويرددونها ثانية عندما كانت الأغنام تغطأ سنابل
القمح ، قائلين :

« إن الراعى في الماء وسط الأسماك . »

« يتحادث مع سمك القرموط . »

« ويتبادل التحيات مع أسماك القنومة ، »

أيها الغرب . أين الراعى . راعى الغرب ؟ ، (٢١)

كان الكسندر موريه Alex. Moret أول من قال بأن هذه الأغنية ليست
بمجرد دعاية تصدر عن قرويين يأسفون لحال الرعاة الذين كانوا يغوصون في
الوحد ، إن الوحد ليس مكانا للأسماك ، ومن باب أولى لم يكن مكانا
للأجيران الجافة حيث تنشر السنابل . ولم يكن راعى الغرب سوى الغريق
الأول ، أوزيريس الذى قطع ست أوصاله إلى قطع صغيرة ألقاها
في النيل حيث ابتلعت الأسماك الشلية والبنى والقنومة أعضائه التناسلية .
وكانوا وقت بذر الحبوب ودرس الغلال يمجدون ذكرى المعبود الذى سحلب
النباتات النافعة للإنسان ، والذي كانت حياته تتحد إلى حد كبير مع حياة

النبات حتى أنه كان يمثل أحيانا نبتة غلال أو أشجار قد نبتت فوق جسده المسجى .

وكان هيرودوت يعتقد بسذاجة أن الفلاح لا يعمل شيئا إطلاقا بمجرد أن يفرغ من حرث الأرض وبذر الحب ، حتى يحين وقت الحصاد . ولو فعل هذا لقصى على محصوله إذ أن الأمطار ، حتى في الدلتا ليست كافية فتغنى عن رى الحقول . وفي الصعيد بصفة خاصة ، سرعان ما تجف الأرض . وتتلف الحبوب مثل الشعير الذى تلف في حدائق أوزيريس عندما تركت دون أن تروى . فرى الأرض إذن كان أمرا ضروريا وهذا ما كان يذكره موسى لشعبه عندما كان يستعرض الخيرات المغربية التى كانت تنتظرهم فى أرض كنعان إذ قال لهم : « لآر البلاد التى تذهبون إليها لتضعوا أيديكم عليها ليست مثل أرض مصر التى خرجتم منها والتى كنتم تلقون البذور فى حقولها وتروونها بأقدامكم كأنها حقول للخضروات ، ولكن الأرض التى تذهبون إليها لتضعوا أيديكم عليها هى جبال وأودية تسقىها مياه أمطار السماء . » (٢٢) .

وقد فسر هذا الكلام على أن المياه كانت ترفع إلى الحقول بواسطة آلات تدار بالأقدام ، ولكن النصوص المعروفة والوثائق المرسومة لا تسمح بتأييد وجود مثل هذه الآلات . والتفسير المحتمل أن المهندسين الذين تولوا ضبط سدود بحيرة موديس كانوا يفتحونها عندما يحتاج الزراع إلى المياه ، فكانت القنوات تمتلئ بالمياه . وبواسطة الشادوف ، أو بوسيلة أشق وهى الآلات التى كانت المياه توزع فى المساقى الصغيرة ، وكانوا يفتحون القنوات أو يغلونها وكانوا ينشئون قنوات جديدة ، ويبنون سدودا ، كل

هذا بالأقدام ، إذ أننا نشاهد في رسم من رسوم طيبة أنهم يطأون بأرجلهم
الغرين الذي كانوا يصنعون منه الأواني الفخارية .

• - المعمار

عندما تبدأ سنابل القمح في الاصفرار يرى الفلاح في حذر حقوله
يفزوها أعداؤه الطبيعيون وهم سادته - ملاك الأراضي - أو مملووم ومعهم
عدد كبير من الكتبة والمساكين والموظفين ورجال الشرطة الذين يبدأون
عملهم أولا بمسح حقله . (٣٢) وبعد ذلك يقدرّون كمية الحبوب بالكيل
فيكونون فكرة دقيقة عما يستطيع الفلاح أن يقدم إلى مندوبي الخزينة
أو كبار موظفي دوائر الآلهة مثل آمون الذي كان يملك أجود أراضي
البلاد .

يترك المالك أو مندوبه المنزل مبكرا ويقود عربته قابضا يده في شدة.
على عنان الجياد . ويتبعه الخدم سيرا على الأقدام حاملين المقاعد والحصر
والأجولة والصناديق المزخرفة وكل ما يحتاجه المساحون لغرض التفتيش .
ولأكثر من ذلك . وتقف العربات في ظلال أكمة من الأشجار .

ويقد رجال من حيث لاندري ، يحلون الخيل من العربات ويربطونها
في جذع شجرة ويأثونها بالماء والعلف . ثم يقيمون قواعد لثلاثة أزيار
ويقتجون الصناديق ويخرجون منها الخبز والمأكولات المتنوعة ويضعونها في
أطباق وسلال ويعدون حتى أدوات الاغتسال . وتحت ظلال إحدى الأشجار
ينام السائس وأثقا من أنه يستطيع أن يرقد عدة ساعات . وها هو ذا السيد
يتوسط المساحين مرتديا زى الحفلات واضعا الشعر المستعار فوق رأسه ،
لابسا قيصا بأكام قصيرة يتوسطه حزام وإزار وخوذة وعصا وصولجان .

ويقتل في قدميه صندلا ويحمي سيقانه ضد الأعشاب الشوكية (بقلشين) من قاش
ذى أربطة. أما ساعدوه فيكتفون بارتداء الأزار وينتعل بعضهم الصنادل
بينما البعض الآخر يسرون حفاة الأقدام. وفي رسوم مقبره منا Mona
يرتدى المساحون فوق المئزر قصانا بأكام قصيرة وصديرية قصيرة ذات
ثنيات، ويتقاسمون أدوات العمل وهي من البردى ولوحات للكتابة
وأكياس صغيرة داخلها المحابر والأقلام، ولفات من الحبال وأوتاد يبلغ
طول الوتد الواحد منها ثلاثة أذرع، وعندما يقومون بالعمل في ممتلكات
آمون، أغنى الآلهة المصرية وأشد هم جشعاً، فإن الحبل يلف على قطعة من
الخشب لها يد على هيئة رأس كبش، إذ أن الكبش هو الرمز الديني للمعبود؛
وعندما يكتشف رئيس المساحين أحد حدود الحقل ويقين له أن بقية الحدود
في مكانها الصحيح، يدعو قائلاً: «الاله العظيم الموجود في المساء، وعندئذ
يدق الصولجان الذي يشبه علامة مقاطعة طيبة. وتمد الحبال في الوقت الذي
تفك فيها، ويأتى الأولاد بمركات كثيرة لإبعاد السمان الذي يحوم حول
السابل الممتلئة ويخطئ من يظن أن هذه العملية لا تجمع إلا من يهمهم
الامر، فبجانب هؤلاء يجتمع الفضوليون والناصحون. ويرهق العمال القائمون
بالعمل بسرعة مالم تحضر خادمة بعض الأطعمة الخفيفة حتى يتم إعداد
الغذاء الدسم الذي يجهز تحت شجرة الجوز.

ويشتغل العمال الزراعيون مدة أسابيع عديدة في الحصد والدرس ولما
لم يكن عدد السكان العادى كافياً للقيام بالعمل، فإن دوائر أملاك الدولة
وأملك الآلهة تحتاج دواماً إلى عمال تراحيل يبدأون العمل في مقاطعات
الجنوب وبعد الانتهاء منها يتجهون إلى الشمال ليجدوا الحقول معدة للحصاد،
وحينما ينتهى حصاد الحبوب في الصعيد وفي مصر الوسطى، يبدأ موسم
الحصاد في الدلتا، ووجود هؤلاء العمال الذين يرحلون من مكان إلى آخر

وراء الحصاد ، يؤيده مرسوم لسبتي الأول إذ كان يستثنى عمال معبده
المسمى ملاين السنين في أيديوس من هذا الإلزام .

وكان عمال الحصاد يقطعون سنابل القمح بالمنجل ، ذى اليد القصيرة
التي كانوا يتمكنون بها من الإمساك به .

والسلاح العريض نوعا يبدأ من ناحية المقبض وينتهي بطرف مدبب .
وكانوا لا يحصدون السنابل قريبا من الأرض بل كان العامل ينحني قليلا
ويسك بيده اليسرى قبضة طيبة من السنابل ثم يقطعها من أسفل السنابل ثم
يضعها على الأرض تاركا أعواد النبات دون رؤوس . ويأتي النساء خلف
الحاصدين ويجمعن السنابل في مقاطف وينقلنها إلى نهاية الحقل ، ويحمل
بعض هؤلاء النسوة أواني يجمعن فيها الحبوب التي سقطت على الأرض
ولا يمكن أن تؤكد أنهن كن يتركن القش جانبا ، إذ أننا نملك دليلا على
ذلك .

وقد وردت رسوم تبين أن الملاك يتولون الحصاد بأنفسهم أحيانا
ويجمعون السنابل ، حتى أن بعضهم لم يزرع عنه الثوب الأبيض الجميل ذا
الذي كان يرتديه . ونميل إلى الاعتقاد بأنهم كانوا يفتتحون العمل في
الحصاد ثم يادرون بتركه إلى عمال الحصاد الحقيقيين . وفي الواقع كان الرسامون
يمثلون في رسومهم حلقة من الحياة المقبلة في حقول Isou حيث
لا ينقصها شيء . وحيث كان على كل واحد أن يقوم بزراعة حديقته . (٢٠)
وعلى الجملة فقد كان الملاك يكتفون بالحضور أثناء الحصاد . وهكذا فعل منا
Menna وهو جالس على مقعد على هيئة X في ظل شجرة جوج وطعامه أمامه
في متناول يده .

وكان العمل يبدأ في الفجر ولا ينتهى إلا في المساء . ويتوقف عمال الحصاد من وقت لآخر وقت الظهيرة واضعين المنجل تحت أبطهم ، يفرغون في جوفهم إناء الماء قائلين : « اعط الفلاح كثيرا وأعطني ماء لأطفئ » ظمأ . . (٢١)

وفيما مضى كان الناس مطالب صعبة . فيقول أحدهم : « اعط الجمعة لمن يحصد الشعير ، (وشعير بيشا Beech كانت تصنع منه الجمعة) . (٢٢) والذين كانوا يتوقفون كثيرا عن أعمالهم كان الملاحظ لا يتوانى في أن يوجه إليهم اللوم قائلا : « إن الشمس ساطعة وهذا واضح ! ولأن لم تتسلم شيئا من عمل يدك . هل جمعت ربطة ؟ لا تتوقف عن العمل ثانية لتشرب في هذا اليوم قبل أن تعمل شيئا » .

وبينا كان عمال الحصاد يكدون بقسوة في العمل ، كان بعض الرجال قاعدين في ظل الأشجار ورؤوسهم فوق ركبهم - فن هم هؤلاء ؟ هل هم من العمال الذين خدعوا الملاحظين أو هم من الفضوليين أو من خدم الملاك الخصوصيين الذين ينتظرون حتى ينتهى التفتيش ؟ ثم يكشف أيضا رجل موسيقى قد جلس فوق جوال ينفخ في مزماره المزودج . إنها معرفة قديمة فقد وجد مرسوما على جدران مقبرة في الذي عاش في عهد الدولة القديمة موسيقى ينفخ في مزمار طوله ذراعان ليطرب عمال الحصاد متبعا سيرهم ، وقد لازمه عامل يصفق يديه دون أن يترك منجل الحصاد ، ويغنى أغنية للثيران ويتبعها بأغنية أخرى . طلعها : « إن أسير في طريق » . ويبدو من هذا أن انفعال الملاحظ كان صوريا أكثر منه حقيقيا . وفي رسوم مقبرة پاخيرى لا يوجد زمارون ولكن يرتجل عمال الحصاد نقاشا غنائية : « ما أجل هذا اليوم ، هيا اخرج من الأرض ، إن رياح الشمال تهب ، وتعمل السماء على إسعادنا . إن عملنا هو الذى نجه » .

ولا ينتظر الذين يلتقطون السنابل التي وقعت على الأرض حتى يتم حصاد الحقل كله بل يتولون المزيد عما التقطوه . وهؤلاء عادة من النساء والأولاد . فتمد امرأة يدها وتقرن حركتها بقولها : « اعطني حبة واحدة فقط لقد حضرت مساء فلا تسيء معاملتي اليوم كما فعلت معي نهار الأمس » .

وكانت إجابة أحد عمال الحصاد على سؤال من هذا القبيل خشنة إلى حد ما : « اخرج ومعك ما يديك - اعلم أن بعضهم قد طرد لنفس هذا السبب » . وفي الأزمان الغابرة جرت العادة على أن يترك للعالم مقدار الشعير أو الغلة التي يمكن حصادها في يوم واحد . وقد استمرت هذه العادة متبعة طوال عهد الفراعنة .

وعند بيت أوزيريس Petosiris يقول عمال الحصاد الذين كانوا يعملون في خدمته : « أنا المزارع الطيب الذي يجلب الحبوب ويملاّ لسيدته بمجهود ساعديه الثورتين في السنين العجاف ، ويأتى بكل ما تجود به الحقول إلى أن يجيء فصل أخيت ، والآن يأتى دورهم ، فيقولون « ليسعد سعادة مضاعفة من يحسن العمل في الحقل في هذا اليوم ، وإن الفلاحين يتركون ما عملوه » ويصرح فوج آخر من العمال بأن الأجور ضئيلة وليكنها مع ذلك جديرة بأن يحصل عليها ولو اقتصر الأمر على حزمة صغيرة فإننى أشتغل لأحصل عليها ، وإذا ما بذلت أى مجهود في الحصاد من أجل ربطة فإن أشعة الشمس ستسطع علينا لتخمر عملنا » (٢٨)

وخوفا من اللصوص ومن أن تلتهم الطيور جزءا كبيرا من المحصول ، فإنهم يجمعونه أولا بأول بمجرد أن يفرغ العمال من حصد جزء من الحقل . وفي إقليم منف كان يتم النقل على ظهور الخمر . ويقود الخمارة الخمر الكبيرة

العدد التي تجري مثيرة سحبا من الغبار . وتوضع الرباطات داخل أخراج مصنوعة من الجبال وعند ما يمتلئ جانبها الخرج ، أضافوا حزما أخرى تربط بالجبال وتسير الخمير محملة وترح أمامها جحاش صغيرة تجرى في جميع الاتجاهات دون أن يهتم أحد بأمرها . ويتبع الحمامة حميرهم وهم يمزحون أو يتعاطبون وهم يلعبون بالعصى : « لقد أحضرت أربعة أوان من الجمعة ، أما أنا فقد نقلت بجميري اثنين ومائتي جوال بينما كنت أنت قاعدا لا تعمل شيئا . » (٢٩) وفي الصعيد كان من الممكن الانتفاع بالخير في نقل المحاصيل. (٣٠) ولكن في أغلب الأحيان كان الرجال يقومون بنقلها ، وربما كان هذا لأجل وضع حد لمد أجل العمل في جمع المحصول إذ اعتاد عمال الحصاد ، جنى السنابل من أعلى تاركين عيدان القش في الأرض ويستعمل الحمالون أكياسا من الشباك ذات إطار خشبي ومزودة بحلقتين تعلق منهما .

وعند ما يمتلئ الكيس إلى حد لا يمكن معه إضافة أى حفنة أخرى من السنابل إليه فانهم كانوا يدخلون في الحلقة عمودا من الخشب يتراوح طوله بين أربع وخمس أذرع . ويربط الكيس بأشوطة ، ثم يحمله رجلان يضعان طرفي عمود الخشب فوق أكتافهما ويتجهان إلى مكان درس الحبوب وهما يغنيان كما لو كانا يريدان أن يظهرأا للكاتب أن حظهما لا يقل عن حظه ، قائلين : « إن الشمس تحرقنا من الخلف وسوف يعطى شو سمكا ثمنا للشعير . » ويتظاهر أحد المسئولين بأنه يعتقد أن مياه سوف تلحق الحمالين إذا لم يسرعوا في سيرهم أكثر عما يفعلون . اسرعوا هيا سيروا حيثما فالياه آتية . وقد بلغت موضع حزم القمح .

وهذا المسئول يبالغ لأن بشائر مياه الفيضان لا يمكن أن تصل إلا بعد

شهرين (٢١) وبمجرد انصراف الرجلين اللذين يحملان عرق الخشب على اكتافهما فإن اثنين آخرين يحلان محلهما . ويرفع أحد الحمالين الجوالد بينما يعنى الآخر بأمر عرق الخشب ، ويظهر أنه كان يتهاون في العمل إذ أنه يقول : « إن عرق الخشب لا يكاد يستمر على كتفي فإأقساه ، أه يا قلبي » .

ثم تفسر السنايل فوق أرض قد دكت في عناية كبيرة ، وعندما تتكاثر طبقة السنايل يقتحم الرجال ومعهم الثيران المسكان ويحمل بعضهم سياطا ويحمل آخرون مذارى . وبعد أن تطأ الثيران سنايل القمح لا يكف الرجال عن تقلبها بالمذارى ، وتصبح هذه العملية شاقة بسبب حرارة الجو وكثرة الأتربة . ومع ذلك فإن الراعى يحرض الثيران على العمل قائلا : « ادرسى إن هذا لك ، ادرسى ، فهذا لك — إن التبن هو غذاؤك أما الحبوب فهي لسادتك . لا تتوقفى عن العمل فإن الطقس جميل ، ومن وقت لآخر كان أحد الثيران ينكس رأسه الضخم ويملاّفه بما يجده على الأرض من قش . وجوب دون أن يردعه أحد فيما يفعل . (٢٢)

وحينما يبعدون الثيران عن مكان الدراس يفصل العمال الحبوب عن القش بمذاريمهم . وتتراكم القشور والتبن فوق الحبوب ، وبواسطة مكينة صغيرة يمكن إزالة الجزء الأكبر من هذه القاذورات . ولأجل تنقية الحبوب يستعمل الغربال وهو أداة تشبه المصفاة ، فيمسك العامل بالغربال المملوء بالحبوب من جانبيه ، ويقف منتصباً على أطراف أصابع قدميه . ويرفع ذراعيه بالغربال إلى أعلى بالقدر الذى يستطيعه ويحرك الغربال فتسقط الحبوب على الأرض أما القش والأتربة فتذروها الرياح . (٢٣) وبذلك تصبح الحبوب نظيفة . وهنا يأتى دور الكتبة فيحضرون ومعهم ما يلزمهم

ومعهم ما يلزمهم من أدوات الكتابة والكيلون ومعهم أدوات الكيل ،
وويل للفلاح الذى يخفى جزءا من محصوله أو الذى لا يستطيع تسليم رجاله
السلطة الرسميين كمية المحصول التى أظهرت عملية المساحة قدرة حقله على
تقديمها ، حتى ولو كان الفلاح آمينا ، حسن النية . عندئذ يلقى أرضا ويضرب
ضربات متوالية بالعصا وقد تنتظره مصائب أشد وأسى .

ويترك عمال السخرة الجرن حاملين معهم مكابيلهم ملأى بالحبوب
ويعربون أمام الكتبة ويدخلون فناء محاطا بأسوار عالية حيث توجد صوامع
حفظ الحبوب ذات ارتفاع يبلغ عنان السماء ، وهى عبارة عن بناء على شكل
أقفاص السكر مدهونة بعناية من الداخل وباللون الأبيض من الخارج . وتوجد
درجات تؤدى إلى فتحة حيث يقوم كل رجل من الذين يحملون المكابيل
المليئة بالحبوب بتفريغها فى الفتحات ، وإذا أريد سحب حبوب فيما بعد
فيكون ذلك عن طريق باب صغير فى مستوى الأرض .

وجملة القول فإن هذه الأعمال الشاقة كانت تتم فى مرح . فسرعان ماتنسى
بعض ضربات العصي ، والفلاح قد اعتاد عليها ويعزى نفسه اعتقاده أن
العصا لم تستثن أحدا فى بلده وأنها كثير أ ما وقعت على أكتاف أقل
تحملا من أكتافه ، وينطبق على المصريين ما قاله مرثم المزامير * :
« الذين يزرعون بالدموع يحصدون بالابتهاج . الذاهب ذهابا بالبكا-
حاملا مبذر الزرع مجيئا يحجم بالترنم حاملا حزمه . » (٢٤) لقد انتحبو
على الراعى المقدس عندما كانوا يضعون البذر فى الأرض والآن قد آن لهم
أن يفرحوا ولكن ينبغي لهم أن يقدموا للآلهة نصيبهم . فعندما يذرون
الحبوب يضعون أنفسهم تحت رعاية صنم غريب الشكل على هيئة هلال

غليظ الوسط . (٢٥) وفي أيامنا هذه لا يزال فلاحو الفيوم يزخرفون خروء بيوتهم أو يعلقون على أبوابها وقت الدراس تمثالا مصنوعا من سنابل القمح يطلقون عليه « عروس القمح » ويقدمون لها كوبا من الشراب ويصنعا وخيرا .

وكانوا يعتقدون ، وهم على حق في اعتقادهم ، أن الحصن الذي كان على هيئة هلال متفخ كان هو أيضاً عروسا ، ولكن كان هذا لا يحول دون أن يقدم ملاك الأراضي ، للمعبودة الثعبان رنوت التي سبق أن رأيناها موضع إجلال من زراع الكروم ، مجموعة أشد روعة . وهي عبارة عن حزم من القمح ودراجن وخيار وبطيخ وخبز وأنواع أخرى من الفاكهة . وفي أسبوط يقدم كل شريك في الزراعة للمعبود المحلى أوب واوات بشائر محصوله . وما لا ريب فيه ، أن المعبود المحلى في كل جهة كان يتلقى مثل هذا القربان وكان الملك نفسه يقدم حزمة من القمح للمعبود مين Min إله الخصوبة أمام حشد كبير من الأهالي في حفل يقام في الشهر الأول من موسم شمو . (٢٦) وكان الجميع كبيرا وصغيرا يقدم شكره للمعبودات سادة كل الأشياء ، وينتظرون في ثقة الفيضان الجديد الذي تبدأ به دورة الأعمال الزراعية .

٦ - الكتمان

نبت الكتمان عاليا وكثيفا ، وكان يقتلع عادة وهو لا يزال مزهرا . وقد ورد ضمن الرسوم الملونة على جدران مقبرة إپوى Apouy وبت أوزيريس أن السيقان تنتهى بلطع صغيرة زرقاء ، كما تنمو زهور زرقاء على نبات الكتمان . (٢٧)

ولقطع الكتان تعول من نيائه مقدار قبضة يد ثم تمسك باليد من أعلا وتبذل العناية الضرورية حتى لا تسكر الألياف ثم تحرك من أعلا إلى أسفل لإزالة ما علق بها من طين، ثم تسوى سيقان النبات من أسفل وتوضع على الأرض في ربطات متعارضة وبذلك تنتهى الربطات من جانبيها بالزهور، ويربط وسطها بجبل يصنع في التو من بعض سيقان نبات يضحى بها لهذا الغرض. ومن المعلوم أن ألياف النبات تكون أجمل وأشد احتمالا إذا تم خلع الكتان قبل إتمام نضجه وقد ورد في أحد النصوص ما يؤيد هذه الحقيقة، ولكن كان ينبغي الإبقاء على جزء من النبات ليتم نضجه للحصول على بذور تستخدم لا في التقاوى خشب ولكن لأجل الصيادلة أيضا.

وكان الرجال يحملون ربطات الكتان فوق أكتافهم، أما الأولاد فيحملونها على رؤوسهم. والسعداء هم أولئك الذين يملكون حميرا يملأون الأكياس (الاشناف) ويوصون الحمار في حزم، أن يعرى الحولة حتى لا يسقط منها شيء في الطريق. وفي نهاية المطاف كان الحمالون يجدون رجلا يجلس في الظل ويضرب تلك القبعات من الكتان على قطعة مائدة من الخشب، فيصرخون في وجهه قائلين: «أسرع أيها العجوز»، ولا تنكلم كثيرا فإن الرجال قادمون سريعا من الحقل. «فيرد العجوز عليهم: «إن أحضرت لي ربطة فأنا كفيل بتمشيطها».

وكانت غادة روديديت - ومن الجلي أن أحد النخشاء كان قد حرصها على ذلك - قد أتت إلى أخيها في الوقت الذي كان منهمكا فيه بهذا العمل فتطلعه على أسرار سيدتها فأدبها الشاب بقسوة إذ كان بين يديه وقتذاك ما يلزم لردع من لا يكتم السر. (٢٨)

٧ - أهرء الزراعء

علنا عما سبق أن المحصولات الزراعية كانت مهددة بأعداء كثيرين . فأكاد يتم فضج الشعير فى سنابله ويزدهر الكتان حتى يزجر الرعد وتمطر السماء للجا فى كل جهات مصر وتصيب جميع من فى الحقول من بشر ودواب .

كانت هذه هى الضربة المايعة . ولما ظل قلب فرعون غليظا لأن الخطة والقطاى لم تصب بسبب تأخرها فى النضج ، فقد حملت ريح الشرق معها غيوما من الجراد أتت على ما أبقى عليه الرعد والبرد وجردت الأشجار وأعشاب الحقل من كل خضرة . وإزاء هذا كله ، لم يسع الفلاح إلا أن يتوسل إلى آلهته ، وخاصة إله الجراد لحايته من مثل أولئك الأعداء ولكنه كان يستطيع أن يحصى نفسه تماما من اثنين من الضيوف غير المرغوب فيه كانا يزوران الحدائق فى الربيع والخريف وهما عصفور الصفارية جنو Genou والعصفور الدورى سوروت Sourout (٢١) وهذان العصفوران النافعان كانا يلتهمان الكثير من الحشرات إلا أنه كان يخشاهما أيضا لأنهما كانا يلتهمان الفاكهة بشراسة . وقد رسمهما الفنانون وهما يحومان حول أشجار الفاكهة . وكان الصيادون يصطادون الكثير منها بنشر شبكة كبيرة فوق قم الأشجار تثبت أطرافها بأوتاد ، ولم تمنع هذه الشباك المصاير من المبوط على الأشجار ، وكان كلما تجمع عدد كبير منها ، كان الأولاد يتقدمون مقللين ويستطرون الأوتاد ، فتهاوى الشبكة على الشجرة والمصاير . وكان الصيادون يتسللون داخل هذا السجن الخفيف ويقبضون على المصاير كما لو كانوا يطفون فاكهة ثم يضعونها فى أقفاص . غير أن

هذه الطريقة لم تكن تحول دون استعمال المصايد ذات الزئبرك التي كانت معروفة منذ العصور العتيقة ويفضلون استعمالها دائماً . (١٠)

ويأتى السمان فى موسم هجرته إلى مصر فى أفواج كثيفة وتكون قد أنهكت نعباً حتى أنها لتسقط على الأرض إعياء . وكان من المستحسن ، دون شك ، إمساكها وهى على قيد الحياة . وفى متحف برلين لوحة رسم عليها ستة من الصيادين يستعملون شبكة ذات ثقب ضيقة تستند على إطار مستطيل الشكل ، ويستترى زى الصيادين انتباهنا : إذ كانوا يحثون النعال حتى لا تؤذى أقدامهم جذور سيقان القمح ، وقد التفت أجسادهم بأوشحة بيضاء . وعندما يطير السمان فى جماعات كبيرة فوق الحقل الذى تم حصاده يظهر الصيادون فجأة ويلوحون بأحزمهم فينتاب الطيور المرعب وتتوقف عن الطيران وتسقط فى الشباك ، وتنعقد أرجل السمان فى ثقب الشباك . ولازدحام جموعها لا تستطيع الإفلات منها فى الوقت المناسب ، فيرفع أربعة من الصيادين الشباك وبمسك الاثنان الآخرين من السمان بقدر ما يريدون . (١١) وكانت أسرة الفلاح تقدر بكل تأكيد أهمية السمان ، ولم تألف الآلهة من السمان ، فقد كان من نصيب آمون ، فى عهد رمسيس الثالث ٢١٧٠٠ سنة (١٢) ، وهذا الرقم يعادل تقريباً سدس عدد الطيور المختلفة التى قدمت فى نفس الوقت لهذا المعبود .

٨ - نريه الماشية

حاول المصريون القدماء ، منذ عهد سحيق ، محاولات طويلة قبل أن يكتشفوا أنواع الحيوانات التى كان من مصلحتهم استئناسها . وقد زامل الكلب الإنسان فى الصيد ، كما عرفت قائمة الثور والخنزير كوسيلة للنقل ،

وكان البدو يقدرون قيمة صوف الأغنام ، بينما كان يخشى المصريون استعمالها لموتاهم وللأحياء على السواء . وكانوا يفضلون الماعز على الخراف . وبجانب هذه الحيوانات التي تمكنوا من استئناسها بسرعة ومن بينها الخنزير أيضا . فقد كان المصريون يصطادون الغزال والأيتال والماعز البرى والتيس والوعل وكذلك الضبع المتوحش ، ويربونها جميعا فى حظائر . (١٣)

ومنذ عهد الدولة الوسطى ، كان محافظ مقاطعة « الماعز البرى » يربى فى حظائره بعض أنواع تلك الحيوانات التى اشتق من اسمها اسم مقاطعته . وفى عهد الإمبراطورية الحديثة توقفوا عن هذه المحاولات . وورد على لسان أحد التلاميذ : « أنت أردأ من وعل الصحراء الذى يعيش دون أن يستقر له قرار ، لا يعرف كيف يحرق الأرض ولا كيف يطأ أرض الأجران بانتظام ويسكننى بأن يعيش على مخلفات الثيران ولو أنه ليس من فصيلتهم » . (١٤)

ويتمسك مربى الحيوانات العادى بأصدقاء الإنسان الحقيقيين مثل الحصان والثور والخنزير والماعز والخراف والاوز والبط . (١٥) أما الجمل فقد عرفه أهل الدلتا الشرقية فحسب ، ولم يظهر الديك إلا بعد ذلك ، وتوجد حيوانات أخرى كانت موضع عناية خاصة بل عناية فائقة فى المقابر بسبب عوامل دينية . ونحن لا نتناول الحديث هنا إلا عن تربية المواشى للزراعة . ولم يعرف الحصان فى مصر إلا قبل عصر الرعامسة . وبالرغم من الغرامات الحرية التى فرضت على الشعوب الآسيوية فلم يكن الحصان وتذلك كثير الانتشار . (١٦)

وكان هوى يمتلك حظيرة الخيل منفصلة عن حظيرة الثيران ومكان

الحير ، غير أن هوى كان ابنا ملكيا لكوش ، وكانت له مكاته في الدولة (١٧) . ولأنه أحد أفراد الطبقة الممتازة كان يركب العربا إذا دعى إلى القصر أو ذهب للتريض أو لزيارة أملاكه .

وكان أصحاب الخيول لا يخاطرون بركوبها ، وقد رسم الفنان المصرى رجلا راكبا حصانا حسب ما نعلم مرتين أو ثلاث مرات فقط . (١٨) أما البدو فكانوا أكثر جرأة ، ففي أثناء الحرب عندما تتوقف العربات عن السير كانوا يسكون الخيل ويعتلون ظهورها ويتطلقون بها مسرعين . وفى المراعى كانت الخيول ترعى منفصلة عن بقية الحيوانات .

أما حظيرة الثيران فكانت تقع داخل الأسوار غير بعيدة عن منزله السيد وعن مخازن الغلال . وكان الخدم يعيشون داخل الأسوار لحماية المواشى ضد اللصوص وليكونوا فى الصباح على أهبة الاستعداد . وفى مثل هذه البيوت المتواضعة المصنوعة من الطين ، والقائمة اللون من الداخل ومن الخارج ، يتخفون ركنًا لإعداد طعام العشاء وحفظ مئونة . وكانوا يسرون وهم ينوءون تحت أثقل الأحمال إما على رأس القطيع أو خلفه . ولتيسير حركتهم كانوا يقسمون هذا الحمل الثقيل إلى قسمين متساويين توضع إما فى جرار أو فى مقاطف أو فى زنايل تعلق على طرفى عصا ويحملونها على الاكتاف . وإذا كان الحمل واحداً فإنهم يحملونه على ظهورهم مربوطاً إلى عصا . وهذا ما كان يفعله بيتاؤو أثناء حياته ، ولكن بيتاؤو هذا كان قويا صلب البنية ، موضع الرضا من النساء . ولكن أغلب الرعاة كانوا من الفقراء البائسين الذين أثقلتهم متاعب الحياة ، فغرام صلح الرأس ، ذرى ذفون كثيفة الشعر وأحيانا ذوى بطون منتفخة ، وأحيانا أخرى كانوا على درجة كبيرة من

التحافة كأهم من ذوى العاهات. وفى إحدى مقابر مير Meir رسمهم وسام خير وحيم على حقيقتهم. (١٩)

ولم تكن هذه الحياة تسير على وتيرة واحدة، فعندما كان الراعى يحب مواشيه، كان لا يكف عن التحدث إليها، كما كان يعرف الأماكن التى تنبت فيها الحشائش التى تحبها هذه المواشى فيقودها إليها. كانت هذه بدورها نظير هذا العطف تعلية. تكبر وتسمن وتعطيه عجولا كثيرة، وفى بعض المناسبات كانت تعرف كيف تقدم له الخدمات الصغيرة.

وكان عبور المستنقعات دائما أمرا شاقا. فحيث يستطيع الإنسان أو الحيوانات الكبيرة أن تعبرها فإن العجل الصغير كان من المحتمل أن يغرق، وكان على الراعى أن يحمله على ظهره قابضا بيديه على أرجل العجل ويعبر به الماء فى شجاعة، أما البقرة فتسير خلفه، وهى تخور وقد جحظت عينها من القلق على ولدها، وتلازمها بقية الأبقار، أما الثيران الهادئة فإنها تتقدم فى انتظام محوطة برعاة آخرين. وإذا كان الماء عميقا على مقربة من النباتات المائية وأشجار البردى فقد كان يخشى دائما من التماسح. ويعرف الرعاة منذ أقدم العصور مايقولونه لأجل تحويل هذا العدو الرهيب إلى نبات لا يضرر منه، أو ليطمسوا عنهم بصره. (٢٠) وأعتقد أن هذا العلم لم يفقد، ولكن الوثائق الحديثة لم تذكر عنه شيئا، واحتفظت لنا إحدى مقابر البرشا بأغنية لراع اجتاز أقطارا كثيرة، قال: «لقد سقمت الثيران فى جميع الطرق وتجولتم فوق الزمال والآن تطلون الأعشاب فتأكلون النباتات الكثيفة، وها أنتم أولاء قد شبعتم، إن فيه خيرا لأجسامكم، (٢١)

وفى مقبرة بت أوزيريس يطلق الراعى أسماء شاعرية على أبقاره مثل:

الذهبية ، البراقة ، الجميلة - كما لو كانت روح المعبودة حاتحور قد تقمصتها -
لأن روح حاتحور هي التي تطلق عليها هذه الصفات . (٥٢)

فالحُرمة الصباحية وولادة العجل وعراك الثيران ، بالإضافة إلى
الانتقالات هي المناسبات الهامة التي يظهر فيها الراعى مدى معرفته وإخلاصه ،
وإذا فشل في مهمته فهو الجاني على نفسه . وإذا اختطف تمساح عجلا ، أو
سرق لص ثورا ، أو اجتاح الوباء قطيعا ، فإن أى عذر يعد مرفوضا . وعندئذ
يُطرح المذنب أرضا ويضرب بالعصا . (٥٣)

وتوجد طريقة مثلى تنهى بها السرقة ، وهي وضع علامات على الحيوانات
وكان معمولا بها بصفة خاصة في أملاك آمون وكبار الآلهة وفي أملاك
فرعون فتجتمع الأبقار والعجول في ركن من المرعى ويمسك كل حيوان
بجبل ثم يقيد من أرجله ويقلب على ظهره كما لو كان يعد الذبح ، ثم يأتي
العمال ويحْمون قطعة من الحديد على النار ويكونون بها كشفه الأيمن . ويكون
الكتاب حاضرين بطبيعة الحال ومعهم أدواتهم ويقبل الرعاة الأرض في
احترام بين يدي هؤلاء الذين يمثلون السلطان . (٥٤) وتأتي الماعز لتغزو
الغياض التي تكون الأشجار فيها معدة للإزالة ، وفي أقل من لمح البصر تزول
عن تلك الأشجار خضرتها . (٥٥) وحسنا تفعل لأن الخطاب قد وصل قبلها
وحين يضرب بفأسه أول ضربة لم تفكر الماعز في ترك الميدان ، أما العز
الصغيرة فتقفز هنا وهناك . أما الثيوس فلا تضيع وقتها . ولكن راعي الماعز
الذى يقبض في يده على عصاه التي تمثال صيرلجان طيه فكان يجمع قطيعه .
وقد علق كيسا كبيرا على طرف عود من الخشب ، ولدى يحفظ توازنه
كان يعلق في الطرف الثاني عذوة صغيرة ، ويحمل ٨٠ أيضا مزمارا ولكن لم

يتغن ثيوكرت Theocrito ولا فرجيل Vergile على ضفاف النيل الأغانى
الغرامية لرعاة الأبقار ورعاة الماعز .

أما تربية الدواجن فكانت تتم فى أماكن خاصة ، لم يتغير شكلها منذ
الدولة القديمة حتى الإمبراطورية الحديثة . فالإنسان يدخل فناء مزرعنا بعمود
على شكل مسلة وبتمائيل لرنويت . وبوجد فى ناحية مخزن مليء بالجرار
والحزم وميزان لوزن الحبوب ، وفى الناحية الأخرى أرض مسورة
توجد فى وسطها بركة ماء ، ويسبح الأوز والبط فيها أو يرح على ضفافها
حين يأتى الخادم لها بتصويبها من الحبوب . (٥٦)

٩ - سطور المستنقعات

تشمل المستنقعات جزءا كبيرا من وادى النيل . وعندما تعود مياه النيل
إلى مجراها بعد الفيضان تترك كل عام ، على حدود الأراضى الزراعية
مساحات واسعة تحتفظ بالمياه إلى أن ينتهى موسم شمو (الفيضان) . وتنبت
فى مياه هذه المستنقعات زهور مائية عريضة الأوراق ، وعلى أطراف
المستنقعات تنمو الورود وأشجار البردى وبعض النباتات المائية الأخرى .
وقد تكون نباتات البردى كثيفة إلى درجة لا تمكن أشعة الشمس من أن
تخترقها فأغصانها عالية إلى حد أن العصافير التى كانت تنخد أعشاشها بين
الأزهار تعتقد أنها فى أمان . وتقوم العصافير ذات الصوت الموسيقى
بتمرينات بهلوانية فى الهواء ، بينما تضع أنثاه البيض ، وتترقب بومة ، تظل
رابضة دون حراك ، سقوط الليل . بينما تعلى أعداء العصافير مثل قط الزباد
والقط الوحشى ، سيقان النبات حتى تصل إلى أعشاش العصافير . فتدئذ
نجد أن العصفور الذكر وأناه يقاقلان بشجاعة ضد المعتدى بينما تستنجد

صغار الحفافير في يأس محرقة أجنحتها التي لا تزال خالية من الرغب. وتقوم أسماك رشيقة بين جذور النباتات المائية، ونلاحظ من بين هذه الأسماك بصفة خاصة البورى والشال والبني وقشر البياض والبلطى الأقل ضخامة والصفافة التي خلقتها الطبيعة وهي مرحلة على حد تعبير ماسپرو . أما سمك البطن السوداء، فيعوم على ظهره، وهو طالما اتخذ هذا الوضع، حتى ابيض ظهره بينما اسود بطنه . واتخذت أثى عجل البحر ركنا هادئا لتضع فيه مولودها، بينما تربع تسماح خيخ، ليزدرد في الوقت المناسب المولود إلا إذا أنى عجل البحر الذكر قبل ذلك . فحينئذ تقوم حرب لا رحمة فيها ولا يكون للتمساح حظ التفوق في مثل تلك المعركة، فيمسكه عجل البحر بأنيابه القوية ويحاول التمساح عضه في ساقه عبثاً . فيفقد توازنه ويشطر عجل البحر جسم التمساح شطرين (٥٧) .

وكلما انجمنا شمالا اتسعت رقعة المستنقعات واشتدت كثافة نباتات البردى . واسم الدلتا بالمصرية القديمة محيت Mebit يعنى به أيضا مستنقع تلبت على حافته نباتات البردى . وهذه اللغة الغنية بالمرادفات لتعنى كل ما يوجد في الطبيعة ، كان لها مرادفات أخرى تعنى مستنقعات مكسوة بالزهور العريضة المائية شا Cha ، وتلك التي تلبت فيها الورود سخت Sekbet ، والتي ترادها الطيور تسمى ايون Ioun ومساحات المياه عقب انتهاء الفيضان بيو Petou .

كانت هذه المستنقعات بمثابة فردوس صيادى الطيور وصائدى الأسماك وكان كل المصريين ينتهزون الفرصة لاصيد الأسماك والطيور في المستنقعات كذلك كتاب المستقبل ، وكانت السيدات والفتيات يصفقن للضربات الصائبة ، سعيدات عندما يعدن إلى المنزل وهن يحملن عصفورا جميلا حيا .

أما الأولاد فكانوا ماهرين جداً في الصيد بعضا الرماية والحراب ، وكان يعد هذا مسلاة للهواة . ولكن الأهالي في الشمال كانوا يعتمدون في معيشتهم على المستنقعات . فكانوا يستمدون منها ما يلزمهم لمساكنهم ولبعض الصناعات ، وكانوا يقتلعون الكثير من نبات البردى ويربطونها حزماً ويحمل كل منهم بعضها ويعود إلى القرية منفلاً يحطى بطيئة وهو يكاد يسقط إعياء من فرط ثقل الحمل ، وكانوا يعرضون حزم البردى وينتقون منها ما يصلح لإقامة الأكواخ . ويستبدلون هنا البيوت المبنية بالآجر بأكواخ مقامة من سيقان البردى تنطى ببطقة من الطمي وجدرانها رقيقة ، وفي أغلب الأحيان كان الطمي يتساقط ، ولكن كان من اليسير سد مثل تلك الشقوق .

وتصنع من ألياف النبات حبال من كافة الأحجام وحصر وكراسي وأقفاص كانوا يبيعونها للملاك الأراضى . وبوساطة هذه الحبال وسيقان البردى كانوا يهضمون المراكب الجبلية السهلة الاستعمال والتي بغيرها لا يمكن صيد الطيور أو الأسماك . ولكن قبل الانطلاق وراء الفريسة ، كان ينبغي لهم اختبار الأدوات الجديدة . ويركب كل الناس مراكبههم ووزوسهم متوجة بالزهور وتتدل من أعناقهم الزهور المائية الزرقاء . ولتسيير المركب كانوا يستعينون بمدار طويلة مديبة على هيئة الأشواك . ويبدأ القتال بشتائم تكون في أغلب الأحيان نارية وتتوالى التهديدات والشتائم كالطرر ويخيل للسامع أن هذه الاشتباكات سوف تنتهى إلى نتيجة سيئة ، ولكن كان اهتمام كل منهم منحصراً في الإيقاع بخصمه في الماء وإعادة المركب إلى الشاطئ . وتنتهى الحلقة عندما يبقى واحد فقط في مركبه . ويعود المنتصرون والمنهزمون إلى القرية ويتسلون أعمالهم بعد أن يتصالحوا عادين إلى حرفهم التي قال الساخر المصرى عنها إنها من أشق الحرف . (٥٨) .

أما صيادو الأسماك الذين يرغبون الانتقال إلى مسافات بعيدة فإنهم

كانوا يتخذون قارباً من الخشب له صار . وتمتد الحبال بين أسلاك الصارى ،
لأجل تخفيف الأسماك المشقوقة ، وأحياناً يرتكز أحد الطيور الجارحة
فوق الصارى (١٩) .

وكانت هناك عدة طرق لصيد الأسماك :

فالصياد إذا كان وحده أخذ قارباً صغيراً بعد أن يتزود بالثؤنة
الكافية ، وعندما يعثر على مكان هادئ يلقى غابته في الماء ، وعندما تأتي
سمكة القرموط الجليمة وتعض السنارة ، يقوم الصياد برفع الغابة في هدوء
تام ويضربها ضربة مميتة بقطعة من الخشب .

أما في المستنقعات الضحلة فيضعون في الماء مصائد من أقفاص على هيئة
الزجاجة أو مصائد من أقفاص مزجوجة ، وعندما يأتي سمك البورى وقد
جذبه الطعم الموضوع في مدخل المصيدة فإنه يدخل بسهولة ولكن يصعب
عليه الخروج . وتبقى هذه الأقفاص الحياة الأسماك التي بداخلها . وصياد
السمك الذى لا يشك في نجاحه في الصيد كان كل ما يحشاه أن يراقبه جازم
ويسبقه إلى المكان ، فيخلئ مصائده من الأسماك . أما الصيد بواسطة شبكة
اليد وهى عبارة عن بركة طويلة وبها شبكة على هيئة سلة فإنها تحتاج إلى صبر
وأناة ويدقوية متمرنة . فالصياد يقف في مكان تتوافر فيه الأسماك ويدلج
بشبكة تحت الماء وينتظر متذرعاً بالصبر . وحينما تدخل الأسماك بحشاعن
ماوى ، كان عليه أن يرفع الشبكة بسرعة في غير عنف وإلا فستصبح الشبكة
خالية . أما الصيد بطريقة الشباك المقوصة فإنه يحتاج إلى عشرة رجال
وقارين على الأقل وبشباك كبيرة مربعة ، مزودة بعوامات من الفلين من
ناحية وبثقل من الأحجار من الناحية المقابلة ، ويلقون بهذه الشباك في البحيرة
حيث تتجمع الأسماك ، وبعد ذلك يحركون إلى الشاطئ في هدوء الشباك

والأسماك ، وإخراج الأسماك من الشباك إلى البر أمر دقيق ، فسمك الشيلان ،
وهى نوع قوى كثير الحركة ، يحاول أن يقفز خارج الشباك إلى الماء ، ولذلك
كان على الصياد أن يمسكه وهو يقفز فى الهواء . (١٠)

أما السمك البياض الكبير الحجم - الذى يكتس ذيله الأرض لضخامة
حجمه ، إذا ما حمله اثنان من الصيادين على مجذاف - فأفضل طريقة
لاصطياده هى الحراب (١١) . وكانت الحربة تستعمل أيضا لاصطياد
عجل البحر . ولكن حراب الصياد العادية تنكسر كعيدان الكبريت
فوق جلده هذا الوحش ، فيجب أن يستعمل إذن سلاح أقوى يتكون من
كلاية من الحديد مثبتة فى يد من الخشب ربط إليها حبل به عوامات ،
وعندما نصيب الحربة مرماها وتفرز الكلاية الحديد فى جسم الوحش
الذى يحاول الهرب ، يثد الصيادون حبال العوامات لتقصير المسافة ، فيتجه
عجل البحر الذى أصيب بالحربة صوب الصيادين ويكشف عن أسنانه
الكفيلة بشطر أى قارب ولكنهم يجهزون عليه بالحراب . (١٢)

أما الصيد بعصا الرماية فكان رياضة الأثرياء ، ولم يكن من أعمال
البحارة . ويحكى أن أبوى كان له قارب فاخر على هيئة بطة عظيمة ، على
أن أكثر الصيادين كانوا يقتنعون بقارب مصنوع من نباتات البردى من
النوع المألوف . ومن الأفضل أن يكون على ظهر القارب أوزة نيلىة دربت
على المناذاة ، ويرمى الصياد عصا الرماية التى تنتهى ببيضة رأس ثبيان . فتسقط
كل من العصا والضحية فى نقطة الابتداء ، فيسرع وحقاء الصياد وهم زوجه
وأولاده إلى الإمساك بالصيد . ويقول طفل فرح لو الله : أبها الأمير لقد
أمسكت عصفورا ولكن قطا برأيا أمسك وحده ثلاثة منها ، (١٣)

أما الصيد بالشباك فيمكن اصطياد عدد كبير من العصافير الحية فى المرة

الواحدة وكانت هذه رياضة جماعية ، لا يأنف الأمراء والأشخاص من ذوى المكانة من الاشتراك فى مثل هذه الحفلات كروساء أو كراقيين . وكانوا يجتارون بركة مربعة أو يضاوية فى أرض منبسطة ، لا يزيد طولها عن بضعة أمتار وينشرون شبكتين مربعتين من جانبي البركة المتقابلين حتى إذا ضمنا لبعضهما كانتا تكفيان لتغطية البركة كلها . وكان ينبغى إلقاء هاتين الشبكتين بطريقة مفاجئة فوق سطح البركة حتى يمكن أسر كل المصافير التى بها . لذلك كانت تثبت على الأرض أربعة أوتاد ، اثنان على يمين البركة ، واثنان على يسارها وتربط أطراف الشبكة بحيث تكون الزاويتان الخارجيتان مضمومتين ، يربط اثنان منهما إلى وتد كبير ثبت على بعد قليل من محور البركة ويربط الاثنان الآخران بجبل مناورة يبلغ طوله ٢٠ متراً أو أكثر . وكان هذا الجهاز معداً للعمل — ويختبئ أحد المراقبين بين الأشجار على مسافة قريبة وأقدامه فى الماء أو يجلس وراء حجاب ذى ثقب ، ثم يأتون بمصافير مدربة للتزده على شاطئ البركة ، وبعد ذلك يأتى عدد وفير من البط ويحيط فى البركة . ويمسك الصيادون وعددهم ثلاثة أو أربعة بجبل المناورة على أهبة الاستعداد . ويختفون على بعد كاف من البركة حتى لا تنزع المصافير التى تظهر عند سماع أقل صوت .

ويرفع الصياد المراقب ذراعه أو يفرّد شاله ، وبهذه الإشارة تشد الحبال ويرتج الصيادون مراعا لتشغيل الفخ ، فترفع الشبكتان وتبهطان على المصافير والطير فيأسرونها جميعا . وبعثا تحاول المصافير القوية الضرب بأجنحتها للتخلص من الشبكة والهروب .

والصيادون الذين سقطوا على الأرض نتيجة لمجهودهم المفاجئ يقومون ويمرحون ومعهم الأقفاص فى اتجاه المصافير دون أن يملوها الوقت الكاف

فتنجح في الفرار . وبعد أن تمتلئ الأقفاص فإن ما يبق من عصافير داخل الشباك تلوى أجنحتها ويتداخل الريش بعضه في بعض ، ويكفى هذه للاحتفاظ بها لحين العودة إلى القرية . (٦١)

ويتطلب كل هذا مزيداً من الانتباه والصبر ، والجرأة في بعض الأحيان . ولكن هذه الصفات لا يمكن أن يتسم بها الصيادون إلا إذا كانوا في رعاية معبودة تسمى سخت Sekhet أى البرية . وكانت هذه المعبودة على هيئة فلاحه ترتدى ثوبا (على شكل غمد) شعرها طويل يتدل على كتفها . وكانت الشبكة ذاتها هبة مربعة معبود خاص اسمه المعبود الشبكة وهو ابن المعبودة البرارى .

والأعمال التي قنا بوصفها الآن هى من أعمال المعبودة البرارى . والأسماك والطيور هما خيراتها ، غير أن هذه المعبودة لم تكن بخيلة ، فقد كانت توزعها عن طيب خاطر على صيادى الطيور وصائدى الأسماك وهم شركاؤها وأصدقائها . (٦٢)

١٠ - العير في الصحراء

كان الصيد في الصحراء مجرد تسلية للنبلاء والأمراء ، كما كان حرفة أيضا ، ولا توجد مقبرة ذات نقوش لم يرسم فيها صياد وهو يطلق سهامه التي لا تخطئ ، على الغزلان والأبائل المجتمعة كما لو كانت في حديقة نباتات في أرض مسورة ، كما أن حامل الحربة الذي يؤدي مهمة شرطة الصحراء المنوط بهم حراسة جبل ذهب فقط كان يلازمهم خبير للصيد ، عندما كانوا يذهبون إلى كبير كهنة آمون : من خبر ع سنب

تقديم تقرير عن مآوريتهم وتتضمن غنيمة نخمة تسكون من : بيض وريش نعام ونعام وغزلان أحياء ، وحيوانات مفروحة . (١١)

وقد كون رمسيس الثالث فرق شرطة من حملة الحراب وفرق صيادين محترفين يكلفون في نفس الوقت بمرافقة جامعي العسل البرى والشمع ويعودون بالماعز البرى لتقديمها إلى روح المعبود رع في جميع حفلاته ، لأن تقديم حيوانات الصحاري كذبيحة كان في جميع العصور التاريخية ، وفي العصور التي كان يعيش الإنسان فيها على الصيد ، كان أمرا محببا لدى الآلهة . (١٢)

وكان الصيادون الهواة والمحترفون يتحاشون الاستمرار في مطاردة الفريسة إلى أبعد مدى ، لأن الفريسة قد سلحتها الطبيعة بأرجل قوية ، وإذا استمر الصيادون في مطاردتها ضلوا الطريق في الصحراء وأصبحوا بدورهم فريسة للحيوانات المتوحشة كالضباع والطيور الكاسرة .

ولما كانوا على علم بطبائع الحيوانات والأماكن التي ترتادها للشرب فهم يعملون على جذب عدد كبير منها إلى أرض قد أعدت من قبل حتى يمكنهم صيد أكبر عدد منها على قيد الحياة أو قتل وفقا لرغبتهم . وكانوا يختارون سفح واد حيث توجد رطوبة في الأرض تسمح بإنبات بعض الأعشاب على أن تكون جوانبه منخفضة انحدارا كبيرا فيصعب على الحيوان الهروب سواء من ناحية اليمن أو من ناحية اليسار . وكانوا يثبتون على أوتاد شبكتين منفصلتين بينهما مسافة بعيدة وفقا لما لديهم من خبرة ، ولا يمكننا تقدير بعد المسافة استنادا على الرسوم التي وردت فيها . فالشبكة البعيدة محبوكه تماما وتمتد مسافة طويلة ، وبذلك تحول دون هروب أى حيوان . وفي الشبكة المقابلة ، أعدت فجوة لمرور الحيوانات والصيدان ، ويوضع (م ١٢ - الجاه في مصر)

فى داخلها ماء وطعام . (٦٨) وفى زمن وجيز يمتلئ هذا الممر المسور بالحيوانات فيعنيها الطعام المهيأ لها ، كما لو كانت لحظات حياتها غير معدودة . ويرى الجاموس البرى يقفز متجولا فى جميع الجهات والنعام ترقص تحية للشمس المشرقة وغزال ترضع صغيرها ، ويمد حمرا وحشى رقبتها استعدادا للنوم ، ويربض أرنب برى فوق تل صغير ليستشق الهواء . (٦٩)

وكان الصيادون فيما مضى يذهبون إلى الصيد سيرا على الأقدام ، ويسير السيد خالى اليدين ، بينما يتقاسم الحرس حمل الطعام والأقواس والسهم والأقفاص والحبال وزنايل الصيد .

وبجر خادم مقاود ربط فيها كلاب الصيد والضباع التى أطعمت طعاما كثيرا من قبل وددت على الصيد .

ومنذ عرف استعمال العربية كان السيد يذهب للصيد بمنطيا العربية كأنه ذاهب إلى ميدان القتال ومعهم القوس والسهم ، أما الأتباع فيسيرون خلفه على الأقدام يحملون بوساطة عصى غليظة جرارا وقربا ملئت بالمياه ، ومقاطف وأكياسا وحبالا . وعندما تصل هذه القافلة الصغيرة إلى الجهة المقصودة يترك السيد عربته ومعها أسلحته ويمسك أحد الخدم مقاود كلاب الصيد . (٧٠) ومنذ عهد بعيد استغنى عن الضباع التى تمكن صيادى الدولة القديمة من تدريبها على الصيد .

وتقاجا الطريدة حين تؤخذ على غرة بسيل من السهام تسلط عليها وهجوم مفاجيء من جانب كلاب الصيد المفترسة . وعينا تبحث هذه الحيوانات النعسة عن مخرج لها ، فالصخور المنعدرة انحدارا شديدا والعوائق تعجزها فى مكان المذبحة . وتصاب وعول وثيران وحشية . وتدافع نعاما عن

خفسيها بمنقارها ضد كلب صيد بهاجمها وأتى حيوان تلد وهي تقفز وأربى برى ويختق كلب صيد صغيرها الذي ولد حديثا وغزال يقفز في ياس ولكن سرعان ما يقع تماما في فم عدوه ، و كلب صيد قد طرح غزالة على الأرض ثم افترسها . ويتضح من رسوم وجدت على مقبرة شخص يدعى أوزير أنهم كانوا يضعون فخاخا داخل السور ولكن الرسوم غير واضحة تماما حتى أنه يصعب علينا وصف طريقة عمل هذه الفخاخ .

ولكن وجود هذه المصائد أمر مؤكد ، وإلا فكيف يستطيع الصياد الذي لا يملك سوى السهام والكلاب أن يعود بعدد كبير من الحيوانات الحية كما كان يفعل أوزير المنمحات . (٣١) كان الصيادون يعودون ومعهم نيس وغزال وماعز برى ونعامه ربط كل منها بحبل في رجله وكلها سليمة قادرة على السير ويحمل أحد الأنواع غزالا صغيرا فوق أكتافه ، ويمسك آخرون أرناب برية من أذنانها تبدو أنها مذبوحة . وقد علق ضبع من أرجله على لوح من الخشب وقد تدلى رأسه عما يقطع بأنه ميت . ولم يضع هؤلاء الصيادون وقهم سدى ، ولكن طائفة أخرى من الصيادين لم تقنع بهذه الغنيمة ، أو أنهم من الباحثين عن المتاعب فكانوا لا يألون جهدا في مطاردة الغزلان بعرباتهم السريعة مثل البرق . هكذا كان دأب الأمير المنحطب الذي لا يكل . وكان أوزير حات يتوغل في الصحراء الشاسعة وهو يقود عربته بنفسه مصوبا السهام يديه وسائقا أمامه قطيعا من الغزلان تهروراماها أرناب برية وضبعا وذئبا ، ثم يعود مزودا بالغنائم . (٣٢)

الفصل السادس

الحرف والفنون

لم تقتصر الأمة المصرية على أن تضم في أرضها مزارعين وكتبة لحسب، ولو كان الأمر كذلك ما وجدت الأهرام ولا المعابد والمدافن، وما كان للأميرة خنوميت Khnoumit (حتشيسوت) أن تزين شعرها الأسود بتاج في منتهى الروعة ودقة الصنع، وما كانوا قد اقتزوها من المحاجر عموداً من الجرافيت يبلغ طوله أكثر من ثلاثين متراً ونقلوه من أسوان إلى طيبة وشكلوه على هيئة مسة نقشوها بالكتابة الهيروغليفية الدقيقة، ثم أقاموها على قاعدتها. ولم يستغرق كل هذا العمل سوى سبعة شهور، مما يدل على ما يتسم به المصريون من صفات استثنائية، وخاصة أن هذه العملية قد تكررت عدة مرات خلال كل حكم في عهد الدولة الحديثة. ولم يقدر الكتاب هؤلاء الصناع المهرة حق قدرهم وعدوم أقل منهم مرتبة، ولنحاول أن نكون فكرة عن أعمالهم ونوع الحياة التي كانوا يجيونها.

١ - عمال الحجارة

يوجد في مصر في الصحراوين الشرقية والغربية على حافى الوادى، صخور كبيرة القيمة وكانت غامات يستغلها المعمارون والمثالون والصباغ في أعمالهم الكبرى ودقائق الفن على السواء.

فالحجر الجيري يوجد على طول الوادى بين منف وادمنت
جنوبى طيبة .

وأجمل هذه الاحجار وأنصمها يابضاً كانت تستخرج من محاجر طره
روايو Roiaou - بالقرب من عين - لوان ، والحجر الجيري الذى يوجد
فى نلال طيبة هو بدوره من النوع الجيد .

أما حجر الصوان الأحمر الذى يشبه خشب الارز ، Morry ، فكان
أجمل من الجبل الأحمر أحد ممتلكات حاكمور الخاصة شمال شرق أون
[(عين شمس)] وكان هذا الحجر يستغل على نطاق واسع خلال الأسرة
الثانية عشرة . وقد استطاع سنوحى الحرب من مصر باختفائه وسط العمال
القادمين من قرام ليعملوا فى الحجر .

وقد بلغ استغلال هذا الحجر أوجه فى عهد رمسيس الثانى ، وقد
اكتشفت فى أحد الايام كتلة ضخمة أكبر من أية مسلة من الجرافيت ،
ولم يكن لها نظير منذ عهد الآلهة (بقر التاريخ) . وكان اكتشافها فى صحراء
أون بحضور جلالة الذى ذهب بنفسه إلى الصحراء فى دائرة أملاك رع .

وقد اعتقد الجميع أن جلالة الملك هو الذى أوجدهما بنفسه بطلعته
اليية . وقد أمر جلالاته أن يتولى العمل فيها نخبة من أمير العمال . وتم
تشكيل هذه الكتلة فى عام واحد على هيئة تمثال ضخم أطلق عليه اسم
« رمسيس المعبود » .

وقد كوفه رئيس الأعمال بمنح من الذهب والفضة . كما نال كل من ساهم
من العمال فيه نصيباً من هبات الملك .

وكان جلالته يشرف على العمال يومياً وهذا ما حثهم على مضاعفة الجهد والعمل بنشاط عظيم .

وقد عثر على محجر آخر يجاور المحجر الأول ، وقد استخرجت منه أحجار ضخمة لمعبد بتاح في منف ومعابد بتاح وأمون التي أقامها رمسيس (١) .

وتوجد بكثرة أحجار رملية أقل جودة من أحجار الجبل الأحمر على جانبي الأقاليم الجنوبية الثلاثة ، ولكنها أحجار لها قيمتها بدورها .

وأسوان هي إقليم محاجر الجرانيت .. ومن أطرافها المجاورة يمكن الحصول على أنواع الجرانيت الثلاثة الوردى والأشهب والأسود ، وكذلك من محاجر جزر أبو Abou (الفتتين) وساتيت Satit وسموت - Seamout

ولا تزال توجد مسلة وثابت وتمثال ضخمة لاوزيريس في الإمكتة التي كانت تستغل فيها المحاجر القديمة نثبت نشاط الحجارين الأوائل ، كما ترى في كل مكان الأعمال التهيدية لقطع الأحجار ، وتمتد محاجر الجرانيت صوب الجنوب لمسافة طويلة .

وتقع محاجر الصخور الطافية : البيضاء والخضراء في المكان المسمى ايداحيت Idahet ، التي تبعد نحو الغرب بمقدار مسيرة ثلاثة أيام . وقد تركت هذه المحاجر منذ أيام الدولة الوسطى .

ولم يكن العمل في هذا المحجر ممكناً بعده ولما يتطلبه من جهد وتضحيات كبيرة ، ومع أن ملوك الرعامسة لم يكونوا يترققون بأسرى الحرب إلا أنهم لم يحاولوا استئناف العمل في محاجر هذا الإقليم (٢) .

أما في مصر الوسطى فتوجد محاجر من النوع الجيد ويمكن استغلالها بتكاليف أقل وهي محاجر المرمر في حات نوب Hatnoub التي تبعد ساعات قليلة عن عاصمة أخناتون (اخيتاتون) المهجورة ، كما توجد جنوباً ، محاجر وادى الحمامات Rohanou على بعد ثلاثة أيام من قفط (Coptos) وكذلك محاجر الصست الأسود المحبب ذى اللمعان الجميل في بنجن (Bekhen) ومحاجر الرغام الأخضر والرغام السباقى .

وفي الواقع توجد نقوش كثيرة في مواقع المحاجر القديمة كلها تقريباً . ولكن تمتاز النقوش المدونة في محاجر وادى الحمامات بوفرة الوقائع الطريفة المدونة بالتفصيل (٢) بدلا من تلك الأسماء الكثيرة والألقاب الواردة في المحاجر الأخرى .

لم تكن المحاجر تستغل بصفة دائمة أو منتظمة ، فاذا احتاج فرعون إلى أحجار بنجن أرسل حملة تتكون من عدة آلاف من العمال ويعتبر هذا حدثاً هاماً في عهده .

وقد تفوق رمسيس الرابع على كل من سبقه بإرساله حملة مكونة من ٩٣٦٨ عاملاً . وقبل إرسالها أعدها الملك في تأن شديد إذ قام بالرجوع إلى كنب بيت الحياة وبعث حملة استطلاعية .

أما القيادة العامة فكانت تحتوى على ١٣ شخصية كبرى منها الرئيس الأعلى لكتبة أمنون ومعه ثقافته . ثم عشرون خبيراً من هيئة الجيش . وهؤلاء الخبراء كانوا يعاونون في حل المشاكل التي تعترض المهندسين مثل إقامة مسلة أو تشكيل تمثال ضخم يبلغ طوله ثلاثين ذراعاً أو تشييد سدود مائل من اللبن أو القيام بالأعمال الإدارية مثل إعداد حملة حربية إلى سوريا .

وكانت تحتوي الحملة على ٩١ من رؤساء الاسطبلات ومن الفرسان والسياس وخمسين من رجال الشرطة بمختلف رتبهم وخمسين موظفاً من مختلف الدرجات . وما يثير الدهشة وجود مائتين من رؤساء فرق صيد الاسماك ضمن الحملة ، وهذا يبين دون شك أن موسم الفيضان (شمو) في الوقت الذي قامت فيه الحملة لم يكن ملائماً للصيد .

وكان عماد الحملة مكوناً من ٥٠٠٠ جندياً و ٢٠٠٠ من خدم المعابد و ٨٠٠ من الأجانب المرتزقة (Aperou) ، ٩٠٠ من موظفي الحكومة المركزية يذكرون ضمن هذه الحملة ولكنهم كانوا لا يصحبونها عن قرب . وكان مع الحملة عربات تجرها ثيران كثيرة العدد كما لو كانت جيشاً حقيقياً .

أما الخبراء العاملون فهم :

رئيس هيئة الفنانين ، ثلاثة رؤساء لعمال المحاجر و ١٢٠ من الحجارين والنحاتين ورسامان وأربعة حفارين ، وهو عدد ضئيل بالنسبة لمن في الحملة من عمال .

أما القسم الأكبر من العمال فكان يعمل إما في جرا الأحجار على زحافات أو في إحضار الطعام لهم .

وكانت المشكلة الكبرى التي تواجه الرؤساء هي إطعام آلاف الرجال في وسط الصحراء وتوزيع القليل من المياه على كل منهم - والقليل من الجمرة والكسرة من الخبز - أما الرؤساء والخبراء فكانت تقدم إليهم كميات أوفر وأخيراً القيام بواجب الشكر لمعبودات جبل بنجن (وادي انخامات) وفي مقدمتهم مين وهورس وإيزيس الذين لولا

رعايتهم لبامات الحملة بالفشل . لهذا فقد اعتبر المصريون هذه الأعمال بمثابة تعبير الصحراء وتحويل الطريق إلى قناة . وكان موضع غرهم أن يسجلوا على لوحة مكتوبة أنه لم ينفق حمار على جانب الطريق ولم يشعر أى إنسان بالظلم . ولم يفقد أى امرئ عزمه ساعة واحدة . كذلك لم يتذمر الرجال الذين كلفوا بنقل الخبز والجمعة وما كان لهم أن يتذمروا بل كانوا يؤدون عملهم وهم مفتبطون كأنهم فى أيام الأعياد .

وكانت وسائل العمل فى المحاجر بدائية إلى أبعد الحدود . ولم يحاولوا استخلاص الأحجار من صميم الحجر وكسرها إلى أحجار ذات أحجام متماثلة بل كانوا يختارون الشقوق التى قد توجد فى الحجر والتى يسهل كسر أحجارها التى تصلح لتشكيل التواييت أو أغطينها أو لمجموعة تماثيل أو لمجرد تماثل .

وكان العمال الذين يصلون قبل زملائهم ، يرفضون الأحجار الموجودة فوق الطريق ، ومن يأتون بعدهم كان عليهم أن يتسلقوا المنحدرات ليدرجوا الكتل الضخمة من أعلى إلى أسفل . وكثيراً ما كانت تلك الكتل تنقسم إلى قطع صغيرة . ولهذا فإن مرى Mery الذى كان رئيساً للعمل ، فكر فى تنفيذ فكرة صائبة حقاً وهى عمل طريق منحدر على حافة الجبل تتزلق منه الكتل الحجرية إلى حافة الطريق . وقد نجح هذا الاختراع نجاحاً باهراً ، وكان من نصيب هذا المهندس الموهوب عشرة تماثيل يبلغ طول كل منها خمس أذرع ولم تكن تلك الطريقة قد استعملت من قبل . وهذا ما لم يستطع أحد عمله قبل ذلك بألف عام . (٥)

وكان المصريون — على مهارتهم ومخاطرتهم فى ارتياد الصحراء —

يرصدون كل ظاهرة ، مهما كانت نادرة ، فينسبونها إلى عناية الآلهة ويبالغون في أهميتها حتى تصبح في مصاف المعجزات . فبينما كان عمال حاجر بنح يبعثون عن غطاء جاهز لتابوت الملك نب تاوى رع متوحتب ظهرت غزالة ، لا شك أن المعبود ساقها ، لترشدهم إلى الطريق الصحيح . وكانت الغزالة تحمل جنيئاً بين أحشائها . قابلتهم وجها لوجه ، ثم حملت في وجوههم ، وانجحت صوب قمة الجبل المقدس حيث وجدوا غطاء التابوت فرقدت عليه ووضعت جنيئها . لقد ذبحها جنود الملك الذين شاهدوا هذه الظاهرة وقدموها قرباناً للمعبود وعادوا من الجبل بسلام .

ولا شك أن هذا الإله الكبير ، سيد الصحراء ، وهو الذى منع ابنه نب تاوى رع الحياة إلى الأبد - ليدخل السرور إلى قلبه ، ويعتلى العرش دائماً ويحتفل بأعياد تذكارية لا حصر لها ، (١) وعندما يكسرون قطعة ضخمة من الحجر ، وتحمل إلى الطريق وتوضع على زحافة تمهيداً لنقلها لا تعطى الرؤساء إشارة بالتحرك إلا بعد أن يقيموا تذكاراتاً جذيراً بمعبودات بنح وأشهرها مين معبود فقط وإيو (Ipou) .

وأهم ما فى هذا الشأن أن معجزة الغزالة سرعان ما تلتها معجزة ثانية ، فقد اكتشفت بئر مربعة يبلغ طوله ضلعا عشرة أقدام فى وسط الوادى مملوءة بالماء حتى حاقها .

وهذا اتخذت الاحتياطات لمنع الوعول من تلويث مياهها وإخفائها عن البدو الرحل .

ومنذ المعبود السالفة كان جنود الملك السابقين يملأون بحوارها دائماً ومع ذلك لم ترها عين إنسان ولم يلحقها أحد ، ولكنها لم تكشف عن نفسها

إلى جلالته ، وحين يعلم بذلك شعب رخت الذى يعيش فى توميرى Tomery فى أرض مصر ، فى الشمال والجنوب على السواء فإنهم سيسجدون على الأرض ويشهدون دائما بكمال جلالته . . (٧)

وبناء على أمر جلالته ، أقيمت هذه اللوحة لوالده مين ، سيد الصحارى فوق هذا الجبل المقدس الأزلئ ، وكانت موضوعة قبل ذلك فوق أرض الشمس المشرقة فى القصر المقدس الذى كرس لحياة هورس ، الوكر المقدس الذى يسعد فيه هذا المعبود ، مقره الذى يشع بهجة فى فياق الأرض المقدسة حتى ترضى روحه (الكا) ويسر قلبه وهو يدوس الأمور معتليا العرش العظيم الذى يفوق كل العروش ، وحتى تقام النصب للإله الكامل ، معبود الهجة ، الذى يتشاه الجميع ، ويحبه الجميع ، وريث هورس فى الأرضين ، الذى ربى إيزيس ، أم مين المقدسة ، الساحرة الكبرى بتريته ليعتلى عرش هورس الممتد بين شاطئى النهر ملك الجنوب والشمال فب تاوى رع له الحياة الأبدية مثل رع ، ثم يقول : أرسلت جلالتي أمنمحات Amenemhat الأمير والوزير ومدير الأعمال الذى اصطفاه قلب الملك ومعه جيش قوامه ١٠.٠٠٠ رجل من أبناء الأقاليم الجنوبية ابتداء من وابوت Oubout (البنسا) لأجل إحضار كتلة عظيمة من الحجر ، أفضل ما فى هذا الجبل وأشدّها متانة بفضل مين ، ليصنع منها تابوت ، رمز للأبدية وأفضل النصب فى معابد مصر العليا — فى حملة ملكية نظمها فرعون سيد الأرضين لتجلب من صحارى والده (مين) ما يتمناه قلبه ، . . (٨)

وأخيرا بعد أن بقيت الحملة اثنين وعشرين يوما منذ وصولها لحادثت إلى مصر ومعها هذه الكتلة الحجرية الرائعة التى يبلغ طولها ثمانى أذرع

وعرضها أربع أذرع وسمكها ذراعان بعد أن قدمت للإله الرحيم ذبائح من المعجول والغزلان وأحرقت البخور والزيت العطرية .

ولم يكره المصريون العمل الهين إذا كان ذلك مستطاعا ، فإذا أمكن إحضار كتل من الأحجار بهذه الطريقة البسيطة قاموا بها . وكان لهم بعض العذر ، إذا ما وجدوا كتلة من الحجر الرملى أطول من المسافة في عمار الجبل الأحمر واعتقدوا أنها كانت هبة من حاتحور ، ولكنهم على أهبة الاستعداد ، إذا ما استدعاهم الأمر ، عمل عمراة في الصخور أو قطع أحجار كبيرة منه . (٩)

وتتضمن عملية كسر الأحجار في جبال طيبة غرضين - الأول عمل مقابر منحوتة داخل الصخر لتكون (منازل أبدية) للبوتق وأحجار من كافة الأشكال والأحجام لينتفع بها الأحياء .

كان الكثير من عمال المحاجر من أسرى الحرب أو من المحكوم عليهم ولكن كان الكثيرون من المصريين يمارسون أيضا هذا العمل .

على أنه في عهد حكم آخر الرعامسة ، عندما انقسمت البلاد إلى فريقين واندلعت بينهما الحروب الأهلية ، كسروا القيود وانضموا إلى أعداء أمون وانتشروا في أنحاء البلاد وارتمكبوا الكثير من الجرائم الوحشية ودنسوا المقدسات ، وهذا يدل على أنهم كانوا ساخطين على الحال التي كانوا عليها من قبل .

٢ - عمال الناجم :

كان معدن الذهب موجودا بكثرة كبيرة في أماكن متعددة في الصحراء

بين النيل والبحر الأحمر ، على أن هناك ثلاث فقط يجب ملاحظتها: فكثيرا ما تشير النصوص وبردية هاريس Harris إلى ذهب فقط (١٠) الذى يوجد فى جبل بخن Bekhen وكان من حسن المصادفة وجود مناجم الذهب والمحاجر التى تستخرج منها الأحجار التى لها قيمتها لدى المثالين ، فى ملتقى الكثير من الطرق الصحراوية عند بئر فى منتصف المسافة بين شاطئ النيل وساحل البحر الأحمر .

وكانت هذه المنطقة كثيرا ما يرتادها العاملون فى مناجم ذهب فقط ، وكبار الصيادين الذين يتعقبون النعام والأرانب والغزلان ، ورجال الشرطة بقفت المشرفين على تأمين حياة عابري هذا الطريق ، وسلامتهم بمن يحملون هذا المعدن الثمين .

وقد كانت ثمة مناجم أخرى للذهب ولكن لم تكن غنية بالذهب مثل مناجم جبال بخن . وذات يوم أراد الملك سبتي الأول أن يزور المناجم الثائية التى يستخرج منها معدن الذهب (١١) إذ كان مهتما بمشكلة توغله داخل الصحراء ، فبعد أن غادر مدينة إدفو وشاهد قوات المياه التى تخرق المنطقة ، توقف جلالته وعبر عن مشاعره فى الكلمات الآتية : « ما أشق الطريق الذى يخلو من الماء ! كيف يستطيع الإنسان السير وحلقه جاف ؟ كيف يطفىء ظمأه ؟ إن أرض الوادى بعيدة وفيافى الصحراء شاسعة . إن الرجل الظمآن وسط الصحراء يندب حظه - كيف أنظم شئونهم كما ينبغي ؟ سوف أدبر لهم الوسيلة ليعيشوا ويشكروا الله باسمى خلال السنوات الطويلة المقبلة .

إن الأجيال القادمة ستنال مجدا مستمدا منى بسبب نشاطى ، لأننى فى جعد نظرى أحنو على المسافر ..

وحينما اقتنع جلالاته بما يعتمل في نفسه من هذه المعاني ، اتجه إلى الصحراء باحثاً عن مكان يحفر فيه بئراً . فسدد الله خطواته وقاده إلى تحقيق ما يريد . وتلقى الحجارون الأمر بحفر بئر في الجبل ، تنخفض متاعب المحمدين وإعياء أولئك الذين أحرقتهم حرارة الصيف . وقد نجحت تلك المحاولة نجاحاً باهراً ، إلى حد أن كتب الملك يقول : « لقد حقق الله رجائي وأجرى لي الماء في الجبل . وأصبح ذلك الطريق ، الذي كان وعراً وخيفاً منذ أقدم العصور ، سهلاً ممتعاً في عهدي . »

ومع ذلك فلم يكن هذا إلا بداية : لقد اعتزم الملك أن يشيد مدينة حقيقية باسم « مين معات رع » ، تنساب منها المياه بوفرة كما تنساب من فرعى مغارة أبو* . وبما أنه لا توجد مدينة دون معبد ، فقد كلف مدير الأعمال بالمسكية بتشيدده .

وقد تدفق عمال محاجر الجبال وسرعان ما أقبلوا على العمل فشيّدوا معبداً في سفح الجبل ، ومع أنه كان صغير الحجم إلا أنه كان يتنافس أي معبد آخر يرجع إلى ذلك العصر في دقة نقوشه ورسومه الجميلة . وقد زينت جدرانُه برسوم الكثير من المعبودات مثل أمون ورع وأوزيريس وحورس ، والمعبودات الثلاثة في هذا المعبد ومن بينهم الملك نفسه - وكلها كانت تعبد في هذا المعبد .

وقد افتتحه سيتي الأول بنفسه وخاطب آباءه الآلهة قائلاً : « لك التمجيد

* اعتقد المصريون القدماء أن النيل ينبع من سخور جزيرة الفنتين أبو وقد رسموا له تاتيل حابي حبيب المياه من آتيتين وهو دانه لمغارة .

أيتها الآلهة العظيمة التي تكونت السموات والأرض بناء على مشورتك وأكرمتني على مدى الدهور وخلدت اسمي إلى الأبد ، ذلك لأنى رهين اشارتك أفضل كل ما فيه مرضاتك . إنه لسعيد هذا الذى يطيع أوامر الآلهة فكل طلباته تنجاب . . فليستجب كل انسان لرغباتك لأنكم اتم السادة الذين نطاع أوامرهم . لقد أمضيت حياتى وخصصت قوتى لاجلكم لاستمد سعادتى منكم . لتكن مشيئتم أن تظل تماثلنى باقية ويبقى اسمى خالدا عليها .

ولم يكف العمال المعترفون بالجميل من ناحيتهم عن تقديم الصلوات للآلهة لاجل شكر الملك الذى شيد لهم خزانة للبياء وأقام معبدا يمجّدونه فيه ، لقد حقق عملا ليس له نظير . . وكان كل منهم يقول للآخر : « قلبمنحه آمون حياة أبدية . . ويبقى حتى الأزل ايها الآلهة التى تحيا فى ينبوع امنجيه الحياة الأبدية مثلك ، فإنه فتح لنا طريقا معبدا وكان من قبل موصدا فى وجوهنا حتى نستطيع الآن أن نرتاده ونحن آمنون . وبعد أن نصل إليه نجد فيه الحياة .

أصبح الطريق الذى كان غير عهد ، طريقا مستقيما وبفضل الملك أصبح الطريق المؤدى إلى الذهب قريب المنال مثل طير العقاب .

وكانت المناجم من ضمن أملاك المعبد . وكان الذهب المستغل من الجبل ينقل إليه قبل أن يزيد رصيد المخصصات الملكية . وقد كاف قائد وفرقة من حملة السهام بحراسة المعبد والعمال الذين يعملون فيه . ولم يكن ليجزو أحد من عمال المناجم الذهب الذين كانوا يخترقون الصحراء أو حملة السهام أو الحراس أن يضيروا شيئا من الترتيبات التى أمر الملك بوضعها . ولم يكن يسمح لأى إنسان أن يكلف بأى شئ العمال الذين يستخلصون الذهب لحساب المعبد أو أخذ أى شئ من الذهب ، الذى يعتبر جسد الآلهة .

والملوك الذين سوف يعتلون العرش ويلبسون رغبات سبتي سيشد
أزهم آمون وحر آختي وبتاح ثاتن ، وسوف يوقفون في حكمهم
ويسيطرون على الصحارى وعلى أرض القوس - وسوف تخلص أرواحهم
ويحم الرعاه أولئك الذين يحكمونهم على الأرض ، ولكن الويل لأولئك
الذين يصحون آذانهم عن سماع كلماتي ، سواء أ كانوا ملوكا أم أفرادا سوف
يتعقبهم أوزيريس ، وتزعج أيزيس زوجاتهم وهورس أبناءهم بمعاونة كل
امراء تودجوسر * Todjouser ،

وكان حال عمال المناجم الذين بعث بهم الملك إلى بلاد النوبة أسوأ من
ذلك (١٢) فقد ذكر « أن الذهب يوجد بكيات وفيرة في بلاد ايكايثا Ikaita —
شرقي الشلال الثاني — ولكن الطريق كان شاقا للغاية بسبب عدم وفرة الماء .
ف عندما توجه رؤساء العمال الذين يستخرجون الذهب ، لم يصل إلا نصفهم .
فحسب ، بينما مات النصف الآخر من الظما على قارعة الطريق كما نفقت
الخير التي كانوا يسوقونها أمامهم ، لأنهم لم يجدوا كمياتهم من ماء القرب
لإطفاء ظمأهم سواء في الذهاب أو في العودة . ولذلك لم يتيسر لهم نقل
الذهب من هذه البلاد بسبب نقص الماء . . .

وقد جاء في تقرير أحد حكام كوش أن الملوك الأقدمين حاولوا
حفار آبار ولكنهم لم يوقفوا . . ولم يكن والد رمسيس الملك من مآت رع .
(الملك سبتي) الذي وقف في حفرة بئر شرقي ادفو ، بأسمد منهم حظا — فقد
أراد أن يحفر بئرا وتعمق إلى مائة وعشرين ذراعاً ولكنه ترك العمل قبل أنه
تنبثق المياه . ولم يكن هذا الفشل عزيمة المهندسين الذين أعادوا المحاولة في

* تودجوسر هي الجبانة واللى أن أمراء الجبانة هم الذين يتولون تنفيذ العقوبة

(م ١٢ — المياه في مصر)

عهد رمسيس الثاني معتمدين على معاونة حاني ، والد الآلهة ، التي أسبغها على ابنه المحبوب ، فكان التوفيق حليفهم في تلك المرة .

إذ استجابت للملك المياه التي كانت في دوات Douat (العالم السفلي) .
وملائك الآبار .

ولم يعد عمال المناجم يموتون على قارعة الطريق ولسكن العمل ظل شاقا في المناجم ذاتها .

ولعدم وجود نصوص أقدم من التي قدمها ديودور (١٣) فإننا مضطرون إلى أن نشير إلى ما ذكره (ديودور) في هذا الصدد إذ يقول : « ولتكسير الصخور كان يحى بالنار ثم يطرقونه بالمطارق المعدنية في اتجاه عروق المعدن . وتقل القطع المكسورة إلى خارج المنجم حيث تصحن وتفسل إلى أن تصبح ذرات المعدن نقية ولامعة ، ثم يعالج الخام كيماويا حتى يصبح الذهب نقياً جداً .

والواقع أن ذهب الحلي المصرية تختلط به في أغلب الأحيان الفضة أو النحاس أو شوائب أخرى (١٤)

وجد المصريون ، في شبه جزيرة سيناء ، حجر الفيرز الكريمة « مافاكت » Mafaket (١٥) الذي كثيراً ما يستعمله الصياغ وكذلك مركبات النحاس مثل الملائكيت (الزنجار . كربونات النحاس) مشمت Sechmet . (١٦) وقد بدأ استغلال المناجم في عهد الملك القديم سمنت * ولكن العمل فيها قد ازدهر في عهد الرعامسة ازدهاراً منقطع النظير ، ولم يعد العمل يتسر

* تلك سمنت حكم في منتصف القرن الثامن والعشرين قبل الميلاد .

بسبب نقص المياه . أما البدو الذين كانوا بها جون دواما عمال المناجم أو حراسهم فقد التزموا جادة العقل أو غلبوا على أمرهم .

وكانت توجد دائما متاعب من نفس النوع الذى أشار اليه مهندس يسمى حرأوررع عاش زمن الأسرة الثانية عشرة ، إذ أن الظروف الطبيعية واحدة ، كان هذا المهندس مكلفا بالقيام بأبحاث فى المنجم ، إلا أنه وصل إلى مقر العمل فى الشهر الثالث من برت ، ولم يكن هذا الوقت ملائما تماما لحضوره إلى المنجم ، ومنذ غداة وصوله تباحت مع العمال الفنيين ذرى التجارب ، فقالوا له ياجماع الآراء : « توجد فى المنجم كميات من الفيروز لا حصر لها ، ولكن العبرة فى هذا الوقت هى فى لونه ، نحن نعلم أن لون الفيروز يكون فى هذا الفصل راتعا ولكن يهت لونه فى موسم شمو المكفهر ، ثم يستطرد حرأوررع :

« فى فصل شمو تلهب حرارة الصحراء كاللظى ، وتصيح الجبال مثل المعادن المنصهرة ولا يصفو لون أحجار الفيروز . »

والواقع أن المهندس حرأوررع عندما باشر العمل كان فى نهاية فصل الشتاء ، ولم تكن الحرارة الشديدة قد بدأت بعد - ولكنها كانت تقترب . وربما شعروا بوطأة الحرارة عندما كان العمل على أشده . ولكن رغبته فى تأدية خدمات المصلحة بإخلاص وتفان قد دفعت من روحه المعنوية ، ولقرط إيمانه فى حاتمور سيده السماء والذى كانت أيضا سيده الفيروز وحامية عمال مناجمه من جهة أخرى . وقد وصل كل عمال حرأوررع دون أن تقع لهم حوادث وقد زایلهم القلق بعد أول إنتاج واستمر العمل بكل توفيق حتى انمه فى الشهر الأول من فصل شمو قبل أن يمرض للحرارة الشديدة التى تفسد لون الفيروز .

وفي مزيد من السرور ينهى حديثه قائلاً : « لقد جمعت هذه الأحجار الكريمة . . ولازمني التوفيق أكثر من أى شخص قبلى . . بل قمت بعمل أكثر مما طلب منى . وبالتأكيد لم أكن أتوقع شيئاً أفضل من ذلك .

كان لون الفيروز رائعا ، ويسر مرآة العيون — ونوع الحجر أكثر جمالاً منه فى الموسم العادى . . فاعتمد إذن على المعبودة حاتمور فإن فعلت . . فخيرأ تفعل ، وسوف يحالفك التوفيق أكثر منى ، فحظاً سعيداً . . (١٢)

وهكذا بفضل نشاط المهندسين ومثابة العمال المهرة ذوى المراتب وبفضل غيرة التجار الذين سوف نتحدث عنهم فى فصل آخر ، امتلأت خزائن مصر بكميات وافرة من المواد التى تستخدم فى الصناعة من الأحجار والمعادن والأخشاب . والآن فلنشاهد العمال وهم يقومون بالعمل فى المصانع .

٣ — العمل فى المصانع

إذا راجعنا الرسوم الكثيرة المدونة فوق جدران مقابر الدولة الحديثة ، تلك التى تبين الأعمال التى تجرى فى المصانع والنصوص الموضحة لها . فإنها تفرى بالاعتقاد أنهم كانوا يقومون ؛بمختلف أنواع الحرف فى مكان واحد : كالنقاشين على الحجر والحفارين على الأخشاب وصانعى الآوانى من الأحجار والصباغ وعمال الجواهر وقاطعى الأحجار الثمينة وصانعى الآوانى المعدنية ، والدروع والتجارين وصانعى العربات ، وقد يكون هذا مجرد تصوير اتفاقى .

ويشرف على هذه الأعمال المختلفة كلها بعين ساهرة ، رئيس عام ، قد

رسم في هيئة عملاق بينما رسم العمال الكادحون في هيئة أقزام ، ونحت
رسمه نص بالكتابة الهيروغليفية يحدد أعماله ، فعلى سبيل المثال ، جاء
نحت رسم دوا أو نجح Douaouneh المشرف على أملاك آمون : حضر
للتفتيش على الورش ولافتتاح بيتي الذهب والفضة وتنظيم جميع الأعمال
وليقبض على زمام الأعمال التي يتولاها المشرف . . . الخ ، (١٨) وربما
تجمعت معا على طول طريق واحد كافة الورش المخصصة لنوع واحد من
العمل ، كما يحدث الآن في أحد شوارع الأسواق بمدينة القاهرة أو في
دمشق ، وكان المدير يتولى التفتيش عليها بالتوالى . على أنه من الملاحظ
أن القنايل المصنوعة من الخشب ، وحتى المصنوعة من الحجر كانت تحلى
بالتطعيم حتى أن بعض أجزاء العربات والآثاث والأسلحة كانت تنقش
وتجمل بالذهب وتزين بالفيروز ، واللازورد . وربما كان يتولى هذه الأعمال
صانع ماهر في ممارسة مختلف هذه الحرف أو عدد من المتخصصين كانوا
يعملون جنبا إلى جنب ويتنقل ما يصنعه بين أيديهم حتى ينتهى العمل فيه .

٤ - النقاشون

كان حفارو الأحجار في ذلك الحين يفضلون أن يعملوا على انفراد .
فترام عند دواو نجح الذى سبق ذكره وهم يهثون بابا من قطعة واحدة
من الحجر مكونا من صدغين ومن العتبة العليا وإفريز ، وواجهة مبنى مفرغ
كالدهانتيلا ، وعود من قطعة واحدة من الحجر له تاج على هيئة النخلة ويتألف
العمدة التي في تانيس وأهناسيا . ويعمل بعض العمال بالمطارق بينما يعمل
البعض الآخر بالأزاميل ، ويشغل آخرون بأدوات الصقل ، يعملون وهم
وقوف أو جالسون على مقاعد بدون مساند ، أو على قطعة الجرانيت ذاتها .
ودون الانتظار حتى ينجزوا عملهم يقوم الرسامون وهم قابضون على

قلم من الغاب في يد ومجبرة في اليد الأخرى بتخطيط الكتابة بالهيروغليفية التي سوف تنقش على الحجر وتلون فيما بعد بالأزرق أو بالأخضر . وفي مصنع رخ مارع Rekmarê الذي يتبع أيضا أملاك آمون (١٩) نجد تمثالا ضخما يمثل الملك جالسا على أريكة مربعة ذات مسند للظهر غير مرتفع وتمثالا ضخما آخر ، منتصب القامة يستند إلى عمود ، وأبا الهول ، ومائدة قرابين ، كاد العمل فيها كلها أن يتم ويجلس النحاتون جلسة مريحة سواء فوق مقدمة أبو الهول ، أو فوق ظهره أو على مائدة القرابين أو فوق سقالة خشبية متحركة حتى يمكنهم مباشرة العمل في وجوه التماثيل الضخمة أو في رؤوسها .

ويستخدم بعض العمال مطرقة خشبية ومقراضا بينما يهيك البعض الآخر في صقل سطح الجرانيت — ويخطط الرسام ، في هدوء ، بقلبه الكتابة الهيروغليفية على العمود الخلفي للتمثال بينما يغمس النقاش فرشاته في إناء استعدادا للتلوين . ولا يسع الإنسان إلا أن يتساءل هل يمكن إنعام كل هذه الخطوات المتعددة في وقت واحد ؟ وحقيقة الأمر أن النقاش الذي يحفر بعض تفاصيل الوجه والحفار الذي يعمق الكتابة الهيروغليفية على عمود التمثال وقاعدته لا يعترض عمل أحدهما الآخر . ولكن عملية الصقل لا يمكن أن تتم إلا بعد أن ينتهي كل من النقاش والحفار من عملهما ، ثم تأتي في النهاية عملية التلوين .

يتضح من هذا أن الفنان المكلف بإنعام عملية التمثال ، يجمع في مصنعه عدداً من ذوى المهن المختلفة يقومون بعملهم مترابطين ، جماعة وراء الأخرى ، وسوف نجد أن هذه الطريقة نفسها متبعة في أعمال أخرى ، ولا شك أن المصريين كانوا لا يكرهون بدء عملية ما من جملة نواحٍ منها ، وقد يحدث في بعض الأحيان أن يهبط المصقل بالمطرقة أو بالنقاش ،

وعندئذ تملو صرخة يتلوها سب بوجهه العامل المصاب إلى زميله المخطئ .
وقد يكون رده دعاية .

وعندما ينتهى العمل فى التمثال فى الموعد الذى حدد له ، يصبح معداً للنقل
إلى المعبد أو إلى القصر ليكون شاهداً أمام الحشود المعجبة عن مدى العطف
الذى أسبغته الملك على خادمه الأمين أو عن مدى الحب الذى يكنه الإله لفرعون .

إن نقل التمثال إلى المعبد يعد مناسبة لإقامة احتفال كبير ، وخاصة
عندما يكون التمثال ضخماً والطريق وعراً فيعتبر هذا العمل انتصاراً رائعاً
من الناحيتين الفنية والإدارية . وكان عليهم أن ينقلوا تمثالاً من المرمر
ارتفاعه ثلاث عشرة ذراعاً من مصنع يقع فى ضاحية خارج المدينة على
الطريق المؤدى إلى محاجر الرخام الأبيض ، إلى مبنى يطلق عليه اسم مشيده
« إن حب تحوى حتب باق فى إقليم أونيت أونيت * Ounit (٢٠) لقد كان عملاً
ينطوى على تعطف ملكى لم يسبق له نظير من قبل ، إذ سمح بأن يطلق اسم
فرد عادى على هذا المبنى وأن يصنع تمثال بهذا الحجم ثم ينقل إلى موضعه
يمثل هذا الاحتفال العظيم . ويبدأ بوضع التمثال على زحافة قوية تتكون
من لوحين سميكتين من خشب البلوط مرتفعين فى أحد الجوانب ، وقد شدا
بعوارض قوية متقاطعة ويثبت التمثال بحبال . ولما كان المرمر حجراً هشاً
لذلك فإن الأماكن المعرضة لاحتكاك الحبال وضعت عليها وسائد لحمايتها
من أى ضرر يلحق بها ، وذلك على سبيل الاحتياط . وقد ربطت أربعة حبال
طويلة جداً بهذه الزحافة التى يبلغ وزن حمولتها خمسة أطنان أو ستة ، لئلا
بوساطة أربع جماعات من الخالين ورجال من غربى المقاطعة وآخرين من
شرقها وجنود من المشاة وبعض خدم المعبد .

ولم يتردد رجلان في إضافة ثقلها إلى ثقل التمثال - ركع أحدهما ،
ركبته موجهة نحو وجه التمثال ليحطه بدخان عطر التبريتينا ،
بينما اخذ الثاني يرش الماء من أبريقه نقطة نقطة كما اعتاد أن يفعل في المعبد
أيام تماثيل الإله ، وكان حملة الماء يقفون قريبا من التمثال يسكبون مياههم
على الأرض ليسهل الإنزلاق عليها ، بينما حمل رجال آخرون لوحا ضخما
من خشب البلوط بخيل إلينا أنه كان بمثابة أداة تعين في دفع التمثال ، ولكننا
لأنعم تماما كيف كان يستخدم .

صدر الأمر بالتحرك ، وكان يشرف على هذه العملية رئيس الأعمال الذي
أشرف على صنع التمثال ، يعاونه مساعده وهما اللذان كانا يصدران الأوامر
إلى عدد من الرجال الذين يحسنون الكلام أو بعبارة أصح يجيدون إثارة روح
الاهتمام ، في هذا الجيش من المحالين وإثارة حماسهم بنشيد يشتركون فيه
ويتهيأ بصيحة « هايا » ، تلك الصيحة التي لا تقاوم بتحريك التمثال ثم يصبح
الآن في عرض الطريق بعد أن رفع عمال المحاجر من الطريق ما قد يعترضه
من الأحجار . كان الطريق ممتلئا بالجنود المصطفة وبحشود الأهالي المتشوقين
لمشاهدة هذا الحفل ، بينما كانت القوارب تتحرك في القناة في موازاة سير
الموكب وكانت أصوات البحارة والمسافرين تختلط بأصوات الجمهور من
رجال الموكب وقد أقيمت استراحات على الشاطئ ، يتوافر فيها الطعام يتناولوه
كل من العمال الكادحين والأهالي الذين اكتفوا بالصياح والتهليل ليستعيدوا
قوامهم . وكان أمم ما في هذا الموكب كله ، شخصية تحوت حتب نفسه الذي
حضر محمولا فوق محفة على أكتاف محالين ، يصحبه أولاده وجنوده وخدم
يحملون مراوح من الريش وحصر ليزيد في روعة هذا الاحتفال المهيبة ،
وكان يعتقد أنه لم يحدث في مقاطعته إطلاقا في الزمن السابق موكب يماثل

هذا الموكب ، اذ يقول : « إن الأمراء الذين عاشوا وعملوا منذ أقدم العهود ، والإداريين الذين بذلوا جهدهم في سبيل الخلود لم يكن ليخطر ببالهم ما علمته لنفسى في هذه المدينة وما سأعمله فقد أقت هياكل على شاطئ النهر . ها أنذا قد أتممت ما علمته في سبيل الخلود ، بعد أن أقت لى مقبرة خالدة إلى الأبد . »

لقد جرت أحداث هذا الموكب في زمن الدولة المنوسطة ، ولكنه لم يكن فريدا إلى الحد الذى تصوره حاكم مقاطعة الأرنب ، فقد أقيمت مواكب مماثلة كلما سمح الملك بنقل تماثيل أحد الأفراد إلى المعبد ، كذلك عندما كانت تنقل التماثيل الماسكية ، وكان المصريون يحبون حقاً هذه المناسبات والاحتفالات الحاشدة وما يصحبها من صخب وتهليل وإفراط فى الشراب ، كان يكفل لكل فرد بأن يعود إلى بيته سعيدا بقضاء يومه . وقد نال أحد الأفراد اسمه قن آمون تقديرا مذكياً كبيراً إذ نقل فى موكبه ثلاثة تماثيل (١١) وكان يرافق الموكب حشد عظيم من الآهالى يصيحون ويترنمون بين صخب من بخور زيت التريبتينا العطرى . وقد حمل الرجال أكاليل من زهور البردى بينما كانت كاهنات حانخور ، سيدة طيبة ، ، يحملن المزهرة والصاجات . أما الراقصات وأصحاب الألعاب الهوائية فمكأوا بدورهم يفعلون الكثير .

٥ - الصباغ ونجار الخلى والجواهر

إن صناعة الآنية من الأحجار التى بلغت درجة عالية من الدقة منذ عهد الأسرة الأولى كانت لا تزال مزدهرة دائماً فى عهد الرعامسة .

وكانت الجرار والدلاء والأواني والكتوس والأقداح والقصاص تصنع من أحجار المرمر والشفرة والحجر الساقى ، وكانت تزين أحياناً برسوم بشرية أو حيوانية .

وكانت الأدوات المستخدمة في الصناعة في منتهى البساطة وأهمها مثقاب له مقبض من الخشب مكسو في نهايته العليا بالجلد ، وبمسك الصانع المثقاب بين يديه ويلفه على قطعة الحجر التي يضغطها بين ركبته .

وقد يحدث أحيانا أن تقع أخطاء ، إذ قد تؤدي عملية الثقب إلى شذخ جدار الإناء ، غير أن مثل هذا الخطأ يمكن إصلاحه . بنزع الجزء المعطوب بعناية ووضع قطعة حجرية أخرى مكانه .

وقد أمدتنا مقبرة توت عنخ آمون بمجموعة أوان من المرمر تتمثل فيها مهارة الصناعة أكثر من توافر الذوق الفني ، وسوف يفضل الكثيرون عليها القنينة الرائعة المرسومة على جدران مقبرة بوى أمرع Pouyoume (٢٢) وكل حلقتها مجرد نقش بسيط من الحروف الهيروغليفية .

ويتطلب الاشتغال بالمعادن عددا كبيرا من العمال ، فكثير بوبسط ومفرداته من الأواني الذهبية والفضية والكثوس الدينية والأقراط والأساور وحلى مقبرة سبتاح Siptah وحلى السرايوم وهي الآن من مقتنيات متحف اللوفر ، وتكون مجموعة تنتمي إلى عهد الرعامسة ، ولكنها أقل فخامة وتنوعا من المجموعة الرائعة التي وجدت في مقبرة توت عنخ آمون أو مقبرة بسونس ، وإذا راجعنا يردية هاريس Harris الكبرى التي أشارت تفصيلا إلى هبات رمسيس الثالث السخية للآلهة نجد أنها تشير إلى مصنوعات من الذهب والفضة والنحاس واللازورد والقيروز الحقيقي . وكانت أبواب المحراب بمعابد طيبة إما من الذهب أو من النحاس الذي له بريق الذهب . وكانت التماثيل مكسوة بالذهب ، والكثير من موائد القرايين وأواني المياه المقدسة كانت من الفضة ، أما المراسيم الملكية التي تصور لصالح

أمون فكانت تنقش على لوحات كبيرة من الذهب أو الفضة أو النحاس .
وكانت فخامة البيت الكبير ومركب أمون المقدسة تفوق كل وصف .

وكان يعبد أنوم Toutou في مدينة أون ميزان من الذهب ، كان فريدا
في نوعه لا مثيل له منذ عهد الآلهة ، وكان يعلو الميزان نسناس (على هيئة كلب
Cynocéphale) وزين ، من الذهب الصب ، يرقب عملية الوزن . وقد أشير
إلى أن تماثيل النيل صنعت من مواد مختلفة يقرب عددها من واحد وعشرين
معدنا . أما التماثيل المصنوعة من اللازورد الحقيقي والفيروز فكان عددها
٥٦٨ و ١٣ وإن كانت التماثيل التي صنعت من الذهب أو من المعادن الأخرى
لا يبلغ عددها إلا نصف هذا الرقم ، فإنه عدد لا بأس به . ولم يكن ثمة معبد
إلا وله ثروته . وإذا أردنا أن نكون فكرة شاملة عن نشاط العمال
المشتغلين في أعمال المعادن ، فإنه ينبغي أن نشير إلى كافة ما كان في حوزة
الملوك والخاصة سواء ما كانوا يتعلمون أو يحتفظون به لديهم .

وكان يبدأ العمل بوزن الذهب والفضة في المصانع قبل تسليمها لمن يقوم
بصياغتهما^(٢٢) لأجل هذا الغرض كان يستعمل الميزان على الأرض ، أما في
العالم الآخر فكان الإله تحوت يستعمل ميزانا مائلا في وزن الروح أثناء
المحاكمة أمام الإله أوزيريس وآلهة امنيت Amentit (آلهة الغرب -
آلهة الموتى) .

أما الغلال فكانت تقدر كيلا بالمد . وكانت تمد سبائك النحاس
الاسيوية الأصل ، دون الاهتمام بوزنها . كان الميزان مكونا من عمود ينتهي
برأس معات ، إلهة الحق ، وذراع معدنية تتوسطها سكين في الوسط ويحمل
عند طرفيه كفتي ميزان علقت كل منهما بثلاثة حبال . وعند إجراء عملية
الوزن توضع ذراع الميزان بكل ملحقاته على السكين ويجرى الوزن

اختبارات حتى يتم توازن الكفتين . كانت أثقال الوزن على هيئة عجل جات ، أما المعدن الذى يقدم ليوزن فكان على شكل حلقات .

كان على الوزن — قبل أن يقوم بعمله — أن يوقف يديه ذبذبة كفتى الميزان وكان عليه أن يتحقق من أن الإبرة التى تتوسط الذراع ، فى وضع قائم . والكاتب وقد نزع من المقلعة ، اللوح والقلم ، يسجل نتيجة الوزن بحضور رئيس عمال المعبد الذى يتسلم منه الذهب الموزون ، ويسلمه بدوره إلى المهرة من العمال .

وسوف يحتاج هؤلاء العمال لأسلاك للسلاسل ، ولرفائق من الألواح وشرائط للحلى ذات الحواف ولألواح كبيرة من المعدن للأواني والكثوس ، ولأنايب تصنع من شرائحها الأساور ، ولسبائك معدنية (٢١) وقبل كل شيء كان يجب أن يصهر المعدن للحصول على هذه الأشكال المختلفة ولذلك كان المعدن يوضع فى قوالب ثم تترك فوق الموقد .

كان المصريون يصهرون الذهب والفضة على نيران موقد فى العراء ، ويصطف حول الموقد فى شكل دائرى ستة أشخاص كانوا ينفخون فى أنايب طويلة تنهى بمقبض من الفخار به ثقب صغيرة ليشتد لهيب النيران . ولما كان هذا العمل شاقا مرهقا فقد كان من الطبيعى أن يمزحوا وهم يعملون طلبا للتسلية .

وقد توارثوا هذه الطريقة التى كانت مستعملة منذ الأزمان السالفة غير أنه قد أدخلت عليها تحسينات منذ بداية عهد الامبراطورية الحديثة :

فصارت الأنايب التي يجرى فيها الهواء تركب بإحكام على فتحة قرب من الجلد تثبت على الأرض ، وبها جبل متصل بالقربة يتحكم في فتح أو إغلاق الفتحة العليا للقربة — وكان العامل يقف برجليه على قريتين متماثلتين ويمسك جبلا بكل يد من يديه ، ويضغط بقدميه على القريتين بالتناوب ويشد الجبل الذي يتحكم في القربة التي يرفع عنها الضغط ، ويرخي الجبل عندما يضغط على القربة فيندفع الهواء في الأنبوبة ، وبذلك كان عاملان لحسب يقومان بعمل ستة عمال ولا يبدلان إلا بمجهوداً ضئيلاً (٢٥) . وحينما ينصهر المعدن يقوم عاملان ، لا يحشيان شدة الحرارة ولا تكاثف الدخان فيتناولان البونقة بملقاط معدني ذي ذراعين ويكسران زاويتيها فيسيل المعدن المنصهر في قوالب صفت على مائدة ، وبهذا تتحول إلى مكعبات تسلم إلى العمال الذين يضعونها على حجر كبير يقوم مقام السندان ، ويستعملون حجراً صغيراً يسير الاستعمال كطرقة يدرية . بهذه الأدوات البدائية ، كانوا يشكلون المعدن إلى أسلاك وقضبان أو ألواح رفيقة . وكان طرق المعدن يعطيه صلابة ، مهما كان نقياً ، لذلك كان يوضع على النار ليستعيد ليونته ، وكان العامل يتناول رقائق الذهب بالملقاط ويقربها إلى الموقد فيشتد لهيبه لأن العامل ينفخ ناره بواسطة أنبوبة يضعها في فمه . أما الأسلاك فكانت تمر في مسجبة ضيقة التقرب لتصبح دقيقة الحجم . وبهذه الوسائل البسيطة ، تمكن الصائغ من تشكيل كافة ما يحتاج إليه ، ولا يبق له بعد ذلك إلا قصها وتجميعها . فالعامل الذي يريد صناعة كأس من الذهب أو الفضة كان يجلس على مقعد أمام كتلة نبتت تماماً في الأرض ثم يستخدم المطرقة بطريقة فنية فيستطيع تحويل اللوحة المعدنية إلى الشكل المطلوب ، وعندما يتم تشكيل هيكل الآنية يبدأ في زخرفتها .

كانت قائمة الأشكال الزخرفية التي عرفها المصريون مادة غزيرة إلى أبعد الحدود، فكان من المستطاع أن يزخرف كأس أو قنينة برسوم هندسية أو برسوم أزهار تضم إطاراً لمنظر مألوف أو لمنظر ديني أو كان يكتب بنقش عبارة هيروغليفية قصيرة في دفة كبيرة على أناء أنيق في شكله. وبعد الانتهاء من اللبسات الأخيرة والفراغ من تليصها تصبح الآنية مهيأة للعرض على رف قد يمتلئ آخر النهار بأشياء مختلفة الأنواع.

٦ - صناعة الأثاث

تتكون الأنواع المختلفة من الأخشاب التي استعملها النجار من اشجار اللبخ والسنت والشرين وأنواع أخرى من الأخشاب المحلية التي لم نستدل بعد على كنهها، وذلك بالإضافة إلى الأبنوس الذي استورد من الجنوب وخشب الصنوبر آش Ash والأرز مر Mr المستوردين من سوريا والذين يماثلان في اللون حجر اللؤلؤ المستخرج من الجبل الأحمر. وتفشر جذوع الأشجار إلى ألواح وأجزاء بالمشار اليدوي. أما السكتل الخشبية فكان النجارون يحصلون عليها بوساطة بلط ذات أيد طويلة. أما القدم فهو قاطع معدني مثبت بزوايا قائمة في طرف يد خشبية يترواح طولها بين طول قبضة اليد إلى طول الذراع، وكانت تؤدي نفس الأغراض التي تؤديها القارة الحديثة أو المكشطة. وكانت الثقوب المستديرة تنقب بوساطة وتر القوس. أما الفواصل الخشبية فكانت تعمل بالمطرقة والمثقاب اللذين كانا يستخدمان أيضاً في عمليات تشييق الخشب. ولم يكن بنك النجار قد اخترع بعد. وعندما يراد نشر لوح من الخشب طويلاً، كان يربط إلى قائم ثبت جيداً في الأرض، ولما كانت حركة المشار تؤدي أحياناً إلى انزلاق الخشب وبالتالي إلى شحبه، فقد أمكن التغلب على هذه الصعوبة بربط اللوح إلى القائم

الخشبى من أعلى ووضع وتد ثقيل الوزن بينهما ، وإذا لم يكن لوح الخشب كبير الحجم فقد كان التجار يثبتونه على الأرض بيد ، وينشر باليد الأخرى . ويعمل نفس الشيء عندما يستعمل البلطة مستعيناً بقدمه أو يديه لتثبيت الخشب - ولصم الخشب بعضه إلى بعض كانوا يستخدمون طريقة التعشيق والخواير الخشبية والصمغ وكانوا يفضلونها على المسامير المعدنية التى كانت تستعمل فى العادة لتثبيت الأجزاء المعدنية إلى الخشب . وتستعمل الفارة فى مسح العيوب الصغيرة .

والتليع هو الخطوة النهائية ، وفى العادة كانت تسلم قطعة الأثاث أو الصندوق بعد الفراغ من صنعه ، إلى رسام يتولى زخرفته (٢٦) .

والهيكلان الخشبيان الذى أمر أبوى بعملهما لمعبس الملك الراحل أمنحتب الأول يوضحان لنا مدى روعة النقوش وكيف قام العمال بخطوات تنفيذ العمل . (٢٧) يبلغ طول هاتين القطعتين ١٢ قدماً طولاً وترتفع أحدهما أكثر بإضافة قاعدة توصل إليها خمس درجات من السلم . وتُسند أعمدة على هيئة ساق البردى إفريز مزخرف برؤوس ثعبان الكوبرا (رمز معبودة بوتو) أما السقف فهو على هيئة الشكل المقرب المألوف ، وفى الواجهة الأمامية يرى رسم للمعبودين هورس وست يربطان النبات الذى يرمز إلى الجنوب والشمال ، حول الملك الراحل . ويتكون الهيكل الآخر من ثلاث طبقات يحمل كل منها على صف من أعمدة صغيرة وترك أسفلها وهو الأرضى فارغاً ليوضع فيه الفراش والسادة ومقعد ومائدة ومرتبة والجزء الأعلى مملوء بالنقوب والرسوم المحفورة ، ومن بين النقوش يشاهد رمز حانخور وعدة إطارات ملكية . وعلامات إيزيس وأوزيريس والصقور المتوجة ، والمعبود بس وهو يضرب على الدف وتا أوزيريس

تقبض على تميمتها ، ومن الواضح أن العمال الذين يقومون بالعمل في هذين الهيكليين من ممارسي الرياضة الموهوبين . ولم يكن ثمة حاجة للعمال الذين تولوا حفر الكتبة الهيروغليفية على العمودين الكبيرين أن يتركوا مستوى الأرض ، ولكن العاملين الآخرين اللذين يعملان على الإفريز قد تسلفا أعلى العمود وهما يحملان أمتعهما ، ويضع أحدهما قدمه مستندا على مجرى الحز تحت تاج العمود ، ويسند الآخر على العمود ذاته وكلاهما يرتكزان على ثعبان على الإفريز ويد ويطرق المعدن بمطرقة خشبية بيده الأخرى .

أما عند الهيكل الآخر فإن وصول أحد رؤساء العمال قد أذهل العمال أنفسهم حين أخذهم على غرة ، فعلى القاعدة يرى عامل يجلس على أعلى درجات السلم دون أن يبدي اهتماماً باستعمال أدواته ، بينما يتسلى عامل آخر الأعمدة الصغيرة هارباً بسرعة من يمثل السلطة وفي الجانب الآخر يرفه رسام عن نفسه بتلطيخ وجه زميله الذي يبدو عليه الرضا ، ويمر رئيس العمال دون أن يلاحظهما إذ كان كل اهتمامه موجهاً إلى عامل قد تمدد على الأرض وراح في سبات عميق بجانب عمله الذي لم ينجزه بعد ، فيصيح فيه رئيس العمال صيحة تزعج أحد العمال الملحقين بالدور الثاني فيفقد توازنه . وعلى السطح يسرع رجلان باستعمال أدواتهم ، فيثقب أحدهما ثقباً ويطلق الآخر الحشيش ، بينما يمز رجل ثالث العامل التائم ليقظه . وفي مصر قديماً كما هو حادث الآن ، كان العمال يفضلون العمل الجماعي عن العمل الفردي ، وللوصول إلى نتائج طيبة يستوجب الحال استخدام عدد كبير من رؤساء العمال ذوي البصر الحاد ، بالإضافة إلى استعمال مجموعة كبيرة من ألفاظ الشتائم وليس ثمة مانع من استعمال العصا ، واستخدام عدد آخر من رؤساء العمال للإشراف على هؤلاء الآخرين .

ومنذ أول عهد الإمبراطوية الحديثة راجت تجارة جديدة هي صناعة

العربات وأصبحت واسعة الانتشار وكانت في الواقع مجرد تخصص فرعى في فن التجارة (٢٨) وكانت هذه العربات تصنع عادة من الخشب ، ولم تصنع إطارات معدنية للمجلات مطلقا وإن استعانوا بألواح من المعدن في هيكل العربة التي كانت تتألف من عدد كبير من القطع الصغيرة ، ولدينا قصيدة شعرية تعدد أسماء نحو خمسين قطعة دون إكمالها . وبصنع محاور العجلة بضم عدة أجزاء دائرية نشرت من خشب سميك . وكانت المشككة الكبرى ، هي حل العجلة التي كانت تتكون من أربعة أو ستة أجزاء مستديرة تماما .

وثمة نوع آخر من التخصص في صناعة التجارة هي صناعة الأقواس والسهام والنبال والعصى والصولجانان من كافة الأنواع ، ليستعملها فرعون وكبار رجال الدين وعلية القوم من المدنيين والعسكريين والأدوات الموسيقية . (٢٩) وقد يحتاج الأمر تارة إلى عمل أعواد مستقيمة تماما للأرجح وقد تكون تلك الأعواد منعنية انحناء خفيفا دائما . وفي مصنع من خبر رع سنب Menkheperreseneb رجل يختبر قوسا بينما يحاول زميله أن يزن سهمها ويتحقق من أنه مستقيم تماما . ولأجل نى أفرع الأشجار كانت تسخن على النيران قبل أن تنزع قشورها وكانت تثبت فوق منضدة بدائية ، هي عبارة عن جذع شجرة ذى فرعين مفروس في الأرض ، وله ذراعان شدا إلى بعضهما بإحكام ، وبعد تسخين فرع الشجر الذي يراد نفيه بوضع في كلابة بدائية حيث يمكن نفيه بمعارضة قضيب إضافي . (٣٠) وكانت العصى والصولجانان والآلات الموسيقية تزخرف في معظم الأحوال على غرار قطع الأثاث إما بالتطعيم أو بتكسيها بقشرة أو بإضافة رؤوس نحتت من خشب . ويوجد في متحف اللوفر حاليا تمثال من الخشب لرأس أثى — كان يزين فيما سبق أعلا فيثار (٣١) ومجموعة عصى الملك توت عنخ آمون ذات

مقايض من العاج أو الأبنوس وتنتهى برؤوس زنوج أو أسويين .

٧ - صناعة الجلود

ازدهرت صناعة الجلود منذ عهد الدولة القديمة . وكان أوتا Outa وهو أحد رجال هذه الصناعة في ذلك العهد ، يصنع النعال ويحافظ للمخطوطات وصحائف من جلد يستعملها أحد الموظفين وفي يده برنامج وهو يقود حفلات دينية أو دنيوية . وبالإضافة إلى ذلك كانوا يصنعون أشياء كثيرة منها خوذات الجنود وبعض حاجياتهم وجعاب السهام وتروس ودرع من جلد قد شد بالمسامير ولوحات من المعدن لتقويته. وعرف المصريون كيف يطرقون الجلود ويخرفون الجعاب والتروس وينقشونها برسوم اقتبست من قائمة الزخارف السورية ولكنها صنعت بمذق واتقان حتى أنها فاقت زخارف بلادها الأصلية . (٣٢) ومع ذلك ، فقد كان المصريون لا يبتعون دائماً سوى طريقة دبغ الجلود بالزيت وهي المعروفة الآن في فرنسا بدباغة جلد الشاموا فكانوا يشدون الجلود من أطرافها ثم تغمس في أوان ملئت بالزيت وتسحب منها بعد ذلك وقبل أن تجف تماماً كانت تطرق حتى يتم تشبعها بالزيت . وبهذا يكتسب الجلد الخام صفات الجلد المدبوغ من حيث الليونة وعدم قابلية امتصاص المياه ، دون أن يتعفن .

٨ - مارك الفنايع والصانع

كانت القاعدة العامة المتبعة في كافة المصانع أن تعرض الأشياء التي تمت صنعها إما على موائد أو ترص فوق رفوف ، ويقوم مدير الأعمال بالتحقق من دقة صنعها وإتقانها وأنها صالحة لأن توضع ضمن مقتنيات الملك أو الملك . وكانت توجد مدارس عامة تضم كافة منتجات الصناعة المصرية .

وتحتوى مقبرة قن آمون Qenamun على شبه قائمة بحلة بصور الهدايا التي قدمت للملك بمناسبة عيد رأس السنة (٣٣) وفي معبد الكرنك نقش رائع يوضح كافة الأشياء التي أهداها الملك للإله آمون. (٣٤) أما فن نحت التماثيل فهو جد غنى بمجموعة التماثيل الملكية المصقوفة في التوابيت والمرسومة على سفينة من طراز عتيق ، وتماثيل واقفة أو جالسة أو راكبة لرجال أو سيدات وتماثيل أبو الهول برأس آدمية أو برأس صقر ، يعلوها تاج أو تصور دون تاج ، وتماثيل الحيوانات التي قد صورت الغزال والوعل والماعز البرى .

أما الأواني الحجرية التي تذكرنا بالعهد القديم فقد أضيفت إليها مجموعة من الزلج ذات الهيكل المستدير ولها دعائم صغيرة في أسفلها تستند عليها .

ولا زلنا نعجب كثيرا بتلك الأقداح والكتوس ذات القواعد المزخرفة الجوانب فوق أكراسها والمشتعلة من الداخل على حديقة صناعية صغيرة نرى فيها زهر اللوتس والبردى والأقحوان وأشجار الرمان تحيط كلها بصفدع جثم فوق قاعدة . وبعض أواني التوابل قد صنعت على هيئة طيور . وقد نكون مقابض تلك الأواني أحيانا على هيئة رأس بطة متجهة إلى الداخل ، إما لأن ما بداخلها يفتح الشبة للطعام أو لأن بطة صغيرة تعوم فيها .

ومما يثير الدهشة أيضا تلك الزلج الضخمة التي تستخدم قاعدة لقلعة سورية وقد رسمت عليها حاميتها ، أو صور عليها بناء تهاجمه فهود لتقتنص طائر أجيلا حطوق سقفه . وكانت الصناديق والمقاعد ذات المساند والمقاعد المنخفضة التي لا ظهر لها هي أم أدوات الأثاث . وعرض الصياغ عقود ألوان ذات صفوف متفاوتة ومشابهة على هيئة نباتات ذات زهور . أما صانعو

الدروع والعرابات فقد بعثوا إلى تلك المعارض عربات مجهزة بكل أدواتها: أحلقم الخيل والسرّج والأقواس والحراب والسيّاط والسيوف والدروع. ذات الورد وأجرة السهام وجرب الأقواس وجعاب البلط والختابجر والخوذات وتتمثل الأدوات المنزلية في المرايا والمظلات المصنوعة من ريش النعام ذات الأيدي الأنوسية المطعمة بالذهب، وبعض أدوات أخرى مثل رؤوس طيور ذات منافر طويلة ورقاب أكثر طولاً. ولم يتوصل بعد إلى الكشف عن مهمة تلك الأدوات، وما لا ريب فيه أنها لم تكن تؤدي غرضاً معيناً. وقد أخذ الأقبال يزداد شيئاً فشيئاً على نوع من الأثاث والأدوات انغذت لمجرد الزينة فحسب، تعلوها رسوم من أشجار النخيل المحملة بالثمار وجماعات من القردة تقفز على فروعها. والحق أنه معرض جميل. وأن الصانع في مصانع الملك وآمون لجديرون بكل ثناء من سيدهم الإنسان أو من مولا م الإله.

وهنا يقاد سؤال المعرفة ما إذا كان هؤلاء الصانع البارعون، ومنهم بينهم الكثيرون من الفنانين، يجازون بما يتفق ومواهبهم!

عندما تفقد پويم رع Pouyemrê الكاهن الثاني لآمون ومدير عام أعمال معبد الإله، الأشغال التي تمت في المصانع وقابل رئيس الفنانين ورئيس العمال، توجه بالسلام إليه قائلاً: «تفرح كل القلوب لهناك». . . ولكن پويم رع لم يفهم بكلمة شكر لهما. فقد كان ينظر إلى تلك المعجزات المنطوية على المهارة الشديدة وبراعة الفن كما ينظر إلى سلال القرايين والعينات والمعادن الخام ومراد الطعام التي يجمعها رجال الضرائب^(٢٠) وليس هناك ما يؤكد أنه نطق مرة بكلمة طيبة أو بعبارة تهنت وجهها لأمهر عماله. وقد أظهر لنا رخمارع جلياً أنه عندما زار مصانع معبد آمون كانت

مستويلته كدبر أعمال أن يحدد لكل رجل طريقه في العمل ، ومع أنه لم
يفس أن يسرد لنا كل ألقابه ورتبه فإنه لم يشر إطلاقا إلى أولئك الذين امتازوا
في عملهم من العمال .

كان المشرف على العمل يخاطب الصناع الفنانين كما لو كان يتحدث
إلى عمال عاديين ، قائلا : . هيا أيها الرفاق ، حركوا سواعدكم . لنعمل
ما يستوجب الثناء على هذا الحاكم فتكمل الصروح لسيده في أملاك والده
آمون الذي سيخلد اسمه ما نشيده ويكتب الخلود لأعمالنا هذه طوال
السنين المقبلة ، (٣٦) كان عمال كل مصنع يشتغلون متكئين لتمجيد الإله آمون
أو تخليد الملك ، والوزير أو كبير الكهنة بمجد مشترك ، ولم يدون لنا
التاريخ أسماء الذين أنتموا هذه الأعمال المجيدة ، بل ظل الإنتاج الغني مجهول
الأصل . ولم يطرأ على ذهن أحد من الناس أن النحات العظيم هو هبة الإله .

ومع ذلك ففي العام الثامن من حكم الملك رمسيس الثاني ، بمناسبة اكتشاف
كتلة ضخمة أثناء زيارته لمحاجر الجبل الأحمر أقام لوحة تذكارية في معبد
أون أعرب فيها ، بصفة خاصة - عن عنايته بكل أولئك الذين ساهموا في
صناعة تماثيل أبو الهول والتماثيل الواقعة أو الجالسة أو الراكعة التي ملأت
معابد مصر .

« أنصتوا إلى كلامي - ها هي ذى الثروات التي تملكونها . الحقيقة تريد
أقوالى . إنى أنا رمسيس الذى أخلق وأهب الحياة للأجبال - إن أمامكم الطعام
والشراب وكل ما تشتهي أنفس . . . إنى أدعم مركزكم لنقولوا بأن حبكم
لى هو الذى يدفعكم إلى العمل من أجل . . . إن نحياتكم لى تشدمن أرى . لقد
عملت على توفير كميات عظيمة من الطعام قد احتجرت لكم ، على أمل أن
تميشوا لتتموا عملكم . . . إن المخازن مملأى بالحبوب ، حتى لا يأتى يوم واحد
تجوعون فيه . لقد دفع لكل منكم أجره لمدة شهر . . »

لقد ملأت لكم المخازن بكل الأنواع من الفطائر واللحوم والسمك لكي تأكلوها ، وأنواع المطور المختلفة لتعطروا رؤوسكم كل عشرة أيام ، وصنادل لتتعلوها كل يوم ، وملابس لترتدوها طوال العام . لقد جعلت كل هذه الأشياء لكم حتى لا يفتنى أحدكم ليله خائفاً متربحاً ذل الحاجة والشقاء . لقد عينت رجالاً كثيرين من مختلف الطبقات لإطعامكم حتى في سنوات المجاعة ، وعينت رجالاً من سكان المستنقعات ليحضروا لكم العليور والأسماك وآخرين من عمال البساتين ليحصدوا ما هو مستحق لكم . لقد أمرت بتشيد فاخورة لتصنع فيها الأواني الفخارية ليظل ماؤكم سلسبيلاً في فصل الصيف (شمو) ولأجل مصلحتكم تقلع المراكب دواما من الجنوب إلى الشمال ومن الشمال إلى الجنوب محملة بالشعير والحبوب والقمح والملح والخبز . إنى أعمل كل هذا مردداً القول : « طالما كنتم على قيد الحياة فإنكم تعملون من أجلى رجلا واحداً » . (٣٧)

لا شك أنه شيء حميد للغاية أن يحرص الملك حرصاً شديداً على أن يخلد اسمه على الآثار التي سوف تفوق الأبدية في دوامها ، كما نراه يحرص على حسن تغذية عماله وكسوتهم ليشعروا بالسعادة وهم يعملون لحساب حاكم كريم . وقد منح لويس الرابع عشر مناصب ومعايش لعماله . وما فعله فرعون وحققه رمسيس فعلا هو إنشاء ضيعة واسعة يشرف على إدارتها أشخاص عديدون ، وقد خصصت إيراداتها لمعيشة الفنانين في مصنع يماثل ذلك الذي أقيم في مدينة أون .. على أننا كنا نفترق بمزيد من الفضل لأعظم الفراعنة لو أنه كان قديماً فننا قد برأ من بين هذه الجماعة العديدة من العمال الأكفاء وأظهره وهو يتناول مكافأة من تلك المكافآت التي كانت متوزعة دائماً إما على موظف كبير أو رجل من رجال البلاط أو على كبير من الكهنة

ولعل الكاتب كان على صواب حين قال : « لم أر نحاتاً أبداً يوفد على رأس بمشة أو عاسل مسبك برونز يقود حملة ولدكنى رأيت الحداد يشتغل أمام فم الآتون وأصابه أصبحت بمثابة مخالب التساح، وتفوق نتائجه أحشاء السمك » (٢٨)

على أننا نعثر على بعض الشواهد التي تبين مدى التقدير الذي حظى به الفنانون الذين كانوا على درجة عالية من الكفاءة فقد جاء في نص كتبه أحدم يعود إلى عهد الدولة الوسطى على لوحة تذكارية ، يطلعنا فيه على مدى تقديره لنفسه ، قال : « إنى أعرف سر الكلمات المقدسة وإدارة الحفلات ، لقد ما رست كل أنواع السحر دون أن أترك منها شيئاً وليس ثمة سر يتعلق بهذه الأشياء و يعنى على . انى سيد الأسرار ، قدبر على أن أشاهد رع في موكبه . » (٢٩)

وكان يتحتم على الفنان أن يكون على علم تام بمراسم الطقوس الدينية والأساطير ، وصفات الملوك والمعبودات ، ولم يكن ذلك كله بالامر الهين . والفنيقيون الذين كانوا شديدي الحرص على تقليد النماذج المصرية في مهارة فائقة ، قد ارتكبوا سلسلة من الأخطاء في هذا المجال كانت تثير دون شك الرأي العام المصرى . ويمتدح الفنان بعد ذلك مهارته في العمل قائلاً : « وبالإضافة إلى أتى فنان موهوب فى فنى ، فإن على قدر من العلم يفوق المستوى المألوف ، إنى أعرف تماماً الأوضاع الدقيقة لثقال الرجل ، ووقفه المرأة ، وقد ... وكيف يتهاى الرجل ليطعن بالحربة ، إنى على علم بنظرة العين الخاطفة ، بالدمشة الطارئة التي تعترى الشخص الذى يستبظ من نومه ، بحركة ذراع رامي الرمح وهو يرفع ذراعه ، مدى ميل جسم إنسان يجرى ، أعرف سر تركيبات لا تقوى النيران على حرقها . . ولانستطيع المياه اذابتها . »

ولا يوجد أحد يشتهر بهذا كله سوى وسوى ابنى الأكبر . وعندما يشاء

الله أن يعمل ، فإنه سيقوم بالعمل ويتمه في جدارة وثقة . لقد شاهدت براعته في أشغاله كدبر أعمال في كافة أنواع الأحجار الكريمة . من الذهب والفضة إلى العاج والابنوس . . . (١٩)

ولا يسعنا إلا أن نرجو أن تكون هذه الصفات العظيمة موضع تقدير الآخرين ، لا أن يقتنى بها حائزها وحده . وتحتوى مقبرة في طيبة لأمنمحات - وهو واحد من كثيرين يحملون هذا الاسم - على لوحة عجيبة لا نظير لها في القائمة المعروفة لنا . تمثل هذه اللوحة أمنمحات وهو يدعو أربعة رجال يجلسون أمامه على حصير ليشاركوه القرايين العظيمة الموضوعة بجوارهم : أرغفة من الخبز ولحوم وطيور وخضروات وفاكهة ومشروبات وعطور . واحد هؤلاء الرجال الأربعة هو الرسام أحوزا Abmosé . أما ثانيهما فتحات تماثيل لا نعرف اسمه . ورسم هذه المائدة يعد أرفع جائزة تقدم إلى الفنانين الذين تولوا زخرفة المقبرة . ولا شك أنهم نالوا منها ما قاله أمنمحات من تلك الخيرات التي شوهدت معروضة . وأقدم من هذا ، في العهد الذى بنيت فيه الأهرام افتخر أحد رؤساء الخدم المدعو Menaa بأنه قد كافأ في سخاء كل من ساعد في بناء مقبرته وزخرفتها . قال : « لن يندم أبداً أى واحد قد ساهم في بنائها ، سواء كان قناناً أم قاطع أحجار ، لقد أعطيت كل واحد مكافأته » . (٢٠) وفي زمن رسيس التاسع عهد سيتاو Setaou كبير كهنة المعبودة نخبيت Nekhabit بزخرفة مقبرته إلى مري رع MeryRé الفنان المشهور - وقد أشار إلى أصله وفضله قائلاً : « بيديه حفر نقوش المقبرة عندما كلف بعمل نقوش مقبرة سيتاو .. أما بخصوص مري رع كاتب الكتب المقدسة فهو ليس مجرد ناسخ ، إن الوحى يواتيه من قلبه ، لا يقدم إليه معلم ما أنموذجا لينسخه ، ذلك لأنه كاتب ذو أصابع ماهرة ، شديد الذكاء واسع المعرفة » . (٢١)

وعلى هذا ، نستطيع أن نؤكد أن الملوك والأمراء والسكينة وعامة الشعب أيضاً ، كانوا يقدرون أولئك الذين عملوا رضوخاً كثيراً لأجل تحقيق مجدهم . لقد دفعوا لهم المال وقدموا لهم الشكر وفقاً لأراء عصرهم وتبعاً لوسائل زمنهم . فأحد الفنانين الذين عاشوا في عهد رمسيس الثالث ورمسيس الرابع والذي كان مكافأ بـ زخرفة مقبرة عظيمة في دير المدينة (غرب الأقصر) صور نفسه منهمكاً في تلوين تماثيل الملك أمنحتب الأول وتماثيل والدته .^(١٢) لقد أهمل التقليد الذي كان متبعاً عندما كان يؤدي مهمته ف رسم نفسه في وضع طبيعي جداً وهو جالس القرفصاء على أريكة وقدمه اليسرى عارية وضعت فوق البني وشعره طويل منسدل فوق كتفيه وفي إحدى يديه فرشاة وفي الأخرى لوحة أفلام . وقد استرعت هذه الصورة بعض الاهتمام ، ولدينا نسخة رسمها تليز إحدى المدارس على قطعة من الحجر الرمل .^(١٣) ومع أن قيمتها الفنية لا تنسجى إلى الأصل ولكنها مهمة للغاية إذ أنها لا تحوى فقط اسم الفنان بل تعطى أيضاً لقبين خلعا عليه وهما : « الأمير » و « الكاتب » ، وتحتس Thutmose وهوى Hony فنانان عاشا في عهد اخناتون ، وكانا على درجه كبيرة من الثراء والمكانة الاجتماعية . بينما نجد في نهاية عهد الرعامسة ساما كان رفيع القدر حتى أنه كان يعدل في مستواه مركز محافظ إقليم .

٩ - البنائون ووزوو الحرف الصغيرة

ولند الآن إلى بعض الأعمال الشاقة نوعاً ما تلك التي لا يمكن ممارستها من حمل لقب « أمير » والتي كان يقوم بها عادة الأحاب سواء كانوا من تأمرى الحرب أم من الأحرار .

كان أم عمل يشغل البناء هو عمل قوالب الطوب ورصها ، وكانت كل

مدينة مصرية تحيط بها أسوار من الطوب يبلغ عرضها حوالى خمسة عشر مترا وارتفاعها عشرين مترا والأبواب وحدها كانت تعمل من الحجر . أما الجدران فكانت من الطوب . وكانت المباني الأميرية والبيوت الخاصة والأسوار التى تحيط بها تحتوى على كيات من الطوب تفوق الحجر . وعند ما أراد رمسيس الثانى بناء مدينته المفضلة (ويطلق عليها المصريون عادة اسم *بي رامسو* Pi-Ramessou) ومخازن *بيثوم* ، جمع الاسرائيليين وعين عليهم رؤساء عمال واضطروهم تحت ضغط شديد ، إلى عمل قوالب الطوب . (١٠) وكان العمل مرهقا ولكنه لم يكن عبيرا إطلاقا ، كان طمى النيل يخلط بالرمل والتبن . وللحصول على طين جيد ، كانت تلك المواد تبلل بالماء وتوطأ بالأقدام مدة طويلة ثم تحرك بمول من آن لآخر . وكان على العامل أن يملأ القالب القريب منه بهذا الخليط المبلل ثم يستبعد كل زيادة بواسطة مكشطة من الخشب ويرفع القالب الخشبي فى حذر ومهارة حتى لا تنكسر الطوبة . ويظل الطوب معرضا للشمس ثمانية أيام يصبح بعدها جافا صالحا للبناء .

وكان صناع الطوب يفضلون أن يعملوا على مقربة من حوض ماء . وكان السقامون يحملون لهم المياه ويتوجه عمال اخرون إلى الحقول بعد حصادها ليجمعوا سيقان الحنطة لإعداد التبن . وحينما كان فرعون يصدر أمره لأبناء إسرائيل بالذهاب إلى الحقول والبحث عن التبن دون أن يقللوا الكميات المطلوبة منهم يوما من قوالب الطوب ، كان ذلك بعد مجيئهم إصافيا . غير أن احتجاجهم على هذا الأمر لا يقابل إلا بالضرب بالعصا فوق

ظهورهم من رؤساء السخرة . وكان الطوب يحمل على لوحين مسطحين من الخشب متماثلين تماما وقد شدا سويا إلى خشبة غليظة .

وكلمة إكدو Iqdou كانت تستعمل للتعبير عن حرفتين يبدو للوهلة الأولى أنهما مختلفتان تماما : الأولى البناء والثانية صانع الفخار . على أن الأول كان يعرف باسم أكدوانبو أى بناء الجدران والآخر هو أكسو نيچسيت أى بناء صغير ، والواقع أن كلا منهما كان يستخدم طمى النيل ، على أن السبب الحقيقي يرجع إلى اللغة المصرية : فالمقطع «كد» يعنى «مستدير» والشكل البدأى للمنزل كان مستديرا مثل القدر ، ولم تكن المنازل سوى قدور كبيرة . كان الفخرائى يعجن مادته بقدميه ويحورها إلى صلصال ثم يقطع جزءا منه ويضعه فوق اسطوانة مستديرة مسطحة من الخشب تتحرك على محور رأسى . وبفضل مهارة أصابع العامل المرننة تتخذ الكتلة هيئة جرة مستديرة الشكل أو قديم أو إبريق أو كأس أو طشت أو إبريق كبير له قاعدة مديبة يستعمل فى حفظ الخمر أو البيرة أو أباريق كبيرة ذات قواعد مستديرة على هيئة الفراوات (١٧) وإذا كان الدولاب لا يستطيع تشكيل قطعة صلصال أكثر من ذلك ، فإن العامل يستخدم أصابعه لتتخذ شكلها النهائى . وبعد أن يتم عمل الأواني الفخارية تنقل إلى الفرن وهو عبارة عن بناء اسطوانى يبلغ ارتفاعه ضعف قامة الرجل وقطر دائرته إذا ما كانت الصور يمكن الاعتماد عليها - نحو ذراعين على الأقل ، ولكن ينبغى لنا أن ننبه إلى أن الرسامين المصريين كانوا لا يراعون فى دقة النسب المتعلقة بالناس والأشياء . وفى عهد الامبراطورية الحديثة أصبح صانع الفخار ذا نفوذات تقدمية فلم يكتف بصناعة فخار ذى لون واحد يعتمد فى جماله على أناقة الشكل فحسب ، بل أصبح يزرع إلى طلاء متجانه بأشكال

مستعارة من فن النقاشين أو موحى بها من قائمة الأشكال الزخرفية أو بإضافة أطراف هندسية أو نماذج نباتية كفروع كرمة أو أشكال نباتية أو طائر يغوص في الماء ليصطاد سمكة أو ثور منطلق (١٨) وحتى الإنسان الفقير الذي كان لا يستطيع الحصول على أطباق معدنية كان في مقدوره أن يمتلك أواني فخارية لا تخلو من جمال.

وكان الحلاق ينتقل بدوره من حى إلى آخر ، يقف في معترك الطرق في مكان ظليل لا يلبث الزبائن أن يقصدوه سراعا. (١٩) وعندما يطول الانتظار فإن أغنيته أو سرد حكايته تساعد على قضاء الوقت سريعا . وقد يشب نزاع يكون إحدى الوسائل المجدية لقطع الوقت وهذا ما يعمله رجلان يجلسان على مقعد يستند ظهر كل منهما إلى الآخر واسكهما ليا متساويين في جلسة مريحة فينما يجلس أحدهما جلسة مريحة نسيما نجد الآخر يجلس على حافة المقعد يكاد يقع على الأرض لودفع دفعة خفيفة . على أن هناك زبائن آخرين يؤثرون أن يناموا وذقونهم مستعدة إلى ركبهم ورؤوسهم تلفها أذرعهم .

وينجيه الزبائن أحدهم تلو الآخر ويجلسون على المقعد ذى الأرجل الثلاثة في هدوء ، وأيديهم فوق ركبهم، يحنون رؤوسهم للحلاق ليص شعورهم ويحلق ذقونهم . ويحوى إناه محمول على أرجل الماء المذاب فيه الصابون . أما الموصى فهو أصل أقل طولا من بضعة اليد ذو شكل غير منتظم ومنزود بمحاظلة . أما الحلاقون الذين كانوا يترددون على الطبقة الخاصة الغنية فلاسيهم مجموعات مختلفة من المسلات (المآبر) والملاقط والمقصات والأمواس يضمونها في حقائب من الجلد ويحفظونها في صناديق فاخرة من الأبنوس . وكانوا يمارسون عملهم في المنازل ويستمتعون برعاية ملحوظة . وكان

بعضهم يمارس الطب . وضمن بلاط الآلهة كان يوجد معبود حلاق . ولكن الحلاق الذى كان يخلق لعامة الشعب كان موضع عطف لا حسد . (٥٠)

أصحاب العمل والأعمال

يستحق رومى - روى Romé-Roy كبير كهنة آمون أن يعتبر مثلا لرب العمل المصرى ، الطيب القلب ، فقد قال : « أيها الكهنة وكنية بيت آمون وخدم القرايين المقدسة المهرة ، أيها الحجازون وصاننى الجمعة والحلوى الذين سوف تدخلون هذا المصنع فى بيت آمون ، اذكروا اسمى كل يوم بالخير ، ومجدونى لأعمالى الطيبة لأنى كنت رجلا خيرا . لقد وجدت هذا المكان مهتما تماما بجدرانها متداعية نداعيا شديدا وأختناها متعفة وإطارات الأبواب الخشبية قد ضاعت وطمست النقوش التى عليها . لقد أعدتها إلى ما كانت عليه . أفسح مما كانت وأعرض ، وصنعت إطارات أبوابها من الحجر الرملى وزودتها بأبواب من خشب الصنوبر الحقيقى . لقد شيدت فيه مصنعا يعمل فيه الحجازون اليوم وصانوا الجمعة على السواء فى راحة تامة . فتم بعمل كل هذه التحسينات حماية لخدم معبودى آمون رع .

سوتير Amonrasont (٥١)

ويبدو أن باكن خونسو Bakenkhonso أحد كبار كهنة آمون قد استحق نفس الثناء - إذ قال : « كنت أبا بارا بمرؤسى . كنت أعلم أولادهم الصغار وأمد يد المعرفة إلى المحتاجين منهم وأكفل الحياة للمعوزين وأقوم بأعمال نافعة فى معبده بصفتى كبير مديرى الأعمال فى طيبة وذلك من أجل... ومسيس الثانى . » (٥٢) ونأمل ألا يكذبهم المرؤوسون إذا ما سئلوا عما ينطوى عليه هذا الكلام من حقيقة . كانت المبادئ الأخلاقية السائدة

وقتذاك تحول دون إجبار العمال والظلم على العمل أكثر من المعلوم (٤٣). وعلى هذا فقد كانت الحقيقة الواقعة أن جماعات العمال كانوا يتظلمون كثيرا من جراء هذا الشأن حتى أن بعض تظلماتهم كادت تصل إلى ما يقرب من الثورة. كان العمال يتقاضون تموينهم من مأكل وملبس إما مرة واحدة أو مرتين أو أربع مرات في الشهر ولكن أولئك الذين يتصفون بعدم التبصر بالأمور - وعلى الأرجح لم يكونوا مغالين في التبذير - كانوا يستنفدون تموينهم قبل التوزيع الجديد وكانوا يصبحون : « نحن نموت جوعا ولا يزال أمامنا ثمانية عشر يوما حتى الشهر القادم » (٤٤) ويجتمع بعض العمال في أحد الميادين على مقربة من أحد الصروح ويصيرون قائلين : « لن تعود إلى أعمالنا أبلغوا هذا رؤسائكم المجتمعين هناك » .

أراد أحد الموظفين أن يكشف عن موقف العمال ، فعناد يقول : « ذهبنا لنستمع إلى طلباتهم فقالوا لنا وقائع حقيقية ، توجه الجائعون جماعات كبيرة نحو الخوانيت ولكنهم لم يحاولوا اقتحامها . وقام أحدنا خطيبا : « لقد جئنا يدفعنا الجوع والعطش ولم يعد لدينا ملابس زديها لم يبق لدينا زيت ولا سلك ولا خضر ، أرسلوا اسيدنا فرعون أرسلوا المليكنا وسيدنا حتى يعطونا ما يمكننا من الحياة ! ، رفعت هذه الشكوى لأحد الحكام ولكن خشى زملاء الخطيب أن يصيبه ضرر فأبدوا استعدادهم ليقرروا أن كل شيء على ما يرام ، وأنهم في خير حال . على أن حمدا آخر رفض أن ينصرف مالم يتم توزيع التموين عليهم فورا . وقد أذعن الحكام فدعوا أحد كتبة الحسابات وأصدروا إليه الأمر الثاني : « خذ الحبوب التي تسلمتها وأعط منها لعمال الجبابة » فأحضر في مونتو نيات Pe-Moote-a-Nebiat ووزعت علينا أنصبتنا من الحبوب يوميا ! »

وبهذا زال خطر التهديد بالإضراب ولم يكن حال العمال سيئاً مادام
سادتهم كانوا يقيمون لهم المساكن والمصانع النظيفة ذات التهوية المزودة بكافة
وسائل الراحة على نحو ما فعل باكن خنسو ورومي - روى وكذلك كان
يوزع عليهم التموين من مأكل وملبس بانتظام مع تزويدهم أحياناً بقدر إضافي
لمرضوا المبذرين منهم . كانت الاجازات وعطلات الأعياد كثيرة . ولم يكن
من العسير أن يصل أكثر العمال رزاقه ومهارة إلى درجة مراقبين أو رؤساء
أعمال ، وأن يجمعوا من المال ما يضمن أن يكونوا في أيامهم الأخيرة ملاكاً
صغاراً أو أرباب أعمال . وعند حدوث منازعات بين آفون وست فسرعان
ما تسوء حالة العمال أكثر من سواهم مما يدفعهم إلى العمل على إضرام عناصر
الفوضى بين طبقات الشعب .

١١ - التجارة والنقود

في دوائر الحكومة وأملاك كبار الآلهة كانت حسابات على درجة كبيرة
من الدقة تقيد ما يرد يومياً من غلات ومحصولات وما يستهلكه المستخدمون
وعلى هذا فقد كان نطاق الأعمال محدوداً . وبالرغم من أن هذه الحوانيت
والمخازن كانت مليئة بالسلع إلا أنها كانت مخصصة لاستهلاك فئة محدودة من
الشعب . وعند إشباع حاجة هذه الفئة كان الفائض من السلع عندئذ يمكن
أن يستخدم في التجارة . وفي بعض الأحيان كانت دائرتان تتبادلان منتجاتهما
مباشرة أو تباع منتجات إحدى الدوائر إلى التجار ، وهؤلاء يوزعونها
يُدورهم وعلى منثوليتهم .

وبجانب الدوائر الكبرى ، كان يوجد أيضاً عدد كبير من الملاك من
قآفرا والشعب أو كبار الملاك . منهم المتوسطون أو صغار الملاك الذين يربون

الطيور والماشى أو يزرعون الحبوب والفاكهة والخضر وعندما يحتاجون إلى اقتناء الملابس أو الأثاث و مواد الزينة والكاليات فكانوا لا يستطيعون الحصول عليها إلا إذا باعوا ما يفيض من زراعتهم أو من تربية الماشية أو الطيور . وكان ثمة صناع أحرار يستغلون مصنعا بملكوته ويعتمدون فيه معيشتهم على ما ينتجون . ويوجد أخيراً تجار لا ينتجون شيئاً ويكتفون بشراء وبيع السلع المتداولة في أنحاء البلاد، وكان كل هؤلاء المشقرون أو البائعون أو التجار الوسطاء يتلاقون في الأسواق . وفي قصة الفلاح أنه حمل حميره بكل المنتجات الطيبة لواحة الملح ، ولولا أنه سرق في الطريق لا استطاع الوصول إلى مدينة نون نسوت Non Nisout الطيبة ومعه بضاعته . ولعرض في السوق الطورون والطيور المائية والسمك المجفف ولا استطاع أن يستبدلها بالحلوى والأفشة والياباب . ولكنه كان سيء الحظ إلى درجة بعيدة ، فعندما كان رجال الشرطة يقومون بواجبهم كان كل مسافر يهل إلى بلده دون أى عائق . وفي مقبرة خايم خات Khaemhat رسم الفنان تجاراً يعرضون غراراً وسلالاً . وهم يصيحون في صخب شديد قاعدين أو قائمين . وهؤلاء التجار ذرو سحنة خاصة فرووسهم ضخمة وشعرهم كثيف غير مرسل ، والعملاء المقبلون للتعامل معهم يعلقون غراراً فوق أكتافهم . يكثر من حركاتهم ويبدو دون شك أن المفردات اللغوية هؤلاء . العملاء لم تكن أقل ضراوة أو أدنى غزارة من لغة التجار ، ووصول سفينة أجنبية قادمة إما من أعلى النيل أو من سوريا كانت تجتذب لا الفضوليين الذين يحبون برؤية الأجانب ذوى الملابس المتعددة الألوان أو بما كانوا يحملونه معهم من سلع بل كانت تجتذب أيضاً التجار الذين كانوا يقيمون حوانيت لبيع الطعام اللعينة الذين كانوا يعطونهم مقابل ذلك قرناً من خرفة

أو رأساً ثبت على سن فيل (٥٦) ، وما كان ييسر عملية تبادل السلع أنه كان متبعاً في الأزمان السابقة تقدير قيم السلع والمنتجات المصنوعة على أساس وحدة تسمى شات Chat ، وقد ورد ضمن مستندات تفتى إلى عهد الأسرة الرابعة بأن منزلاً قدر ثمنه بالشات. (٥٧)

وفي إحدى برديات الأسرة الثامنة عشرة أن ثمن أمة وقيمة خدمتها قدرت في مدة معينة بنفس الوسيطة. (٥٨)

ولكن التعامل بهذه الوحدة لم يكن إلا تعاملاً مثالياً فلم يطرُق على بال أحد من أعضاء الهيئات الرسمية أن يسلك قطعاً معدنية ذات وزن معين متماثل إلا أن التجار ومعظم الشعب كانوا يعلمون تماماً قيمة وزن الذهب أو الفضة أو النحاس التي توازي قيمة الشات ولذلك لم يكن ميسوراً تبادل السلع بقطع من العملة وعلى ذلك فمن كان يرغب في بيع منزل ولم يتفق المقتري على تحديد قيمته على أساس الشات كان يقبل نظائر ذلك أن يتسلم مواشى أو حبواً بنفس القيمة وهذا الحالة بسيطة في ذاتها ، فإذا كان المطلوب مباداة حيوانات أو مواد لم تكن قيمتها متساوية كان ينبغي تقدير الفرق بالشات أو بعدد من الشات وأن يسعوا إلى وجود سلع يكون في استطاعة أحد الطرفين أن يقدمها ويقبل الآخر أن يتسلمها ، وإن يتم هذا دون مناقشات ، ويبدو أن الشات أهل استعمالها في عهد الرعامسة لأنها لم تكن تسهل المعاملات . ولم يذكر عنها شيء في بردية هاريس الكبيرة ، ولكن ورد فيها بدقة ذكر الدين Deben بوزن ٩٠ جراماً والقيط Qite بوزن ٩ جرامات للذهب والفضة والنحاس والأحجار الكريمة دون الإشارة إلى قيمتها بأية كيفية كانت ، وقد ورد في نفس هذا المستند وكذلك في تقويم مدينة حابو أن الحبوب كانت تكيل بمكاييل خشبية والفاكهة بالسلال ومنتجات

(م ١٥ - الميزة في مصر)

أخرى بالإنفاق أو المقامات المختلفة الأحجام . أما الحيوانات والأشجار فكانت تعد بالوحدة وفقاً لأنواعها وعندما نجد ذكر عدد العجول أو العجول البرية أو الماعز البري والوعول والغزلان فكان عددها يجمع ويذكر عدد رؤوس المواشي جملة . وهكذا كان الحال بالنسبة لاطور دون أن يحددوا قيمتها بكيفية ما . وإذا ما أريد تقدير قيمتها كانوا يبرون عن هذه القيمة حسب ما يقابلها بوزن الذهب أو الفضة أو النحاس ، فنلا ثمن العجول يتراوح ما بين ٣٠ و ١٣٠ دين من النحاس وجوال الذرة وازى دين واحد من النحاس (٥١) . ولكن لم يكن في استطاعة المشتري - صفة عامة - أن يقدم كمية ما من النحاس فضلاً عن تمكنه من تقديم الفضة أو الذهب .

والمعاملة ببادل المعادن الثمينة لم تظهر إلا في نهاية عهد الرعامسة عندما حدثت نهب المعابد والمقابر وعلى أثر ذلك أعيد إلى التداول كميات كبيرة من المعادن الثلاثة المذكورة التي كانت مدفونة منذ أجيال أو قرون عديدة في المقابر أو محفوظة في المعابد . خصص أحد اللاهوص دين من الفضة وخمسة قيط من الذهب لاقتناء قطعة من الأرض وخصص آخر دينين من الفضة لشراء عجلين . وقد دفع لشراء العبد دجما دينين من الفضة وستين دينا من النحاس ، ودفع خمسة قيط من الذهب ثمناً لعجل واحد (٥٢) . وقبل عهد هذه الفوضى في المعاملة كان المشترون يدفعون ما عليهم من ثمن بتوريد مقادير من السلع التي يقبلها البائع وكانت تقدر بدورها على أساس مقادير من الذهب أو الفضة أو النحاس ، ذلك دون أن تقدم المعادن ذاتها . فقد باع الكاتب پنانوقيت Pannogit عجلاً قدر ثمنه ١٣٠ دين من النحاس فسلم قبضاً من النكتاز يساوى ٦٠ دين و ١٠ غرار و ٣ كيلات ونصف كيلة تسليوى ٢٠ دينا وعقد من الخرز يساوى ٣٠ دينا وأخير أقيمين قيمة وكل منهما ٦٠ دين (٥٣) . وإحدى سيدات طيبة اقتنت أمة بقيمة ٤١ دينا من

الفضة ، وذكرت أمام القضاة عدة وقائع منها أنها أعطت قطعة قماش للتاجر
الذى باع لها الألة وأشياء أخرى مصنوعة من برونز ونحاس كلفت أناساً
آخرين بتسليمها للتاجر ، كل ذلك سداداً لئى الألة. (٦٢)

ولم يكن أمام الحكومة ذاتها وسيلة أخرى للتعامل فذكر أن أونامون Ounamon
عندما أراد أن يشتري كمية ما من زكر بعل Zekerbaal ملك جبيل تسلم فى
الحال سبع قطع من الخشب وترك نظير ذلك ، سفينته ضمناً للئى . ثم
طلب أن ترسل إليه من مدينة تانيس جرار وأطباق من ذهب وخمسة جرار
من الفضة و ١٠ قطع من السكتان الملصكى و ٥٠٠ لفة من ورق البردى ،
و ٥٠٠ قطعة من جلد الحور و ٥٢٠ جوالاً من العدس و ٣٠ قفة من السمك
المجفف . ثم تسلم فى مرة شحنة أخرى د أثواب من قماش السكتان الملصكى ،
وغرارا من العدس وخمس قفف من السمك المجفف. (٦٣) فما قيمة كل هذه
السلع مقدرة بالذهب أو الفضة ؟ . هذا ما لم يذكره لنا التاريخ .

ويبدو فى الواقع أن ملك جبيل لم يهتم بأمره فأمر بقطع الأشجار
وجرها إلى الشاطئ . وقبل أن يسلم كل هذا إلى مندوب آمون أنار رعبه .
ويمكن الاعتقاد أن كلا من المتعاملين المصرى والسورى كانا قد اتفقا على
تقدير السلع بما يعادل قيمتها من ذهب وفضة ولكن عدم وجود عمله حقيقية
قد جعل أمر التعامل شاقاً . ويفسر هذا ما يبدو من ملاح على وجوه البائعين
المرسومين على جدران مقبرة خامحات والمنافشات الكثيرة التى كان يبدو
أنها تدور بين الناس دون نهاية لها ، والتى اقترنت بإتمام الاتفاق على تبادل
الصفقات بين ملك جبيل والمشتري المصرى .

الفصل السابع

الأسفار

١ - التفتوت داخل القطر.

كان المصريون القدماء كثيرى الأسفار ، على عكس الفكرة العامة السائدة عنهم . وكان ذهابهم وإيابهم مستمرين بين القرى وعواصم الاقاليم وبين تلك العواصم وقاعدة الحكم . وكانت الأعياد الدينية الكبرى تجمع الحجاج من كافة أنحاء مصر ، وكانت بعض المدن الكبرى مثل قفط وسيلا وسونو* وبي روميس ومنف تفص طول العام بالزاهدين إلى المناجم والمحاجر وبالمسافرين إلى الواحات أو إلى بلاد آسيا وبلاد النوبة ، ثم يعودون منها عمليين بكل خبرات البلاد الأجنبية . وكان الصبان المحدودو الدخل لا يعرفون غير طريقة السفر الوحيدة التي يعدها جان جاك روسو أفضل الطرق جميعا ، وهى السير على الأقدام . وكان متاع السفر معها يسيرا لا يتطلب إلا عكازا وإزارا ونعلا^(١) ولم يلجأ سنوحى إلى أكثر من ذلك ، عندما ظن أن حياته مهددة بالخطر ، فاخترق الدلتا من الغرب إلى الشرق متخذة عدة طرق ملتوية فى السير ليصل إلى البحيرات المرة . وقد لبى أنوبو دعوة أخيه وترك قريته وليس معه سوى عكازه ونعله وثوبه وبعض الأسلحة قاصدا وادى الشجرة (أش Ach) القريبة من

جبل (٢)، وقد سار فلاح واحة الملح وكان ذاهبا إلى نينيسوت Men nissent على قدميه خلف حميره المحملة بكل أنواع المنتجات . وكان في استطاعته أن يركب حمارا من حميره بطريقة عكسية ويتحمل سخرية المارة به ، مثله في هذا مثل طحان قصة الشاعر لافونتين La Fontaine والواقع أن هذا الفلاح قد تعرض لما هو أشد من ذلك خطرا ، إذ أن رجلا كان يعيش في بقعة منعزلة ، ولم يكن حديث عهد بمهنته ، قد سرق خفية كل ما كان معه في غمضة عين . وكان الجنود مصدر رعب دائم للمسافرين كانوا إذا عثروا على شخص غير مسلح يحمل كيسا من الدقيق ونعالة بين يديه ، يجدون هذا مبررا كافيا لمهاجمته وتركه عاريا في الطريق* . وقد اتخذ أوني Ouni من الإجراءات ما كان كفيلا بمنع مثل هذه الفوضى (٣) .

ويؤكد أحد حكام أسيوط أن المسافرين في عهده إذا جن عليه الليل ، كان يستطيع أن ينام آمنا على جانب الطريق تاركا بجانبه زاده وعزله . والخوف الذي تضفيه سطوة رجال الأمن المحليين كان كفيلا بحماية المسافرين ومودنا أن نؤمن بصحة هذا القول ولكن الاحتياطات التي اتخذها بعض الحكام لتبعد دليلا واضحا على وجود قطاع الطرق وعلى الأخطار التي كانت تحيق بالأسفار .

كانت الطرق متعددة بتعدد القنوات المائية : فعندما تحفر قناة كوم الطين وعمل منه جسر من الأرض يكون مرتفعا بعض الشيء حتى لا تغمر مياه الفيضان القناة المحفورة . وكانت القنوات والطرق تصان في آن واحد فعندما تظهر القنوات يؤخذ الردم الناتج منها لتسد به حفر الأرض .

* لم يذكر المؤلف أي مستند يؤيد هذا القول .

كانت هذه الجسور تستعمل لمر المارة والماشية في ذهابها وإيابها كما كانوا يعبرون فوقها لسحب القوارب . ونحن لانعرف أية كلمة مصرية قديمة تدل على « الجسر » ، ولكن يوجد رسم لجسر ورد في النقوش البارزة التي تمثل عودة سيتي الأول منتصرا من حملة فلسطين . وقد أفهم هذا الجسر على بحيرة امتلأت شواطئها بالغاب وكانت مأهولة بالماشية ، ويصل هذا الجسر سفينتين حربيتين إحداهما على الشاطئ الأصمري والأخرى على الشاطئ الأفريقي (٥) . ولابد أنه قد شيد على أعمدة قائمة متقاطعة . وما لاشك فيه أنه لم توجد جسور على نهر النيل دلا على فروعه الثانوية في الدلتا . ولم تكن الجسور الخشبية أو الحجرية عديدة فوق القنوات وإذا اقتضى الأمر عبور قناة أو مستنقع قليل الغرير فإن ثلثاس والحيوان كانوا لا يترددون في اقتحام الماء وعبره . وكان معظم المصريين يعرفون السباحة وأهالي دندرة كانوا يغطون في مياه النيل ويعبرونه بكل سهولة دون خوف من التماسيح ؛ على أن ذلك لم يكن في استطاعة الناس جميعا (٦) .

أما صيادو الطيور المائية وصائدو السمك فكانوا يخشون خشية كبيرة بأس الوحوش ؛ لو أننا صدقنا التقاد الذين كانوا يتكلمون من الحرف - وكان لزاما على الشخصيات الكبيرة أن تمد يد المساعدة لعابري المياه ؛ فن لا يمتلكون مركبات وكان هذا الصنيع لديهم أوجب من إعطاه خبز لجائع أو ملابس أمار .

كانت التعدية من شاطئ لآخر حرفة في طيبة وفي المدن الكبرى ، وقد اتهم أحد أصحاب هذه الحرفة بأنه شريك لصرص المقابر ، فأحيل إلى المحاكمة (٧) . وعندما انتقلت المعبودات إلى الجزيرة الوسطى ، أمرت

المعبود أتى Anti المكاف بمهمة التعدية ، ان يمنع إيزيس من العبور. (٨)
وقد عثر سنوحى عند فراره على قارب لادفة له ، على الشاطئ فاستولى عليه
ليعبر به النهر .

استعمل الأثرياء زمناً طويلاً في تنقلاتهم القصيرة ذلك الكرسي الذى
كان يحمل . وكان ذلك شيئاً رائعاً ولكنه وسيلة بطيئة غير مربحة وكثير
التكاليف . وكان الخالون يغنون على أنغام وقع أقدامهم : : اتنا نحبه ملاك
أكثر مما نحبه خارباء . وكان ينبغي دفع أجر لملولاء الخالين أو اطعامهم على
الأقل. (٩) وفى عهد الامبراطورية الحديثة كان الملك لا يحمل على هذا الكرسي
إلا فى بعض الحفلات ، هكذا فعل حورنمحب Horemheb عندما كان
يحتفل بانتصاره . ولكن الملك مثل الخاصة من أفراد الشعب كان عادة
يفضل العربة ، وكانت العربات والخياد لا تسكاد تعد من وسائل الترف .
وهذا بعض ما كان يأمله كل إنسان لأصدقائه ويتمناه لنفسه : : لتركب
العربة وتمسك السوط الذهبى بيدك وتقبض على زمام جديد لخيول مطهرة
من سوريا ويمجرى الزنوج أمامك وهم رهن إشارتك ، (١٠) . وعندما كان
يخرج أمنتب سيزى Amenhotep Sisé للأزفة وهو السكاهن الثانى
لأمون (١١) كان جوادان يجران عربته الجميلة المنيئة المزخرفة بالرسوم
الفار والبارز ولم يكن لهما شكائم ولا حواجب من الجلد لعيونها بل
كان طاقم الجواد يتكون من قطعتين كبيرتين من الجلد توضع إحداهما فوق
منتصف رقبته حتى لا يفلت زمامه وتوضع الثانية أسفل جسمه . أما الزمام
فكان يربط فى مقول الحصان وكان أمنتب سيزى يقود العربة بنفسه
واقفاً ، وليس معه سائس .

كان السائسون يتقدمونه ، وتقبه فرقة من الأنباغ يسيرون على مهل

وهم يحملون كل ما يحتاجه السيد عندما يريد أن يستريح أو حينما يحتاج إلى إصلاح زيه .

وكانت العرب وسيلة مفيدة لزيارة قصر الملك أو الوزير أو للقيام بجولة تفتيشية في الريف أو للذهاب إلى الصيد . ولم يكن مستطاعا استعمال العرب للمسافات البعيدة دون إرهاق . أما وسيلة النقل الحقيقية في مصر القديمة فكانت المراكب .

وقد ركب ددف حور ولى العمود مركبا من منف ومر بنخت - نختيت Khent Khotyt بقصد التوجه إلى الشمال للبحث عن العراف الذى يسكن ديدى سنفرو ثم عادا معا بالمركب إلى القصر .

وبعد أن أصدر الملك عفوه عن سنوحى ، ومنح حرية المرور عبر نقط الحدود في طريق حورس ، استخدم المركب في قطع المريق بين خليج السويس والعاصمة ايت تاوى Ity-Taoui جنوب منف . وكان خلال السفر ، يشغل وقته بتناول الطعام الشهى الذى كان يعد له أمام دينيه

وعند ما كان ينوى المصرى زيارة الأماكن المقدسة في أيديوس (العراية المدفونة) كان يعد أسطولا صغيرا (١٢) وكان المسافرين يتخذون قوارب من الطراز القديم ، مرتفعة من الأمام ومن الخلف ، وكان المفروض أن الهدف من السفر لم يكن دنيويا فكلوا يجلسون على مقاعد داخل قمرة على هيئة تابوت ، كما لو كانوا داخل أكشاك حدائقهم ، وكانت الماكولات توضع على منضدة أمام القمرة . وكان يستعمل مقدم المركب كمجوز ومطبخ ثم يقطع الثور وتحضر الجمعة ، لكي يستمتع المسافرون بشرها طازجة . ولم يكن لهذا المركب مجاديف ولا شراع ، بل كان يحركه جرار ، وكان طقم

المركب يتكون من بحارين فقط يباشر أحدهما جعل الاتصال وملاحظة اتزان المركب ، ويباشر الآخر الدفتين المصنوعتين من الخشب الملون والمتنهيدين برأس حاتحور ، سيدة البلاد النامية وحامية المسافرين . أما المركب القاطرة فكانت تحتوى على صار قوى يجبلين أحدهما ربط في المقدمة والثاني في المؤخرة ، وتتوسطه قررة كبيرة ذات إفريز مزخرف ، غطيت جوانبها بمختلف النقوش والموضوعات ، وكانت الدفة تستند إلى صار صغير ، في آخر المركب ، ويديره ربان يده ، وفي نهاية الدفة ، كانت ترمم عينان أحياناً وكان هذا شيئاً هاماً جداً بالنسبة للدفة حتى يمكن أن تتفادى العقبات التي تعترض طريق المركب .

وعندما تسير المركب مع التيار أو عندما تعبر مساحات شاسعة من المياه دون أن تكون هناك رياح مساعدة ، كان من العسير تجنب استعمال المجاديف . وكان عدد المجدفين يتراوح بين عشرة وأثنى عشر شخصاً ، وغالباً ما يكون أكثر من هذا العدد . وبتف الربان في المقدمة ومعه مدراة طويلة تمكنه من معرفة عمق الماء . أما الربان الثاني فيجلس على سطح القمرة ويده سوط يداعبه من وقت إلى آخر أكتاف المجدفين السكالي . ويكمل ربان الدفة هيئة القيادة . وعندما تسير المركب ضد التيار كانت تفرد الشراع الوحيد وهو عبارة عن قطعة مربعة وغالباً مستطيلة تفرد بين صارين ، ويمكن تحريك الشراع بواسطة عدة حبال ، ويجلس المجدفون في مقاعدهم أما رؤسائهم فيجلسون الحبال ليستطيعوا رؤية المجدفين بطريقة أفضل . وطالما كان السفر بطريق نهر النيل فإن الإنسان كان يستطيع أن يأمل القيام برحلة سريعة إلى حد ما دون عقبات ، وإذا كان لا مفر من استعمال القنوت فإن الأمر كان يقتضى إجراء تحركات سابقة إذ أنها لم تكن صالحة دائماً للملاحة طول العام . وعند ما رغب خوفي في السفر إلى مهب

رع سيدساخ [Sakhebou] التي تقع في مكان ما بالإقليم الثاني من الدلتا لم تكن المياه كافية في قناة السمكتين فقال صديقه الساحر لآبائه لهذا الأمر : « سأريك بمياه يبلغ ارتفاعها أربع أذرع في قناة السمكتين ، أما أوني ، الذي لم يكن في خدمته أحد السحرة ، فقد استطاع السفر بالمركب في الموسم الذي كانت المياه فيه منخفضة . وبحيرة موديس كانت قد أعدت خصيصا لكي توفر المياه للزراعة والملاحة على السواء ، ولـكننا نجعل الطريقة التي كانت تدار بها . أما المراكب المعدة للسفر في النيل نحو بلاد النوبة ، فكانت عبارة عن منازل حقبية عائمة . ثم إن « دهية » ابن حاكم بلاد كوش ، فقد كانت عبارة عن قارب طويل على شكل هلال لا يس مقدمها ولا مؤخرها المياه (١٢) . يتوسطها صار واحد في الوسط ، ولها شراع كبير متصل بالصاري بحبال عديدة . وبدلا من دفة واحدة في مؤخرة المحور ، توجد دفتان ثبتتا على أعمدة قوية على جانبي المركب الأيمن والأيسر ، على بعد قليل من المؤخرة . وأعدت قسرة كبيرة في وسط المركب مكانا للمسافرين ، وألحق بها مكان توضع فيه الخيول . كما توجد قرتان أصغر من السابقة ، إحداهما في مقدمة المركب والثانية في المؤخرة .

ويظهر أن الملكيات كانت مجردة تماما ، فكان للأثرياء من أهالي طيبة ممتلكات في الدلتا . كما كان آمون يمتلك مزارع بل مدنا لا في مختلف أسماء مصر لحسب بل في بلاد النوبة وفي سوريا أيضا . وكان لممد أيدوس الذي شيده سيني Seiouy ممتلكات في بلاد النوبة . وحتى يمكن جمع المحاصيل والمنتجات في مركز رئيسي ولتسهيل استيراد البضائع وتصديرها كان لزاما على هذه المؤسسات الجماعية وعلى الأفراد الأثرياء أن تكون في حوزتهم أساطيل حقبية من المراكب الكبيرة ذات القاع المسطح ، من تلك التي على هيئة هلال وبها قسرة في الوسط (١٣) أو قرتان . ولا نمطينا اليه ثائق إلا فكرة نافعة عن عدد المراكب ونوعها ، تلك التي كانت تنقل

في النيل ذهاباً وإياباً ، فاللغة المصرية تحتوي على عدد كبير من الكلمات كلها تعبر عن كلمة مركب . فالصنادل كانت تستعمل لنقل البضائع الضخمة التي تستخرج من الحاجر كذا المسلات والتماثيل الكبيرة . وقد ورد على جدران إحدى مقابر طيبة رسم تمثال لتحتمس الثالث ، وقد عومل أثناء نقله معاملة لا تقل كثيراً عما كان يؤديه الملك نفسه ، إذ وضع في تابوت لحابته وكانت تقدم له البخور ، والمركب التي تحمله كان يسحبها جرار (١٥) وكان ثمة صنادل ليس لها قرات كانت تستعمل لنقل المواشي . كما كانت هناك مراكب ذات قرات في الوسط ، تستعمل لنقل الجبوب ، وعند ما ترسو على الشاطئ كانت توضع سقالة مائلة ، قربت بموارض خشبية على أبعاد مختلفة ، ويصطف الحالون صفاً واحداً يلي أحدهم الآخر ويفرغون الحوالة ، ولكي يرفهوا عن أنفسهم كانوا يغنون أغاني تتفق ووقع خطواتهم : « هل سبق طول اليوم لتفريغ الشعير والقمح ؟ الجو صحو والصرايح ملئت حتى القمة . توجد أكداس كثيرة تحتاج إلى ملأها . . المراكب مكتظة حتى أن الشعير يتساقط منها إلى الخارج - يريدون منا أن نسرع هل يظنون أن قلوبنا من معدن ؟ » (١٦) وعند ما يصل الأسطول الصغير إلى المكان الذي يقصده ، كانت توضع السقالات على حافة الشاطئ وتزل الحيوانات وتفرغ البضائع . وعندئذ يصل النجار ويعدون مناظدهم أو رفوفهم ويشعلون أفرانهم . وسرعان ما يحتفل البحارة بنهاية الرحلة وهم يتناولون الطعام والشراب .

٢ - السفر في الصحراء

كانت الصحراء توحى إلى المصريين شعور الخوف والرهبة . فلم ينسوا أن أجدادهم كانوا قد طافوا في عهودهم التاريخية السحيقة كل أنحاء الصحراء

قبل أن يستقروا في وادي النيل ، وأن الإله مين Min أحد كبار معبوداتهم ، كان مقر عبادته في أبو Ipu وقط Coptos ويحكم المنطقة الممتدة بين هذه المدينة والبحر الأحمر . وكانت إقامته المفضلة في جبل مقدس منذ أقدم العصور وأول الأمكنة المأهولة في أرض اختيو Akhetiou (وأخيت Akhet هي البلاد التي تقع بعيدا عن الأرض المعروفة للصريين) وكان هذا الجبل يعتبر القصر المقدس الذي كانت تطله حياة حورس ، والعش الإلهي حيث ترعرع المعبود ومكان تسليته المقدس ، وأسمى الأمكنة في الأراضي المطهرة (١٧) كانت كل أنواع الأخطار تحيق بالمسافر الذي يجرؤ على المغامرة في أرتياد هذه الأراضي المطهرة دون أن يعد العدة لذلك ، كالجوع والعطش والمقالبات المفاجئة ، مع أن الأسد الذي كان يقترب من وادي النيل ويهاجم الثيران قد اختفى تماما . إلا أن الدئب والفهد والضبع كانت لا تزال مصدر رعب للأهالي .

وقد وجد حرمحب Horemheb نفسه . ذات يوم . أمام ضيع قوى كبير الحجم مفترس ، ومن حسن حظ هذا المحارب القوى أنه سبق أن اتى الكثير منها وكان مسلحا ، فدذاعه اليسرى نحو الوحش ، وييده اليمنى صوب نحوه الحربية ثم نظر إليه نظرة جعلته يتراجع القهقري ويختفي . (١٨) وكانت المنطقة التي تقع شرقي هليوبوليس مملأى بالثعابين التي تختبئ في الرمال . وكان المسافرون يلاحظون وجود كائنات غريبة في الصحراء مثل العقاب الذي يحمل رأس إنسان على ظهره والفهود ذات الأجنحة وفهود لها رقاب أطول من رقاب الزرافة وكلاب الصيد ذات الأذان المربعة والذبول الصلبة كالسهام (١٩) . وكان من المألوف مقابلة بعض البدو مثل القبيلة التي تقدم بعض أفرادها إلى حاكم منات خوفو في أحد الأيام ، وكان بعضهم

مسلحاً بالأتواس والسهم وعصى الرماية ، وكان يفود النساء والأطفال شيخ وكاهن ، كان يعزف على القيثارة^(٢٠) كانت هذه القبيلة مسالمة وكان مطلبها هو تبادل الحبوب نظير المذوق الأخضر والأسود الذي كانت تعمل منها القطارة والكحل ، ولكن بعض البدو الآخرين كانوا لا يفكرون إلا في السلب والنهب . ولحماية المسافرين ، أقيمت في الصحراء معابد صغيرة وقد اكتشف أخيراً في أحدها ، على الطريق الممتد بين هليوبوليس وشاطئ البحر الأحمر ، مجموعة تماثيل منحوتة تمثل رمسيس الثالث وإحدى المعبودات وقد غطيت بنقوش أخذ معظمها من نصوص قديمة عن موضوعات عديدة تقوم فيها نساء هورس بأدوار هامة^(٢١) كان الأفراد يقرأون هذه النصوص لو استطاعوا ذلك أو يكتبون بالنظر إليها أو بمجرد لمسها ، ثم يستمرون في طريقتهم وهم واثقون من الانتفاع برحمة الآلهة التي تكفها للملك نفسه .

أما بعض المسافرين الذين لم يستطيعوا ذلك ، جملاً منهم بتأمين أنفسهم بحماية المعبودات أو لعدم قدرتهم على حسن اختيار المرشدين الأكفاء ، فإنهم كانوا يصلون طريقتهم في الصحراء . وقد جاء في أقوال Antef ، الذي أرسل في عهد أمنمحات الأول في حملة إلى محاجر بجن Bekhen : « أرسلني ، ولائاً إلى روهانو لأحضّر هذا الحجر العجيب الذي لم يؤت مثله منذ عهد الآلهة . لم يعرف أى صياد مكانه ولا يمكن من الوصول إليه . وما أنذا قد أضيت ثمانية أيام أطوف هذه الصحراء قبل أن أعثر عليه إني أسجد أمام المعبودين مين Min وموت Mout الساحرة الكبيرة وجميع معبودات الصحراء . وقد أحرقت لهم البخور ، لقد أضيت الأرض ثانية في الصباح وبدأ يوم جديد وظهروا على جبل روهانو الأعلى Robanou »^(٢٢)

ويضيف الرئيس أن فرقة لم تشتت أثناء هذه الرحلة الوعرة ولم يصب أحد منهم بسوء في الطريق وبذلك أمكن تجنب الحوادث والعودة سالمين .

دفع هذا المهندس الملحوظ ثمناً غالياً لقاء خبرته في حياة الصحراء . ولقد أمضى الكثيرون من المصريين كل حياتهم هناك بحثاً عن الموارد الطبيعية واستغلالها والطرق التي تؤدي إليها ، كما أنهم شغفوا بحياة التجول . وأحدهم سانخ Sankh الذي كان قائد شرطة الصحراء واشتغل على عمال الإقليم المصري ورئيس حملة الحراب في النهر ، فقد قاد عدداً من الحملات والبعثات وزودها بالإمدادات من قرب المياه والملابس والخبز والجمعة والحضروات الطازجة ، الأمر الذي يبدو كما لو أنه قد حول وادي روهانو Rohanou إلى مراعي خضراء ، وجبل بجن Bekhen إلى بحيرة ماء ، وكان وهو في سن الستين رب عائلة مكونة من سبعين ولداً ، مثل عائلة أبينا يعقوب ، وكان يتجول في الصحراء دائماً من طاعاوو Taou إلى منات خوفو Menat Khoufou إلى الأخضر العظيم (المحيط) مقتنصاً خلال ذلك الطيور والحيوانات الندية (٢٣) . وبفضل هؤلاء الرواد الذين لا يكون أصحابهم لدينا خرائط مثل تلك التي يحويها متحف تورين ، والتي تعتبر بحق أقدم خرائط العالم وهي تختص بمنطقة المهاجر ومناجم الذهب التي يطلق عليها مناجم فقط . وقد رسمت لأراضي ولونت بالأحمر الفاقع بينما لونت الجبال بمسحوق حجر التوتيا الفاق ، ورسمت عليها أقدام طول الطريق لتدل على الاتجاه ، كما رسم قصر ليدل على موقع الخرائب الذي أقام فيه سيتي Setoui لوحة تذكارية . (٢٤)

وقد سبق أن أشرنا إلى ما بذله سبتي وابنه من مجهودات كبيرة للبحث عن المياه في هذا البلد الظمآن والذي اشتهر بالجفاف ، ويفتخر رمسيس

الثالث دواما بأنه شيد بترأ كبيرة للياه في صحراء أيان Ayao وأحاطها بسورتين جداً كأنه جبل شاهق . وكانت أبواب المدخل من خشب الصنوبر أما الأقفال والمفاتيح فقد صنعت من البرونز. (٢٥)

وكانت تنمو في بهنر وديان الصحراء الشرقية شجرة لها قيمتها ، هي شجرة البطم* . وكان يؤخذ منها الصمغ سوتى Soné الذى كان يحرق في المعابد والقصور والمنازل الخاصة ، ولا شك أن البخور الذى كان يرد من بلاد بونت ، كان يرضى الآلهة أكثر من البخور المحلى . وعندما اقتنع البحار الفريق بأن الثعبان الذى يحكم الجزيرة ، التى آقت به العاصفة عليها لم يكن متوحشا كما كان يظهر عليه ، وعده بأن يقدم له بخور شجرة البطم (التربنتين) . ولكن الثعبان ابتسم لسذاجته وقال له : « ليس لديك الكثير من البخور بالرغم مما تمتلكه من التربنتين ، ولكن بالنسبة لى ، فإنى حاكم بونت». (٢٦)

ولم يكن البخور متوفراً دائماً بطبيعة الحال ، فكان الصمغ يحل محله ، وعندما كان يلقى فوق النيران المتقدة في المباخر ينتج رائحة طيبة تشتمها في لذة أنوف الآلهة والبشر على السواء . ولم يكن من المغالاة في شيء إحراق هذه البخور أثناء ذبح الحيوانات في أقدية المعابد وحتى في البيوت ، كي تظهر الأماكن وتزيد الديدان والحشرات وزيادة في تعطير المنازل وإفاحة عيورها . وكان النحل يتردد دائماً على غابات تلك الأشجار ، كما كان يتردد عليها نوعان من الصيادين ، أحدهما لجمع الصمغ وقطع الفسول التى يمكن زرعها في حدائق المعابد والفريق الآخر لجمع العسل البرى الذى كان طعاماً شهيماً ، يستهلكه بكيات كبيرة . ولقد أنشأ رمسيس الثالث فرقاً من الشرطة ومن

* هي شجرة صمغ التربنتين - البخور - ويطلق عليها أيضاً شجرة السرو

رحلة الأقواس لحراسة القوافل . وإليه يرجع الفضل في ان المسافرين كانوا يشعرون بالأمن في تلك الصحراء الجرداء غير المضيافة ، كما لو كانوا في تو ميرى Tomery الأرض المحبوبة .

٣ - السفر إلى جبيل

كان المصريون القدماء ، يعتبرون البحر أيام ١٥م معروداً جشعاً . فعندما وقع بصر هذا الإله على المخلوقة الجميلة التي منحها الآلهة ليتارو Bytaou شريكه له في حياته ، غمر الأرض لينزعها منه .

ومع ذلك ، فلم يتراجع المصريون أمام أخطار الصحراء ، وجروؤوا على مجابهة هذا الإله المخيف . وكان لبهارتهم خبرة طويلة بشواطئ سوريا . وفي العهد الذي عاشت فيه الآلهة على الأرض كان تابوت أوزيريس ، الذي أنقاه ست في النيل ، قد عبر الفرع النديسي ودفعته مياه البحر إلى جبيل حيث ابتلعه إحدى الأشجار . وانجعت ايزيس بدورها إلى هذا المكان العجيب ، وجلست بجوار نبع ماء أنت إليه خادماة الملكة لئلا نجرارهن ، فأخذت ايزيس تسرح لمن شعورهن وقد أضفت عليهن غير راعيتها الجميلة المنبعثة من جسدها . أما ملكة جبيل فقد تأثرت تأثراً بالغا بما أبدته ايزيس من طيبة خالصة ، وأعطت إلى هذه الإلهة الشجرة المقدسة التي كانت تضم جثة زوجها . وهكذا بدأت العلاقات الطيبة على أسس قوية بينهما وقد رغا ألا تنفصم أبداً . كان المصريون يبحرون إلى هذه الميناء الصغيرة التي تسمى كبن Keben . وكانوا يحملون الهدايا إلى ملكة جبيل ، وقد شيدوا لها

معبدًا عاونهم أهل البلد في إقامته ، كما قدموا لذلك هدايا جميلة ترحيبًا بلقائه وأواني من المرمر وحليًا وتماثيل ، وكان المصريون يعودون إلى بلادهم يحملين بالبخور وأواح من أخشاب الصنوبر والبلوط ومراكب كاملة العدة ، وقد كانت كلمة كينيت Kebenit وهي مشتقة من الكلمة المصرية كبن Keben ، الاسم المصري لجبيل تدل دون غيرها على المراكب التي تبحر البحار . كان المصريون والأسبوريون يشتبكون في القتال أينما تقابلوا ، في سيناء أو فلسطين أو الكرمل أو في ريتنو العليا * Retenou ، ولكن كان هناك مكان واحد في سوريا يحتجى بهم فيه : وهو جبيل ، ومع ذلك فقد حدث في وقت ما أن قتل بعض المصريين هناك ولم يكن الجناة تجارا ولا بحارة من جبيل ، بل كانوا من البدو الذين يرتادون الفيافي ، وهم الذين يترصدون دائما لمصر ويفقدون بها ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا (٢٨) .

وبمرور الزمن وسع المصريون منطقة نفوذهم وكان مبعوثوهم في الدولة الوسطى يترددون على بيروت وقطنه ** Qatna وأوجارت *** Augarij ويتركون آثارا تدل على مرورهم بهذه الأماكن على هيئة تماثيل وأبو الهول ولكن جبيل كانت دائما في المقدمة ويحتفظ بمرتبة ممتازة وكان ملكها يفتخر بأنه يحمل لقب « أمير مصرى » ، وكان غورا أيضا بثقافته المصرية . وقد شيد لنفسه مقبرة تائق المقابر الفرعونية أعدها طبقا للتقاليد المصرية ووضع فيها بعض الأشياء الثمينة التي أرسلت إليه مباشرة من ابني تاوى ItyTaoui العاصمة المصرية . أننا نجهل ما إذا كان أهالي جبيل

* رتنو تعنى سوريا

** قطنه - موقعها الحالي قريب من حمص - مغربية

*** أوجارت - موقعها الحالي هوراس شمرا شمال اللاذقية ، وهذا الموقع هو أقصى

ما وصل إليه الفينيقيون في الألف سنة الثانية قبل الميلاد .

قد تغلوا عن اصداقهم في محنتهم أثناء غزو الهكسوس لبلادهم . ومهما كان الأمر فقد توقف السفر بطريق البحر . وتساءل الأتقياء عن كيفية الحصول على خشب الصنوبر آش Ach الذي كانت تصنع منه تواييت الكهنة والصمغ اللازم لتعطير تلك التواييت . إن توقف الاتصال بهذه البلاد أدى بنتائج أخرى وخيمة : إذ أن المراكب المقدسة وصواري الأعلام التي كانت توضع في واجهة المعابد وتعلو صروحها بعدة أذرع ، وأنواعا أخرى من الأثاث ، كانت كلها تصنع من خشب الصنوبر . لقد انقضى هذا العهد السكريه وحل محله عهد آخر أفضل : فعندما استردت مصر أملا كلها عادت إلى الاتصال بجيبيل ، ولم ينس تحتمس الثالث الوقوف في جيبيل أثناء حملاته المظفرة . وحصل من حليفته على كمية من الأخشاب والمراكب تفوق ما سبق أن حصل عليه جميع الفراعنة القدماء . وعندما تأمرت سوريا ، فيما بعد ، مع أعداء مصر ، بقى ريبادى Ribaddy على ولائه لأمحتب الثالث ولخليفته . وقد حفر رمسيس الثاني لوحات تذكارية على شاطئيه نهر المكب بين بيروت وجيبيل وفي وادى آش Ach حيث كتب أحد رواة عصره مغامرات يبتار Bytaou ، كما أنشأ مدينة تحمل اسمه ، ووضع لوحات تذكارية في معبد بجيبيل . وكان ملك جيبيل في وقته يدعى أحيرام Abiram وكان مثل كل رعيته يتكلم اللغة المصرية ويكتبها ، أما اللغة الأصلية فكانت تكتب بحروف أبجدية تعتبر تبسيطاً للهيروغليفية (٢٩) . ويحتمل أن يكون اقتباسها قد تم في جيبيل نفسها .

كان الفراعنة المحاربون في الأسرة الثامنة عشرة يصرون على أن يمر رسلهم بجميع أرجاء سوريا دون أن تعترضهم أية مضايقات . وكان هؤلاء الرسل يستقبلون استقبالا طيبا في جيبيل ، ولكن فيما بعد ، في آخر عهد

الزعامة وفي أوائل الأسرة التاسعة عشرة تغيرت الأحوال ، فالملك زكريا Zékériah الذي خلف بعد زمن طويل ملكه كاندرو Melcandro الذي كان قد أحسن معاملة إيزيس ، لم يتردد في أن يعرض على الرسول المصري أن يريه مقابر عدد كبير من رسل خايم حات Kbaemhat عاشر ملوك الزعامة ، أولئك الذين ماتوا في جيل ، بعد أن قضوا مدة طويلة في الاسر (٣٠) . أما أونامون Ounamon فقد كان أسعدهم حظا ، إذ حصل بعد صبر طويل على التصريح له بالخروج من الميناء ومعه جمولته من الخشب ، ولكن ذلك التوفيق يرجع إلى رعاية آمون حامي الطرق الذي كان أونامون يحتفظ بتثاله ضمن ما كان معه من متاع .

على أنه ينبغي أن نذكر ، ان حالة أونامون كانت حالة خاصة نوعا ما ، فعندما ما كلفه كاهن آمون الكبير بإحضار الأخشاب اللازمة للركب المقدس المسما آمون أرسر حات Amonousirhat التي كانت تخرج عباب النيل أثناء فصل الفيضان ، بين الكرنك والاقصر وسط هتاف الشعب المتحمس ، توجه أولا إلى تانيس لدى سمندس Smendes وزوجته تنتامون Tentamon اللذين كانا الحكام الحقيقيين للبلاد قبل أن يعترف بهما ملكا وملكه عليها . وقد أعدت له مركب تحت قيادة من يدعى منجا بوتي Mengabouti . وبعد أسبوعين تقريبا وصل إلى بحر سوريا الكبير وتوقف في مدينة دور Dor إحدى مدن شعب الصقال Sakkaes ، وبينما كان ينقل إلى مركبه الإمدادات المكورة من عشر سلال من الخبز ، وإناء واحد من الخمر وكشف بقرة ، هرب أحد بحارته ، ومعه السكز المسكون من : ٥ ورنات دين من الذهب و ٣١ وزنة من الفضة . وقد تأثر أونامون كثيرا ، فرسا على الشاطئ وذهب إلى باديل Badil ملك البلاد وأخبره بما حدث : فأجابه حاكم شعب الصقال :

« سواء رضيت أو لم ترض ، فإنى لا أعرف شيئا عما تحدثنى عنه . وإذا كان اللص الذى كان فى سفينتك وسرق مالك يلقى إلى شعبي ، فسوف أعوضك عن خسارتك من مالى حتى نقبض على اللص نفسه ، ولكن إذا كان اللص الذى استولى على مالك من رجالك فامسك هنا بضعة أيام حتى نبحث عنه ، « كان معنى هذه الإجابة واضحاً . فبعد تسعة أيام لم يعثر إلا على المال ولا على اللص . وقد نجح أرنامون فى اقتراض ٣٠ وزنة دين من الفضة وأبحر إلى جبيل فى مركب وجدها فى صور .

ورفض الملك زكربعل مقابلته لمدة تسعة وعشرين يوماً ، ولكنه قرر مقابلته أخيراً عندما أمره آمون إله طيبة بذلك على لسان أحد رجال حاشية زكربعل الذى قبض عليه . وأصدر إليه الأوامر الآتية : « احضر المعبود هنا واحضر رسول آمون الذى معه . ابعث به إلى ودعه يرحل . »

وفى اليوم التالى صعد أرنامون إلى القصر ووجد الملك جالسا على عرشه وقد أوى ظهره للشرقة ، التى كانت أمواج بحر سوريا الكبير تتلاطم خلفها . وكانت المقابلة خالية من الود ، وقد أدانت الحقائق أرنامون قبل أن يذهب كرسول رسمى فى إحدى سفن سمندس ويظهر أوراق اعتماده ، فإنه توجه إليه دون أن يحمل أية أوراق رسمية مستقلام كبا عاديامصادفة . ومنع ذلك نجح أرنامون فى شرح موضوع مهمته قائلا إنه جاء للبحث عن أخشاب الفلك المقدس آمون زرع سونثير Amourâsonter فرد عليه الملك : « كان أهلى ينفقون فيما مضى هذه التوصيات لأن فرعون له الحياة والصحة والقوة أحضر ست مراكب بحملة من خيرات مصر ويسع فى مخازنى . قبل أنت الذى ستدفع لى استحقاقى ، واستمرت المناقشة على هذا النحو . لقد أحضر فرعون كشف الحساب وأمر بقراءته فى حضورى وقد وجدت فى دقايره ألف

وزنة دين من الفضة ثم قال لى : لو كان ملك مصر مولاي ولو كنت خادما له لما أرسل الذهب والفضة قائلا : نفذ طلب آمون دون أن تقدم له عطايا لأن هذا هو مافعله لوالدى . ولكن بالنسبة لى فإنى قطعا لست خادما لك ولا للذى أرسلك . . . فأجابه أونامون وهو يؤكد قوة آمون رع سوتير إله الحياة والصحة : إنه إله آبائك الذين قضوا مدة حياتهم فى خدمة آمون ، وأضاف : « وأنت أيضاً خادم آمون . . إذا قلت أنا سوف أعمل . . أنا سوف أعمل لخير آمون ، وإن أنت اهتمت بأمره ، فإنك سوف تعيش سلبا وفى رغد من العيش متمتعا بصحة جيدة وسوف تكون بارا بالبلد كله ، وسوف يتمنى لك رجالك أن تنعم ببركات آمون رع سوتير ، وبعد تبادل هذه الآراء شحن ذكر بعل فوق سفينته أخشابا لمقدمة مركب ومؤخرتها وأربع كتل وقطعة أخرى ، وأرسل كل ذلك إلى مصر مع خطاب من أونامون ، عندئذ أرسل سمندس وتفتامون بضائع وذهباً وفضة . وأيضاً ما يلزم لأونامون شخصيا من ملابس وطعام . وقد سراً الملك . وبصرف النظر عن تمنيات آمون التى أراد الرسول أن يكتبها بها الملك ، وبدون أن يبدى اهتماما بهديدهاته فقد أمر أن تنقل البضائع المصرية إلى المخازن ، وهين ثلاثمائة رجل ومثلها من الثيران ورؤساء عليهم ، ثم قلع الأشجار وسحبت بعد انتهاء الشتاء إلى الشاطئ . ويلوح أنه لم يكن أمام أونامون إلا أن يرحل ومعه أخشاباه ، ولكن لم تهر الأحوال بهذه السهولة ، وجد ذكر بعل أنه لم يدفع له مبلغا كافيا . ثم يطلب منه أونامون — فى لهجة جادة — أن يحفر على لوحة تذكارية : « أرسل إلى آمون رع سوتير رسوله ، آمون حامى الطريق ، له الحياة والصحة والقوة . مع أونامون رسوله الأدنى طالبا أخشابا لمركب آمون رع سوتير المقدسة ، لقد قطعت الأخشاب وشحنتها فوق السفينة . وقد تم نقلها بواسطة مراكبي ورجالى ، لقد أمرتهم أن

يجروا بها إلى أرض مصر لينحني آمون وخمسين عالما من العمر ، أكثر مما هو مقدرلى . هكذا يكون . ثم يضيف أو نامون المحب للزواج : « وعندما يقرأ أى مصرى اسمك مدرنا على هذه اللوحة فإنك سوف تنال المياه المقدسة من أمنتيت Amentit ومن كل الآلهة الموجودة هنا » .

وصرح ملك جبيل ، المغلوب على أمره ، بأن هذا عدل ووعد أو نامون أن كبير كهنة المعبود آمون ، بعد أن يطلع على تقريره سوف يرسل إليه بعض الهدايا .

ويستتج المعلقون المعاصرون من هذه الواقعة أن مصر كانت ضعيفة وفى حالة يرثى لها من المهانة فى عهد سمنس . والواقع أن فرعون ، حتى فى عنفوان قوته ، لم يعتبر ملك جبيل تابعا له أو مغلوبا على أمره ، يجب عليه أن يسلم أخشاباه دون ثمن ، وكان على الرسول المصرى أن يتقدم بخطاب رسمى ومعه ذهب وفضة وبضائع ، وبعد أن يتسلم ملك جبيل هذه العطايا ، وافق على إعطاء الخشب . وبعد ذلك يمكن تبادل البركات وعبارات الشكر . وكان فرعون يزود رسوله ببعض الهدايا التى كانت لا تكلفه شيئا مثل النماش ونماله . ويتسلم ملك جبيل هذا التمثال نفورا به ويحفر عليه بالكتابة الفينيقية التمنيات بأن تطيل معبودة جبيل سنوات حكمه . وقد استمر هذا التقليد متبعاً منذ زمن الآلهة .

وبعد أن ترك أو نامون ميناء جبيل تخلص من مضايقات شعب الصقال الذين كانوا يترصدونه ، ولكنه وقع فى أيدى أهالى جزيرة قبرص الذين أرادوا قتله . ولما كانت نهاية البردية ممزقة فلم نعرف بالضبط كيف تخلص من هذا الخطر الجديد ، وثابت أنه تمكن من النجاة . وقد عرفت شعوب البحر وبدأ الناس يتحدثون عنهم فى عهد رمسيس الثانى ومنذ ذلك الوقت أصبح

وجودهم خطراً جديداً يهدد البحارة المصريين، ولكن لم تتوقف الحركة أبداً. ولدينا شاهد صريح على ذلك يرجع إلى عهد رمسيس الثالث. ولقد أقيمت لك (لأمون) مراكب ووسائل نقل ومراكب كبيرة ذات أقواس وسرودات بما يلزم لها من أدوات لتتمخر عباب البحار. وقد زودت المراكب برؤساء من رماة السهام وربانة مصحوبين بعدد وفير من الرجال يفوقون الحصر، لنقل خيرات بلاد فينقيا والبلاد الأجنبية في أطراف المعمورة إلى مخازنك العظيمة في طيبة المنتصرة. (٣١)

وجدير بالذكر أن فرعون لم يعتمد على آمون وحده. فقد أرسل فرقاً من رماة السهام تحت قيادة حكيمة، أحسن تسليحهم وكان واجهم حماية المراكب ضد كل عدوان والعمل على احترام مبعوثيه عندما يكونون فوق اليابسة.

٢ - السفر في البحر الأحمر

كانت بلاد بونت هي هدف السفر في البحر الأحمر، وتقع خلف بوغاز باب المندب على ساحل الصومال وساحل بلاد العرب الذي يواجهها، كانت هذه هي بلاد البخور والنبان الطيب الذي عرفناه في قصة البحار الغريق أعلن عن نفسه أنه حاكم بلاد بونت أيضاً وفي نفس الوقت سيد البخور أنتي Anti.

وكان المصريون يترددون على بلاد بونت منذ عهد الآلهة. وقد نظموا في عهد الدولة القديمة خطاً ملاحياً يربط جيبيل، على ساحل سوريا إلى شاطئ بلاد بونت أي من مدرجات أشجار البلوط إلى مدرجات شجر البخور (٣٢) وتبحر المراكب من جيبيل حتى تصل إلى الشواطئ المصرية ثم تسير في

الفرع التيمى للنيل حتى ببوسطة وتصل بواسطة قناة إلى وادى الطوميلات الذى يمكن أن يعتبر أقصى الفروع الشرقية لنهر النيل . ولم يكن الوادى صالحاً للملاحة طول العام ، واسكن فى زمن الفيضان ، عندما ترتفع فيه المياه يمكن أن تسير فيه المراكب المصرية ذات القاطس غير العميق ، وتصل هذه المراكب إلى خليج السويس بعد أن تعبر البحيرات المرة ، وتستمر فى رحلتها البطيئة حتى بلاد بونت ، والبدو الذين يعيشون فى الصحارى والذين عرفوا بضراوتهم كانوا ينقلون المسافرين والبضائع بالطريق البرى من سوريا إلى بلاد العرب قد حارلوا دائماً عرقلة سير الخط الملاحي ، وقد شن بيبي الأول Pepi I عدة حملات حربية ضدهم ، ولكن محاولاتهم العدوانية قد عادت من جديد ، ويظهر أنه بعد حكم بيبي الثانى ، توقفت هذه الرحلات بعض الوقت ثم استؤنفت ثانية فى عهد الدولة المتوسطة ، ثم توقفت أثناء احتلال الهكسوس ثم بدأت الرحلات تعود إلى ما كانت عليه ، فى عهد الملكة حتشبسوت وحافظ على ذلك تحتمس الثالث وأمنحتب الثانى ورحمب ورمسيس الثانى ورمسيس الثالث (٢٢) . ولأجل ربط عاصمة مملكة فى الدلتا بالبحر الأحمر أثناء حفر رمسيس الثانى قناة البحرين التى كلفته نفقات باهظة . وقد وجدت بقايا هذه القناة أثناء حفر قناة السويس الحالية . وعلى طول القناة كانت توجد مدن فى رمسيس وبوسطة وبيثوم كما أقيمت بعض لوحات تذكارية من الجرانيت فوق قواعد عالية لتبين للمسافرين فى البحار المأخوذ من العجب مدى عظمة الملك و ضخامة مشروعاته الجريئة (٢٣) .

ولنفترض أن المراكب التى وصلت من سوريا قد أفرغت حمولتها من المسافرين والبضائع على أرصفة مدينة فى رمسيس وستشحن حملة أخرى إلى بلاد بونت ، فهذه عادة مراكب كبنت Kebenit أى أنها من طراز

جبل ، شيدت إما في جبل نفها ، ويعد للمصريين بواسطة اللبنانيين ،
وأما أنها قد شيدت في الأحواض البحرية المصرية ، على طراز مراكب
جبل ولكن من خشب استورد من سوريا . ولدينا ريمان للمراكب ،
يرجع أقدمهما إلى عهد ساحورع Saboure ويرجع الثاني إلى عهد الملكة
حتشبسوت* (٢٥) . على أنه خلال هذه الفترة التي يبلغ مداها أكثر من
ألف عام لم يتغير شكل المركب تقريباً . فبكل المركب عال . في مقدمته
كبش ينثى بانحناء وينتهي على هيئة مظلة كبيرة ، وفي المؤخرة مرتفع
ينحني إلى الداخل وتنتهي الرأس على هيئة البردى . وفي كل من المقدمة
والمؤخرة نقطة للملاحظة ، وعلى جانبي المركب دفتان على مقربة من
المؤخرة . ويربط جبل كبير قوى هيكل المركب التف على أوتاد أربعة
أعمدة . وللمركب صار وحيد في الوسط ثبت عليه شراع من قماش
عرضه أكبر من طوله وتحكم فيه أربعة حبال . وعدد البحارة كبير فعندما
تهب الرياح ولا تؤثر على الشراع يقوم البحارة عندئذ بالتجديف .

وهؤلاء البحارة عنكون . « إنهم رجال رأوا السماء ورأوا الأرض ،
يتسمون بحرص الوحوش الضارية يمكنهم التنبؤ بهبوب العاصفة » ، وكان
يسافر معهم ممثلون لجلالة الملك وبعض الكتتاب والجنود ويشحنون
المراكب بالمحاصيل المصرية الطيبة التي يقدرها تماماً أهالي بونت مثل الملابس
وأدوات الزينة والمرايا والأسلحة . وتسافر المركب بعد أن يودع الملك
القافلة . وتسير في القنوات وتمر بينثوم حيث يبذل العبرانيون الجهد
الكبير في صناعة القرميد ثم يصلون إلى البحر الكبير** .

* يرجع عهد ساحورع إلى عام ٢٥٠٠ قبل الميلاد وحتشبسوت إلى ١٥٠٠ قبل الميلاد

** البحر الأبيض المتوسط

وعلى أحد شاطئيه أراضى الآلهة رأى أحد الراصدين المراكب المصرية وأعلن عن وصولها فخرج الملك والملكة والرؤساء من الأكواخ المقامة فوق أعمدة على سطح البحيرة واعتلوا ظهور الخيل ليروا المصريين . وهم مثل المصريين ضخم الأجسام ، عراض الأكتاف ، ورؤوسهم مستديرة وذقونهم مضمفورة ، مثل صفائر الآلهة والفراشة في وادى النيل ، والفرق الوحيد أن ذقونهم طبيعية بينما ذقون المصريين مستمارة . وتتدل من أعناقهم حلقات مستديرة على مثال ماهو متبع عند السورين . وهىئة الملكة عجبية ، فهى عبارة عن كتلة من اللحم المكتنظ ويعجب الإنسان كيف تستطيع أن تتحرك ، وابتها ولو أنها شابة صغيرة فإنها لا تختلف عنها كثيرا وتكاد تضارها فى الحجم وقد لحظ الرسامون المصريون كل هذا العالم الجديد عليهم بكل ما أوتوا من مواهب ودقة ملاحظة ، ولكن هل سجلوا مستقبلهم خلسة رسما كروكيا على قطعة من ورق البردى ، أم أنهم قد ثبتوا المنظر فى ذاكرتهم ورسومه بعد أن عادوا مطمئنين إلى المركب تذكرنا لرحلتهم . وعلى كل حال ، فقد رسموا لهم لوحة رائعة وسجلوا فى إخلاص عجيب كل ماهو جدير بالتسجيل مثل الملك والملكة والقرية والآهالى ، كما رسموا الأسماك والمخار .

وسرعان ما أقيمت خيمة تبودلت فيها تحيات الوصول ويعد الآهالى بكل تقوى ، آمون رع المعبود الأزلى الذى يزور الأراضى الأجنبية . وكانوا كلهم سعداء برؤية المصريين ، ويمرفون جيدا ماذا يريدون ، ولكنهم تصنعوا الاستغراب وسألوهم : ولماذا جئتم إلى هذه البلاد غير المعروفة للناس ؟ هل زلتم من السماء ؟ هل جئتم بالطريق البحرى أم بالطريق البرى ؟ ما أشد خصوبة أرض الآلهة ، التى تطأها أقدامكم . إنه رع ملك توميرى ، لا يوجد عرش بعيد عن جلالاته ، نحن نعيش على النسيئة التى يمنحها لنا جلالاته . .

وتنفيذاً لأوامر القصر (المصرى*) له الحياة والصحة والقوة ، يقدمون للحكام خبزاً وجمّة ونبيذاً ولحماً وفاكهة وكل الأشياء التي في نوميدي .
وهاك قائمة بما سوف يشحن على مراكب المصريين ، وهم لا يخسرون في المبادلة شيئاً :

أجل جذور أشجار تنوتير Tenoutie الطيبة - كيات وافرة من بذور أشجار البخور - شتلات خضراء من أشجار البخور ، خشب الأبنوس والعاج ، ذهب عامو Amou الخام ، ثلاثة أنواع من الروائح العطرية هي : تشيسيس Tichepses وخاسيت Khasyt وراحت Ihmet والتربتين وكحل أسود ونوعان من الفسائيس ، وكلاب صيد ، وجلود فهد الجنوب وعبيد وأولادهم . وكانت كل هذه الأشياء ثمينة جداً ، ولكن القوافل التي تأتي من النيل الأعلى كانت تحمل أيضاً الأبنوس والعاج وجلود الفهود ومنتجات أخرى ، ولكن الشيء الذي لم تحضره والذي يستحق مشاق الرحلة وعناطرها كانت أشجار تنوتير وحبّات البخور وفوق هذا أشجار البخور وعددها واحد وثلاثون والتي كانت مغلقة كما لو كان قد قام بتجهيزها أمهر هستان في فرنسا - لأن الأشجار كانت عالقة بها جذورها والقربة التي تثبت فيها .

ولا نعجب إذا كان المسافرون السعداء قد استقبلوا بكل حماس وترحاب لدى وصولهم إلى رصيف أبيت إيسوت Apit-esout (الكرنك) ، والمحالون الذين يسعدهم أن يجهدوا أنفسهم في خدمة الملك يتحدثون إلى الأشجار الخضراء كأنها يتحدثون إلى كائنات مقدسة قائلين لها : دكوني

سعيدة معنا يا أشجار البخور ، التي كنت في بلاد توتير ، في مفرك الجديد بين أملاك آمون ، سوف تزرعك الملكة ماكارع في حديقتها على جانبي معبدها كما أمرها بذلك أبوها .

وقد سأل أهالي بونت زائريهم عما إذا كانوا وصلوا بالطريق البري أو بطريق البحر ، فللوصول فعلا من مصر إلى بونت كان يمكن اختيار أحد الطريقين ، وقبل عهد الرعامسة وحتى قبل عهد الملكة حتشبسوت ، في عهد الأسرة الحادية عشرة ، سافر أحد الرواد المسمى Henou من مصر إلى بونت ، وعاد منها متخذاً الطريق البري أحيانا ، وأحيانا في مركب . وقد كلفه مولاه بشراء بخور طازج لمشايخ الصحراء وكان عليه أيضا أن يشيد بقوة فرعون ويجعله مهاباً ، لذلك كان الهدف من رحلته تحقيق غرضين : الأول تجارى والثانى سياسى ، إذ قال : « رحلت من فقط متبعاً الطريق الذى رسمه جلالة الملك . ورافقنى جنود ينتمون إلى الجنوب فى أملاك أوابوت Oubout من جبلين إلى شاييت Chabit وكان كبار الموظفين المالكين وأهالى المدينة والريف يتجمعون ويسرون خلقى ، وكان جنود الطليعة يفتحون الطريق أمامى لكي يقضوا على أعداء الملك . وقام أبناء الصحراء بحراستى ، وكل هيئة موظفى ديوان جلالتة كانت تحت إدارتى ، وكانوا يتراسلون بواسطة الرسل ، ويتجرد أمر واحد يصدر يجب جلالتة الملايين . »

« قمت مع جيش تعدادة ٣٠٠٠ رجل ، غبرت الطريق البري إلى الطريق النهري وغيبرت البلاد الحمراء (الصحراء) إلى أرض الأعشاب ، وكنت أمتنع قرية ماء وعصا وجرتين من الماء وعشرين رغيفاً يومياً لكل رجل وكانت

الحير تحمل الجرار ، وإذا تعب أحدها حل محله آخر ، وقد حفرت في الوادي اثنتي عشرة بئرا وبئرين في ابداحت Idahet سعة كل منهما عشرون ذراعاً في ثلاثين . كما حفرت بئرا آخر في اياحتبتيت Iaheteb وكان سعتها عشر أذرع من كل جانب عند نقطة تجمع المياه .

، وهكذا وصلت إلى البحر الكبير ، بنيت هذا المركب وأتممت شحنها بكل شيء ، وقدمت له ذبيحة كبيرة من العجول البرية والعجول الأفريقية والماشية . وبعد أن ذهبت إلى البحر الكبير نفذت ما أمر به جلالتة وحملت له كل المحاصيل التي وجدتها على شاطئ أرض الآلهة (توتير Tonoutir) . ثم عدت بطريق واج Ouag وروهانو Rohanou وأحضرت معي أحجاراً رائعة لتماثيل المعابد ، ولم يسبق أن أرسل إلى القصر الملكي ما يماثلها كما لم يسبق أن قام أحد بمثل هذه المهمة من معارف الملك منذ عهد الآلهة . (٢٦)

ومن هذا يتضح أنها رحلة على نطاق واسع . فقد قطع هينو الصحراء ومعه ٣٠٠٠ رجل بإرشاد أبناء الصحراء المتصلين بالقصر ، وانجهوا نحو الجنوب الشرق بدلا من ارتياد الطريق العادي المتجه رأساً نحو الشرق وقد اشتغلوا جميعاً في حفر الآبار حتى وصلوا إلى المنطقة الساحلية حيث أنشئت فيما بعد ميناء برنيكا Bérénica الصغيرة ، هناك بنوا مركبا ، كما يؤكد ذلك بالآدوات المستوردة من لبنان والتي وصلت بطريق البحر . وقد وصلوا إلى بلاد بونت وزاروا شاطئ أرض الآلهة واشترى هينو البخور وكل منتجات هذه البلاد . وفي العودة وصل بالطريق البحري إلى القصير حيث اخترق وادي روهانو وتوقف لا يستريح ولكن لإعداد شحنة مركب من أحجار تصلح لمصانع النقش والنحت . وقد انتفع هينو من خبرته وأمضى وقته على خير وجه واستحق أن يسجل اسمه مع قدامى الرواد والمكتشفين

في التاريخ . وعندما حاول الروماني ايليوس جالوس Aelius Gallus الذي عاش في عهد أغسطس أن يقتدى به ويقوم بمثل رحلاته لقي أشد العناء . (٢٧)

وانتفعت بهذه الخبرات الحملات التي نظمت في عهد رمسيس الثالث إلى بلاد بونت متخذة الطريق البحري ، وقد نظم هذا الملك البعثات وزودها بوسائل قوية فكان الأسطول يتكون من مراكب كبيرة ، كثيرة العدد ومراكب للحراسة يتكون أفرادها من بحارة وحمله الأقواس وروؤسائهم وأفراد للإمدادات ، وقد شحنوا معهم كميات وفيرة من الطعام والملابس والبضائع لأجل إطعام رجال الحملة ، ولغرض التبادل في المعاملة وطبقا لما ذكره المؤرخ المسجل المصري ، لم يسافر هذا الأسطول من البحر الأحمر ولكن من بحر موقيدى Mouqedi وربما لم يكن غير الخليج الفارسي لأن موقيدى « مياه بلاد قيدي » في بلاد النهرين Nabarina كان هو الاسم الذي أطلقه المصريون على نهر الفرات . (٢٨)

ويمكن أن يكون رمسيس الثالث قد وفق في جلب خشب الأرز من لبنان ونقله إلى الفرات كما سبق أن فعل تحتمس الثالث (٢٩) وشيد أسطولا على شواطئه هذا النهر . وربما اتفق مع ملك بابل وأبرم معه معاهدة تقضى بأن تسمح لأفراد قواته وموظفيه بمجرد أن تصل إلى الفرات أن تعبده وأنتم الرحلة على مراكب بابل . ومهما يكن الأمر ، فإن الأسطول الذي يحمل مبعوثي رمسيس الثالث كان يتعين عليه أن يمر عبر عباب نهر الفرات ويدور حول شاطئيه شبه الجزيرة العربية حتى يصل إلى بلاد بونت دون أن يتعرض لأحداث بفضل النفوذ والخوف الذي يثيره اسم فرعون .

وكانت الأحوال وقتئذ تسير ، كما كانت عليه في عهد الملكة حتشبسوت ، فكان المصريون على علاقة طيبة بالأهالي ، يعطونهم هدايا فرعون ثم تعود

المراكب والسفن محملة بمنتجات تونوتير Tonotir وبالعجائب الخفية التي توجد في جبالهم ، دون أن ينسى بصفة خاصة ، حبات البخور الجافة ، ثم يبحرون البحر الأحمر حتى خليج السويس حتى يصلوا إلى وادى النيل عن طريق قناة بيتوم ، وفي هذا الوقت كان أبناء زعماء أرض الآلهة (تونوتير) ينزلون من المراكب قرب مينائى برينكا أو القصير ومعهم منتجاتهم ، ويسيرون على هيئة قافلة حاملين بضائعهم على ظهور الحمير وعلى أكتاف الجمالين ، ويصلون فى حالة جيدة إلى جبل فقط ومنها يركبون القوارب النهرية حتى يصلوا إلى طيبة فى حالة معنوية جيدة وكما لو كانوا فى أعياد . . انتهى الملك حديثه : . عرضت أمامى المنتجات والعجائب ، وكان أبناء أمرائهم يحبون وجهى ويقبلون الأرض ويفطحون على بطونهم أمامى . لقد أعطيتها لمجموعة الآلهة الكبرى والآلهة البلاد كلها ، لىكى أرضى أمراءهم فى الصباح . .

ويمكننا أن نفترض ، وإن لم يكن هذا قد ورد صراحة ، أن رجال القافلة قد وصلوا إلى فقط أو إلى طيبة فى نفس الوقت الذى وصل فيه الذين أتوا الرحلة بطريق البحر ، . وإن قرار استخدام وسيلتى انتقال للرحلة كان الغرض منه زيادة ضمان الحصول على منتجات بونت ، إذ أن مخاطر الرحلة بطريق البحر كانت كثيرة ، فكم من مركب ابتلعها اليمّ برجالها وشحناتها ، دون أن يذكر أحد من الناجين كيف ألم بهم هذا ، كما يقول الشاعر الفريق : « هبت العاصفة علينا ، عندما كنا فى عرض البحر الكبير ، قبل أن نهمل إلى اليابسة ارتفعت الرياح وتضاعفت قوتها وارتفعت الأمواج ثمانى أذرع ، وقد أسكتت بلوح من الخشب وهكذا غرقت وهلك المركب وكل الذين كانوا بها لم ينج منهم أحد . .

كانت هذه رحلة بهيجة ، ولكن المصريين في عهد رمسيس الثاني قاموا برحلات أبعد منها بكثير وأجرأ تحدث عنها الرواة الكلاسيكيون : فالمصريون قد استعملوا منذ أقدم العصور حجر اللازورد الأزرق الذي لا يوجد في صحراء أفريقيا . (٤٠) وكان مصدره الوحيد المعروف في العالم القديم هي بلاد باكتريان Bactriane التي يربطها الطريق البري لسوريا ومصر ، وربما كان أسير من طريق نهر السند حتى المحيط ثم الشاطئ حتى مصب نهر الفرات وهو الطريق الذي اتبعه نيارك Néarque دون شك . ولم يذهب المصريون رأساً إلى البلاد التي تنتج اللازورد بحثاً عنه ، بل اكتفوا بشرائه من بلد كانت تسمى تفرير Tefrer (٤١) والتي اعتقد في شيء من الثقة أنها سيبار Sippar التي تقع تماماً على قناة تربط نهر الدجلة بنهر الفرات عندما يقتربان جداً في تلك المنطقة . وكان من المعروف في مصر أن مصدر حجر اللازورد هي تفرير ، وإن اسم هذه المدينة كان يطلق أيضاً على حجر مصدره نفس المكان ولا يعرف شيء عنه .

وحدث في إحدى السنوات عندما كان فرعون في بلاد نهارينا وكان مشغولاً بتلقي تحيات الأمراء الأجانب أن رأى ملك باختان وملك باكتريان شخصاً آيين إليه ، وقدم له الأخير ابنته وهدايا قيمة ، والتمس منه أن يتحالف معه ، فقبل فرعون هذا العرض وعاد ومعه الأميرة إلى طيبه . وبعد زمن قليل جاء رسول من قبل ملك باختان وطلب المثل بين يدي فرعون ، وبعد أن أذن له بذلك أخبر فرعون أن أخت الأميرة مريضة . فبعث فرعون إلى بلاد باختان بأشهر أطبائه من قبل « بيت الحياة » ، ولكن الأميرة لم تشف من مرضها . وقدم رسول آخر وقطع الطريق الطويل بين باختان ومصر . ونظراً لأن الطبيب لم ينجح ، لم يكن ثمة بد من إرسال إله ، إلى بلاد باختان ، ووقع الاختيار على خفسو المعبود الذي ينظم المصائر ، (١٧ م — الحياة في مصر)

فاستقل مركباً كبيراً نحرسه خمسة مراكب صغيرة ، ووصل إلى باختان بعد سنة وخمسة أشهر ، وتبدو هذه الفترة طويلة وغير معقولة إذا لم نعرف أن هذا الأسطول الصغير قد اخترق كل البحر الأحمر ودار حول شاطئه بلاد العرب ، متتبعا شاطئه بلوخستان وصعد نهر السند إلى نقطة نزل المسافرون فيها ليصلوا إلى قصر ملك باختان . وقد بقي الإله ثلاث سنوات وتسعة أشهر في هذا القصر . وبعد ذلك سمح الملك وهو شديد الأسف بأن يعود إلى مصر وهو محل بالهدايا تحف به ثلة من الجنود الأقوياء والخيول . وقد وصل الرسول الأول من باختان إلى طيبة في السنة الخامسة عشرة من حكم فرعون ، وعاد الإله إليها في السنة الثالثة والثلاثين . وفي خلال هذه الفترة ، الثمانية عشر عاماً * ، تمت الرحلة الأولى للرسول وعودته مع الطبيب المصرى وكذا الرحلة الثانية وعودته مع الإله ، وأخيراً بعد ثلاث سنوات وتسعة أشهر انتظاراً ، تمت عودة الإله إلى مصر ، فالمسافة بين طيبة وباختان قد قطعت خمس مرات . . . وتعتبر لوحة اللوفر التى سجلت عليها هذه الوقائع وثيقة رسمية فى كل مظهرها (١٢) . والأسماء الثلاثة الأولى التى وردت فى مقدمتها هى الألقاب الملكية لتحتمس الرابع أول ملك فى الامبراطورية الحديثة تزوج أميرة أجنبية ، بينما اللقبان الملكيان يماثلان أسماء رمسيس الثانى ، وليس ثمة مبرر كما أعتقد أن يعد هذا المسند من العصر المتأخر أو أن تعد هذه القصة مختلفة من أساسها ، فكثيراً ما كان الملوك فى العصور القديمة يتراسلون ، كما كان الأطباء

المصريون يطلبون كثيرا ليعالجوا المرضى في الخارج. (١٢) وكانت ذكرى رحلات سيزوستريس Sesostris في بحر أريتريا ، لا تزال تذكر في عصر الاسكندر الأكبر . (١١)

ومن المحتمل أن يكون رمسيس قد أراد أن يتصل رأساً بالبلاد التي كانت مصر تحصل منها منذ أقدم العصور على أحجار كريمية كان المثالون وعامة الشعب يقدرونها حق قدرها .

الفصل الثامن

فرعون

١ - وإبب الملوك الأسمى

كان فن تعايش الاهالى فى المجتمع فى مصر يخضع لقواعد ذات طابع خاص . فإن كانت الالهة هى التى أقامت كحاكم له الحياة والصحة والقوة ، شخصاً يستمد منها كيانه ، عمت البلاد أسباب السلام والرخاء ، وارتفعت مياه الفيضان السخية ، ونمت الغلال والشعير ، وتكاثرت قطعان الماشية وتدفت على البلاد الذهب والفضة والنحاس والأخشاب الثمينة والعاج والبخور والعطور والأحجار المختلفة من أربعة أركان العالم .

ويتغير هذا الوضع كله إذا لم يتوافر هذا الشرط الأساسى ، فنصبح أرض مصر فى مهب الريح ، وتسود القوضى البلاد لأن كل فرد يريد أن يتولى فيها الحكم ، فيقتل الأخ أخاه ، وسرعان ما يصبح الأجنبى هو الحاكم . وياله من عار ، فيجهم نهر النيل عن غمر الأراضى ولا يجد الشعب أفواته ، ولا يرد شئ من سوريا أو من كوش ، ولا تقدم القرابين فى معابد الالهة التى تعرض عن كفر بها .

إن الواجب الأول لفرعون إذن ، هو أن يعترف بجميل الالهة ، سادة كل شئ ، وكان من المألوف أن ينقش فى بدء نصوص عدد كبير من اللوحات الرسمية أن جلالتة أقام فى منف أو فى أون (عين شمس) أو فى نى رمسيس أو فى طيبة ، مشغولاً بعمل كل مايرضى الالهة ، مثل ترميم مآتهم وتشيد

هياكل جديدة أو تقوية الأسوار التي تحيط بها وحشدتها بالتماثيل وتجديد أثاثها ، والمراكب المقدسة وإقامة المسلات وتزيين المذابح وموائد القرايين بالأزهار ، وبسخاء يفوق كل من سبقه من الملوك .

فلنستمع صلوات واعترافات رمسيس الثالث : « لك التمجيد أيها الآلهة والمعبودات ، سادة السماء والأرض والمحيط ، ما أعظم خطواتك في فلك ملايين (السنين) إلى جانب أبيهم رع الذي يفعم قلبه سروراً عندما يشاهد كالمهم فتسعد بهم أرض توميري Tomery * . إنه (رع) لسعيد .. لقد استعاد شبابه عند رؤيتهم عظماء في السماء .. أقرباء على الأرض .. يمنحون النسمة للأئوف المزكومة ..

إني ابنكم صنعة ذراعكم .. لقد أقتنوني ملكاً له الحياة والصحة والقوة على كل الأرض . ولا جلي صنعم السكال على الأرض . إني أودى وظيفتي في سلام ولا يأولني جهداً عن البحث عن كل ماهو نافع وضروري لصالح هياكلكم . وقد رهبتها بمقتضى قرارات سامية دونت في كل أيام المعابد المنقوشة ، الرجال والأراضي ، وقطعان الماشية والمراكب . وتمخر صنادلهم عباب النيل ، وعممت الرخاء في هياكلكم التي كانت خربة من قبل ، وقد قدمت لكم قرايين مقدسة بالإضافة إلى ماسبق تقديده لكم . ولا جليكم أمرت بصياغة الذهب والفضة واللازورد والفيروز في بيوت الذهب لقد راجعت كنوزكم و أكلت مانقص منها بأشياء كثيرة .

لقد ملأت مخازن غلالكم بالوفير من الشعير والغلل . وشيدت لكم القصور والهياكل والمدن حيث نقشتم أسماؤكم إلى الأبد ..

لقد زودت فرقمك بعدد وغير من الرجال لإكمال النقص بها ولم أصحب الرجال المخصصين لها كلكم أو قوادهم لتسقيلمهم كجنود مشاة أو لقيادة العربات ، كما فعل ملوك سابقون . أصدرت قرارات سامية لتنفيذها على الأرض حتى ينتفع بها من يأتى بعدى من الملوك . لقد خصصت لكم قرابين تتكون من كل الأشياء الطيبة . وشيدت لكم مخازن لأعيادكم ملئت بالطعام . ولاجلكم صنعت أوانى طمعت بالذهب والفضة والنحاس بلغت الملايين عدداً .

لقد بنيت مراكمكم الجارية فى النهر ومرساها الكبير مكسو بالذهب . (١) وبعد هذه المقدمة يعدد رمسيس مافعله فى المعابد الرئيسية فى مصر ، ثم ذكر فى كثير من التفصيل الهبات التى قدمها لأجل آمون سيد عرش الأرضين ، ونوم Touta سيد أرض أون On وبتاح العظيم الديكتان جنوب جداره ، وزوجاتهم .

وعندما تنازل رمسيس الثالث مختاراً عن ثروته الخاصة وعن ثروة البلاد لصالح المعبودات ، فإنه لم يبتدع حدثاً جديداً . ويمكن أن يقال ، منذ أن وجد الملوك الفراعنة ، عن كل منهم ما جاء فى لوحة معبد عمدا ويتعلق على كل منهم :

« إنه ملك صالح إذ شيد لكل المعبودات ، معابدهم ونحت لهم التماثيل » . (٢)

ولم يكدر رمسيس الثانى يتوج ملكاً حتى دفعه الطموح إلى أن يكون بمثابة الإبن الصالح لأبائه المعبودات ، ولو الله بالجسد من مات رع سيقى مرى إن بتاح ، إذ كانت مشروعات عديدة فى مدينتى أنهور Anhour وأون نفر Oun Nefer (أيدوس) قد شرع فى بنائها ولكنها لم تتم بعد ، لذا

أصبحت المدينتان تماثلان في بعض أجزائهما أفنية وقد كدست بالأدوات وفي أجزاء أخرى ، الأماكن الخربة . وأكثر من ذلك فإن العلامات التي غرست على حدود أملاك الآلهة لم توضع في أمكنتها بإحكام وكانت الأهالي ينزعونها - وعندئذ أمر رئيس مستشاره الملكي أن يجمع رجال البلاط والأمراء ورؤساء الجيش وكبار الموظفين المناط بهم الأعمال وأمناء المكتبة وخطب فيهم قائلاً :

« لقد دعوتكم من أجل فكرة خطرت ببالي - فإن رأيت المباني التي أقيمت في الجبانة والمقابر التي شيدت في أيديرس لم يكمل بناؤها منذ عهد أسلافها حتى اليوم ، وكان الابن الذي يعتلى (العرش) مكان أبيه ، لا يتم إكمال المباني التي بدأها من أعطاء الحياة . اذلك قلت لنفسى : « ما يعود على الإنسان بالمشوية والهناءة أن يقيم ما تهدم وانهار - إنه من الأصوب أن يقوم الإنسان بفعل الخير . لذلك دفعنى قلبي إلى تأدية أعمال ذات فائدة لصالح مرى إن يتاح ، وأجعل الأجيال القادمة تقول عني ، على مر الزمان :

« لقد كان ابنه ، الذي أحيا وخلص لاسم أبيه » .

واستمر الملك يتكلم بهذا الأسلوب مدة طويلة ، وانتهى بقوله :

« إنه لعمل طيب أن يشيد صرح فوق صرح وبهذا يكون قد أتم عملين طيبين في آن واحد ، هكذا كان الابن . . وهكذا كان الأب الذي أنجبه ، آثار الاقتراح الملكي حماس المستشارين ، وبعد أن استمع لجلالته لأرائهم أمر بأن يكلف المهندسون المعماريون بهذه الأعمال ، واختار لجلالته الجنود والبنائين والناقشين والنحاتين والرسمين وعمالاً من مختلف الطوائف لإقامة قوس الأقداس لآبيه ، ولإعادة بناء كل ما كان منهاراً من الجبانة .

وقام جلالته بإعداد جرد شامل لحقوقه ومواشيه ، كما عين السكنه
وحدد وظائفهم ، وكذلك كبير السكنه . . ثم وجه الحديث مباشرة إلى
والده الملك أوزير مارع Ousirmare ، معددا الأعمال التي قام بعملها من
أجل والده والمعبد ، قال :

« يكون كل شيء لك على ما يرام طالما كنت على قيد الحياة وطالما عاش
رئيس يا آمون ابن رع — فلتمنح له الحياة مثل رع . »

وعلى أثر ذلك وجه الملك من مآت رع Menmatro — سيني — كلامه
إليه ، كما يتكلم الأب مع ابنه مؤكدا له بأنه دافع عن قضيته أمام رع وأن
جميع الآلهة رع وتم ونحوت وأوفرع وبمجموعة الآلهة الكبرى التسعة
قد أبتهجوا سرورا لما فعله جلالته . . (٢)

لا يمكن الاعتراض على ما قاله رئيس العظم إلا على شيء واحد ،
لقد أخطأ عندما اتهم من سبقه ، دون تفريق ، بعدم الاكتراث ، فقبله
بقرن ونصف قرن وجد من خپر رع (تحتمس الثالث) ، معبد يتاح في
طيه في حالة لا تليق بهذا المعبود العظيم ، فكافأت جدران المعبد من الطوب
اللين والأعمدة والأبواب الخشبية كلها في حالة انهيار وتهدم ، فأمر جلالته
بأن يحاط المعبد بجهاز ويعاد تشييد بنائه ، بالحجر الرمل الجليل الناصع
البياض وتقوية جدران السور حتى تتحدى الزمن وصنع أبوابا جديدة من
خشب الصنوبر قوائمها من النحاس المستورد من آسيا وقال :

« لم يسبق إطلاقا أن عمل شيء كهذا قبل تولي جلاتي الملك ، وإرضاء
لأمنيات المصريين كلهم قد صنعت أعظم مما كان ، وطهرت مسكنه العظيم
بتحليته ، فرصته بالذهب الوارد من الأقاليم الجبلية وكذلك كل آنيته

المصنوعة من الذهب والفضة ومن كافة الأحجار الكريمة ، وجعلت فراشه من الكتان الأبيض وجلبت له الروائح العطرية من العناصر المقدسة لعمل ما يسره في أعياد بدء الفصول التي يحتفل بها في هذا المعبد المقدس. وعندما عدت جلالتي من جبال رتنو ملأت معبده بكل شيء حسن من عجول وطيور وبخور ونيذ وهدايا وخضر. (٤)

وعندما كان الملك يرضى رغبات الآلهة ويقوم بترميم الهياكل القديمة المقدسة ويشيد هياكل جديدة مستخدماً في سبيل ذلك أندر المواد ، ويخصص لها أموالاً لم يكن مع هذا كله قد قام ما فيه الكفاية ، فكان عليه أن يتولى بنفسه ملاحظة تنفيذ أوامره . وعندما تم الأعمال تماماً يفتح المعبد وبهبه للمعبودات (٥) ويثر حوله الحبوب ، ويطلق باب المعبد اثنتي عشرة مرة بمطرقته ، ويحرق البخور لإجلالاً للتابوت ، ثم يطوف حول أسوار المعبد حاملاً في كل يد إناء ، ويحمل في بعض الأحيان مجدافاً ومثلثاً ، أو يطوف أحياناً بجانب العجل أبيس المقدس . وكان على الملك أن يقوم بدور خاص في بعض الحفلات الدينية الكبرى ، فعندما يحتفل بعيد أريست الكبير لا يستطيع أن يتخلف عن الظهور فوق ظهر السفينة المقدسة التي يزيد طولها على مئة ذراع ، والتي كانت تسحب من الكر نك إلى الأنصر .

وعيد مين Min ويقع في أول فصل شمو ، لا يقل مكانة لدى الشعب عن العيد الأول ، وكان يتعين على الملك أن يقطع بنفسه ملء قبضته من الخنطة بوني (Boni) . ولم يكن في استطاعة رمسيس الثالث ، بصفة خاصة ، أن يتنحى عن هذا الواجب ويكلف به شخصاً آخر ، إذ كان يوم ذكرى تنويجه يتفق وهذا اليوم .

وعندما شرع يبعث Piankhi في غزو مصر احتفل أولا بعيد رأس السنة في مدينة ناباتا Napata مسقط رأسه ، وعندما وصل إلى طيبة ، اتفق أن كان يوم الاحتفال الكبير بعيد آمون في النيل فتبع مركب المعبود (١) ومنذ هذه اللحظة أصبحت المعارك والحفلات الدينية تتناوبان ، حتى تم النصر النهائي .

وفي منف كلف (يبعثي) أحد أتباعه بأن يخطب في أهل المدينة قائلا : : لا تغلقوا عليكم أبوابكم ، ولا تقوموا بمهاجمة مقر المعبود شو ، فعندما أدخل يدخل هو ، وعندما أخرج يخرج هو . لن يستطيع أحد أن يحول دون تقدي . سأقدم القرابين للمعبود بتاح وللمعبودات المدينة ذات الجدار الأبيض (منف) . إني أحبي الإله سوكارى Sokari في صندوقه السرى ، وسأأمل ذلك المعبود الموجود في الناحية الجنوبية من جدار معبده وأعود في سلام واطمئنان . . تاركا مقاطعة الجدار الأبيض (منف) سليمة دون أن يبكي أطفالها . انظروا إلى مقاطعات الجنوب ، لم يذبح فيها أحد عدا الكفار الذين أشركوا بالإله . (٧)

وبعد الاستيلاء على المدينة أخذ في تطهيرها بالملح والعلور ، ثم توجه إلى معبد بتاح وطهر نفسه في قاعة التطهير ، وقام بكافة المراسم الدينية المخصصة للملك وحده ، ثم دخل المعبد بعدئذ وقدم إلى أبيه بتاح ريزان بواف Ptah Rianbouf (بتاح في جنوبي جداره) قربانا عظيما .

وبعد قليل استأنفت الحفلات في مدينة أون ، وعلى أثر تأدية بعض المراسم التمهيدية التي تمكنه من الدخول إلى قدس الأقداس ، وبعد

أن تقبل عبارات الولاء من كبير الكهنة واستمع إلى الصلوات التي تبعه عن الملك أعداه ، صعد درجات السلم التي تؤدي إلى الشرفة الكبرى ليشاهد رع في قصره ذي الشكل الهرمي (مبدع رع في أون) . وحينما أصبح وحده فتح المتاريس ثم فتح الباب على مصراعيه ، وأخذ يشاهد أباه كما أخذ يتأمل سفينة رع وصفينة توم . وبعد ذلك أعاد غلق الأبواب كما كانت بعد أن وضع عليها صلصالا وختمها بالخاتم الملكي . فسجد الكهنة أمام جلالة وتمنوا له حياة طويلة ورخاء (٨)

أراد يبعثني أن يظهر للمصريين بأنه متدين مثلهم تماماً ، وأشد تمسكا بتقاليدهم القديمة ، ولكن كل ما ذكره من أعمال كان الرعاسه قد سبقوه إليها ، فكانوا كلما مروا بمدينة من المدن دخلوا معابدها وعبدوا آلهتها .

وكان فرعون في بيته أينما كان . وفي كل مكان ، كانت ترى على الجدران صورة فرعون وهو يقدم إلى الآلهة الماء والنيذ واللبن ، كما يقدم تماثيل الحقيقة وهو يحرق حبات البخور في المبخرة . ومع ذلك فقد كان رمسيس الأول ونجله ، قبل اعتلائهما العرش كبيرى كهنة ست . ، وكانا قد شغلا مناصب متعددة الدرجات في تأدية مراسم عبادة كبش مندرس والمعبودة الثعبان واجيت ، التي كان لها تقديس كبير في مسقط رأسيهما وفي البلاد المجاورة . (٩) وكان رمسيس الثاني يفخر في أول عهده باعتلاء العرش ، بلقب كبير كهنة آمون . غير أن هذا لم يحل بينه وبين تعيين شخص آخر كبيراً للكهنة بعد تنويجه مباشرة ، ليلقى على عاتقه عبء القيام بالواجبات الدقيقة التي تتطلبها هذا المنصب ، وليسعد هو شخصياً بما يجوز للملك في سنه ، يميل بطبعه اللذات والصيد والحرب . (١٠) ولكن رمسيس الثاني لم يختلف عن سبقه أو خلفه من الفراعنة ، فلم يهرب مطلقاً من الإلتزامات التي ينبغي لكل فرعون أن يؤديها للآلهة . وهذه الطريقة كان يحصل بشن غال ، دون

شك ، على السلام في البلاد ، ما دام السواد الأعظم من العمال ، بصفة عامة كانوا يعدون أنفسهم قانعين بمصيرهم ، وليس في استطاعتهم القيام بثورات جدية ، وما دام أولئك الذين يستطيعون حقاً الإخلال بالنظام ، كانت مصالحهم تفرض عليهم مراعاة النظام .

٢ — نزيين الملك —

كان استيقاظ الملك يتم دون شك باحتفال خاص ونعم أن أحد كبار الموظفين المسمى بتاح موزى Ptah mosé كان يستيقظ مبكراً كل صباح ليكون أول من يحيي سيده . (١١) وأنا لا أعرف أية صورة تمثل الاستيقاظ الملكي ، ولكن يمكن أن يشاهد المرء على مقبرة بتاح حتب ربما لإحدى الشخصيات الكبيرة ، وقد تعدها الحلاق ليزينها ويقلم أظافر الأيدي والأرجل في حضور أفراد الأسرة والأتباع . ولا يمكن أن يعمل أقل من ذلك للملك .

لم يكن الزي الملكي أكثر غرامة فحسب من زي الأمراء والرؤساء المدنيين والعسكريين ، بل كان يجب أن يظهر مكانة وشخصية من يرتدى هذا الزي . وكان الملك لا يظهر مطلقاً عارى الرأس أمام الجماهير ، بل كان يضع زياً على رأسه حتى وهو بين خاصته ، وكان شعره قصيراً ليتيح له في سر تغيير زي رأسه . وكان أبسطها شعراً مستعاراً مستدير الشكل بحوطه أكليل معقود من الخلف ، وتبدل خصل هذا الشعر المستعار فوق قفا الملك . ويلتف فوق الإكليل ثعبان الكوبرا المصنوع من الذهب ، انتفخ عنقه فانتصب وسط الجبين .

وتاج الجنوب وتاج الشمال والتاج المزدوج كانت كلها أزياء للرأس

تستخدم في الاحتفالات : الأول عبارة عن طاوية عالية تضيق كلما علت وتنتهى باستدارة واسعة ، والتاج الثانى عبارة عن شكل هاون ، مستوى السطح ، يمتد من الخلف بعرد صلب بينما يلتف حول القاعدة شريط من المعدن يبدأ عند قاعدة العود الصلب ويمتد ملتوياً على شكل حلزوني .

ويجمع التاج المزدوج بين خصائص التاجين . وكان الملك يفضل أن يضع على رأسه أثناء استعراض الجيش وخلال الحروب ، الخوذة الزرقاء ذات الخطوط المتعرجة المتناسقة والمحلة أيضاً بالثعابين والشريطين المتدلين خلف الرقبة .

وكانت التيجان والخوذة تلبس مباشرة فوق الرأس . وكان تاج النمى Nems واسعا لدرجة كافية لكي يضم الشعر المستعار ، المستدير ، وكان يمكن صناعته من قطعة قماش ، تحوط الجبين وتمر فوق الأذنين وتسدل على جانبي الوجه حتى تصل إلى الصدر ، ومن الخلف كان على شكل جيب ينتهي في نقطة وسط الظهر . وهذا القماش أبيض اللون مخطط بخطوط حمراء ، وكان من الممكن أيضاً أن يوضع على رأس الملك نمى أعد من قبل ، ويلتف حوله شريط من الذهب لتقويته وهذا الشريط ضرورى بصفة خاصة بالنسبة للتاج المزدوج أو لتاج الشمال أو تاج الجنوب عندما كانت توضع فوق النمى ، كما كان من الممكن أن توضع ريشتان صلبتان فوق النمى ، أو آنف وهو مكون من طاوية الوجه القبلى على جانبيها ريشتان لبتان وموضوع فوق قرني كبش جمع بينهما قرص لامع من الذهب وعلى حافته صلان من الذهب غطيت رؤوسهما بقرص الشمس . ويدهى أن مثل هذه التيجان كانت مخصصة للحفلات التي يظل الملك فيها ثابتاً دون حراك ،

ومن أزياء الحفلات أيضاً تلك اللحية المستعارة ، وهي تماثل اللحية

ذات الجداول التي كان يكلف بها أهالي بلاد بونت — تلك الأرض المقدسة —
والتي عرفت بهذا الاسم لأن كثيراً من كبار آلهة المصريين كانت
تنتمي إليها .

وكانت هذه اللحية تثبت بمشبكين مع زى الرأس ، مهما كان نوعه ،
وكان الملك في العادة يحلق ذقنه وشاربه ، وأحياناً كان يترك شعر الذقن
ينمو قليلاً ثم يحلقه فتصبح مربعة الشكل .

كانت القطعة الأساسية في ملابس فرعون ، وملابس المصريين عامة ،
مهما كانت طبقاتهم ، هي النقبة . وتمتاز النقبة الملكية بأنها ذات ثنيات
يشدها حزام عريض تتوسطه أنشودة من المعدن نقشت على فتحها كتابة
هieroغليفية جميلة ، ويعلق ذيل ثور في الخلف . وأحياناً كانت تعلق في الحزام
من الأمام منزر على شكل شبه منحرف مستطيل . وقد تكون كلها من
المعدن وإذا كان إطارها وحده من المعدن ، إرصعت من الداخل بمقود من
الفلز أو وثبتت فيها نعاين قد توجت بقرص الشمس أو تدلت فيها
بمينا ويساراً .

ولم يكن الملك يحفل بأن يسير حافي القدمين ولو أنه كان يمتلك مجموعة
ثمينة من الصنادل المصنوعة من المعدن والجلد والقش . (١٢) وتكمل الحلي
وأدوات الزينة ما قد يكون في هذا الزى من بساطة .

والعقود التي يملكها الملك مختلفة الأشكال إلى حد بعيد ، وهي تحتوي
غالباً على دلائل ذهبية أو لؤلؤ أو قطع ذهبية صغيرة مثقوبة قد انتظمت
في خيوط وتنتهي بمشبك مسطح يوضع خلف الرقبة ، وتتفرع خيوط من
الذهب ذات شكل رائع عبارة عن سلاسل وزهور ، وهذه القلائد حديثة

الصناعة نسياً . أما القلادة الأصلية فكانت تحتوى على عدة صفوف من اللؤلؤ يضمها قفلان على شكل رأس صقر كانت تعلق على الرقبة بواسطة رباطين ، وكان خرز الصف الأخير يصنع على هيئة الدموع ، وبقية أنواع الخرز كانت إما مستديرة أو على شكل ثمرة الزيتون . وقد تزن هذه القلادة أحياناً عدة كيلوجرامات . وكان هذا الثقل لم يكن يكنى الملك ، فإنه كان يعلق على رقبة أيضاً لوحة مستطيلة للصدر على هيئة واجهة المعبد بواسطة سلسلة مزدوجة ، كما كان يتزين بثلاثة أزواج من الأساور على الأقل ، أحدها بقرب الكتفين وآخرين عند المعصمين والثالث عند الكعبين (١٣) . وقد يحمله أن يضع فوق كل هذا رداء طويلاً خفيفاً وشفافاً ذا أكمام قصيرة وله حزام من نفس القماش يربط من الأمام ،

٢ - الملك في عهد

يؤكد ديودور ، الذى يفتخر بأنه فخص بدقة الأحداث المدونة في حوليات الكهنة المصريين ، بأن حياة الملوك العامة والخاصة كانت تجرى وفق نظام دقيق ، لقد كان الملك يستيقظ مبكراً في الصباح ويطلع على المراسلات ، وبعد أن ينتهى من استحمامه ويتزين بالشعارات الملكية كان يقدم ذبيحة للآلهة ويستمع للصلوات وعظات كبير الكهنة وللقصص التى تنطوى على القدوة الصالحة . وله بعد ذلك أن ينظم أوقاته بين الاجتماعات والمحادثات والنزهة والتسلية . وكان ينبغى له أن يراعى الاتزان وبأن تكون أعماله مطابقة تماماً للقانون ، ولما كانت هذه عادات جرى عليها العرف ، لم يكن هناك ما يدعو إلى الغضب وكان الملك يعد نفسه سعيداً بما قسم له (١٤) ولكن بما لا ريب فيه أن تصرفات فرعون لم تكن كلها مثالية ، كما يعتقد ديودور .

ومع ذلك فإن تنظيم الوقت على النحو الذى ذكره يجب أن يكون مطابقاً للحقيقة لأن ما نعلمه من حوادث تلك الأزمنة يؤيد ما ذهب إليه في سهولة ويسر .

ومن المؤكد أن كثيرين من الملوك قد قاموا بأداء الأعمال التى تتعلق بمناصبهم على خير الوجه ، فكانت تتلى عليهم الرسائل ، وكانوا حريصين على أن يحاطوا علماً بكل الأحداث الجارية ويمثلون نصر الإجابات ، وفي بعض الأحيان كانوا يطلبون عقداً اجتماع المجلس الملكى لاستشارته إذا اقتضى الأمر ذلك .

وعبارة : « أبلغ جلالة الملك . . » نثر عليها في بداية عدد كبير من النشرات الرسمية المدونة على اللوحات . ومشروعات الأعداء كانت أهم ما يبلغ جلالة الملك . فائناء وجود الملك بسماتيك في تاينس قائماً بالمراسم الدينية التى ترضى المعبودات المحلية ، حضر من أبلغه بأن كوار Konar الزيجى قد حمل السلاح ضد مصر . (١٦)

وعلى هذا فمسألة السلام أو الحرب كانت تتعلق بالملك وحده ، ومع ذلك فقد كان يبدى اهتمامه أيضاً بالمسائل الفنية . وقد رأينا من قبل أن سبق كان مشغولاً بتزويد الباحثين عن الذهب بالماء ، وهم أولئك الذين كانوا يعملون في المنطقة الواقعة شرق إدفو . وكان هذا الأمر يشغله إلى حد أنه انتقل بنفسه ليرى مدى متاعب العمال المحرومين من المياه وهم يسكدون تحت الشمس المحرقة (١٧) وعندما أراد رمسيس الرابع أن يقيم معابد ومباني لأبيه آله مصر وإلهاتها ، بدأ يدرس السكتب المحفوظة في « بيت الحياة » ليعرف كيفية الوصول إلى جبل بجن Bakhen ثم ذهب بنفسه ليجوب أرجاء هذا الجبل المقدس . (١٨)

ونظرا لأن مشاغل رمسيس الثانى الجسيمة كانت تحول دون إمكانه للافتراق عن شاطئه النيل فقد اكتفى بأن يكلف فى قصره بحات كاتبان Berkaptab على دراسة الوسائل التى يمكن بها توفير المياه فى صحراء إيكيتا (صحراء العظمور بين وادى حلفا وأبو حمد) المفترقة ، فجلس على عرشه الذهبى ، متوجا بالتاج والريشتين وأمر حامل الاختام الواقف بجانبه ، قائلا : « أدع كبار رجال الدولة الموجودين فى القصر ، لى تشاورهم جلالتى فى شأن هذا الأقليم ، سأضع المشكلة على بساط البحث ، فأحضروا فى الحال مهرولين ليمثلوا بين يدى الإله الطيب ، كما لو كانوا مذنبين ، إذ لا يستطيع أحد ولو كان من هيئة المستشارين أن يشاهد وجه فرعون المجلجل خوفاً أن تعتربه الرهبة ، وقد قبلوا الأرض بين يديه ، وشرحت لهم المشكلة .

ولو أنهم أجابوا إجابة مباشرة ، لظهروا مقدار علمهم ، لحافوا أبسط قواعد الأدب ، إذ أن فضل انجاز هذه العملية ، التى سوف يشرع فيها ، يعود كله إلى الملك ، لذلك فقد أجابوا بنفس الطريقة التى اتبعها رجال حاشية رمسيس عندما جمعهم منذ بضعة شهور ليلفهم رغبته فى إتمام معبد أيدوس فأثروا ثناء بالغاً على هذا الملك الذى لا نظير له ، والذى يتكرر مشاريع فى الليل فتتحقق عند بزوغ النهار . وبعد أن استعبد ذكر المحاولات التى فشلت فى الماضى القريب والبعيد ، انتهى بهم الأمر إلى أن يقولوا : « إذا قلت أنت بنفسك لأبيك حان ، والد الآلهة بأن تنشق المياه فوق الجبل فإنه يحقق كل ما تطلبه طبقا للخطة التى أوضحناها لنا ، إذ أن أبامك الآلهة يحببوك أكثر من أى ملك آخر . قول العرش منذ عهد رع ، ثم ينفذ اجتماع المجلس . ولم يعد هناك إلا أن يبدأ الفنيون بالشروع فى العمل ، رجاؤهم أن يخطروا الملك على صلبون - وسيخلف نجاح هذا المشروع على لوحة تذكارية من البرونز » (١٨)

ومن البديهي أن تعيين كبار الموظفين وأصحاب المناصب الكبرى كان من اختصاص الملك وحده . وكان اختيار رئيس كهنة آمون من أخطر الأمور شأنًا . فالملوك الرعامسة لم يفسوا ذلك النزاع الذي جعل العرش ورئيس الكهنة مطعما لأكبر الألهة ثم له وأشدم طموحا . وكان رمسيس الثاني في بداية توليه العرش قد أضنى على نفسه لقب كبير الكهنة ، وعندما اعتزم ، بعد وقت قصير ، أن يعين شخصا ، كبيرا للكهنة وقع اختياره على انسان من غير كهنة آمون ، ولم يكن هذا الذي وقع عليه الاختيار نكرة أو أنه غير كميء لهذا المنصب ، لأنه كان إذذاك كبيرا للكهنة أنهور Anher في مقاطعة طينته ، وربما كان هذا الشخص قد استرعى انتباه الملك عندما تفقد الأبنية التي كان قد شرع فيها والده في تلك البقعة المقبسة . وقبل أن يبت في قراره هذا لجأ إلى نوع من الاستشارة ، لم تصلنا كلمة تفاصيلها . لقد لجأ إلى المعبود نفسه ، وكان قد عرض أسماء رجال الحاشية الملكية ورؤساء الجنود وكهنة المعبودات وذوى الألقاب من البيت الملكي حينما كانوا مائتين أمام وجه المعبود ، غير أن آمون لم يبد رضاه عن أحد من هؤلاء ، ولم يظهر علامات السرور إلا عندما ذكر اسم نبونق Nebounef ، وعندئذ قال الملك : « كن معه كريما . » فان اختياره قد وقع عليه ، وبعد انتهاء هذه الكلمات بأدراج الحاشية وبمجموعة الثلاثين مستشارا بالثناء على طيبة جلالته فسجدوا عدة مرات أمام هذا الإله الطيب بمجدين أرواحه حتى عتات السماء . وبعد أن خففت أنفاس هذا المايح سلم الملك ، كبير الكهنة الجديد ، ثاميه الذهبين وعصاه المصنوعة من النحاس المذهبة . وبهذا أخطر أهالي مصر جميعا بأن أملاك آمون ، بكل ممتلكاتها قد شملت إليه . (١٨)

٤ - هي منح العقو

تضمنت مذكرات سنوحى Sinoubit المناسبة الوحيدة المعروفة لنا التي منح فيها فرعون العقو لمذنب ، وشرح واضح القصة بإسهاب الملابس التي اقترنت بهذا الحادث . لم يكتف الملك بأن رفع العقاب عن سنوحى والاقن له بالعودة لحسب ، بل أراد أن يراه ، فوصل المغامر إلى نقطة ، طروق حورس ، على الحدود ، وترك أصدقاءه البدو بعد أن وزع عليهم الهدايا التي أرسلها له البلاط الملكي ، ثم استسلم للجند الذين اقتادوه على مركب إلى إني تاوى Ity Taoui . وعند وصوله أخطر القصر بمقدمه ، فاحتشد أطفال القصر الملكي بين رجال الحرس ، وقاده رجال الحاشية ، المنوط بهم إرشاد الزائرين إلى قاعة الأعمدة ، إلى المكان المناسب . وهكذا مثل أحد الرعايا أمام ملكه الذي تبوأ عرشه الكبير في القاعة المذهبة ، ونظرا لأن خطبته سنوحى الجميمة كانت تسيطر تماما على كل حواسه ، فقد تمدد على الأرض ، وقال : كنت بمثابة رجل وقع في مهالك ظلام حالك ، تكاد روحي تقارقي ، أجزاء جسمي ترتعد ، لم يبق قلبي في صدري ، ولم أعد أميز بين الحياة والموت .

ثم رفع سنوحى عن الأرض ، وبعد أن كان الملك يتهره ، أخذ يهدى من روعه ويشجعه ليتكلم ، غير أن سنوحى لم يستقل هذا التصريح وأنهى خطابه القصير ، قائلا : « ما أنذا أقف مائلا أمامك - أنت مصدر الحياة فلتنمل جلالتك ما يحلو لك » .

ثم أمر الملك بدخوله الأمراء من الأطفال ، وبينما هم يدخلون ، لم يستطع الملك إلا أن يبدى ملاحظته للملك بأن سنوحى قد تغير تماما بسبب معيشته بين الآسيويين مدة طويلة فأصبح مثلهم تماما ، فصاحت الملكة

مختصة بوابد الأمراء الاطفال كلهم ملاحظة الملك قائلين : : حقيقة ،
بأمولانا ، أنه ليس هو كما عرفناه .

ثم أحضرت الصاجات وصلاتان وقدمت للملك ، وقالوا له : : تناول
هذه الآلات الجميلة أيها الملك - ضع يدك عليها - خذ أدوات زينة حائضو ،
لعل السيدة الذهبية تمنح لأنفك الحياة ، لعل سيدة النجوم تتحالف معك .

وبعد إنشاء قصيدة مطولة في مدحه التمسوا العفو لسنوحى ، لأن
ما ارتكبه كان ، نتيجة إدراك غير سليم ، والمعبودة صاحبة الصلاة
والصاجات والتي تدعى المعبودة الذهبية وسيدة النجوم ، كانت في الحقيقة
معبودة السرور والرقص والمآذب ، وكان دورها في هذه المناسبة هو التهيد
لقرار العفو الذى سيصدره الملك لصالح هذا الضال . وكان تدخل المعبودة
في هذه المناسبة بلا شك من المراسيم المتبعة .

ويخرج سنوحى أخيرا من القصر الملكى ولم يكن مجرد شخص غفر
ذنبه لحسب وتم العفو عنه ، بل أصبح غنيا يملك بيتا ويطعم بما يندقة عليه
الملك من طيبات الرزق . (٢٠)

• - المراتب الملكية

وصف أحد رجال الحاشية فرعون : فقال عنه : : إنه هو الذى يضاعف
الجهرات ، ويعرف كيف يحلى ، هو الإله بل هو ملك الآلهة ، يعرف من
جوفه ويكافئه من يخدمه ويعمى اتباعه ، هورع ، جسده الظاهر هو القرص
موجعا إلى الأبد . (٢١)

وأثناء حروب التحرير ، وخلال غزو سوريا فكر فرعون في أن

يوزع الذهب تقديراً لشجاعة عدد من أبطال الحرب ، فأصبحت عادة .
وسرعان ما جاء دور المدنيين فأنعم عليهم .

وقد تمتح المكافآت لفرد واحد ولكن في الغالب كان ينتظر حتى
يصبح عند هؤلاء الأفراد كبيراً ، وعندئذ يدعون للحضور إلى القصر،
فيرتدون أجمل ما لديهم من ثياب وعند ما يخرجون من بيوتهم ليركبوا عرباتهم
يقف خدمهم وجيرانهم صفوفًا بجوار المنزل لحيوهم ، وتتجمع العربات في
فناء أمام القصر الملكي . ونجد الفرسان يتحدثون فيما بينهم أو مع رجال
الحرس ، كل يثنى على سيده وما سوف يكافأ به . وقد يسأل سائل : « لمن
يقام حفل التكريم هذا أيها الصغير ؟ » إنه يقام احتفالاً بأي أو الوالد
المقدس وتايا . . لقد أصبحنا نحن نعم عليهم بالذهب ، وسأل أحدهم بدوره ،
إذ لم يكن قد سمع ما قيل « من ذا الذي يحتفل به ؟ فتكون الإجابة : « أنظر
إلى ما يضعه فرعون (له الحياة والصحة والقوة) من أجل آى وتايا ، إنه
يهبهم ملايين الهدايا . . انظر إلى الناقدة ، سوف نرى ما يقدم لآى الأب
المقدس » (٢٢) .

وعندما يجتمع شمل الجميع ، يجلس الملك في الشرفة المطلّة على الشعب
والتي تمتد من قاعة الأعمدة .

ويرى من الخارج صف القاهات الملكية وقد زودت بالكوسى ذات
المساند والصاديق الفاخرة ، وقد رصت جميع الهدايا التي يتوزع على هؤلاء
وضعت بجانب الملك ، وتجدي تلك الهدايا كلها نفدت . وفي بقية أجزء القصر
يقوم الخدم بتأدية أعمالهم ذاهبين آيين كالعتاد ، ويقسم بعض الخدم في
هدوء ، بينما تقوم بعض السيدات بالغناء أو الرقص أو العزف على القيثارة .

وفي فناء القصر يقوم حملة المظلات والمراوح ، والضباط يتوزعون صفوف مستحق الجوائز وادخالهم كل بدوره ، حتى حافة الشرفة .

عندئذ يحيى مستحق المكافاة الملك ، بذراعيه فقط ، دون أن يركع على الأرض ويلقى كلمة يمتدح فيها الملك ، فيجيبه الملك بالثناء على خادمه ، مادحا إخلاصه ومهارته وتفانيه ، وفي بعض الأحيان يمنحه ترقية قائلا : أنت خادى العظيم لقد نفذت تعليماتى فى كل ما عهدت به اليك من أعمال وفيت بتأديتها بما يرضينى ، لذلك أمتحك هذه الوظيفة وأقول لك : استطعم من خبز مولاك فرعون ، له الحياة والصحة والقوة فى معبد آتن Aton . ثم يلقي إليه بكتوس من الذهب أو بقلاند من الذهب ، فيهم الضباط بالتقاط هذه الأشياء الثمينة قبل أن تسقط على الأرض ، وعلى الفور تملأ القلائد فى أعناق من أنعم بها عليهم ، وقد تكون المكافاة ثلاث قلائد أو أربعا ، فينتجه المنعم عليه إلى الخارج وهو يشوه بحمل هذه الأتقال ، وقد امتلأ سرورا وامتنانا ، يصحبه الضباط حاملين الأشياء الأخرى التى لا يمكنه تطبيقها . ويقوم موظفون آخرون بتقديم الأطعمة ، أما الكتاب فيسجلون كل ذلك .

وعندما يصل المنعم عليه خارج القصر يجد أصدقاءه وخدمه وموظفيه ، فيعبرون له عن سرورهم ويركب عربته ليعود إلى بيته تحف به الجماهير التى يزداد عددها فى كل خطوة يخطوها ، وتستقبله زوجته رافقه ذراعيها نحو السماء شكرا على كل هذه النعم ، بينما تقف نساء أخريات يضررن الذهب ويقتنن حرقن ، ويأتى الأقارب والأصدقاء وتستمر الحفلات فى البيت وقتا طويلا . (٢٢)

لم تكن حفلات توزيع المكانات مقصورة على الرجال فحسب، إذ أن
 أي *Asy*، الذى رأيناه عندما كان اخناتون يكافئه، قد أصبح هو نفسه
 فرعوناً وقد أصبح بدوره يوزع الجوائز، وبعد أن منح نفر حنب *Nefert-hotep*
 الكاتب، ومدير قطعان آمون، وساما قرر أن يمنح زوجته مريت وع
Meryt-ne وساما أيضاً، فأقيمت الحفلة في أحد المنازل الملكية الريفية
 وهو عبارة عن مبنى على هيئة مكعب تخترق جوانبه نوافذ صغيرة مربعة
 الشكل، وعلى الواجهة نافذة كبرى تطل على شرفة ذات أعمدة، أما الحديقة
 التى تحيط بهذا المنزل البسيط، فقد زرعت بكروم صفت على طول الممشى،
 وارتكزت غصونها على أعمدة صغيرة بمثابة بقية أعمدة المنزل. وقد وضعت
 بجانب الجدار أو أن وسلال ومجموعة من الأطباق، وتقدمت نحو الواجهة،
 مريت وع، الرائعة الجمال فى ثوبها الشفاف وفوق رأسها قالب مخروطى معطر،
 وتسلمت يديها القلائد التى ألقى بها الملك إليها من النافذة. ولم يشهد هذا
 الحفل الخاص العائلى سوى عدد محدود من الشعب، وترى إحدى النساء تصفق
 وأخرى تقبل الأرض، وأحضرت باقات الزهور وأخذت إحدى الموسيقيات
 التى استوجرت لهذه المناسبة تتناول المشروبات دون أن تكف عن تحريك
 الأصصالة، وقد تمكن طفلان من التسلل إلى داخل الحديقة متطفلين لمشاهدة
 الحفلة فلفتا انتباه أحد الحراس، فرفع عصاه نحوهما مهدداً بالضرب، وعادت
 مريت وع إلى منزلها على قدميها بعد انتهاء الحفل وقد تأبط رجل ذراعها ولم
 يعرفه أحداً لنا، هل هو زوجها وهل هو ضابط كاف من قبل الملك بمصاحبتها
 فى العمدة، لقد كانت تسير فى زهو وكبرياء، والقلائد التى أهداها لها الملك
 لا تزال تدلّ حول عنقها. وسار خلفهما موكب ترى فى وسطه لائحة
 الشخصيات كما نشاهد طفلتين عابيتين أما الخدم فقد اقتسموا فيما بينهم حمل
 جراد الفخار والأبلة والسلال التى ستكون قوام مأدبة فخمة فى هذا اليوم

وقد وضعت أعلى الهدايا قيمة داخل صندوق. (٢٤) وكانت هذه الحفلات المخصصة لتوزيع المكافآت تعقد في الهواء الطلق أحيانا، إما لأن الذي سيمنح المكافأة من الشخصيات المرموقة، فلا يكتفى فرعون بأن ياتي إليه بضع قلائد من أعلى الشرفة، أو لأن عدد الحاضرين كبير جداً فيقام الحفل عندئذ وسط فناء متسع وضعت به منصة، صنعت من مواد خفيفة، وقد جعل منها صناع الأبنوس الماهرين تحفة رائعة من حيث الذوق السليم والفخامة والآهة، وفوق هذه المنصة قاعدة زخرفت بنقوش غائرة تمثل السوريين والليبيين أو الزنوج راكعين وهم يمدون أيديهم ملتسقين الرحمة، أو يرى هؤلاء والملك يطأهم بقدميه وقد تحول إلى هيئة حيوان العقاب.

ويعلو القاعدة أربعة أعمدة على شكل ساق نبات اللوتس، زخرفت بالتعليم ونقشت من أعلى إلى أسفل، تسند أفريزا من عدة صفوف يعلوه سقف مقبب، ويصعد فرعون درجات السلم، تحميه بجمرة من تماثيل أبوالهول ذات رؤوس صقور، ثم يجلس على أريكته رائعة في قنبا وصنعها. إن حورحوب هو الشخصية التي ينتظرها الملك، والذي سوف يصبح فيما بعد ملكا، أما الآن فقد منح قيادة حرية هامة واستطاع حماية جماعة من البدو كان يضطهدهم بدر آخرون. وقد أسر حورحوب قبيلة المعتدين بأكملها، ووصل مع الأسرى إلى العاصمة مستنجبا معه أولئك الذين دفع عنهم العدوان، وقد أتوا ليلتمسوا في خشوع الإذن لهم بدخول الأراضي المصرية ومعهم خططان ماشيتهم على نحو ما كان يحدث دائما. وسيشهد أولئك هؤلاء حفل تعجيد حورحوب، فهذا القائد - وهو في أبهة ملابسه الرسمية يرفع ذراعيه تعبيرا عن عظيم تأثره، بينما يقوم بعض الضباط بتعليق القلائد، الواحد تلو الآخر حول عنقه وبأني ضباط آخرون بقلائد جديدة وضعت فوق صوان، وهم يسرون وقد أحنوا ظهورهم. ويشير أتباع حورحوب إلى صفوف

طويلة من الأسرى، ومن بين هؤلاء رجال يتميزون باللعى والشعور الطويلة
نكست سهامهم وعبست وجوههم لما يلقون من ألم شديد وقد وضعت القيود
في أيديهم، أما النساء فقد تركن دون قيد، يسرن في وقار وياخذ أحد الجنود
يد أم تلبس رداء ذا ثنيات وتحمل طفلا على كتفها وضعت طفلا آخر
أصفر منه داخل خرج، ويبدو على امرأة أخرى أنها تحاول التحدث مع
الجندي بتقدمها في السير، وبما يسترعى الانتباه، أكثر من أولئك الأسرى،
الذين سوف يساقون إلى صناعة صب الطوب أو قطع الحجر في المحاجر،
تلك الخيول التي يقودها هذا الضابط المصرى.

وبعد أن تمت مكافأة حورعجب، تولى بنفسه الدفاع عن قضية البدو
الذين كانوا معرضين لخطر سلب ماشيتهم ونهب أموالهم، لولا تدخله في الأمر.
وألقي خطبته أمام فرعون وهو لا يزال متعلبا بقلائده وحاملا إلى الأمام
المروحة ذات المقبض ممجدا عظمة فرعون وقوته ثم شرح الموضوع بعدئذ.
وبعد ذلك اتجه صوب المترجم وطلب إليه أن، يحظر البدو بأن فرعون قد
قبل أن يأذن لهم بالإقامة في أرضه : هؤلاء هم اللييون ويسهل التعرف عليهم
بفضل الريشة التي تتوسط رأسهم، والشعر القصير المنسدل على جباههم.
والخصلة الغزيرة التي تغطي جانبا كبيرا من وجوههم. وقد اختلط بهم بعض
السوريين الذين يرتدون ملابس ذات أكمام طويلة ووشاح عريضة ويبيعون
عن امتنانهم وعرفانهم بالجميل بقسيات وجوههم المعبرة راغبين الأكف نحو
السماء ثم يمدونها نحو فرعون وهم منبطحون حتى تكاد بطونهم تمس الأرض،
وقد اعترتهم نوبة هذيان جعلتهم يتمرعون في التراب. (٢٥)

وحورعجب قد استحق مكافأته، فإن مثل هذا لا يمكن أن يقال في حشد
أمنحتب كبير كهنة آمون الذى عامله رمسيس التاسع كشخص مسؤوله

ويتمى الأمر بأن يتنازل له عن كل شيء، وقد تم الاحتفال داخل جوسق غم حيث ظل الملك وكبير السكينة واقفين وجها لوجه لا يفصل بينهما إلا الأرفف المحملة بالهدايا، وكان كبير السكينة عارى الرأس، بينما كان الملك متوجاً بالحؤزة الزرقاء، وقد وقف فوق حصير، ولكن الفنان الذى رسم هذا المنظر فى معبد الكرنك قد جعلهما متساويى القامة.

وكانت الهدايا ذات قيمة كبرى وتتكون من ١٠ دين من الذهب و ٢٠ من الفضة و كمية من المأكولات تكفى لإقامة مائدة و ٢٠ أروراً (Aureos) من الأراضى الزراعية، ولكن الامتيازات التى انتزعت من الملك كانت أكثر قيمة من هذا كله، وقد حصل أمنتب على سلطات لاحد لها، جعلت دائرة أملاك آمون الغنية جداً بعيدة عن كل مراقبة خارجية، وأصبحت كأنها دولة داخل الدولة. وقد حصل كبار كهنة آمون بفضل جهودهم وجلدهم الطويل الأمد، على نفوذهم الذى كانوا قد اكتسبوه فى عهد الملكة حتشبسوت وخلفائها من الملوك التحتهميين، بعد أن اضطهدوا اختائون وأساء معاملتهم، وبعد أن كانوا موضع ريبة وحذر من رمسيس الثانى (٢١).

٦ - ١ - استقبال السفراء الأجانب

كان حفل استقبال السفراء الأجانب يفوق بكثير حفل توزيع المكافآت، لأنه كان مناسبة عظيمة تتيح لفرعون أن يظهر فيها أبهته ويشجع فيها كبريائه وغروره، لاسيما إذا كان الموعد قد حدد لاستقبال عدد من السفراء الواقفين من أركان العالم الأربعة فى وقت واحد. كان الرعامسة يستقبلون دائماً النوبيين والنوج ورجال بلاد بونت والليبيين والسوريين والقادمين من نهارينا (بلاد ما بين النهرين) ولكن لم يشاهد بحى مندوبى كريت الذين يرتدون أردية ذات ألوان مختلفة ولهم شعور طويلة ملتوية، مسترسلة ويمحلمون معهم أواند مستطيلة ذات حجم كبير وأخرى على هيئة أقفاص وأقداح ذات مقابض

وجرار علالة بالزهور وقد التمسوا أن يسمح لهم بالإقامة في مياه الملك .
ومع أن البعثات قد توقفت إلا أن شهرة الملك امتدت ناحية الشرق حتى
بلاد لم يسمع الملوك الذين يحملون اسم نحتمس وأمنحيب عنها شيئاً مثل
ميديا والفرس وباكثريا وشراطي . نهر السند .

ولإقامة هذه الحفلات كان يشيد للملك سرادق كبير وسط ميدان ،
ومحيط بهذا السرادق الحرس الملكي وحاملو المظلات والكتبة . ويصطف
السفراء على جوانب السرادق الأربعة ، تتقدمهم الهدايا الثمينة التي أحضروها
معهم ، فيقوم الكتبة بحرقها وتسجيلها ثم يؤمر بحملها إلى مخازن المعبد
المجاور .^(٢٧) ويمنحهم الملك في مقابل تلك الهدايا نسمة الحياة ، وقد يهبهم
أحياناً هدايا مادية أعلى قيمة من تلك التي أحضروها ، إذ كان يسرفون أن
يظهر نفسه بمثابة جبل من الذهب أمام أي بلد آخر ، وما كان يستطيع أن
يتمنع عن إعانة الأمراء المعوزين الذين كانوا يتمنون مخالفته ، إما عن طريق
الزواج وإما عن طريق آخر ، طالما انصرفوا بالمقدرة التامة على أن يلقوا
فطرة سريعة نحو منافسيه ، متى حانت الفرصة .

٧ - الباهج الملكية : رياضة

كانت الحرب هي أهم ما يشغل وقت الملك . وكان ينشأ الأمراء لهذا
الغرض منذ حداثة أظفارهم ، وكان ميزوسيس *Seososis* أو بصارة أخرى
رئيس الثاني قد عوده أبوه ، مثل سائر زملائه على أن يمارس تمرينات
رياضية متواصلة ترهق الجسد ولم يكن يسمح لأحد منهم أن يتناول
طعاماً قبل أن يكون قد قطع عدداً مسافة ١٨٠ ، ستاد *Stades* * ولذلك فهم
عندما يبلغون أشدهم يصبحون أبطالاً صناديد . (٢٨) .

وتثنى قصيدة قادش . وغيرها من النصوص الثرية على قوة الملك البدنية وشدة احتماله ومهارته وشجاعته ، وإذا أردنا أن نعرف تفاصيل التربية الرياضية لصغار الأمراء فإتينا نجدوها في لوحة تحتضن الثالث (٢١) المحارب الشجاع ولا سيما لوحة ابنه أمنتب الثاني الذى تولى العرش بعده ، وقد كان طبقا لما قاله الأطباء الذين خصوا موميائه بأنه كان ذا قوة بدنية خارقة والذى كان يقول عنه معاصروه ، أنه كان ذا ذراع قوية حتى لا يستطيع أى شخص أن يشد قوسه سواء فى ذلك الجنود أو رؤساء البلاد الأجنبية أو كبار رجال بلاد رتنو . Retenou ، (٢١) والامير الذى كان يؤمله مولده لتولى عرش هورس ، كان يقضى وقته على الصورة التالية :

عندما يبلغ عمره ثمانية عشر عاما ، يكون قد بلغ ذروة قوته ، وقد عرف كل أعمال موتو Montou وليس له مثيل فى ميادين الحرب ، تعلم ضروب الفروسية ، ولا يوجد له نظير بين أفراد الجيش العديدين ، كما لا يوجد رجل واحد يستطيع أن يشد قوسه أو يدركه فى العدو . وعلى الجملة فهو بطل صنديد ، حقق مرانه فى ثلاثة اتجاهات ، إنه فى آن واحد : مجدف ، وراى سهام وفارس .

كان قوى الذراع ، لا يصيبه كل مهما حرك المجذاف أو أثار دفعة السفينة الملكية بوصفه رئيس طاقم مكون من مائتى نوى . وعندما ترسو السفينة ، بعد أن يكون هؤلاء الرجال قد قطعوا مسافة نصف أتور Atour ملاحه ، أصحابهم التعب ولا يستطيعون بعد ذلك حراكا ، قد انهكت أجسامهم وشق عليهم التنفس .

أما جلالاته فكان على عكس ذلك تماما ، دائما على التجديف مع أن

في يده مجدافا طوله عشرون ذراعا ، وعندما رست السفينة تقدم جلالت
لرطلها في مرسلها ، لقد قطع جلالتة ثلاثة أورات Atouts دون أن
يستريح مطلقا منذ أن بدأت الرحلة لقد فرح جميع الرجال لقوة جلالتة يقوم
بهذا العمل الخارق . .

وعلى أية حال فلا ينبغي لنا أن ننسى أن مهمة الربان صارت أقل مشقة بما
كانت عليه من قبل ، حين أصبحت الدفة تستند في مؤخرة السفينة إلى صار
وإلى شتى خشي دار بواسطة محور ، أو توضع على جانبي السفينة إذا كانت
ذات دفتين ، وفي عهد الدولة القديمة كان ربانو السفن يستعملون المجذاف بمثابة
دفة يمسكها الربان بكلتا يديه ، دون أن يستعين بأى شئ آخر ، وكان ذلك
يتطلب قوة خارقة لو كان الانجاء ضد التيار أو إذا قصد تغيير اتجاه السفينة .
ولم يكن ثمة سبب لنعتقد أن الأمير قد استعمل الوسيلة القديمة ، وعلى
كل فان إدارة الدفة كانت تتطلب دون شك مجهودا كبيرا وقوة احتمال ،
حتى بعد ابتكار التحسينات المشار إليها .

ينبغي أن يكون رامي السهام الماهر خيرا في اختيار الأقواس . . لقد
شد ثلثمائة قوس ليقارن بين انتاج صانعيها ، ولتمييز بين الصانع الجاهل
والصانع الماهر . . وبعد أن اختار قوسا لا عيب فيه ، بحيث لا يستطيع أحد
سواه شد هذا القوس ، فعل ما يأتي : « دخل ميدان الرماية الشمالى المخصص
له فوجد أنهم أقاموا له أربعة أهداف من النحاس الأسوى وسلك كل منها
قوس واحد * ، وبعد كل هدف عن الآخر بنحو عشرين ذراعا . وعندما ظهر
جلالته تمتطيا العربة مثل مونتو Montou في جبروته ، أمسك بالقوس
وتقدم صوب أربعة سهام معا على الأهداف ، تماما كما فعل مونتو ، ونفذت

سهامه إلى الجانب الآخر للهدف . وصوب سهامه نحو الهدف التالى .
هذه الطلقة لم يسبق لأحد أن صوب مثلها ولم يسمع من قبل أن سهاماً
صوبت على أهداف من نحاس فتخترقها وتقع على الأرض سوى ما قام به
الملك القوى الذى نصره آمون . .

وفى الواقع أن ما قام بعمله الأمير أخبرورع Akheperoua ما هو إلا
تكرار المأثرة التى كان قد حققها والده الملك من خبرع Menkheperre
الذى سبق أن قام هو بثقب لوحة من النحاس رمياً بسهامه . ولكن هذا
لا يقلل من تقدير هذا الأمر الذى يعتبر حقاً من أعمال البطولة . وإذا كان
أخبرورع (منحتب) مثل أوليس Ulyase قد اضطر إلى أن يعود إلى قصره
وهو كمتسول ، فقد كان فى استطاعته بفضل ساعده القوى الذى لا يقهر
وقوسه الذى لا مثيل له أن ينتقم من أولئك الذين قاموا بنهب قصره
ومراودة نسائه .

كان المحارب الحقيقى يحب خيله ، بل كل الخيول أكثر مما يحب نفسه ،
فالأمير نيماروت Nemerot لم يكن سوى حاكم على أحد أقاليم مصر
الوسطى وكان يملك أسطبلًا فى عاصمته الأشمونين Chmounon ، وأثناء
الحصار قاسى العذاب كل من كان بالمدينة من الخيل والرجال على السواء .
ولما دخل يمعننى المدينة منتصراً تفقد الأسطبل ، فوجد المخازن خالية من
العلف والخيول جائعة فأشفق عليها ، وقد اعترته نوبة غضب حادة عندما
تحقق لديه بأن شدة غناه خصمه قد جعلت هذه الحيوانات الجميلة تصل إلى
هذه الحال المؤسفة ، فقال : « قسماً بحياتى . وقسماً بحبى لرع وبالحياة التى
تجدد فى أنفى ، أن ترك هذه الخيول جائعة أمر قاس على قلبى يفوق كل

ما فعلته من أذى بمحافتك . ألا تعلم أن الإله يظلي بحمايته لأنك لم أخطئ .
في حقه ، لقد ولدت من جن مقدس ، لقد خلقتي الله داخل الرحم وفي داخل
البذرة المقدسة ، أستشهد بروحه (الكا) بأنك لم أعمل شيئاً دون علمه ، أنه
هو الذى يأمرنى أن أعمل . (٣٢) ولم يعتمد رئيس الثالث على ضباطه
للتأكد من أن خيوله فى حالة طيبة ومعدة للعمليات الحربية ، فهو الذى كان
يتوجه إلى الأسطول الكبير بالقصر مرتدياً ثيابه الرسمية كاملة وممسكاً عصا
ييده ، وسوطاً بالأخرى ، يحيط به حامل المظلة وحامل المروحة ، ويليهما
الضباط المخصرون لخدمته ، وعندما يدق الناقوس المشكى شب سياس الأسطول
ويقف كل فى مكانه ، ويمسك كل منهم عنان زوج من الخيل فيفتش
المملك على الواحد منها بعد الآخر . (٣٣)

كان الأمير أمانحبت فى حداثة سنه وقبل أن يكون قادراً على عارسة
أعمال متو ، يسيطر على رغباته الجسدية ، فكان يحب الخيل ويفخر بذلك
ولأنه كان يحبها فقد كان يعرف كافة وسائل تدريبها ، ولما وصل النجاح
الذى لقيه إلى مسامع أبيه من خبر رع ، (تمتص الثالث) الجبار ، شعر
بارتياح وغر لما يقال عن ابنه البكر ، فقال لمن كان حوله من
خاصته :

« فلتعط له أجمل الخيول التى فى أسطول جلالتى فى مقاطعة الجدار
الأيض . وقلوا له : « أهتم بها ودربها ومرنها وقربها ، إننا نستحلفك أن
تفعل ذلك » . فاهتم الأمير بالقيام بالعمل نظراً لما لقيه من تشجيع ومعاونة
وشيف وعشترت Reche & Astarte آلهة البلاد التى ترد منها الخيول ، جعل

منها خيولا لانظير لها ، لاتسكل من التعب مهما طالت مدة امساك بزمامها ولا تصيب عرقا مهما طالت المسافة التي تقطعها عدوا .

وكان ميدان السباق في المنطقة الواقعة غرب منف بحوار الأهرام الكبرى ، وقد أمر أمنحتب عندما اعتلى العرش ، أن يشيد مذبح في تلك المنطقة وأقيمت أيضا اللوحة الحجرية البيضاء الكبرى التي حفظت لنا سجل أعماله الباسلة ، وكان ابن أمنحتب تحتمس الرابع شغوقا بتجديد هذه الأعمال الباسلة ، فكان مولعا بتصويب السهام نحو أهداف تقع على مقربة من تمثال أبو الهول الكبير ، ويتجه بعدئذ لصيد الوحوش من الصحراء . وفي أحد الأيام نام بين مخلي تمثال أبو الهول وظهر له في الرؤيا وأمره أن يرفع الرمال التي تكاد تنخفه وهذا يكون جديرا بأن يتولى عرش جب Geb وكان لامفر للأمير من أن يصعد للأمر ، ويسجل للأجيال القادمة (٢١) قصة هذا الحلم العجيب .

ولو لا تقوى هؤلاء الشبان لما علنا كيف كانوا يؤهلون ليتولوا المهام الملكية .

٨ - مذبذب العصر الملكية

كان الأمير ، طلبا للتسلية ، يكتبني بالرمية على أهداف من نحاس أو كان يقوم بصيد الوعول في الصحراء على مقربة من الأهرام في حماية حراختي Harakhti ، ولكن أنواعا من الرياضة أشد إثارة كانت تنتظر فرعون متى أراد ذلك . إذ كان في إمكانه أن — يجدها في الصحراوين الممتدتين على جانبي وادي النيل ، ففي وادي نهر الفرات في مكان معين يسمى نبي Nīy حيث يجري النهر بين صخرتين وجد الملك من خبر رح Menkheperre ذو حرسه (م ١٩ - الحياة في مصر)

قطيعا مكونا من مائة وعشرين فيلا، وبدأت المعركة داخل الماء. ولم يفعل أى ملك شيئا مماثل هذا العمل منذ عهد الآلهة، وتصادف بارادة الله أن تقدم أنصنم هذه الأفيال زملاءه ليواجه جلالته بالذات، الذى وجد نفسه فى خطر داهم، واسكن من حسن الحظ كان رفيقه القديم فى السلاح أمنمحب Amonemheb بجواره فقطع خرطوم هذا الوحش، فوهبه سيده وساما ذهبيا وأثنى عليه. وبالرغم من ذلك، فقد أخفى قصة ما بذله أمنمحب من تضحية فى الفثرة الرسمية التى نقشت على لوحة نباتا فى حين أن ذكر فيها «إنى أبرز هذه الأشياء فى صدق، دون مغايرة للحقيقة». وما كنا لنعلم حقيقة ما حدث لو لا أن أمنمحب قد دون بدوره قصة هذا الصيد الجديرة بالتخليد. ولو كان الذى شارك فى هذا العمل المجيد جندى فى رتبة تقل عن مكانة أمنمحب العظيم فن الذى كان يعرفنا بها، ١٢

أملت النصوص المعروفة أن تذكر لنا ما إذا كان سيتوى ورسيس، قد مارسا صيد القيلة فى وادى الفرات والخرتيت بين الشلال الثالث والشلال الرابع. واسكن النقوش الغائرة فى مدينة حابو تمثل رسيس الثالث وهو يصيد الأسد والثور الوحشى والوعل (٢٦). وقد تأهب الملك كأنه مقبل على ميدان الوعى، فقد ركب عربته، وتحت بطن الحصان، يبدو أسد جريح، قد انقلب على ظهره محاولا أن يترع بمخالبه سهمًا مفروسا فى صدره، وهناك أسد آخر طعن برعيتين وحرية، يتجه نحو أجمة من الغاب ليختبئ فيها وهو يزأر، وأسد ثالث يشب فى وسط أجمة خلف العربية، ولكن سرعان ما يلتفت الملك نحوه مسكا بالحربة ويدهى أن هذا المعتدى الجديد لم يتفاد الضربة القاضية التى أصابته.

بواصل الملك ورفاقه الصيد على مقربة من مستنقع يحيط به الغاب

والأعشاب الطويلة ، ويطاردون قطعاً من الثيران الوحشية . واصطف
الجمود وقد سلحوا بالحراب والأقواس والسيف والدروع ، كأنهم في حرب
حقيقية وتضطر الحيوانات وهي في حالة ذعر إلى الفرار هرباً ، ولكن عربة
الملك تلحقها ، وقد سلح بدوره بالقوس كما لو كان في ميدان للقتال ، لقد
سقط أحد الثيران مشخناً بجروح السهم التي أصابته في ظهره وارتدى داخل
أجمة ، وأخذ يضرب الهواء برجله ، بينما تمرغ ثور آخر تحت أرجل
الحيل ، وحاول ثالث أن يثب إلى الماء في حالة من اليأس جعلت ذيله مشدوداً
ولسانه خارج فمه ولكنه سقط على منكبيه خائراً ، مهدود القوى .

أما صيد الوعل فيبدو مجرد تسلية إذا ما قورن بهذه المطاردات العنيفة ،
فالملك وحيد في عربته يتقدم داخل الصحراء لا يصحبه حرسه ولا يحاول
أن يجذب الوعل إلى مكان مغلق كما يفعل أفراد الطبقات البورجوازية في طييه
أو الصيادين المحترقون ، ولكنه عندما يرى عن بعد قطعاً من الخمير الوحشية
أو الوعل أسرع متجهاً إليها بعربته إلى أن يلحق بها ويقهرها تماماً .

١ — الملك في ميانه الشخصية

عندما كان الملك يعود من رحلة بعيدة أو من حملة داخل الصحراء ،
وجد راحته في قصوره في بنى رمسيس (٢٧) أو في منف أو في طيبة . ولشد
ما كان اختناقون يرتاح في قصره الجديد في مدينة اختناقون حتى كاد لا يفارقه
إطلاقاً ، فقد كان أباباراً وزوجاً وفياً وابناً ودوداً ، كان لا يجد متعة إلا في
صحبة الملكة والأميرات فكن يرافقته في زهاته ، ويرتدون معه على المعبد ،
كما كن يحضرن حفلات توزيع المكافآت ، ويعارن الملك في استقبال السفراء
الأجانب ويعددن له المشروبات والحلوى ، وكانت الملكة تملك بالإبريق

والمصفاة لتقدم بنفسها الملك مشروباً ساخناً ، وكانت سعادة الجميع تكمل
عندما تأتي الملكة الزائدة لزيارة أبنائه .

كانت وجبة الطعام في الظهر والمساء تجمع أفراد الأسرة ، ولكن ليس
من المؤكد أن هذه العادة كانت متبعة لدى جميع الفراعنة . ولقد قلوم
أخناون الكثير من التقاليد والعادات التي كانت مألوفة في العهود السابقة
ولكنها أعيدت إلى ما كانت عليه بعد وفاته .

وفي بداية الأسرة الثامنة عشرة كان الملك قلما يعيش بين أفراد أسرته ،
وعندما جاء الملك أحموزا ليستريح على أريكته كانت تجلس عليها السيدة
الفضلى موضع الثناء من الجميع الابنة الملكية الجميلة ، الاخت الملكية ،
الزوجة المقدسة ، الزوجة الملكية الكبرى احموزا نفرتاري Ahmose
Nefertari ، فعلا دار الحديث بينهما ؟ على ما يمكن أن يقدمه من خير هؤلاء
الكاتنين هناك (الرافدين) وعلى المتوفين الذين يطالبون بالماء وموائد
قرايين مثقلة في مناسبات كل أعياد السناء والأرض ، سألت الملكة وقد
اعتراها بعض الاندهاش فربما كانت تتوقع حديثاً أرق من هذا — سألت
« ولم تتناكب هذه الأفكار ؟ وما مناسبة هذا الحديث ؟ وما هذا الذي اعترى
قلبك ؟ نأجأها الملك وهو لا يزال بجانبها : « لأنى تذكرت تى شرى
Teti-Chori والدة والدتى ووالدة والدى الزوجة الملكية الكبرى ، الملكة
الوالدة ، رحمها الله ، ومقبرتها ومعبدها لا يزالان موجودين بين أتربة طيبة
وطيبة .

قلت ذلك أمامك لأن جلاتى كانت تمنى لو شيدت لها هرما وقصراً في
جبانة تاجسر Ta - djousir بالقرب من صرخ جلاتى وأن تحفر بركته

(المقدسة) وأن تزرع أشجاره وأن يوطد عيشه ، وأن يخصص له على الدوام رجال توهب لهم أراضى زراعية وقطعان من الماشية ، وأن يعهد بخدمته إلى كهنة الروح (الساك) ، وأن يكلف رجال بإقامة الحفلات وكل على علم بما يجب أن يفعله . (٢٩) وما يثير الإعجاب ، مدى تقوى الملك وسمو حديثه وما يديه من احترام نحو زوجته ولكن لا يستطيع أحد أن ينكر أن الملك كما كانت تود أن يتناول الحديث موضوعا آخر . ومع ذلك فإن رمسيس الثانى أقل زهدا بل مرحا من ذلك ، فالنصوص العديدة التى تشير إلى أن رمسيس العاصمى التى أنشأها فوق أطلال أواريس شرق الدلتا تمتدح جمال هذه المدينة وحبورها وسحرها ، إذ كان الطعام والشراب فيها طيبا وكان التيزن حلو المذاق كالعسل ، وكان الأهالى يكتلون بالورود ويهللون للملك كل يوم ، وبالإيجاز كانت فردوسا (٣٠) وكانت الحياة أيضا فى مدينة اختيتانوم تماثل أيام الأعياد ، ولكن مع فارق واحد على الأقل ، كان هذا الملك الخارج على دين آبائه يحيا الحياة العائلية الفاضلة كما ندرتها حاليا . كان الرعامسة يحبون التغيير ، وفى عهد رمسيس الثانى ، طبقا لما وصل إلى علينا كانت خمس سيدات يحملن لقب « الزوجة الملكية الكبرى » ، ولا يثير هذا العدد العجب إذ أن هذا الملك تولى العرش لمدة سبعة وستين عاما ، وأن عدد أولاده الذى بلغ ١٦٢ ولدا تدل دون ريب على أنه لم يقتصر على زوجاته الرسميات . أما كيف كان مستطاعا أن يعيش كل هؤلاء القوم فى وفاق فهذا مما لا يمكن أن يتخيله إنسان نظرا لقلّة المستندات التى وصلت إلينا .

فلنذكر مثلا واحداً فى إحدى مغامرات الملك الكبير ، كان قد أبرم معاهدة صلح مع خصمه خاتوسيل Khatousil ملك الحيثيين ، وبالرغم من ذلك فإن الأعمال العدوانية لم تتوقف ، وكان كلما التقي فريق مصرى بفريق

من الحيثيين كان يحدث اشتباك مسلح ، فاعزم خاتوسيل أمراً عظيم الأهمية فجرد نفسه من كل أملاكه وأرسلها مع ابنته المحبوبة إلى رمسيس ، انتقل الموك في الموسم غير المناسب ، ولكن المعبود سوتخ ، الذى لم يرفض شيئاً لرمسيس - وما كان ليرفض له طلباً لأنه من صلبه قام بعمل معجزة فانت أيام الصيف وأفارت الشمس الساطعة الرحلة الطويلة التى قطعها الأميرة من عاصمة بلادها في وسط آسيا الصغرى إلى أن وصلت إلى مصر ليس هذا كل ما حدث ، إذ أمر رمسيس بإقامة حصن بين مصر وفينيقيا وأسماء رمسيس العظيم بانتصاراته ، ووضعه تحت رعاية أربعة آلهة ، منها اثنان آسيريان هما سوتخ وعشتروت واثنان مصريان هما آمون وواجيب ، وجمع فيه كميات وافرة من المؤن وأرسل إليه أربعة تماثيل ، ثم انتقل إليه بنفسه انتظاراً لقدم الأميرة وموكها ، حتى يصحبها إلى عاصمته الكبرى في رمسيس ، وكان الأهالي يعبرون عن فرحهم في تهليل وسرور عظيم برؤية أميرة فائقة الجمال وأيضاً لأنه المرة الأولى يتأخى الجنود الحيثيون والمصريون (١١).

ولم يحاول خلفاء رمسيس الثاني اغتصاب عجده في هذا الصدد ، فرميس الثالث ذاته ، مع أنه كان غيوراً على الإقتداء به في كل شيء ، قد اقتصر على ثلاث زوجات ، وعلى ما يقرب من عشرة أبناء ولكنه كان مغرمًا بمجالسة النساء ، وكان يسره أن يلعب العزاة مع حسناوات يكدن يكن عاريات ، وكن يقدمن له الزهور والمشروبات والخلوى .

وكان الملوك يحرصون على مجالسة رفاقهم في السلاح وفي الصيد ، وأهل العلم المشهودين ، كان خوفو قد دعا أتجالة وأخذ كل منهم يقص عليه بدوره قصة ، وعندما بلغ سمع خوفو ، أنه يوجد في عصره عالم يأتي بالمعجزات ،

كلف أحد أولاده ، بأن يحضره إليه . واستدعى سفرو إلى البلاط الملكي ، عالما كان يعرف أحداث الماضي ويتنبأ بالمستقبل . وبعد ذلك بوقت طويل أسر أمنتحتب الثالث الحكيم يسمى باسمه بمخاوفه . ورغبته في رؤية المعبودات .

١٥ — د. انس المحرم

بالرغم من أن فرعون كان يعبد عبودا وابنا شرعيا لآمون ، إلا أنه لم يعد من بعض الممارقات اللائق كن يتأمرن على هلاكه ويبعثن من وسيلة لاختصار مدة حكمه وتغيير النظام الطبيعي لوراثه العرش . وفي أواخر حكم رمسيس الثالث فكرت إحدى زوجاته التي تسمى تايا أن تضمن لصالح ابنها وراثه العرش بعد أبيه المعجوز ، وقد ورد ذكر هذا الآن في بردية تورين القضائية باسم بنتاور ، وليس هذا حقيقة إسمه (٢٤) اتفقت الملكة مع أحد أمناء ^{٢٥} القصر المسمى بابا كيكامون Pabekikamun ، وبغنى هذا الاسم ، الخادم الضرر ، وقام هذا الرجل بدور الوسيط بين نساء الحريم المختصات لتايا وبين أمهاتهن واخواتهن اللائق كن يقمن بضم الرجال إلى هذه الحركة وإثارتهم ضد سيدم (٢٢) وقد توهم أنه وجد نجدة قوية في شخص بن هوى بن Pon Houi bin أحد مديري قطعان المشاة راجابة لطلبه أمده بكتاب من كتب الملك أوزير مازع ميامون المعبود الكبير ، سيده له الحياة والصحة والقوة . (٢١) وعندما تناول هذا الكتاب قام بن هوى بن بتدوين كتابات سحرية ، وصنع تماثيل صغيرة من الشمع كانت تؤثر تأثيرا مذهلا على فرعون وحاشيته وكان من خراسها إما إضعافهم وإما أن تقت في عضدهم وتصرفهم عن أداء واجباتهم . وقد اشتبك في هذه المؤامرة اشتراكا فعليا موظفون وسيدات ، وكان أحد المتأثرين قائد حملة الأقواس في كوش وهو شقيق إحدى سيدات الحريم التي كانت

تكتب خطابات كثيرة. وقد ورد ذكره في المحضر الذي حرر باسمه بن إماميات
 Bio myat ومعنى اسمه الشر في طيبة وضابط آخر باسم مسد سورع
 Mesed sou Re ومعناه رع يكرمه (١٥) وكان هؤلاء يحملون دون شك
 قبل الحادث أسماء مثل الخير في طيبة ، رع يعزه ولكنهم أصبحوا غير
 جديرين بتلك الأسماء المكرمة لقد علم الكثيرون بهذه المؤامرة ، وما أكثر
 ما تداوله الناس من حديث عنها ، ولم يسمح المعبود رع بأن ينالوا ما ربههم
 ويقتصروا في مؤامرتهم ، ولو أننا لا نعلم بأية وسيلة تمكن من إفساد
 المؤامرة إلا أننا نعلم بأنه قبض على كبار المذنبين ومساعدتهم كما قبض أيضا
 على الذين وقفوا على سر هذه الانصرافات الضنيعة ولم يبادروا بالتبليغ عنها
 فشكلت هيئة محكمة من اثنين من أمناء الخزينة وأحد حملة المراوح وأربعة
 من السقاة ومدع ، وقد فضل فرعون اختيار رجال من حاشيته على القضاة
 الرسميين . وألقى خطبة تهديدية وردت مقدمتها مشوهة ، يحثهم فيها على ألا
 يرحموا المنهين ، قائلا :-

« لتقع على رؤوسهم مسئولية ما ارتكبهوه ، أما عن نفسي ، فإن عناية
 الآلهة ترعاني إلى الأبد ، إني من الملوك العادلين أمام الآلهة آمون رع سوتير
 وأوزيريس سادة الأبدية . » (١٦) ولم يكن الملك موفقا في اختيار
 أعضاء هذه الهيئة فالثان منهم وأحد ضباط الحرس قد تغلوا عن أداء
 واجبه الشريف عندما علموا بأن بعض النساء المتهمات قد هربن وبادروا
 إلى اللحاق بهن في مكان غير شريف ، ولكن ذلك لم يستمر زمنا طويلا ،
 إذ عثر عليهم قوم يتصفون بالجلب ، وكان أول عقاب لهم أن قطعت أنوفهم
 وأذنانهم ، وكان هذا هو العقاب الذي يطبقه حورعجب على القضاة والحكام
 الذين كانوا يسيئون استعمال سلطة وظائفهم .

وقد استعمل الكاتب تعبيرا غريبا ليبين كيف حل العقاب النهائي
لهؤلاء المذنبين الكبار إذ قال : « لقد تركوهم في مكانهم وماتوا من تلقاء
أنفسهم » ، وقد يكون معنى هذا أن هؤلاء المساكين قد تركوا وحدهم في قاعة
المحاكمة فريسة لتأنيب الضمير وفي تناول أيديهم سلاح حاد ، ثم يبقى بعد
ذلك ما ينبغي عليهم أن يعملوه . ولكن هناك تفسيراً آخر أشد إثارة من
هذا التفسير ، أشار إليه جاستون ماسيرو على أثر فحص مومياء عز عليها في
الدير البحري معروقة باسم مومياء الأمير المجهول وهي جثة لشاب تقراوح
منه بين الخامسة والعشرين والثلاثين عاما ، سليم البنية ، خال من الإصابات
دفن دون أن تتخذ مع جثته الإجراءات التي تتبع عادة في التحنيط ، فالملح
بأكمله ، لم يستخرج من مكانه ، وبقيت الأضلاع كاملة . « ولم يعبر وجهه من
قبل ، بمثل هذه الدقة عن الذعر الذي لازم نزعات الموت ، فتقاطيع الوجه
المتقاربة ربما توضح بطريقة شبه مؤكدة أن هذا المسكين قد مات محتقنا
لأنه قد دفن حيا » (٨١) وربما يعتبر هذا التفسير روايتا ولكن بمقارنته
بالتفسير الأول قد يعترض بأنه ليس ثمة في مصر دليل على أن يترك للمذنبين
أن يعاقبوا أنفسهم ، فضلا عن ذلك فليس ثمة رحمة لأولئك الذين تزين
لهم أنفسهم ، أن يعتدوا على فرعون .

١١ - أوساط ملكية

إن مدة حكم طويلة وبعض الأحداث تمثل التي سبق ذكرها يمكن أن
يوجها إلى فرعون بالرغبة في إطلاع الأجيال القادمة على خبرته بالناس .
وقد ترك كثير من الملوك نصائح وتعليمات فمن بينهم سوحتب ايب رع .
Sohotepibre (١١) والد مري كارع Merikare ، ولكننا لم نلتق أية
مذكرات خاصة لا من سبتي الذي دفن في الغرب (الأمنتيت) Amentit في

شرح شبابه ، ولا من رمسيس الثاني الذى لم يكن إطلاقاً من القيام ، طيلة حياته ، بأداء دور الآلهة بين الناس ، وفيما يتعلق برمسيس الثالث فقد وصلت إلينا المذكرات الطويلة التى أملاها فى نهاية حياته ، فى حالة نكاد تكون كاملة . (٥٠)

وكان الملك يعتقد أنه قام بعمل حسن فقد خصص أفضل مصادر الثروة فى البلاد لتكبير وتجميل معابد الآلهة وعلى الأخص معبد آمون فى أوبت Opet ومعبد نوم Toutم فى أيون رع Iou Re ومعبد بتاح فى منف وما يماثلها دون أن ينسى معابد المعبودات الأقل مرتبة ، إذ أمدّها بعدد وافر من الموظفين المدربين وبقطعان من الماشية والأملاك العينية وفى مناسبة كل عيد من أعيادها ، زود هياكل المعابد بالطعام والشراب ، ومع كل ذلك فإنه لم يهمل الجنس البشرى ، فقد جعل النظام والسلام سائدين . وقد هزم الليبيين وقتك بهم لأنهم كانوا يحتلون حافة الدلتا فيما بين غربي النيل والصحراء كما لو كانوا يمتلكونها ، واتخذهم أسرى وضمهم إلى سكانه ، أما قرصان البحر الذين كانوا يهاجمون الشواطئ المصرية فقد صدم ولقنهم درساً لم ينسوه مدى الحياة ، وقد أنشأ أساطيل كاملة وأرسل بعثات لايحصى عبيدها إلى كافة أنحاء العالم لجلب البخور والعطور والزمرد والذهب والجواهر والأبنوس والعاج وكذا خشب الأرز من لبنان ، وأصبحت مصر فى عهده جنة لم يستطع أحد أن يعكر صفو السلام فيها .

• لقد منحت الحياة للأرض كلها وسكانها رخييت Rakhyt وبايت . Ppy وهنيت Henyt رجالاً ونساء . لقد انشلت الناس من وهدة ، الفقير وهبتهم نسمة الحياة وحميتهم من الأقوياء الذين كانوا يضطهدونهم . القدر ثوت الأرض وازدهرت طيلة حكمى ، منحت الخيرات للآلهة

وللناس ولم استحوذ لنفسى على شيء عما كان ملكا للجميع. وقد أتممت مدة حكمى على الأرض كملك للأرضين ، لقد كنتم خدما لى تحت قدمى ، وكنتم أعزاء إلى قلبى كما كانت أعمالكم حسنة لعلكم تستطيعون قراءة مراسى وقراراتى ، هاأنذا أرقد الآن فى الجبانة مثل والدى رع . لقد أصبحت ضمن مجموعة الآلهة الكبيرة فى السماء وعلى الأرض وفى الآخرة ، (٥١) ومع أنه كان عظيم الثقة فى معبوداته . إلا أنه كان تمة شىء يقلق بال الملك . إن ابنه الذى أنجبه رع نفسه ، ابن آمون الذى خرج من جسده قد توج سيدا للأرضين مثل تاتن Te-tenon ، ولا شك أن الدنيا كلها تحت قدميه وتقبل الأرض بين يديه ، ولكن هل سيستمع المصريون إلى نصائح هذا الذى انضم إلى الآلهة التى خلفته طالبا إلههم أن يقبوه فى كل وقت ، وأن يعبدوه ، وأن يمجدوه وأن يزيدوا جماله كما يفعلون لرع فى كل صباح .

وكأنه كان يقتبا بأن أيام مصر الفرعونية السعيدة سوف تزول فيكرر الملك دعوته لجميع المعبودات من أجل ابنه ، فكان يقول لآمون :

« استجب لآبهالاقى يا أبى وياسيدى ، إني وحيد بين مجموعة الآلهة القائمة بجانبك ، اجعل ابنى ملكا مرموقا فى مسكن توم Toun ، فانت الذى أقتنه ملكا منذ كان شابا ، وانت الذى جعلت منه حاكما ، له الحياة والصحة والقوة ، على الأراضى فوق البشر ، فامنحه الملك الملايين السنين وافتح الجبوبة لأعضائه امنحه أولادا يوميا ، أنت الدرع الذى يحميه كل يوم واجعل سيفه ودبوسه فوق رؤوس الآسيويين المنظر حين أرضا خوفاً منه كأنه المعبود بعل وتنتد حدود أراضيه كما يشاء ، ولتسكن الأراضى والصحارى فى رعب منه امنحه توميرى Tounery (الأرض المحبوبة) بدعوة خالصة من أهلها ، ابعد عنه الشر والنكبات والمصائب واجعل السرور يسكن قلبه وأن يهلل الناس

خرساً ويفقدوا ويرقصوا أمامه - ضع في قلوب الآلهة والمعبودات حبهم له ، والحنان والوقار له في قلب بايت .

سوف يتحقق ما تنبأ به تماما دون أن يستطيع أحد رده أو الوقوف أمامه ، وأن ما تقوله سوف يصبح حقيقة ثابتة راتمة ، لعل في مقدورك أن تمنحني الملك لما تقي عام ، وأن تثبت الملك لابني الذي على الأرض . مد من أجل بقاءه على العرش أكثر من أي ملك آخر ، مراعاة لما فعلته من خير شخصك . وبأمره يسوس الملك ، لأنك أنت الذي توجهت لن ينحرف عن اتباع ما تقوله يا سيد الآلهة . اجعل مياه النيل في همدك السعيد تفيض بوفرة وخير تكفي لإطعام مملكتك بالكثير من المون - اجلب إلى قصره المقدس الملوك الذين يجهلون مصر وظهورهم بحلة . . . (٥٢) . ويكرر الملك هذا الابتهال بنفس هذه اللمحة لأتوم Toom وبتاح Ptah واسكل آلهة ومعبودات الناسوس الكبير ، السطور الأخيرة لهذا المستند تعد نداء علويًا للناس وللمعبودات على حد سواء من أجل هذا الابن المحبوب ، هل جاء عاقل من بين أولئك الكثيرين الذين أنجبهم مصر لينذر زميس الثالث بأن المصائب التي أمكنه أن يبعدها عن مصر بفضل مهاراته وجرأته وحسن توفيقه سوف تنقض على توميري - أرض مصر ؟ في الأزمان السالفة لخوفه سبق أن أنفذ قومه بأن أسرته سوف تنهى بعد ثلاثة أجيال ، وأما أسرة زميس فظن يكون أمامها أكثر من سبعين عاما تقريبا ، كانت السنوات الأخيرة منها شديدة اليأس ، ولكن سوف تستعيد مصر مجدها بفضل حكام آخرين .

الفصل التاسع

الجيش والحرب

١ - مزاياء واضرار مهنة الحرب

اعتبر الكتاب مهنة الجندية أقل مكانة بكثير من مهنتهم. أما تلاميذهم وقد خدعهم بريق المظاهر فكانوا يؤثرون أحيانا على الأتلام والألواح، السيف والقوس وخاصة تلك العربة التي يجرها حصانان مطهمان قويان. وكان لزاماً أن يوضح لاولئك الشبان المجانين مدى تعاسة الجندى. فن بين التمارين المألوفة التي كتبت في عهد الرعامسة الكثير الذي يحوى وصفا لهذا البؤس، فكان الذي يقع الاختيار عليه ليصبح ضابطا في المشاة، يؤخذ من المهد، وعندما يبلغ طوله ذراعين، حبس في الكنكات، وكان يخضع لتمرينات بلغ من قسوتها أن رأسه وجسمه كانا يصابان بجروح عميقة ترك أثراً ولا تشفى أبدا، وإذا حاول الاستراحة ضرب كما يذق ورق الكتابة وأخيرا إذا ما آتى أن يشترك في معركة ما أصبحت حياته كابوسا مزعجا: تعال وسمع حملاته الحربية في سوريا وسيره فوق الجبال، إنه يحمل خبره وماده فوق أكتافه كأنها حمولة دابة تنوء من ثقلها فقرات سلسلة ظهره. يشرب الماء الأسن، وينام متيقظا. وعندما يلتحم بالعدو يكون مثل طائر قد وقع في فخ وأصبح لاحول له ولا قوة. وعندما يمين الوقت ليعود إلى مصر يكون بمثابة خشبة نحرها السوس، تنتابه الأوجاع، ويصاب بالشلل، ويحمل على حمار، يسرق اللصوص ملابسه ويهرب مساعده. (١)

وتتعمد هذه المتاعب بالنسبة لضابط العربية . ففي أول عهد بالخديمة ، عندما يقسم من الاسطبلات الملكية جوادين كريمين وخمسة من المساعدين يبلغ به السرور مداه فيجرى إلى بلده ليظهر بها ، ويتحدى أولئك الذين لا يظهرون إعجابهم به ، وعليه الآن أن يتولى كسوة اثنين من مساعديه كما أن عليه أن يشتري عربية ، ويساوى ثمن عرش العربية ٣ دين من الفضة وصندوق العربية ٥ دين ، وهذا يستنزف كل المبلغ الزهيد الذي ورثه عن والديه . ويحصد نفسه وقد تورط في معارك جديدة ، فيسقط ويهرج ويترك الحصان والعربة مهملين في خندق ، وفي نفس الوقت يمر عليه رؤساؤه للتفتيش ، فيقبض عليه ويحكم عليه بالضرب بالعصا ، فيطرح أرضا ويضرب حائطه ضربة . (٧) وليست هذه اللوحة بطبيعة الحال مضبوطة تماما وتنقصها الصراحة ، على أنه يمكن أن يستنتج منها أن طبقة المتعلمين لم تكن على علاقة طيبة مع طبقة المسكرين . وربما كان الشعور متبادلا بين هاتين الطبقتين .

استطاع قدماء العسكريين الذين قاموا بمعلمات حربية في سوريا والنوبة وليبيا أن يعودوا إلى بلادهم بعد أن أنهوا مدة خدمتهم ومنحوا معاشا مجزيا مثل أحسن ابن أبانا . *Ahmose fils d' Abana* ، أو نالوا مناصبا في البلاط الملكي مثل أحسن بن نخبيت *Ahmose de Nekhabit* ، ولم يشيروا إلى أي شيء ساهم خلال خدمتهم العامة . ويقول بن أبانا : « إن ذكرى الإنسان الذي يقوم بأعمال البطولة لن تمحى أبدا من هذه الأرض » .

وبالإضافة إلى هذا فقد كانت مهنته مجزية ، فبعد كل غزوة موفقة كانت الغنائم توزع . أما الشجاع الذي يقيد اسمه في السجلات الملكية فمنمنع له أراضي في بلده ثم بما يصادر من أملاك أعداء الملك ، كما يمنح عبيدا من

الجنسين ، وقد نال أحموزا نفسه ١٩ عبدا وحصل على مكافأة جزاء شجاعته
 ذمبا عدة مرات ، على هيئة عقود وكثوس نمائل كناس تحوتى Thouty ،
 وكان محفورا عليها بالمير وغلغية ، منحت بإعنا من الملك من خيررع إلى
 الأمير التليل والآب المقدس المحبوب من الإله ، الذى أسعد قلب الملك فى
 طول البلاد الأجنبية وعرضها ، وفى جزر البحر الكبير ، والذى ملأ
 المخازن باللازورد والفضة والذهب ، حاكم البلاد الأجنبية ، قائد الجند ،
 والمرضى عنه من الإله الطيب ، والذى يمنحه سيد الأرضين الحياة ، الكاتب
 الملكى تحوتى. (٢)

وديدو Dideo أحد الجنود المحترفين ، الذى شغل الأعمال للملاينة على
 التوالى : حاكما للصحراء غرب طيبة ، ورسولا ملكيا لكل البلاد الأجنبية ،
 حامل العلم لحرس جلالته ، قبطان السفينة مرى آمون Mery-Amon ،
 وأخيرا قائد الشرطة ، قد نال بدوره فى عدة مناسبات ذهب التقدير . وقد
 خلق فى رقبته نخلا وأسدا يتحرك ، (٣) من الذهب تتدل من شريط فوق
 المعقد الذى يتقلده .

كذلك فإن أحد معاصريه وهو أيضا من حملة العلم ، ويحمل اسمارانا
 هو : نب كيمى Neb-kemi (سيد مصر) ، نال أيضا سوارا من خلط
 الذهب والفضة . (٤)

وقد كان أكثرهم توفيقا ، حامل العلم نب آمون Nebamon الذى بلغ
 الشيخوخة وهو فى خدمة فرعون ، قضاه فى إخلاص وشهامة وثقان دون
 أن يمرض طول مدة خدمته الطويلة لآى عقاب أو لوم ، صم جلالته الذى
 قدره حتى قدره وعرف مزاياه أن يتزوج شيخوخته فمنحه منزلا جميلا ذا
 حطابين وفناء داخلى تظله شجرة من نخيل ، كما أمده بخدم وقطعان من الماشية

وأراض وعبيد ، مع ضمان ألا يتمكن موظفو القصر من استردادها ، وقد
انعم عليه بلقب أيماخ Amakh ، ولمشأ فرعون أن يعفيه كاية من الخدمة
العامة لذلك عينه رئيساً للشرطة في غرب المدينة ، وقد منحت له هذه
الخيرات والألقاب في حملة استمراضية ، ولما كان نب آمون حاملاً للعلم
فقد عين فيما بعد ، مثل ديدو تماماً ، قائدا للسفينة الحربية مري آمون ، وقد
رسم على علم سفينة تنوسطها قررة ودقة وحبال ، وقد وفد كل رجال
السفينة الحربية ، في مركب ليشاركوا في تكريم رئيسهم القبطان السابق .
جلس الضباط على مقاعد قوائمها متقاطعة على شكل X بينا وقف الرجال وقد
التصقت أكتافهم في أربعة صفوف . وقد أعاد نب آمون العلم الذي كان يحمله ،
عندما كان يرافق سيد الأرضين في البلاد الأجنبية وفي الجنوب والشمال ،
بعد أن حياه ، وبعد ذلك تقدم ضابط من حملة مروحة الملك وأعطاه علما
جديدا رسم عليه غزال ، فوق ظهره ريشة نعم ، وهي شارة رجال الشرطة
العاملين في غرب طيبة ، وكذلك عمود صغير على هيئة نخلة ، أطول قليلا
من الكف ربما كان يتضمن نسخة من المرسوم الملكي بتعيين نب آمون .
بعد هذه الحفلة كان رؤساء شرطة الحدود الميجاؤو Medjaïou يسرون في
استمراض أمام رئيسهم الجديد ، بينا ضابطان هما نري Teri قائد الميجاؤو
والملازم ماناف Manaf بركان أمامه على ركبتيهما حتى تمس كيهاتهما الأرض ، ثم
يقدمان أعلاما صغيرة إلى نب آمون بعضها مربع ، وبعضها نصف دائري ،
وقد نقش على البعض دون شك اسم ورقم أو علامة مميزة للوحدات التي
تكون منها قوة الميجاؤو . وأخيرا يعلن بوق بدء الاجتماع ويسير الموكب
وفي مقدمته حامل العلم بقبه حملة الأقواس الذين يسبقون المشاة الثقيلة
المسلحة أفرادها بالرمح والدروع ، وعندما يمرون بجانب نب آمون ، يعرض
حملة الأقواس أسلحتهم باليد اليمنى ، ثم يلقونها بعدئذ في رقابهم بحيث
تصبح أذعهم طليقة ، ويسرون وأكفهم مقبوضة . (١)

وعلا جدال فيه أن رجالا مثل هؤلاء لا يمكن أن يماروا بالشكوى من معاملة رؤسائهم ، وما نعرفه عن صفات الضباط والرتب العسكرية الأخرى الذين لم تكن السبل ميسرة لهم ليشيدوا لأنفسهم مقابر ويزينوها برسوم تزين مراحل حياتهم الحربية ، يقل عن ذلك بكثير . على أية حال فإن هذه الرسوم تطلعنا على طريقة حياة الجندي العادي ، ومن الجلي أن كبار الضباط وكتاب الملك وكتاب التجنيد مثل جانوتي Tjanouni وحر محب Horemheb وأمنمحات Amenemhat كانوا يظهرون ، وهم يذلون بمجهودات شاقة في إطعام الجنود . ويتكون الطعام العادي للجيش من الخبز ولحم البقر والنيذ وفطائر وخضراوات ، من كل الأطعمة الطيبة المغذية المنعشة . وسير الرجال في نظام تحت إشراف ضباط الصف ويحمل كل منهم مزوده ويعبرون أحد الأبواب إلى فناء توجد فيه جرار وتصف ملأى بالفطائر وقطع مستديرة من اللحم المفروم وشرائح اللحوم . ويجلس على الأرض رجال كبار السن يرتدون ملابس بيضاء ، خلف القفف وهؤلاء هم ، دون شك ، الخبازون والطهاة .

ويسجل الكتاب أولا بأول عدد الرجال وكية التموين التي أهديت لهم (٧) وأصبح من بين مسئوليات نب آمون بعد ترقيته قائدا للبيجار ، الإشراف على تدريب المجندين الجدد والعناية بهم . وكان سعيدا بأن يؤدي هذا الواجب وهو جالس على مقعد صغير ، يعاونه مساعدان يحملان ، تحت تصرفه ، مقعداً صغيراً آخر وصرّة ونعالا وعصى . وفي حضوره يحمل الكتاب كيات التموين ويقيدون عددها ويختمون أراقي النيذ ويمهرون الثيران . (٨) ومن المحتمل أن نفترض أن هذا الطعام كله لم يكن مخصصا لنب آمون وحده بل من حق كل الفرق التي كانت تحت قيادته ، لأن نب آمون كان هو المكلف بالعناية بالجنود الجدد .

وقد اهتم الرعاسه ، مثل أسلافهم ، بأن تكون تغذية جنودهم طيبة وأسلحتهم موفورة ، وقد بذلوا كل ما في وسعهم حتى يرضى الجنود بحالهم . وهذا هو السبب الذى من أجله أنب رمسيس الثانى رجال جيشه فى شدة بالغه وذلك عندما تركوه وحيدا وسط أعدائه دون أن يتمكن من ألا يعتمد إلا على نجدة آمون ، لقد خاطبهم قائلا : « كم كنتم جبناء ، يارا كى العربات ، لن أكون غورا بكم بكل تا كيد مع أنه لا يوجد أحد بينكم لم أسد إليه جيلا فى بلادى . ألم أقف بينكم كسيد ؟ أما كنتم فقراء ؟ فجعلت منكم كهراء ، بفضل روحى (الكا Ka) كل يوم ، أقمت الابن مكان أبيه ، وجنبت هذه الأرض مغبة الشرور ، وخفضت عنكم الضرائب ومنحتكم أشياء أخرى كنتم قد حرمت فيها سبق منها - وكلما تمنى أحدكم شيئا لبيت على الفور أمنيته . ولم يعمل أى ملك للجنوده مثل ما عملته جلاتى لكم ، بالمعيشة فى مدنكم دون أن استعمل حتى كعاهم عليكم ، وكذلك أنتم أيها المحاربون بالعربات أذنت لهم بالذهاب إلى منبهم قائلا : « سوف أجدم دائما مستعدين لخوض المعركة وعندما تحين ساعة السير إلى الحرب . » (١)

وربما كان فى استطاعة رمسيس أن يسائل نفسه كثيرا عما إذا لم يكن قد يسر لجيشه الحياة الهنية ، لكن رمسيس الثالث ظل يراوده نفس الشعور ، إذ بعد مضى ، عدة سنوات من توليه العرش ، استكان له العدو ولم يجرؤ على الظهور ، وأصبح الجند كأنهم من الأعيان أصحاب الدخل ، يسكنون المدينة التى تروقه ومعهم أسرهم ويتصرفون فى وقت فراغهم الطويل كما يشاؤون . « لقد تركت الجنود والمحاربين بالعربات يستريحون ، فى عهدى . تركت الساردان Sardanes والقاهاق Qahaq (جنود مرتزقة من أصل لىبى) ، ينامون فى مدنهم ممددين على ظهورهم ، أصبحوا لا يهابون المحاربين القويين ولا الأعداء السوريين . رصفت الأسلحة والأقواس فى حجرات

الخازن ، وكان الجنود يأكلون ويرتدون وقد نهلت قلوبهم سرورا ، وكان أولادهم ينسأؤم بميشرون معهم ، كانوا لا يتلفتون إلى الخلف . كانت قلوبهم مطمئنة ، كنت لهم بمثابة الضمان أحى أجسادهم (١٠) . وبالاختصار فانه ما قاله هيرودوت عن الجيش المصرى فى عهد بسمتيك ، كان صحيحا فى عهد الرعامسة ، فكان ثمة نوعان من المحاربين كان يطلق عليهم اسم كلاسيرى Calasiries وهرموتيبى Hermotybica كما قسم رمسيس جنوده إلى المشاة مشاو . Mecheou والمحاربين على العربات تحت حثيرى Tent-Heteri : ولم يكن الجنود يتعلمون مهنة أخرى سوى مهنة حمل السلاح كانوا يتوارثونها ابنا عن أب وكانوا جميعا من ذوى الأملاك . وكان رجال الحرس الملكى يحصلون على حصص إضافية من القمح واللحوم والعجول . (١١)

٢ - الحرمة المرافقة

عندما غاض ملوك طيبة حرب التحرير ضد الهكسوس لم يكن جيشهم مكونا إلا من المصريين وحدهم ، ثم خطرت لهم سريعا فكرة ادماج الأسرى بهذا الجيش وفى الفرقة التى كان يقودها جانوفى Tjanonni الكاتب الملكى الذى عاش فى عهد تحتمس الأول نجد فيلقا من الجنود الأشداء ذوى تقاطيع تختلف عن بقية الجنود المصريين (١٢) ، فالمصريون طوال القامة ، نحاف الأجسام ، أكتافهم عريضة وعضلاتهم مستوية ، أما هؤلاء الأجانب فأعضاؤهم مضغوطة ، يتركون شعورهم تنمو طويلا وتنتدى فوق أفتيتهم . أما الحزام فيؤكد حجم عضلاتهم الكبيرة . ويعلقون خلف ظهورهم ذبول حيوان الفهد التى تصل حتى أقدامهم . ولا شك أنهم أتوا من الأقطار الجنوبية ولكنهم لبسوا من الزوج . ويسيروا معا فى خطوات مترنة واسعة خلال التمرينات العسكرية . تتقدمهم أيديهم اليمنى التى يقبضون بها على عصي .

. وكان أخناتون يفضل هؤلاء الأجانب على غيرهم وكان من بين حرسه الخاص الذى كان ينتظره لدى خروجه من القصر ويصاحبه إلى المعبد عدد من الأجانب السوريين والليبيين والزوج يفوق عدد المصريين (١٣)

بدأ ظهور الجيش المصرى أيام حرنمحب Hor-nemheb ، كما ظهرت شعوب البحر أيام سبتى . وكان كل حرس رمسيس الثانى من شعوب الساردان (١٤) ، كانوا طوالا ، نحافا أقوياء البنية . وقد أظهر الرسامون المصريون ، الأقوياء الملاحظة مهارة فائقة ودقة فى التعبير برسم المصريين وقاطيع وجوههم الواضحة وأشكالهم الجانبية البارزة المعالم ، وميزوم عن الزوج ذوى الوجوه المفرطحة الأفقية وعن الليبيين النحاف الأجساد ذرى العظم البارز وعن الساميين بأنوفهم المحدوبة ، وظهر على أحد جدران معبد أيدوس رسوم أولئك الذين جندهم فرعون فى جيشه ضد التكتل الذى كان يهدده ، يظن من يراهم أنهم من الأوروبيين .

وقد مكنت انتصارات جيش رمسيس الثالث فى حروبه ضد الليبيين وشعوب البحر الأبيض من ازدياد عدد الأمري . الذين كانوا يوسمون كالماشية ويحتمون باسمه ، كما كانوا ينخرطون فى خدمة الجيش وينضعون له طبقا للنظام المصرى . (١٥)

وكانت التمرينات عبارة عن السير جماعات فى طوابير منظمة أو يتعاركون شخصا تجاه الآخر ، وكانت إحدى تسليات الملك أن يشاهد المصارعات والمسابقات التى تقام بين الجنود الذين أحسن تدريبهم . وكثيرا ما كان يدعو معه رجال البلاط ليستمتعوا بالمشاهدة . (١٦) ويسير الأمراء وهم يحملون مراوح ذات أيد وثبتت دلايات فى الشعر تغطي الحدود . وكان

يشارك مع المصريين أمراء أجاناب مثل اللاجىء حداد Hadedd عدو داوود . ويمكن تمييز السوريين بالمرز الذى يحيط بوسطهم ، ويشعورهم الطويلة الى حبكت بشرط ، وبذقونهم . أما الزنجى فيزين بأقراط ضخمة فى أذنيه ويفرس ريشة فعام فى شعره ، أما الحبشون والليبيون فيرتدون الملابس المزركشة . ويحيط الجميع فرعون بصوت واحد : « أنت ، يا فرعون ، مثل المعبود مونتو Montou ، لك الحياة والصحة والقوة أيها السيد الطيب . لقد أخضع لك المعبود آمون هؤلاء الأجاناب الذين ارتكبوا إثما فى حقك وتآمروا ضدك ، فمأخضهم ! »

والآن يقف المتبارزون فى الميدان ، يرى متنافسان كل منهما تجاه الآخر ، وكلاهما مسلح بعضا ، وقد ارتدى الذى الحربى الذى يتكون من مرز على هيئة مثلث ، وفكس طرف العصا إلى أسفل . وقد لف كل منهما على ساعد ذراعه اليسرى أسود ويحمى اليد اليمنى قفا من الجلد ، وأما الذقن والصدغان فتألف بأربطة كثيفة عريضة تتصل بقبضة تحمى الجبهة . وينحى أحده المتبارزين نحوولى العهد ، الرئيس الأعلى للجيش ، فيشجعه هذا قائلا : « تحية لقلبك - تحية لقلبك أيها المحارب . » أما المبارز الآخر فيرفع كلتا يديه إلى السماء ، وتبدأ بعد ذلك المباراة . يكبل المتبارزان كل منهما للآخر ضربات قوية بالعصى ويحمى كل منهما وجهه بذراعه اليسرى ، ويتبادلان التحذيرات : « حذرك . . سأربك قوة ساعد المحارب . »

وبلى المتبارزين بأصا ، المصارعون . يرفع مصارع مصرى خصمه الليبى الذى يمد يده خصمه ، فيصرخ المعضوض قائلا : « الويل لك أيها السورى الذى يمد يده بضمه . إن فرعون معى ضدك فله الحياة والصحة والقوة إنه مولاي ! » فهل يمكن أن نعتقد أن فرعون يوقف المباراة ويعاقب المصارع المخادع ،

أو أن هذا التصرف غير السليم من الناحية الرياضية لا يحول دون انتصار
البطال المصرى لأن فرعون يؤيده بدعواته ؟

والآن يتبارز مصريان ، يرفع الذى على اليسار ساق خصمه من الأرض
ويعلن فى أفة الجند بأنه سيلقى به أرضاً أمام فرعون .

وأخيراً يواجه مصرى ، ربما كان الذى قد ربح المباراة السابقة ، زنجياً
ويتبارزان ، وقد يشجع الحكم المصرى مواعلته ، بالرغم من أن هذا العمل
ليس مستحباً كثيراً ، فيقول له : « اعلم تماماً أنك أمام فرعون ، له الحياة
والصحة والقوة مولانا الطيب ، يرفع المصرى ، الزنجى من وسطه ويقول له
وهو على وشك أن يلقى به على الأرض : « آه ها أنت ذا بين يديها الزنجى
القنذر ، سوف أرميك بمزق الاضلاع أمام فرعون ، . رها هوذا
يسقط للمرة الثالثة وقد انكفأ أرضاً على ركبتيه وأكثفه . عندئذ ينسحب
لزنجى من المباراة هون شك ، إذ أن الفاتز قد هب واقفاً رافعاً ذراعيه مؤكداً
انتصاره ، قائلاً : « آمون المعبود المزدهر ، المنتصر على الأجانب ، إن
الكتيبة الكبرى أورسى مارع Oursimare هى التى تزعم القيادة ، وقد
قهزت كل البلاد ! »

وقد أرضت نتيجة هذه الحفلة زهو المصريين ويمكن أن نسأل أنفسنا
كيف كان رجال البلاط يقابلون انتصار الأجانب حين يكونون أقوى من
المصريين ؟ لاشك أنهم كانوا يقابلون ذلك بفتور ، ولكن صاحب هذه
التقوش المحفوفة البارزة ، التى دونت حياة الجنود ، لم تبين لنا عمداً مدى
انعكاس هذا على الأهالى ، كما لم تبين لنا المنح التى كانت تعطى للفائزين أو من
ناحية أخرى فقد أوضحت لنا فى عناية رسوم الأمراء الأجانب الذين كانوا

في الصف الثاني من المشاهدين يرقبون هذا المنظر ومظهر تقاطعهم السلي
الصامت لا ينم عز تمام الرضا .

٣ - الجيش في الحرب

حصل الجيش المصري على الكثير من الفرص لإظهار بسالته في عهد
الأسرتين التاسعة عشرة والعشرين . وإذا كنا نتق فيما ورد في القصر والنقوش
البارزة الرسمية وبصفة خاصة في تلك التي ذكرت الأعمال الكبرى التي قام
بها الملك سيتي في فلسطين والتي أقدم عليها الملك رمسيس الثالث ضد
الليبيين وضد شعوب البحر ، فإن هذه الحملات الحربية تظهر لنا وكأنها درامة
تتكون من أربعة فصول ، الفصل الأول - توزيع الأسلحة وتحرك
الجيش والفصل الثاني - موقعة فاصلة في مكان متسع . والفصل الثالث -
حصار مدينة والاستيلاء عليها . والفصل الرابع - عودة المتصرين . كان
هذا هو المألوف عادة في عهد الرعامسة . على أن النصر في المهود الغابرة
لم يكن إلا مجرد مصادفة كما هو الحال في عصرنا الحالي .

والمصريون لا يذكرون عن طيب خاطر خسائرهم ، ونحن نعرف أنهم
قاسوا خسائر مرة : ففي نهاية الأسرة الثامنة عشرة تتبع جنود الملك الحيثي
سويلوليوما Subbitaliumma الجيش المصري وهزموه داخل سوريا ،
انتقاما من مقتل الأمير الذي كان قد جاء إلى مصر بدعوة من أرملة
فرعون . (٧) أما العهد الذي نتحدث عنه فكان في مجموعه عهد انتصارات
مجيدة للجيش المصري ، فلتتابع إذن الجيوش في سيرها الذي لا يقاوم .

٤ - جميع الأسلمة ونوزعها

قبل أن يزج فرعون ببلده في العمليات الحربية كان يرجع عادة إلى رأى

مستشاريه حتى ولو كان مصمما على أن يثير الحرب . وهذا ما اتبعه كاموزا Kamose أحد محررى مصر عندما عزم ، بناء على وحى آمون ، على مهاجمة المكسوس الذين كانوا يحتلون كل أراضى الدلتا ومحافظات مصر العليا ابتداء من المحافظة الرابعة عشرة والذين كانوا يطعمون أيضا في توسيع منطقة احتلالهم وفرض عبادة سوتخ على أهالى مصر التى بقيت مستقلة وكان المستشارون وهم شبان متحفظون يفضلون الانتظار خشية زيادة إفساد الموقف الذى كانوا قد اعتادوه ومع ذلك فقد رجحت فكرة الملك وأعلنت الحرب. (١٨) على أننا نجهل ما إذا كان أحد الرسل قد أخطر المكسوس بإرادة فرعون أو إذا كان المحتلون لم يطلبوا بنيات أهالى طيبة إلا عندما راوم يتقدمون حاملين السلاح فى اتجاه الشمال ، كان ملوك الشرق القديم يراسلون كثيرا ، وكانوا يكتبون كتابات رمزية وتهديدات ومطالبات وشكاوى ، كما أنهم كانوا يقبضون أنباء المواليد الجديدة والوفيات والمؤامرات ضد بعضهم البعض وختمت العداوة بين الجيشين المصريين فى السنة الحادية والعشرين من حكم رمسيس الثالث بمعاهدة ذات مقدمة وعدة بنود وخاتمة وقمها الطرفان وأمهرت بالاختتام . وكانت هذه المعاهدة تعتبر ، زمنا طويلا ، أقدم معاهدة مدونة فى العالم* . غير أن بين يدينا الآن كثيرا غيرها ، أقدم منها عهدا . ولكننا لا نعرف فى الوقت الحاضر واحدة منها تشير إلى إعلان الحرب بين دولة وأخرى . على أننى أعتقد أنه كان يحدث أن تعلن دولة الحرب على غيرها لأننا ، كما سنرى ، كان الخصوم يقبضون الرسائل خلال العنوان .

وهكذا تبدو الحرب بحمة الوقوع كان فرعون مجهز المشاة ويعد معداته

الحرية ، وجنود الساردان الذين كانوا أسرى نتيجة انتصارات الملك ، وقد سلّحهم ، ومدّهم على وسائل الحرب ، وكانو يكونون فرقة خاصة يحتفظ فرعون بقيادتها . وكان الجزء الأكبر من الجيش يتكون من عدة فرق من المصريين والسوريين والليبيين ورجال من الأقاليم الجنوبية . وتشير نصوص من عهد الملك سيتي إلى فرقة آمون وكانت تعرف أيضا باسم « الأقواس الباسلة » وفرقة رع وتعرف باسم « الأذرع العديدة » وفرقة سوتخ وتعرف باسم « الأقواس القوية » (١١) . وفرقة رابعة تعرف باسم فرقة بتاح ، ظهرت لأول مرة ، حسب ما نعلم في بدء حكم رمسيس الثاني .

كان توزيع الأسلحة والمهمات يتم في حفل رائع يحضره الملك شخصيا (٢٠) . وكان رمسيس الثالث يتخذ مكانه على شرفة فوق ربوة عالية وقد ارتكأ بذراعه على وسادة يتقبل التحيات ويسمع خطب ضباطه ، ثم يتحدث إليهم بنفسه : « أخرجوا الأسلحة وأعرضوها على الملأ حتى تحمد شجاعة أبي آمون البلاد الثائرة التي تجهل قدر مصر . وكان يرتدى في هذه المناسبات الزي الكامل الذي يتكون من مئزر نخم وفي قدميه نعلان ، ويتجمع حوله ولي العهد والكاتب الملكي وعدد كبير من عظماء الضباط ، وكانت ترص الأسلحة على اختلاف أنواعها : فهذه خوذة من النوع ذي الحواف الذي يغطي الرأس وخلف الرقبة على السواء ولها شريطان يتدليان من أعلى ويتهمان به بطرر ، وعلى بعد الخوذة ، ترى السيوف والأقواس المثقاة وجعاب السهام ودروع حديدية ذات مقابض قصيرة تسمى جسم المحارب ، وخناجر ذات حدود مقوسة على هيئة المنجل لها أيد طويلة تنتهي بقبضة كروية عرفت في مصر باسم خيش - الذراع . ويتقدم الجنود الواحد تلو الآخر في صف طويل ، ولا يلبسون إلا مشرا تغطي قطعة قماش مثثة الشكل وبأيديهم الخاتية يتسلبون الأسلحة ومن ثم يتحركون بينما يقبذ كتاب

كثيرون الأسلحة والأسلحة .

وفي القرن الثالث عشر (قبل الميلاد) انتهى الأمر بأن اقتبس المصريون أسلحة السوريين ، أعدائهم القدماء وبفضلها تمكنوا من الانتصار على السوريين . وتشبه الخوذات التي وزعها رمسيس الثالث على رجاله والتي كانت مرسومة بالألوان على إحدى جدران مقبرته ، خوذات المحاربين السوريين التي نعرفها جيدا ، لا من منظر موقعة العربات الحربية التي قادها تحتمس الرابع غصب ، ولكن من صور مواكب حملة القرابين الأجانب أيضا ، ثم من بعض التحف السورية الفريدة . (٢١) فالشكل واحد غير أن المصريين قد استبدلوا ذيل الحصان بأشرطة تنهى بطرير ، والمعبود ست Setb الذي كان يعلق عليه عن طيب خاطر في هذا العهد ، سوتخ وبعد أشد آلهة مصر ارتباطا بآسيا ، كان يرتدى خوذة مائلة زينت بقرص الشمس من الأمام وقرنين مديين وشريط طويل ربط من أعلى ويتدل على مقربة من الأرض وينتهي بزهرة مثلية . ولما كان سوتخ معبودا محاربا ، فنستطيع أن نقول أن خوذة الجنود ما هي إلا خوذة المعبودة تحولت حتى تصلح عمليا للاستعمال ، ولكن لا يمكن أن نفسي أن — سوتخ كان رداؤه على الطريقة الآسيوية وأنه كان يشبه المعبود بعل كأخ له .

كان المحاربون الآسيويون يستعملون منذ عهد طويل الأقواس المثثة . وقد استعمل المصريون أنواعا كثيرة ، ففي البداية استعملوا قوسا مزدوج الانحناء ، واستبدلوه في عهد الدولة القديمة بقوس ذي انحناء قليل ، ولكن النوع القديم لم يتخلوا عنه تماما . وبقوس من هذا النوع تمكن تحتمس الثالث وامنحبت الثاني من ثقب عدة ألواح من النحاس ، وكان الجيش المصري بكامل هيئته يستعمل آتذ القوس المثلث ربما لسهولة صناعته في مجموعات وفيرة أما السيوف التي على هيئة المنجل فقد ثبت أنها تعتبر سلاحا من أصل آسيوي .

قديم. (٢٢) وكان كل ملوك جيل في الدولة المتوسطة يضعون نماذج فضمة لهذا السيف في مقابرهم. وقد قدم عاربون سوريون سيفاً من هذا النوع لكبير كهنة آمون من خبر رع صنب ، وقد جمع تحتشمس الثالث السيوف المقوسة من سوريا ، وعرف المصريون فيها سلاحاً مربعاً فأتخذوه الملك سلاحاً شخصياً له وقابله الجميع في استعماله .

وقد اخترعت الدروع أيضاً في سوريا (٢٣) ، وكانت عبارة عن صدرية من الجلد زودت بقطع صغيرة من المعدن ، كان معظم السوريين الذين يحاربون بالمربات مع تحتشمس الثالث يتمنطقون بالدروع ، وكان البعض منهم يستعصون عنها برباطين عريضين متقاطعين على الصدر . ولو أن هذه الدروع لم تكن جنود رتيبو المحتقرين من سهام فرعون ، إلا أن المصريين لا حظوا أن لهذه الدروع نفعها وميزتها .

أما العربية التي لعبت دوراً هاماً في حروب ذلك العهد فقد أخذتها مصر من سوريا. (٢٤) ولا نعلم على وجه التحديد الزمن الذي عرف فيه السوريون الحصان ولا الزمن الذي اخترعت فيه العربية . ولا تحمل وثائق الدولة الوسطى سواء كانت سورية أو مصرية أدنى إشارة إلى الحصان أو العربية ، ولم تشر إليها أيضاً قصة كاموسى Kamose ، ولكن منذ أول الأسرة الثامنة عشرة استعمل كل من الجائنين المتخاصمين الحصان والعربية ، وقد تكون الأسبقية للسوريين لأن أسماء العربية وأجزاءها واسم الحصان والعدة باللغة المصرية ، أخذت لغزياً من أصل سامى . والزخارف التي تزين بها صناديق العربية والعريش وعدة الحصار والخيال الممتدة المجدولة حلزونية ، تعتبر بدورها من أصل أسبوى . وعلى أية حال فإن عربات فرعون والأمراء ، حيث الذهب الكثير قد غطاها وارتفع فوقها ، كانت تبدو فضمة حتى أن

كجواهر الزنبر لم تكن لديهم السبل للحصول على مثلها. (٢٤) وكان طاقم الحصان مزودا بأقراص من الذهب ومقوى بالمعدن ، ومع ذلك فيجب ألا نفتر هذه الأناقة ولا بهذا الثراء فنسى أنه قد أسىء تصميمها فلم تؤد دورها في الانتفاع إلى أقصى حد بقوة الحصان مع التحكم في زمامه .

ويتكون طاقم رأس الحصان من خزام الأنف وقطعتين عموديتين من الجلد يتجهان بوردية (من الجلد أيضا) تثبت فيما قطع لتغطية الجبهة والرأس والاذنين ، وفوق الرأس على هيئة طاقية من الجلد تشبه الماوان ، تثبت منها زهور صناعية أو ريش نعام. أما الزمام والزمام الإضافي فيبدآن من الشكيمة . ويوجد طرق حديث يرتبط بطاقم الرأس يتكون من ثلاثة أجزاء رئيسية ، خزام من الجلد عريض نوعا ما ذو شكل دائري يغطي الكتف ، وخزام أقل عرضا يحيط بالجسم ودرخو إلى حذما ، وخزام ضيق مشدود على الصدر . أما بقية أجزاء الجسم فخررة ، وترفف في الهواء أعلام صغيرة تثبت في الطاقم وفي أمكنة كثيرة منه وتلعب أقراص من الذهب فوق الجلد ، وصورة المعبود سوتنج ، سيد الخيول ، قد نقشت على الحاجب الذي يوضع على عيون الخيل . ويتكون طاقم العربية من رجلين ، السانس والمحارب . ويحمل الأول سوطا غالبا ما يكون بدوره قطعة فنية رائعة ، أما المحارب فيحمل قوسا وسهما وعشرات من السيوف يضعها في جعبة تثبت في هيكل العربية ويرتفع هيكل العربية نحو ذراع ونصف الذراع عن سطح الأرض ويرتكز على محور العربية مباشرة دون أي زنبرك ومثل هذا النوع من العربات كان سهل الانقلاب في الطرق الحجرية الوعرة في سوريا ، ومن البدعي أن طاقم العربية عندما كان يشعر بقرب وقوع حادث فإن الوقت كان كافيا لديه ليقفز إلى الأرض مادامت العربية مفتوحة من الخلف . وعندما تفك العربية فإن أفضل ما كان يفعله الراكبان هو المبادرة إلى فك الخيل وأمتطاء ظهورها ، هذا ما كان

يفعله السوريون ولم يحرم المصريون أنفسهم من اتباع هذه الطريقة في الوقت المناسب وهذا على الأقل ما أذهب إليه لأن الرسامين عندما نقشوا المناظر التي تمثل المواقع الحربية لم يخطر لهم ببال فكرة أن عربة مصرية يمكن أن تقلب .

أما رجال الساردان Sardannes ، فبقيت أسلحتهم دون أن ، يعثرها تغيير منذ كانوا يحاربون فرعون ، وحتى عندما أدخلهم فرعون ضمن جيشه ، كما حافظوا على مثرهم وعلى درعهم المستدير وسيفهم ذى الحافة المثثة والخوذة التي على هيئة كاسة ، مقلوبة تلوها ريشة ويزينها القرص واللال وهكذا كان الفلسطينيون Philistines يميزون من بين قوات جيش فرعون بأكليل الريش . أما السوريون فلم تكن أسلحة المصريين الحربية غريبة عليها ، فقد كان لديهم ما يماثلها ، على أن بعضهم قد احتفظ بدلايته الصغيرة ومثوره المزخرف بالطرر أما الزنوج فقد بقوا أماء على أقواسهم التقليدية ذات الثنية المزدوجة والتي كان يستعملها أسلافهم منذ عدة قرون ، والكثيرون منهم يحملون أيضا عصا الرماية .

٥ - نظام المعبر

وها هي مصر مستعدة الآن لحوض المعركة . لقد نجح جيشها في سهول الدلتا . ومرة أخرى سينظم صفوفه ويعبر في همة ونشاط جسر سبله Sila ثم بحيرة القساح ، التي رسمها أحد الرسامين من عهد سيتي على جدار من جدران معبد الكرنك . تسير في مقدمة الجيش إحدى فرق المشاة (٢٦) ويتحرك الرجال في صفوف الواحد تلو الآخر ، تسير متوازية وتبلغ سبعة أو ثمانية صفوف . وبلى هؤلاء الجنود فاغوا المزمار ، المصنوع من النحاس أو من الفضة ، وطوله لا يتجاوز ذراعاً واحدة ، مستقيم الشكل

ولا تصدر عنه إلا بعض النغمات الموسيقية العادية . ومع أن الطبلة كانت معروفة إلا أنني لم ألحظ وجودها بين المناظر الحربية ، ولكنها رسمت في اللوحات التي تمثل التجنيد وفي الأعياد ، وبحملنا هذا على الاعتقاد بأن الطبلة كانت مخصصة للأمور الداخلية .

وبلى هؤلاء فريق من الضباط ممن يعملون في خدمة الملك . وبعد ذلك ، تأتي العربية الأولى وقد رسمت عليها لوحة تمثل الكباش وقد توج رأسه بقرص الشمس ، ليؤكد لكل أفراد الجيش أنهم في حماية معبود طيبة العظيم .

وبلى هذه العربية فريق آخر من الضباط ، وأخيرا تتقدم عربية الملك . يسبقها اثنان من حملة المظلات يسيران على أقدامهما ويقودها رمسيس نفسه ويسير بجانب الخيل أسد طليق . ويتبع بقية الجيش خطوات السير ، فالشاة من كافة الطبقات والعربات ورجال الإمدادات يقودون الحمر المحملة بالصرر والجراء ، أو يسرون العربات الضخمة التي تجرها ستة ثيران ، فالصحراء شاسعة وبلاد فلسطين فقيرة ، ويعرف المصريون بحكم التجربة أن الجيش لا يمكنه أن يعيش هناك زمنا طويلا إلا على ما جلبه معه من طعام .

وتصل ، بعد مدة طويلة ، صفوف المحاربين والعربات إلى الأماكن المحيطة بالعدو وتحصل على أول بئر للياه يطلق عليه : هوبانا Houpana ، بجانب حصن ومبنى يسمى حصن السبع .^(٢٧) ومن بئر إلى بئر ووفقا للطريق الذي يقع عليه الاختيار ، أما أن يصلوا إلى بئر سبع وحبرون أو إلى غزة على شاطئ البحر . وتوالي الشواطئ وكتبان الرمال وأشجار النخيل حتى قرب مجدو حيث يعلو سطح الأرض وتصبح صخرية . ثم تتبع حدائق صور وصيدا للجيش أن يأخذ قسطا وافرًا من الراحة . ويوجد

في سهل يروت الكثير من موارد العيش ، وهنا يبدأ المرء في مشاهدة قم
الجليل المرتفع المغطاة بالجليد والمنحدرات المليئة بأشجار الارز والصنوبر .
وعلى بعد أقل من مرحلة واحدة نرى بجانب سيل صغير متدفق ، مياهه باردة ،
فترى لوحات نذكارية ، نقشت في أول عهد رمسيس الثاني وقد بحيت الآن
معظم نقوشها . وبعد عبور بعض قرى صيادى الاسماك والخطايين
والمزارعين نصل إلى نهر آخر * مماثل كثيرا للنهر السابق ، وتصطبغ مياهه
كل سنة باللون الاحمر بدم أحد الآلهة ، ثم نصل بعدئذ إلى الجبل وإذا سرنا
تجاه البحر فإننا نصل بعد مرحلة قصيرة إلى مدينة كاني المقدسة Kani
جبل التي يعيش فيها تجار خبثاء جشعون ، على استعداد دائما أن يبيعوا
اخسابهم للمصريين أو يؤجروا لهم مراكبهم .

وهنا يحسن التوقف وطلب حماية المعبودة المحلية ** التي تماثل حانحور
معبودة منف كأخت لها كما تشبه ايونيت Iouit .

والآن نولى البحر ظهورنا ونعبر الغابات ونعلو دائما مصعدين فيصبح
الجليل المغطى بالثلوج الذي كنا نراه شديد الارتفاع ونحن نسير على شاطئ
البحر ، أصبح لا يبدو لنا أكثر علوا من الأهرام حينما نشاهدها من
منف .

وأخيرا تتمش الجنود المرهقين نسمة لطيفة تهب عليهم ، ثم تنتهي
الهضبة فجأة وتهبط إلى ذلك الوادى الأخضر الذى أحسنت زراعته كوادى
النيل ، وتنتشر فيه القرى الكثيرة وتتخلله بنايع مياه صافية في شتى أنحائه .
وأصبح الجميع يعرفون أن قارش لم تعد بعيدة كما كانوا يتصورون .

* نهر ابرهم أدونيس — تراجع قصة أدونيس وعفتوت
** عشقوت

كان في إمكان العدو أن يكتفى بالدخول في حرب دفاعية محضة من وراء حصونه القوية . أما إذا شعر أن لديه القوة الكافية ليلاقى الغاصب في المراء فإن المتبع في هذه الحالة أن يقترح يوما معيناً ويحدد مكاناً ، يناسب عدوه للاشتباك معه وعندما أرسل يبعثني الأثيون جيشه إلى الشمال ليهاجم المصريين ذكرهم بهذه العادة - أو بهذا القانون - في نشرته الشهيرة : « لاهجوم في الليل واتبعوا قانون المعركة ، حاربوا في وضح النهار ، أعلنوا العدو من بعد بموعد الاشتباك ، وإذا قالوا إن الجنود أو الخيالة متأخرون ، فانتظروا حتى يتجمعوا وحاربوا عندما يقولون لكم ، وإذا كان حلفاؤهم في بلد آخر فأخروا الاشتباك من أجلهم أعلنوا الأمراء الذين يحضرم العدو لمساعدته من الليبيين والمحاربين المخلصين له ، أعلنوهم مقدما بموعد المعركة ، قائلين : أنت يامن تتسمى بأى اسم ، أنت يا من تقود القوات . أشدد أحسن خيولك ونظم مكانك في المعركة وستعلم أن آمون الإله هو الذي أرسلنا . (٢٨)

وتعليمات يبعثني هذه لم تكن مفهومة دائما . (٢٩) وهي في الواقع تتفق . وقانون الحرب التي كانت تخاض قدما وفي العصور الوسطى أو على الأقل كان يوصى باتباع هذه التعليمات ويذكر لنا مونتيني Montaigne كيف أن الخدمة التي قام بها القائد لسيوس مارسسيوس Lucius Marcus ، قد أثارت كبار السن من أعضاء مجلس الشيوخ الذين لا يزالون يذكرون أخلاق وسير آباؤهم ، قد هاجموا هذا الأجراء الذي لا يتفق وتقاليدهم العريقة القديمة التي تعتمد على الشجاعة والفضيلة وليس على المهارة أو على عامل المفاجأة والاقام

ليلاً أو الهروب الخداع والهجوم غير المتوقع ، فلا تثار حرب إلا بعد إعلانها وغالباً بعد تحديد زمن المعركة ومكانها. (٢٠) ومنذ عهد قدماء المصريين حتى عهد قدماء الرومان لم تتغير هذه التقاليد. ونحن ندرك بفضل ما يعنيه الزعيم الآثيوي ، بقانون اللعب ، الذي يشير إليه ، إذ ينبغي أن يتخذ الخصمان كل منهما في مواجهة الآخر دون خداع أو إخفاء القوات أو التواء القصد ، وأن يتحاربيا مع تكافؤ الفرص ، أسوة باللاعبين الذين تتكافأ فرصهم فلكل أحجار وأقسام متساوية ، في بدء المباراة . وسيشرح الله النصر المميز منها .

ولدينا ما يثبت أن المصريين قد اقتبسوا هذا المبدأ الصريح قبل عهد يمانحي بزمن طويل . والدليل على ذلك ، تلك الصفة التي كانت تطلق أحياناً على ست الإله المحارب ، وهي : « معلن المعركة » . (٢١) ودليل آخر أوضح من ذلك يستخلص من وقائع معركة مجدو التي خاضها جيش تحتمس الثالث ضد تحالف القوات الآسيوية. (٢٢)

وصل الجيش المصري في السادس عشر من الشهر الأول من فصل شمو إلى مدينة إيمح Yiehem ، وأمر جلالاته أن يجتمع جنوده الشجعان في هيئة مجلس وأعلنهم أن « اللهم الساقط ، في قادش قدانجه إلى مجدو وأقام فيها قيادة جيشه وأنتف حوله رؤساء البلاد ، الذين كانوا موالين لمصر من قبل ، حتى بلاد نهرين وقال لهم : « سأبقى هنا في مجدو لأخوض معركة مع الملك المصري » . وقال الملك لجنوده « أشيروا على برأيكم في هذا الموضوع ، وقد أشتموا أنهم وقعوا في مكيدة إذ أن الطريق المباشر الموصل من إيمح إلى مجدو ضيق ضيقاً شديداً بحيث لا يستطيع أن يسير فيه الجنود إلا فرادى » . (م ٢١ - المجاز في مصر)

جندى خلف جندى وحصان خلف آخر ، وعندما يشتبك مقدمة الحرس فى الموقعة تكون المؤخرة لا تزال فى ألونا Alouna ، فالأفضل أن نجتاز طريقاً دائرياً يسمح للجيش بالوصول بأكله دفعة واحدة إلى مجدو من طريق الشمال . غير أن هذه الخطة الحكيمة قد رفضها فرعون الذى صاح قائلاً : « ستخترق جلالتي طريق ألونا الوعر ، فقسما بجاني وبحياة رع الذى يحمينى ، وقسما برحمة أبى آمون الذى سيعاوننى وبنسفات الحياة التى تحتلج فى أبنى ، فليق معكم من يرغب اجتياز الطريق الذى حدثتمونى عنه ، وليتقدم من يشاء مع جلالتي ، فإن هؤلاء الأعداء الذين بكرهون رع سيظنون . أن جلالته قد اتخذ الطريق الآخر وابتعد خوفاً منا . . قضى هذا الحديث الجماهير على كل اعتراض ، وصرخوا أمام جلالته قائلين : سنتبع جلالتك إلى أى مكان تذهبون إليه ، فالخادم يتبع سيده . »

وعلى ضوء تعليمات يبعاضى أصبح الموقف الذى يواجه مجلس الحرب واضحاً جداً ، أرسل ساقط قادش رسولا إلى فرعون يطلب منه أن يقترح عليه زمن المعركة ومكانها . وقد ظن المستشارون أنها خدعة ، ولكن من خبز رع (تحتمس) ، اعتبر أنه أمر لا يليق به ولا بالمعبودات التى تحبه وتحميه أن يقنصل من إجابة الطلب الذى يتفق والتقاليد المعمول بها . وقد أثبتت الحوادث صواب رأيه .

وتولى الملك قيادة الجيش وسار فى طريق الوادى الضيق ، وملاوا الوادى كله . توسل الضباط إلى مليكهم . وكان الشك لا يزال يساورهم ، أن يستمع إلى نصيحتهم هذه المرة بالالتقدم إلا بعد أن يكون رجال حرس المؤخرة قد عبروا منطقة الخطر ، ولم يكن ثمة حاجة لهذا الاحتياط . فالعدو الذى كان منتشراً بين طناخ Tanakh ومجدو لم يحاول أبداً

أن يتهاون، حررك تقدم الجيش المصرى ، الذى استطاع أن يتخذ أماكنه فى الموقعة فى جنوب مجدى فى منتصف النهار وأن يستعد فى هدوء للمركة التى جدد لها صباح اليوم التالى . وهكذا احترم قانون المركة .

وقد كان من واجبات المستشارين أن ينصحوا فرعون بأن يكون حذراً . وكان الجيش الذى يوجههم تحت قيادة ملك ميتافى ولكنه كان يتضمن عدداً عظيم من رجال العامر * Amou وهوؤلاء هم الأعداء الدائمون لمصر والثام الحبياء الذين ، قال عنهم أحد قدماء ملوك الأسرة الحادية عشرة فى الأعمال التى دونها لابنه مرى كارع . « أما بخصوص رجل عامو فإنه لا يستطيع أن يتوقف فى مكانه فأقدمه لا تكف عن الحركة ، إنه يحارب منذ عهد الألفه دون أن ينتصر أو يهزم . ولا يعلن عن موعد المركة ، مثله مثل من يعتز أن يرتكب عملاً آثماً . » (٢٢) ولما كان شعب العامر يعرفون معرفة تامة غايات إقليمهم وجباله فإنه كان يفر أثناء القتال فى الغراء إن شعر بأنه ليس لديه القوة السكافية للوقوف أمام عدوه ، كان يتحرض بالجيش المصرى ثم يمتنع ، لمعتداً قبل كل شيء على سرية العمل وعلى الخديعة . وكان عاملا الاختفاء والمفاجأة خير أسلحته ولكن عندما يصبح خصماً البصريين ومثالهم فى القوة ، كان لعامل المفاجأة دوره الهام ، إذ كان على وشك أن يقوم بدور مدمر ضد المصريين أمام قادش عندما تلاقى رسميس الثانى وجيشه بجيش الحيتيين * (٢٣) .

وقد خشد ساقط الحيتيين الذى ضد مصر جميع البلاد الشمالية التى تحالفت معها حتى امتداد المحيط ، بالإضافة إلى أعداء فرعون المعتادين الدائمين الذين كانوا يجندون من المنطقة الممتدة من سواحل سوريا حتى نهر

الفرات كما انضم إليه أهالي آسيا الصغرى والدردانيون Dardaniens وحلفائهم من الآليون (وم أهل طرواده) . والكاشكاش Kachkech والقارنش Qarqech والليسيون Lyciens - وبعض أهالي أوروبا كالليسيين Mysiens . ولم يدخر ملك الحيثيين وسماً وتجرد من جميع أملاكه كي يضمهم إليه ليحاربوا في صفه ، وقد غطت جحافلهم الجبال والوديان وقد قبل لأنهم يبدون كأمراب من الجراد نظراً لكثرتهم وكانت كل هذه القوات معتبة شمال شرق قادش . والمصريون الذين كانوا يعتقدون أن أعدادهم لا يزلون متأخرين في إقليم حلب إذ أن عملاء مخبراتهم لم يكونوا قد أعلنوا عن وجودهم في أي مكان بعد ، وتقدموا دون حذر في وادي نهر العاصي (الأورونت) Oronte . وتقدم رمسيس نفسه ، بعد أن عبر النهر من أحد معابره ، بقود حرسه ، تليه فرقة آمون ، أما فرقة رع فقد عبرت نهر العاصي عند معبر شبتون Chabtonn - أما فرقة پتاح فقد انتظرت في معسكراتها في أرنام Iroum حتى يخلو طريق المعبر وفرقة سونخ التي كانت في المؤخرة قد جاهدت لتلحق ببقية الفرق الأخرى ، ولكنها كانت تبعد عنها مسيرة عدة أيام .

وبينما كان الملك في شبتون تقدم إلى جلالاته اثنان من الشاسو Ghasous وهما من أرنك البدو الذين طالما سبوا الذعر للقوافل التي تسير بين سوريا ومصر والزراع القريين من خليج السويس وأخبروا جلالاته بآية عن «إخوانهم أنهم يرغبون في التخلي عن ملك الحيثيين والانضمام إلى فرعون خداما له . فسألهم فرعون وأبن إخن ، أخوانكم؟ وما هي الأنباء التي تحملونها لجلالاته ؟ فرد البدويان «إنهم في المكان الموجود فيه ملك الحيثيين العظيم ، فإن ساقط لجلالاته ؟ . فرد الحيثيين في إقليم حلب ، شمال تونيب وهو يخشى جداً فرعون ، له الحياة والصحة والقوة وأن يتجه صوب الجنوب منذ اللحظة التي سمع فيها

أن فرعون سيئته نحو الشمال .

لقد كافأ يكذباًن وهذا بأمر لثيم الحثيين الذي بعث هذين الجاسوسين
لكشف موقع المصريين وتضليلهم بالأنباء الكاذبة لإثباط عزيمتهم
ولإخماد نشاطهم .

والواقع أن الملك صمم على أن يعسكر في شمال قادش على الضفة الغربية
لنهر العاصي . وقد حدد في السهل مستطيلاً كبيراً أحاطه بسور من البدروع
أو أشباه تماثل البدروع . وأقيمت في الوسط خيمة كبيرة للملك وثلاثة
خيام أخرى أصغر منها ، وفي جهات أخرى أقيمت خيام متفرقة أصغر
من السابقة . أما أسد الملك فقد ربط من قدمه إلى قوس وقد رهن على
الأرض ناعساً . وحلت أربطة الخيل لإطعامها ، ورفعت الأحمال عن
ظهور الخير التي كانت تتمرغ في التراب وتنق وتجرى وترفس بأرجلها ،

وبينما يجري العمل في رص الأسلحة والموازن إذ تأتي عربات أخرى
تجرها الثيران . أما كبار الضباط فيستريحون في أكواخ من الخشب يستند
سقفها على عمودها باب يماثل باب المنزل . وتوجد بالداخل أزيار وطسوت
أقيمت على قواعد ، وقد أفرغت من الصناديق موافد ومناضد ومقاعد صغيرة
وحصر . وبأن بعد ذلك عمال السخرة بقيادة أحد المسكرين يزولون الأتربة
بمكائن صغيرة وبرشون المياه وآخرون يروحون ويحيثون ويقودون
أمامهم الخير التي تحمل أثقالاً على طرفي نير وضع فوق ظهورها . وبجانب
الأكواخ ، حصان أدخل رأسه في مخلاة ، وسائس اسطبل يهدي حصانين
يضربان الأرض بموافرهما وقائد عربة يجلس داخل صندوقها وينام ملء
جفنيه ، وجندي يرتوى .

ولم يقصر أحد في الخطر المحدق بهم . (٢٠) ولكن دورية مصرية قد

أسرت اثنين من دورية ساقط الحثيين. وأحضرتهما أمام الملك الجالس على عرش من الذهب أقم فوق منصة عالية. وكانت العصا هي الوسيلة الصحيحة لإجبار الناس على الكلام، ويفضى الأسرى بكل ما يطلب منهم الإجابة عليه: «نحن ننتمى إلى ملك الحثيين، وقد أرسلنا لنستطلع المكان الذى يعسكر فيه جلالة الملك». ولكن أين هو ساقط الحثيين قد سمعت أنه موجود فى إقليم حلب إلى الشمال من تونيب Tounip ؟ وهما هو ذا ملك الحثيين التيم يأتى ومعه شعوب كثيرة من المواليين له وعددهم أكثر من زمال البحر، وهام أولاء الآن قد اتخذوا مواقعهم استعدادا للقتال حول قادش القديمة. وصاح الملك غاضبا: «هام أولاء قد اختفوا بالقرب من قادش القديمة ورؤسائى الأجانب لا يعرفون ذلك كما لا يعرفه ضباطى من بلاد فرعون، الذين معهم، ويقولون لنا إنهم سيأتون أو يعرف المستشارون أن أخطاء جسيمة قد ارتكبت: «هذا غير حميد، فإن خطأ كبيرا قد وقع فيه الرؤساء الأجانب وضباط فرعون له الحياة والصحة والقوة لأنهم لم يوضحوا المكان الذى يعسكر فيه مخادع الحثيين التيم فى تقريرهم اليومى لفرعون له الحياة والصحة والقوة». وكلف الوزير بتعجيل قدوم القوت المتأخرة جنوب شابتون وإحضارها إلى المكان الذى يعسكر فيه صاحب الجلالة بكل سرعة ممكنة. ولكن بينما كان جلالاته يعقد مجلسا يناقش الموقف كان مخادع الحثيين التيم يقترب بجند وأسلحته وجميع حلفائه وقد اجتاز ممبرا غير محصن جنوب قادش وبذلك فاجأوا القوات المصرية وراكى العربات مفاجأة جعلتهم يهربون دون نظام حتى تمكن العدو من أن يجمع بعض الأسرى من رجال حرس جلالاته.

إزاء هذا الخطر العظيم الدام وقف جلالاته مثل والده مونتو وارتندي ملايس الحرب والدرع وكان مثل بعل فى ساعته، وعندما شاهد الباور

حنا Monca جعداً وفيرا من عربات العدو تحيط بسيده أخذ يرتجف ويرتعد وقد انزع قلبه وسرى فزع كبير في جميع أعضائه ، فقال لجلالته : يا أيها السيد الطيب ، أيها الملك الشجاع ، أيها الحامي العظيم لمصر في يوم القتال .. هانحن أولاء وحيدان بين أعدائنا ، فقد تركنا الجنود والحاشية ، ماذا أنت قائل لأجل إنقاذهم ، اعمل على أن نكون طاهرين ، أنقذنا يا أوزير ملوح Ousimare .

أخذ جلالته يظمن ياوره وكان جلالته لا يحشى شيئا ، وقد تركه جنده يمتا عن القتال بدلا من أن يأخذوا أماكنهم في المعركة . ولم يكن هناك أمير ولا ياور ولا دليل ولا ضابط ، ولكن لم يكن عبثا أن أقام رمسيس جعداً كبيراً من المتأثرين أنشأ مسلات كثيرة لوالده وملأ قصوره ، ذات ملايين السنين بعدد كبير من الأسرى وأعد مراكب مليئة بالمنتجات الأجنبية النادرة وصدرها من مصر . وقد سمعت استغاثة الملك في كل مكان حتى وصلت إلى طيبة واستجابها حليف عظيم يفوق الملايين . فأخذ رمسيس يطلق مساهمه على يمينه ويحمن يساره . وعندئذ انقلبت عربات الأعداء البالغ عددها ٢٠٠٠ عربية بغيرها ، وكان الجنود المفزوعون خوفاً عاجزين عن استعمال أيديهم في القتال وقد خفت قلوبهم في صدورهم ، فكانوا لا يعرفون كيف يصوبون ولا كيف يقبضون على السيف ، وقد ألقى بهم الملك في الماء كالتماسيح ، والجند الذين كانوا يزحفون على بطونهم لم تقم لهم قائمة . وكان ملك الحيتيين الشيم يشهد المعركة وهو بين جنده وعرباته التي كان يركب كل منها ثلاثة من المحاربين ، فأدار ظهره للمعركة وفرائسه ترتعد ، وجميع جنده وحاشيته وكل حلفائه ، الملك أرتو Irtou والملك ميزا Mesa وملك ألونا Alouua وملك ليسى Lyciu وملك داردانيا Dardanie وملك قرقيش Karkemich وملك قرقش Qerqech وملك حلب وأخوته ، كل هؤلاء

قد ارتدوا مهزومين ومبهوتين من فرط شجاعة فرعون ، وكانوا يصيحون : لينجو بنفسه من يستطيع ، وجرى جلالة وراهم مثل العقاب . وهجم عليهم خمس مرات مثل بلع في ساعة أوج عظمت . وقد أحرق حقول قادش حتى تضيق معالمها ويمحى أثر المسكان الذي وطأته أقدام جموعهم . وجلعت القوات المصرية بعد أن كسبت المعركة بفضل قوة فرعون وشجاعته ، والسبب آخر لم يجد راوى القصيدة داعيا للذكره لنا ، فأخذ فرعون يسخر منهم وأثقل عليهم اللوم قائلا : . لم يكن أحد منكم هناك . لم يقف أحد بجانبى ويضع يده في يدي وأنا أحارب العدو . إنى استشهد بروح أبى آمون . . لم يشهد أحد منكم الحرب أبها الجند ليقص أبعاده التي صنعها حين يعود إلى أرض مصر . إن الأجانب الذين شاهدوني سوف يخلدون اسمي حتى في البلاد النائية التي لم يسمع بها أحد .

وفي خضوع تام أخذ الجند يشيدون بشجاعة سيدهم ، أما النبلاء والخاصة فكانوا يمتدحون قوة ساعده قائلين : . أبها المحارب العظيم ، القوى القلب ، أنت الذي أنقذت جيشك وعرباتك . . أنت أبى آمون الذي يحارب بسواعذك ، أنت الذي أخضعت أرض الحيثيين بساعدك الباسل . لقد كسرت ظهر الحيثيين إلى الأبد .

ولم يرد الملك إلا بتوبيخ جديد قائلا : . ما أجل اسم من استقبل في القتال ، إن الإنسان يحترم منذ أقدم العصور لقوة ساعده ولسكنى لن أقدم لأحد منكم خيرا ، لأنكم تخلصتم عنى بينما كنت وحيدا وسط أعدائي . . ولم يكن هذا التانيب رهيبا ، لأنه يرى إلى أن أفراد الجيش قد أصاعوا فرصة لنحهم مكافآت . وقد حصل نفس هذا الشيء مع الملك يعانعى الذي

ثار ضد جيشه ، مع أن هذا الجيش كان قد حارب جيداً ، وأرغم الملك
تقننخت Tefnakti على الهروب نحو الشمال ومعه قلوب جيشه المهزومة ،
ولكن الملك كان يريد أن يأسر جميع أعدائه أو يقضى عليهم دفعة واحدة .
ولما رأى الجيش أنه قد خيب أمل الملك فيه ، استولى بعد جهد عنيف
متواصل على ثلاثة أماكن قد حصنت تحصيناً قوياً ، غير أن يبعماخى لم يهدأ قلبه
بالرغم من ذلك . وذات يوم ظهر جلالته راكباً بعربته التي كان يجرها حصانان ،
فوق رصيف يرسو عليه قاربه الخرفي وأخذ يؤنب جنده مرة أخرى قائلاً :
« هل تنتظرون أن يجيء مندوني لمحاربة هؤلاء ؟ هل يجب أن تنتهى هذه
السنة بأكلها دون أن تصل أخبار جبروتي إلى الدلتا ؟ » فأخذ جميع جنده
يضربون أنفسهم في ألم مرير . (٣٦)

ومع هذا فإن ملك الحيشين اللثيم ، هذا الساقط ، قد بعث رسولا ليمجد
أسم فرعون مثل رع ، قائلاً :

« أفت سوتخ ؛ أنك بعمل بشخصه . . إن هيتك بمثابة السعير في بلاد
الحيشين ! ، كان الرسول يحمل خطاباً . لم يكن إلا طلباً للهدنة : « إن الخادم
الموجود هنا يتكلم ويحيطك علماً أنك ابن رع متقمصاً ذاته وقد منحك كل
الأراضي قد جمعت كلها في واحدة . . أرض مصر وأرض الحيشين ، هاهي
ذى في خدمتك ، هي تحت قدميك وإن والدك برا Pre المبجل الوفور
قد أعطاك إياها لتصبح ملكاً عليها . فهل من الصواب أن تقتل أتباعك ، انظر
ماذا فعلت بالأمس ، لقد قتلت ملايين ، إنك لن تترك ماورث لا تخن على
أموالك أيها الملك القوى ، العظيم في المعركة ، امنحنا نسمة الحياة ! » (٣٧)
« فسارع جلالته وطلب كبار قواد الجيش والحاشية والنبلاء وعقد
مجلساً عرض فيه على مسامعهم ما طلبه ملك الحيشين اللثيم . وبلا تردد قالوا
في صوت واحد : « إن السلام شيء عظيم ، شيء عظيم جداً أيها الملك . مولانا ،

كان هذا هو صوت القلب ، ولكنهم عادوا وصححوا حديثهم قائلين :
ولا يوجد ضرر من السلام إذا كنت أنت الذى تصنه . من ذا الذى يملك
فى يوم غضبك ؟ (٢٨)

وكانت هذه النصيحة هى التى يتوق الملك إلى سماعها ، فانتجعت القوات
المصرية فى سلام صوب الجنوب دون أن تستول على قادش وكان فى استطاعة
كل انسان أن يرى الأسوار المحصنة التى على هيئة قلاع ورافع نهر العاصى .
وفى الحقيقة فإن فرعون ، وقد ألقى بجيشه فى بلاد العدو ، قد نجح بأعجوبة من
كارثة محققة إذ كانت معلوماته خاطئة بالنسبة لمواقع الحثيين ، ولم يكن لديه
جنود طلائع ، ولم يحصن جناحيه وقد كتب له السلام بفضل الحرس الخاص
المكون معظمه من رجال الساردان ، فقد لوحظ أن الغوم لم يكن مرجها
إلا للصريين ومن المحتمل أن الحثيين عندما تمكنوا من الدخول فى معسكر
فرعون ، لم يفكروا إلا فى السلب والنهب ، فكانت شراحتهم سيئاً ، فى أن انتصارهم
قد انقلب إلى هزيمة . ولم يغضب ملكهم من أن ينال بشن بعض عودة هذا الجيش
الكبير . على أن بعض الوقائع الحربية كانت ذات نتائج حاسمة ، مثل تلك
المرحلة الكبرى التى انتصر فيها رمسيس الثالث على الليبيين . (٢٩)

كان الملك يدفع بنفسه مثل جده فى المعركة ، كانت خيول عربية الملك
تهب الأرض نهاراً وقد ثبتت أعتة الخيل فى حزامه لئلا يتمكن من أن يشد
القوس . وكان يضع الخوذة فوق رأسه وأساور عريضة فى ذراعيه وعقدن
فى قبضة يديه ، وشريطان عريضان يتقاطعان فوق صدره وجبهة من الجلد قد
ثبتت فى جانب العربة وملئت بأسلحة الصوان ، - السيف الذى يقف وراءه
الملك لا يجارب ، وإنما يحرس رأساً ودورقاً من الذهب ، سبق أن أشرنا
إليه ذلك عند قيام الجيش من مصر . وتسير خلف عربة الملك عربات

أخرى ركب كل منها اثنان من المحاربين . قام جنود فلسطين الذين التحقوا بالجيش المصري بالإتيان بالمعجزات ضد اليبين . فالرئيس اللي ميشيش Mcclachar ابن كاپورو Kapouro وجد نفسه مضطحا في نفقت خيوله ووقع ياوره من عربته بعد أن احترقت جسمه حربة ، فأتجه نحو فرعون رافضا ذراعه ، ناصبا سبافته مستسلما معترفا بهزيمته ، وكانت قوات جيشه تسلم بدورها في مجموعات كبيرة . كانوا يرفعون سيوفهم الطويلة عموديا فيبدو السيف كاللواء كان شمعة ، ويمدون أذرعهم اليسرى وراحات الأيدي تجاه الأرض . (١٠)

وفي عهد رمسيس الثالث وفدت شعوب كثيرة من سواحل البحر في جموع عديدة على طول الشواطئ وملأوا جميع الطرق البرية التي كانت تؤدي إلى مصر . (١١) وكانت عربات تحمل النساء والأطفال تجرها جواميس ذات عجلات مصبوغة مثبتة في المحور بعمود أفقي .

أما سفنهم فكبيرة الحجم ، قد زينت مقدمتها إما برأس أسد أو برأس طير ، وذات مؤخرة عالية ، وقد غصت بمحاربين وتكاد أن تغرق من كثرتهم . وكان الاشتباك في البر والبحر رهيبا .

وقد تزلج الملك من عربته حتى يتمكن من تسديد السهام ، وكان بجانبه جميع أفراد حاشيته ، والضباط الذين يحملون الأقواس وجعاب السهام والحراب ، وكان الخدم يتقاسمون حمل أدوات الزينة ومظلات ريش النعام والأكياس التي تحتوي على الملابس الداخلية اللازمة للاستبدال وكل ما يلزم لإصلاح ما تسببه المعركة من فوضى وارتباك .

وعندما يتم النصر ، يعتلي الملك منصة عالية ليلقي نظرة شاملة على ميدان القتال تحت ظلال المظلات التي يرفعها ويشدها حاملوها بطول أذرعهم ، وصفت الأعلام وهي ترفرف على مقربة من المنصة . وكان الأمرامورؤساء الجيش يتقدمون لهتة الملك بينما تبدأ عمليات حصر غنائم المعركة وتقدير

فلجنتها . وكما كان الحال في عهد احموزا ، وكان كل محارب يقتل أحد الأعداء يقطع يده ، وإذا كان هذا العدو من الليبيين فكان يقطع العضو ، وتقدم هذه الغنائم إلى المكلفين من قبل الملك باستلامها . وكانت تكوم كل هذه الأشياء مع الأسلحة التي جمعت من ميدان القتال ويرص كل هذا بالقرب من المنصة ، وكانت ترتب وتصنف وتحسب في اطمئنان بواسطة رهن من الكتاب .

أما الأسرى فكانوا يقيدون ويكتفون ويقدمون للملك . ويحفظ بالروساء لحفلات أخرى . وكان الرجال الذين يصلحون للعمل يوشمون بالحديد الحمى ، وينتظرون في جموع صغيرة حتى يأتي دور كل منهم . وثمة جنود مسلحون تسليحاً كاملاً على أنهم أهبة لقمع أى محاولة تمردية من جانب الأعداء ولكن المهزومين كانوا يستسلمون لمصيرهم . (١٢)

وبعد أن يتم وشمهم قارب الجنود الدنايين Donadaens والفلسطينيين Philistines يلحقون بجيش فرعون لتعزيزه ، وأخذ الجيش يغزو شيئاً فشيئاً من المصريين لأنه كان من اليسير في مثل تلك الظروف أن يمارس الحرب رجال من أم أخرى .

٧ — حرب الحصار

تتخذ الحرب ، في غالب الأحيان ، شكل حرب حصار ، إما لأن العدو لا يجسر على مواجهة الجيش المصرى وإما لأن الاشتباك في العراء لا يمكنه من حشد المدد الكافى من المحاربين لحماية قلاعه .

وهذه الحصون تشيد فوق مرتفعات ، وفي بعض الأحيان فوق جبل متحدر .

والعقبات الرئيسية التي تحول دون اجتياز هذه التحصينات كانت عادة خنادق مليئة بالماء أو أسوار خشبية دقت فيها بأوتاد . ويتخذ الجند الهلويون الغاية القريبة نجاً لهم ، كما يتخذها من لم يتمكن من دخول القلاع قبل ظق الأبواب . وهم يفضلون أن يسوقوا قطيعهم من الجاموس معرضين أنفسهم لأنياب المدينة ، على أن يكونوا فريسة لسهام المصريين . وغالباً ما تكون المشارف القريبة من القلاع مزروعة وبغلي كروم العنب والتين المنحدرات ونحف الطرق أدغال مزهرة وقبل الانسحاب ، كان المصريون يقطعون الأشجار النافعة كما جرى العرف (١٣)

وتتكون القلاع السورية من أبراج عالية ذات حواف بارزة قليلاً مسنفة وجدران عالية تسائر حدود الأراضي المحيطة بها ، قد حليت بزخارف وفتحت في هذه الجدران أبواب وشبايك والمدن المحمية بسورين أو بثلاثة أسوار ليست نادرة . وفي بعض الأحيان كال برج يستخدم قاعدة لبرج آخر يستعمل بدوره قاعدة لبرج ثالث . ويرفرف علم فوق قمة أعلى الأبراج (١٤) .

ويصوب المصريون سهامهم نحو زخارف الأبراج . ويسوقون أمامهم الهارين ، فالذين يكونون في نجاً داخل الحصن ينخضون وبعدون أيديهم لا تتشال زملاتهم المتأخرين في الخارج ، بينما يطلق المدافعون السهام والحرا ب والاحجار ، بينما ينتظر آخرون وبأيديهم السيوف ويوقد كاهن بنجوا فوق كانون له مقبض يشبه النوع الذي يطلق عليه المصريون أسم آخ Akh وذلك لطلب النجدة من آلهة المدينة ، ويستمر راقفا يده كما كان يفعل موسى في قتاله ضد العالقة Amalec ويطل الكاهن أحياناً من بين زخارف الأبراج على

المقاتلين في الطابق الأسفل مشجعا إياهم . ولم تعد كافة وسائل التحصينات ذات قيمة ، فداخل القلاع أصبحت مليئة بمخث القتل وقد قتل المدافعون وهم في أماكنهم ، ولا يمضي وقت طويل إلا ويصل المصريون إلى أسفل الجدار ، وبقوة القنوس يقتحمون الأبواب ويقيمون السلام ، وهكذا تقع في أيديهم استحكامات الخط الأول .

وعندما تصل الأمور إلى هذا الحد فلا يبقى على المحاصرين إذا أرادوا أن يظلوا على قيد الحياة إلا أن يمتنعوا عن المقاومة ويحسموا الموقف بتقديم هدايا للتغلب على ضراوة المنتصرين . فما هو ذا حاكم أمار Amer يوجه مبعوثه نحو رمسيس الثالث وبالبدليسى يؤدي حركات التمدد والخضوع ، ويقول :

« امنحنا نسمة الحياة لكي نتمكن من أن نعيش من جيل إلى جيل بفضل عظمتك » (١٥)

ويخرج الرؤساء واحدا تلو الآخر ويؤخف بعضهم على مرافقهم وركبهم ، ويأتى آخرون حاملين أواني ذات مقبضين بها زهور صناعية ودوارق ذهبية برسوم بارزة لحيوانات ذات أسنمة مستديرة ، كما يحملون حلما . هذه الأشياء كان يقدمها حق قدرها الملك ورؤسلة الكهنة الذين كانوا في نهاية الأمر يضعونها ضمن كنوز المعابد ، وثمة غنائم أخرى كان يهتم بها جميع الجنود مثل الحبوب والنيذ والذبايح والأسلحة على أن الجند كانوا يأكلون ويشربون كل يوم على غرار أفراد الطبقة الموسرة من المصريين في أيام الاحتفالات . وكانت المدن السورية غنية بالخيل وكان خيرة المقاتلين يركبون العربات . وفي مدينة مجدو وحدها غنم تحتمس العريبات المسكينة بالذهب التي كان يمتلكها فادش ومجدو كما غنم ٨٩٢ عربة من جنودها الثقل .

والحق أن هؤلاء الأمراء كانوا قد كونوا حلفاء حقيقا عند مصر ، وقد انضم إليهم حلفاء من أهالي أرض الفرات . وهؤلاء الأمراء الذين جاءوا من بعيد ، قد طردهم تحتس وهم يركبون حميرا ووجوههم تجاه ذيول العوالب . وكان هذا الانتصار قد أثلج قلب فرعون وأدخل البهجة على نفسه .

أما منحدرات لبنان فكانت مكسوة بالغابات ومنذ عهد الآلهة ، كان المصريون يأتون إلى جبيل : لأخذ الأخشاب اللازمة لصنع المراكب المقدسة وصواري الأعلام التي كانت تقام أمام صروح المعابد ولعمل أشياء أخرى كثيرة دينية ودينية وخشب الصنوبر المسمى أش Ach كان أكثر أنواع الخشب تقديرا ، لأنه مذهب أكثر من سنابل القمح ومستقيم كالريح وكذلك خشب الأرز الأحمر المسمى مر Mer وخشب الخروب المسمى سننجم Ses nedjem وخشب يسنى أو أن Ouan نوعه غير محقق وربما كان هو العزعر . ولما كان المصريون سادة سوريا فقد أخذوا يتوسعون في استغلال الغابات . وفي عهد تحتس الثالث انتشر الجنود في الجبال وأخذوا يقطعون الأشجار ، وكان الرؤساء السوريون يسحبونها حتى قرب الشاطئ بواسطة الثيران . وكان أمراء لبنان يستقلون هذه المراكب التي كانت تبنى بكثرة خصيصاً لهذا الغرض مع أفضل خيرات الأرض المقدسة (١٠) .

وفي عهد الأسرة التاسعة عشرة من التاريخ المصري ، لم تعد سوريا مستعمرة للاستغلال ، فإن الحشيش كانوا ينازعونهم فيها ، وكان السوريون أنفسهم قد أخذوا يدافعون عن أنفسهم خيرا من الماضي . ومع ذلك فإن كيلت وفيرة من المنتجات والبضائع كانت تأخذ طريقها سنويا إلى مصر .

وكان سبى يعرف كيف يضطر الأمراء اللبنانيين إلى أن يقطعوا له
خشب الأرض. (١٧)

٨ — الحرب في بلاد التوبة

عندما تثار الحرب ضد البلاد الجنوبية ، تتخذ الحرب مجرد صفة زهقة
حرية . إذ يكتفى المصريون بمحاصرة دورهم . أما النوبيون فإنهم يرتدون
جلد الفهد ويتسلحون بالدروع والحراب الطويلة ، أما النساء فيحملن
الأطفال الصغار في قفف فوق ظهورهن ويجمعن الأولاد عاديات ليختفوا
بين أشجار النخيل .

والحرب بين الطرفين غير متكافئة وتنتهى دون شك في صالح المصريين
الذين يستمدون لحد أوفر الغنائم ، إذ أن أهل الجنوب صناع مهرة لأسبا
في صناعة الأثاث الفاخر المعظم بالذهب والابنوس والعاج . ولديهم في
أكواخهم كميات وفيرة من ريش النعام وشن الفيل وجلود الفهد والقرون
والعطور (١٨)

٩ — عودة النصر

أظهر فرعون قوته حتى أقصى أطراف الأرض ، وكل ما تغمره الشمس
بأشعتها من أراض شاهد على انتصاراته الحربية

لقد أقام حدوده حينما أراد هكذا شاء أبوه آمون رع وشاء كل إلهة
الآلهة . ولم يبق إلا أن يعود إلى بلاده المحبوبة فوميرى ليسمع هتاف الذهب
وابتهالات رجال الدين الذين كانوا استعداد على لملء صحن سلطانهم

بالأسماء والأرقام وتنهض رءس أجزء الغنمة اللأمة ومكانة الشبعان ومعاينة المتمردين ليكنوا ذيرة أغيرهم في لأرض كلها .

ويعود الجيش تقريبا بنفس نظام التشكيلات التي قام بها . ويتقدم الأسرى من أصحاب الرتب السكيرة ، عربة الملك وأيديهم مغولة في سلاسل حديدية تكون أحيانا على هيئة فهد . وفي رقابهم حبال ، وقد ربطت أيدي غالبيتهم خلف ظهورهم أو فوق رؤسهم^(٤٩) وتبدأ الاحتفالات بمجرد أن تظا الأقدام أرض مصر ، فيتكثل السكينة أمام جسر سبلا حاملين باقات من الزهور .^(٥٠) وينكل يبيض كبار الأسرى حتى الموت في احتفال كبير . فأنكتب التالى الذى يشبه درقل قد قل ثمانية فوق مقدمة مركبه وشنق ستة في طيبة أمام صرح المعبد ، والاثان الآخران شنفاء نباتا ، لإظهار انتصارات جلالتة دائما وإلى الأبدى الأراضى كلها وفي جميع جبال بلاد الزوج .^(٥١) ويقوم المنزهون حتى آخر لحظة بتقديم فررض الطاعة والخضوع فيرفع اللييون أصابع السبابة ويرفع الآخرون راحة اليد تجاه جلاذيتهم . وبعد انتصار رمسيس الثالث كتب ملك ليبيا المعجوز كاپورو إلى فرعون ملتسما العفو عن ابنه الذى وقع أسيرا بين أيدي المصريين وهو على قيد الحياة ، طالبا من فرعون أن يعذب هو بدلا من ابنه .^(٥٢) ولكن هذا الالتماس لم يلق أذنا صاغية فقد كان اللييون على جانب كبير من الخطورة ، حتى أن قلب فرعون عظم يشأ أن يتفتح للصفح . لقد قال رمسيس الثالث في وصيته السياسية :

« عندما احتلوا مصر استولوا على المدن الواقعة على الحدود الغربية من حات كابتاح Hatkaptah إلى قربان Qarban ، وصلوا إلى شاطئ النهر الكبير واستولوا على بلاد المقاطعة وعلى الثيران خلال سنوات عديدة .
(٢٢ م - الحياة في مصر)

كانوا يمتلئون مصر ولكنى هدمتهم وقتلتهم دفعة واحدة، وأجبرتهم على أن يعبروا الحدود المصرية ، أخذت الباقي غنيمة - وسقطهم بسيفي ، فكانوا كاللداجن أمام خيولي ، وكان نساؤهم وأطفالهم يحصون بعشرات الألوف عد ودوابهم بالملايين وقد جعت أمراهم وعهدت بهم إلى قواد حملة الأقواس وإلى شيوخ القبائل ، وقد ختمتهم بخاتم يحمل اسمي فأصبحوا عبيدآلى . . (٥٢)

وعندما ينفذ حكم الإعدام فى الأسرى الذين تقرر مصيرهم يقام حفل آخر فى المعبد ، يتقرر فيه مصير بقية الأسرى فى نفس الوقت الذى تقدم فيه الغنائم للآلهة . لقد عرضت أمام تماثيل الآلهة ، السكروز التى أحضرت من بلاد الحيثيين الذليلة . وهى الدواقر والقناني والآكراب والسكؤوس الذهبية والفضية المرصعة بالأحجار الكريمة التى تماثل الأواني التى قدمها السوريون المحاصرون إلى المنتصرين عندما سلبوا بلادهم أو مثل تلك التى أحضرها فى وقت السلام مبعوثو الرتو وآمار ونهرينا سدادا لقيمة اشتراكهم فى الحرب أو ليكونوا حلفاء للملك . ويصل الملك بدوره ويشد الأسرى المغلوله أيديهم وقد ربطت الحبال فى رقابهم ، هؤلاء هم الزوج واللييون والسوريون ، والعامو والعموريون والحيثيون .

ويعترف الأسرى بهزيمتهم . وفرعون مثل السدير المتقد الذى يلتمس كل شيء إذا ما أقفر المكان من المياه ، إنه قدبر على أن يخذ أى ثورة وعلى إسكات أى فم تخرج منه كلمة كافرة . وأن يجرم الإنسان نسيات الحياة ويعترف فرعون أن أباه آمون هو الذى منحه الانتصار على الشعوب المعادية، ولذلك فهو يرد إلى الآلهة ما سبق أن منحته إياه ، مقدما هدية لحايدها هى بعض الأسرى والسكروز النفيسة. (٥٣)

الفصل العاشر

الكتابة والقضاء

١ - الإدارة

نعمت مصر منذ أقدم عصورها التاريخية بإدارة حازمة متنورة فنذ بدء
الأميرة الأولى كان موظفو القصر يطبعون أسماءهم وألقابهم على سدادات
الأواني الفخارية بواسطة اسطوانة . فكل الأشخاص الذين نعرفهم عن
طريق تماثيلهم أو لوحاتهم أو مقابرهم ، كان لكل منهم لقب واحد على الأقل
وكان لبعضهم عشرات الألقاب . . وفي عهد الدولة القديمة كانت الألقاب
وأسماء الوظائف من السكثرة بحيث تكفي لملء مجلد كبير . وقد وصلنا كتاب
يشمل ترتيب وظائف الحكم في عهد الرعامسة . (١)

وقد ورد على رأس القائمة أسماء الآلهة والآلهات تليها الأرواح ، والملك
الحاكم ، فالزوجة الملكية ، فولدة الملك ثم أبناء الملك . ثم الحكام وعلى
رأسهم الوزير وكل من أسددهم الحظ في أن يعيشوا قريبا من الشمس
(الملك) وهم الحكام الذين كانوا يلتقون أبناء الملك ، وكبار رؤساء الفرق ،
والكتاب المحققون بالمكتبة الملكية ثم رجال التشريفه والبشير ،
وحامل المظلة وحامل المروحة وكتاب القصر وكبار موظفي البيت الأبيض
وكبير كتاب ملفات المحكمة العليا وكتاب الأموال المقررة .

ثم تشمل قائمة ثانية منى فرعون في الخارج ، في الأقاليم وفي المدن
والمبعوثين المدركين في كل البلاد وحامل أختام الملك في الموانئ البحرية
والنهرية .

وكانت كل وظيفة معينة تشغلها فرقة حقيقة من الموظفين ، فقد كان لكل موظف كبير عدد غفير من المساعدين يعينونه على أداء وظيفته . وكان حكم الأقاليم يحاولون جاهدين أن يعيشوا كما يعيش فرعون ، فيقيموا منازل في عواصم الأقاليم على طراز قصر فرعون في عاصمته ملوكه .

واله مثل آمون كان يمتلك ثروات طائلة فأنشأ لإدارة هذه الثروات هيئة مثقفة ورتبها ترتيباً منظماً واعياً . (٢)

وكان بجانب الكاهن الأول رئيس الخدم ورئيس الدار وحاجب وحارس الغرفة وكتاب ورئيس البعارة والخدم . أما الكاهن الثاني فكان له أيضاً موظفون وسكرتيرون ملحقون بخدمته . أما الكاهن الرابع فيعد نفسه أنهم حفا إن لم تكن تصحبه حاشية قليلة العدد من الرجال كلما خرج . وعلينا الآن أن نغصى هذا العدد الكبير من المديرين والرؤساء . والكتابات الذين يتقاسمون جميع الأعمال والتحصينات التي تقرأها هيئة كبار رجال الدين . وكانت أهم هذه الوظائف هي وظائف مديري وكتاب الخزائن ورئيس هيئة بيت المال وكتاب الخاتم المقدس لبيت آمون .

ومعبود أقل شهرة عالمية من آمون ، ولكن له أهميته القصوى وهو المعبود مين سيد إيبو فقط ، وكان يمتلك بجانب العدد الوفير من رجال الدين ، موظفين إداريين كثيرى العدد من كتاب رؤسائهم الأعمال ، ومشرفين على قطاعان الماشية وآخرين يشرفون على أصونة الثياب والنقل وأمناء المخازن ، كما كان هناك أيضاً محاسبون (٣) .

وكانت الإدارة المصرية ، على شاكلة كل البلاد ، تميل إلى التوسع لا إلى الانكماش . وقد أغنى رمسيس الثالث الآلهة منذ أول سنة من حكمه

الذى استمر إحدى وثلاثين سنة . وكلما امتدت أملاك الآلهة ازداد تبعاً لذلك عدد الوظائف . فكان فى حاجة دائمة إلى عدد من الكتاب لجمع الضرائب وفرضها وقلها ، وترتيب نظام المعبد ، وصيانة القنوات ووقاية الطرق والأرصفة والمخازن كي تكون دائماً فى حالة صالحة .

٢ - تعيين الموظفين وتدريبهم

أسس پارميسيس الأسرة التاسعة عشرة وظل فى الحكم مدة طويلة تولى خلالها عدة وظائف ووصل إلى أهم المناصب المدنية وحمل الألقاب الدينية وتولى القيادات الحربية فى الإقليم الشرقى لئدلتنا .

ولما استدعاه الملك حرمحب إلى طيبة لإدارة أعمال معبد أريت Opet منع ابنه سبتى الذى كان قد بلغ أشده معظم ألقاب ووظائفه (١) وكان صغار الموظفين يلقبون الكبار ، فإن نفريريت Nefertirit الذى كان أحد رجال الحرس الملكى ، عندما كان فرعون فى جبال رتو أرسل إلى مصر أربع بقرات من السلالة الفينيقية وبقرتين من السلالة المصرية وثوراً للقصر العتيق (قصر ملاين السنين .) وقد استطاع أن يحصل لاختيه على وظيفة حارس لهذا القطيع الصغير ولابنه على وظيفة حامل أوانى اللبن ، ولم تكن هذه الوظائف مضمونة لشاغلها مدة حياتهم فقط ، ولكنها حكما كانت تبقى وفقاً على أسرهم برثها الابن عن أبيه وتؤول من وريث إلى آخر (٢) . وما كان لأحد أن يعترض على ذلك . وكل كان الآباء فى العائلة يتمنون الحصول على مثل هذه الوظائف لأبنائهم .

ونجد من بين النصوص التى يقرأها زوار المقابر النص التالى : « إذا أردتم أن توصوا بوظائفكم لأولادكم فعليكم أن تقولوا ومن

كان يسيء السلوك في إحدى المقابر ، كان عرضة لهديد خطير.. فلن يصبح له وجود ولن يشغل ابنه مكانه ،

وقد نص القانون على أن الموظف العاصي يحرم من وظيفته ونوقع عليه عقوبة شديدة كما يحمل العقاب بأولاده الذين تسند إليهم أعمال يدوية شاقة وينزلون إلى مراتب العبيد. (٦)

ولا نستطيع أن نستنتج من هذه النصرة أن الوظائف ذات المستويات الخطيرة التي تتطلب كفايات كبرى كانت تسند تلقائيا إلى ابن شاعها بمجرد وفاته . فالواقع أن أولاد الموظفين كانوا يبدأون وظائفهم الإدارية بمجرد تخرجهم في المدارس ، وكانت تربياتهم تبعا لقدراتهم ومراهم وتقائهم في العمل ووفقا لقوة نفوذ من ينصرهم .

وكانت المدرسة ، عادة ، جزءا من المعبد . كان باكن خنسو Baken Khonsou الذي أصبح فيما بعد كبير كهنة آمون ، قد درس مدة اثنتي عشرة سنة في مدرسة الخطوط الملحقة بمعبد سيدة السماء . (٧) وقد وجدت قطع من الشقف المخطوط Ostraca وأوراق البردى ، عليها تمارينات مدرسية ، داخل أسوار معابد الرمسيوم وثانيس ودير المدينة وفي بعض المعابد الأخرى .

كانت تبدأ الدراسة في سنين مبكرة ، فلم يكن باكن خنسو قد تجاوز الخامسة من عمره عندما ألحق بالمدرسة ، ولكن والده ، ذلك الكاهن المرموق ، الطموح الغيور على أن ينال ابنه مستقبلا عظيما ، كان يدفعه دائما إلى الامام حتى بلغ ما لم يبلغه أى طفل عادى .

ومع ذلك ، فالمسلم به أن اليوم الذي يمتنع فيه الأطفال عن السير عراة الأبدان ، ويضعون أردية حول خصورهم للمرة الأولى ، لم يكن بعيدا عن اليوم الذي يلتحقون فيه بالمدرسة .

وقد علمنا أن الشاب الذى سجد ليكون ضابطا ، كان يؤخذ من أسرته فى سن مبكرة وكان نظام المدارس فى الغالب أن يكون التلميذ خارجيا ، وكان يحمل التلميذ الصغير قفة صغيرة تحتوى على قطعة من الخبز وجرة من البيرة تعدها له والدته كل صباح . (٨) وفى أثناء سيره من البيت إلى المدرسة أو حين عودته منها كان لديه مقسع من الوقت لأن يتشاجر ويتضارب مع زملائه الصغار . وقد نشرت حديثا قصة مصرية تبين لنا ولها كان موهوبا جدا حتى أنه كان يتفوق على أقرانه عن يكبرونه سنا . فاكشف هؤلاء ذات يوم أن فى حياء هذا الغلام نقطة ضعف ، فسألوه مرة : « ابن من أنت ؟ ليس لك أب ؟ » ولما لم يحرجوا بالى بكفروا عن اضطراره والسخرة منه وضربه . وم يرددون : « ابن من أنت ؟ ليس لك أب ! »

كان الطفل يبدأ بتعلم القراءة والكتابة وكان ورق البردى مادة نفيسة جدا حتى أنه لم يكن يوزع على التلاميذ ، إذ كانت تعلى لهم لوحات من الحجر الجبرى المصقول ذى السطح الناعم ، وقد رسمت عليها خطوط أو مربعات ، ليؤدوا عليها تمريناتهم . وفى طيبة كانوا يكتبون (باعطاء التلاميذ) بقطع الأحجار ، تحت دون عناية . كانت هذه كراسات واجباتهم . وكانوا يتمرنون على أن يخططوا عليها رموزا منفردة أو يكتبون المبروغليفية أو الكتابة العادية أو الرسوم الصغيرة أو نسخ نصوص موجزة يزداد مقدارها شيئا فشيئا . وكانت هذه اللوحات الحجرية هى أيضا كراسات لحفظ دروسهم ، لأن بعضها قد كتبت عليه تواريخ . ولو وجد من هذه اللوحات عدد كاف أو كامل ، لاستطعنا أن نستنتج عدد الأيام التى تلزم للتلميذ ليدرس أو ليحفظ عن ظهر قلب قطعة كلاسيكية مثل نشيد النيل أو وصايا أمنمحات . (٩) وبعد أن يكون قد أ تلف عددا ليس باليسير من هذه المواد الرخيصة بصرح للتلميذ التاجع بأن ينسخ على الورق البردى

الجميل السليم ، ليس مجرد نص فحسب بل مؤلفا كاملا فيجلس القرفصاء
وينشر أمامه جزءاً من ملاب ورق البردى الذى لم يستعمل بعد ، يبلغ عرضه
عرض صفحة من النموذج الذى سينقل عنه . وقد أحضر المداد الأحمر
والمداد الأسود واختار بين مجموعة الأقلام ما يصلح لهذا العمل وبدأ عمله
فينسخ قصة أو مجموعة من القصائد الشعرية أو من الحكم الأخلاقية أو نماذج
مراسلات . وتكتب بالمداد الأحمر العناوين وبداية الفصول ، وأما النص
الأصلى فيكتب بالمداد الأسود . وكان الكاتب عادة ، رساما ومصورا في آن
واحد . وكان يستعمل للزخرفة أنواعا من المداد المختلفة الألوان منها
الأخضر والأزرق والأصفر والأبيض .

ولم تكن الترتيبة مقصورة على مجرد دراسة قواعد اللغة والخط ومعرفة
النصوص الكلاسيكية والتاريخ المقدس وقليل من الرسم ، لأن الموظفين
المصريين كانوا يؤدون أعمالا متنوعة للغاية وينقلون من عمل إلى آخر في
سهولة مذهلة . فقد كان أونى Onni في بادىء الأمر من رجال الشرطة ثم أصبح
قاضيا ، ثم توجه إلى مكان فام للبعث عن أحجار تآ قام ببناء سفن وطهر
القنوات . ولما نشبت الحرب ، شغل وظيفة رئيس أركان الحرب ، وعلى هذا
فقد كان ينبغي للطلبة أن يكونوا على علم بالقوانين واللوائح والتاريخ والجغرافيا
والفنون الرئيسية . فهل كانت هناك وقتذاك مسابقات وشهادات ؟ إننا نميل
إلى الاعتقاد في ذلك حينما نرى الأسئلة التى كان يوجهها الكاتب هورى
Hori إلى أحد زملائه ، وقد كان يقصد بذلك إحراجهم : ما مقدار المؤنة
اللازمة لفرقة محاربة ؟ . ما عدد الأحجار اللازمة لبناء سور معركة أبعاده ؟
وكم عدد الرجال اللازمين لنقل مسلة ؟ وكيف يقام تمثال ضخم ؟ ثم كيف
تنظم حملة حرية ؟

وفي النهاية ألقى عليه عدة أسئلة تتعلق بجغرافية سوريا . . كل هذا يحتاج دون ريب إلى برنامج دراسي واف . (١١)

على أن درجة الأقبال على العمل كانت تختلف لدى هؤلاء الشبان من كتبة المستقبل ، وكثيرا ما كان أساذتهم يتألمون لشدة كسل تلاميذهم ، فكان الكاتب أمن موزى Amenmosi ييب بهم ، قائلا : . اكتب يديك وناقش من هم أعلم منك . . فالإنسان يصبح قويا إذا تمرن كل يوم . . وإذا أهملت يوما واحدا . . فستضرب . فأذن الشاب فوق ظهره . لا يستجيب إلا لمن يضربه . اجعل قلبك يصغ إلى أقوالى . إن هذا سوف يفيدك . إن الفردة تدرّب على الرقص ، كما تدرّب الخيول . . إن الحدأة تنزع من عشها ، ويدرب الصقر على الطيران . . فلا تنس أن المناقشة تدفع دائما إلى التقدم ، لا تهمل الكتابة . اجعل قلبك ينصت إلى احاديثي فستجدها نافعة لك . . (١٢)

هذا العالم التربوي كان يعتمد أو كان يتظاهر أنه يعتمد أن الدراسة ليس لها من عذر في قلب الشاب سوى الكسل والعناد . ولكن ما دام من المستطاع كبح جماح الحيوان وتدريبها ، فقد كان يأمل في الوصول إلى تقويم التلميذ الطائش وهدايته إلى الطريق القويم المؤدى إلى النجاح وإلى أعلى المراتب بمحة على الطموح ونهج الطريق السوى مع تذكيره بكرامته ومراعاة الإتيان ، وإلا فيمكن تقويمه بتوقيع عقاب صارم عليه .

والأسفاه ! لقد كان الشبان المصريون يتصفون بخصال وخيمة العواقب ، إذ قال أستاذ آخر يتصف بالتعمر مثل أمن موزى ولكنه أكثر منه تجربة واطلاعا ، قيل لى إنك تهمل الكتابة وأنت تمارس الرقص وتنقل من حانة إلى أخرى وأن رائحة الجملة تفوح منك في كل خطواتك . إنك تشبه المعبد الخالي من معبوده أو البيت الذى انعدم فيه الحبز . وقد راوك تصطلم

بالمجرد أن يفكر الناس من أمامك. هل تستطيع أن تؤمن بأن الخمر رذيلة شنيعة؟
أه لو أمكنك أن تنسى الكشوس ! ولكنك تجهل مقدار عظمتك ؟ (١٣)

وكان هناك ما هو أشنع وأسوأ من ذلك ، فقد كان من اليسير على
الرجل في مصر أن يستقبل في بيته عشيقات أو يشتري إماء أو يستأجرهن ،
وكان هذا كله يمنع إلى حد ما انتشار بيوت الدعارة . ومع ذلك فقد كانت
تلك البيوت موجودة وكان روادها يسرفون في شرب الخمر إلى حد فقدان
الوعي ومجدون في تلك البيوت الرقصات والمغنيات والموسيقى المحترفات ،
وكن في الغالب من النسوة السهل منالهن ولو كن من مغنيات آمون . وفي
هذه الأما كن كان من المستطاع الاستمتاع بالأنغام السحرية للموسيقى
الاجنية . وكان الغناء والأناشيد مصحوبة بدق الطبول ونغمات القيثارة .
وكان يمكن الاستمتاع فيها بملذات أخرى حتى يحين الوقت ليجد الإنسان
نفسه في الطريق في حالة يرثى لها وبعد محاولات فاشلة يبذلها ليسير دون
ترغ ، زاه يتمرغ في القاذورات أو يشترك في مشاجرة حقيرة . (١٤) .

٣ - الظلم الممارس والمظالم

كان الشعب والعمال والفلاحون يهابون رجال القانون ولو كانوا في أدنى
المراتب . كانت زيارتهم في أغلب الأحيان نذير عقوبة قانونية بالعصا
أو مصادرة للثروات الضئيلة . وبما لا ريب فيه أن الحكماء كانوا يوصون
بمثلى السلطة بالعدل والإنصاف في أداء مهمتهم قائلين : « لانغبين أحداً عند
جباية الضرائب - ولكن لا تكن شديد القسوة إذا وجدت في القائمة مبلغاً
جسماً متأخراً على شخص فقير قسمه إلى ثلاثة أجزاء ، وتترك منه
جزأين حتى لا يبق على إلا جزء واحد » . (١٥)

وقد ذكر بعض الموظفين على لوحة في مقبرتهم ، أو على تمثال شيد في المعبد في كتف معبودهم ، أنهم كانوا يعملون وفقاً لمثل هذه المبادئ الحكيمية . قال الوزير پتاح موزى Ptahmosé : « لقد عملت ما يستحق ثناء الناس ويستوجب رضا الآلهة ، لقد أعطيت خبزاً للجائع وأشبع من لا يملك شيئاً ، (١٦) وقال وزير آخر ، رخنارع ، بأنه قام بإدارة الأملاك الملكية بكل عناية . وأنه سلاً المعابد بالتمائيل وشيد لنفسه مقبرة فخمة ولكنه كان يحى الضعيف ضد القوى ويدافع عن الأرملة التى لا أقارب لها . وعين الأولاد فى مراكز آبائهم . (١٧) وإذا كنا نعتقد فى صحة ما قاله باكن خفسو ، كبير كهنة آمون فإن رؤوسه لم يكن لديهم ما يشكون منه من رئيسهم المذكور إذ قال : « لقد كنت أبا لمرؤوسى ، أعلم أولادهم الشبان وأمد يدي للباشرين وأضمن العيش للمعوزين . لم أعامل الخدم بقسوة ولست كنت أباً لهم . . كفلت الطموس الجنائزية لمن لا وريث له ، وجهزت تابوتاً لمن لم يكن يملك شيئاً . وضعت اليتيم الذى التجأ إلى نحت حمايتي وحرصت بنفسى على مصالح الأرملة . لم أطرده ولداً من مركز كان يشغله أبوه . . ولم أنزع الطفل من بين ذراعى أمه . . لقد أصغيت تماماً لأولئك الذين يقولون الحقيقة وباعدت بينى وبين الآثمين . » (١٨)

وكذلك نرى السكاتب الملكى السابق ورئيس مخازن الغلال خالم حات Khâemhat قد توجه إلى المقبرة بعد أن برأه البشر من التهم التى كانت موجهة إليه ، على أنه لم تكن قد وجهت إليه أية تهمة . . وعندما وصل إلى قاعة العدالة الكبرى وجدت الآلهة المقيمة فيها أعماله راجحة الكفة وفقاً للميزان . وقد برأه المعبود نحت أمام محكمة جميع الآلهة والآلهات. (١٩)

هذه الأفعال تدعو إلى تقوية العزائم . . ومع كل فإن أحد الملوك

وكان قد بلغ من الكبر عتيا وعلى علم تام بطباع الناس قد حذر ابنه من القضاة حين قال له : « إنك تعلم انهم غير رحماء عندما يحاكمون الفقير ... » وحرر منجب Ногонмнхев المحارب الحنك الذى تولى الحكم بالنيابة فى الفترة بين اعتلاء ذرية أخناتون ورمسيس الأول للحكم كان بصيرا بحقيقة أخلاق رجال عصره فقد كان يعلم أنه خلال سنى الاضطرابات التى تلت الثورة الديفية ، أن الكتاب ومحصى الضرائب وكل من حاز سلطة ولو ضئيلة كانوا يهفطون على صغار الممولين بصورة شنيعة ، عاملين على سرقة فرعون والشعب فى آن واحد . وعندما بلغاؤن إلى العدالة كان أولئك الذين ينبغى لهم حماية الممول ، يتسللون النقود (الرشوة) لتبرئة الجاني ويحكمون على البريء الفقير الذى لا يستطيع شراء ذمتهم . ولذلك فإن حرر منجب ، الذى كان يتنزه الفرصة ليسحق الظلم ويقضى على الفساد قد سمن مرسوما ضد المفسدين .. فكل قاض يثبت عليه بأنه أساء استعمال سلطاته كان يحكم عليه بجمع أفقه ويتنقى فى شبه معتقل يقع فى سيللا فى برزخ السويس . (٣٠)

وتناول مرسوم من ماتدع Menmatre * الذى طبع منذ سنوات قليلة تحذيرات وجهت بلمحة شديدة إلى الوزراء وكبار الموظفين والقضاة وحاكم كوش وإلى قواد حملة السهام وإلى حراس الذهب ، وإلى الأمراء ورؤساء القبائل فى الجنوب وفى الشمال وإلى الفرسان ورؤساء الاسطبلات وحملة المظلات وإلى جميع رجال حرس القصر الملكى وجميع المبعوثين . وكان المقصود من هذا كله حماية معبد ملايين السنين الذى كان الملك قد شيده فى أيديوس وخصص له فى سخاء الأملاك والخدم والمواشى لمنع هؤلاء الموظفين من سوء استغلالها . وكان الملك على حق إذ كان يخشى أن يجبر على السخرة الرعاة وحيادى الأسماك والمزارعون والصناع أو أن تستغل المستنقعات فى صيد الأسماك أو الأراضى المخصصة لصيد الحيوان أو أن

تصادر السفن وبصفة خاصة تسفن اقادمة من بلاد النوبة المحملة بمحاصيل المناطق الجنوبية. يقرر أن كل موظف يضع يده على ممتلكات المعبد يعاقب بضربة مائة ضربة بالمرأوة على الأذن وأذن يرد ماسرة وعليه أن يدفع ما يعادل قيمته مائة مرة على سبيل التعويض . وقد تصل العقوبة في بعض الحالات إلى مائة ضربة وخمسة كسور في عظامه ، وقد تصل في بعض الحالات القصوى إلى جدد الأنف وقطع الأذنين وحجز الجاني ويصبح عاملا زراعيا بين خدم المعبد . (٢١)

وعما يثير الدهشة أن نرى الملك يعامل موظفيه الإداريين بمثل هذه القسوة لصالح طبقة من ذوى الامتيازات كانت تكون دولة داخل الدولة . ومع ذلك فالحقيقة أن نفوس الموظفين لم تكن تنطوى دائما على الاحترام المطلق للامتيازات التي يتمتع بها رجال الدين . (٢٢)

على أننا ، مع ذلك ، نتساءل عما إذا كانت هذه العقوبات الصارمة تطبق بنفس العدالة إذا ما وقع ظلم على عامل أجبر أو مزارع ... إن قصة فلاح واحة المنح ، بالرغم مما يعتورها من نقص كبير ، تبرهن ، على الأقل ، أن الملك كان يرغب رغبة صادقة في أن تسود العدالة حكمه .

٢ - المحافظة على النظام

وقعت في زمن الملوك الأخيرين من عهد الرعامسة أحداث في طيبة لا يمكن تصديقها ، كما وقعت دوز ريب في سائر أنحاء القطر المصرى . إن السرفات وإساءة استعمال السلطة والجرائم كانت منتشرة في كافة العصور حتى في عهد أقوى الملوك . ولكن لم يسبق لنا مشاهدة عصابات منظمة تهب المعابد والمقابر التي كانت تحوى ثروات ضخمة ولم يكن لها من

حارس سوى سماحة الأهل . فتذ عهد الدولة القديمة كان من عادة المصريين أن ينحتوا أو ينقشوا في أمكنة مختارة وبمحروف كبيرة الحجم انذارات تخطر من يسيء التصرف في المعبد كأن يتلف أو يسرق التماثيل أو الرسوم الملونة أو المنقوشة أو النصوص المكتوبة أو أى شيء من الآثار الجنائزى بأن عمله السيء لن يظل دون عقاب : « كل من قام بأى عمل ضد ما هو موجود بهذا المكان فليهاجمه التماسح في الماء والنهبان في الأرض ولن تعمل له أبدا احتفالات جنازية والإله هو الذى سيتولى ادايته » . (٢٢) وبعد ذلك بزمن كبير أمر أحد حكام أسيرت بنحت انذار يتمشى مع عقلية الجبل الذى عاش فيه يحوى تهديدات كثيرة لما كان يشعر به من خوف من عدم احترام مقبرته ، إذ كان هو نفسه قد نهب مقبرة قديمة ، فقال : « كل الرجال وكل الكتبة وكل العلماء وكل أفراد الطبقة الوسطى وأفراد الطبقة العامة الذين يشيرون ضوضاء داخل هذه المقبرة أو يتلفون الكتابات المنقوشة عليها أو يحطمون تماثيلها سوف يتعرضون لغضب نحت ، أسرع الآلهة انتقاما . وتسلط عليهم سكين جلادى الملك المستقرين فى القصور الكبرى . ولن تقبل آلهتهم قرايئهم من الخبز » . وبعبارة ذلك « فإن البركات العميمة سوف تمنح للزائر المحتشم الذى يقدس هذا المكان وسوف يعمر طويلا فى بلده ويكون موضع الاحترام فى مقاطعته » . (٢٣)

ولم يفقد المصريون الثقة فى صحة هذه التعليقات المنطوية على التهديد فى عهد الأمبراطورية الحديثة ، فالملك « من مات رع » عندما وجد ما « فى الصحراء بجوار مناجم الذهب شيد معبدا صغيرا ووجهه لآمون رع وللمعبودات أخرى لا لبشكرها فحسب ولمكن اى نحت تحت حمايتها أولئك

الذين يذهبون لفصل الذهب ليسلموه بعد ذلك إلى الخزائن الملكية . لأن الآلهة آمون وحرأختي وتاتن سيمنحون ملوك المستقبل الذين يحترمون وينفذون رغباته من مآت رع ، بأن يحكوا البلاد بنفس مطمئنة وأن ينتصروا على الأقطار الأجنبية وعلى أرض القوس أما الملك الذى (لا ينفذ هذه الرغبات) فإنه سوف يحاسب عن ذلك في مدينة أون أمام محكمة لا ندرى ماذا تكون . والامير الذى ينصح سيده بأن يسحب عمال المناجم من عملهم ليشغلهم في عمل آخر ، فإن النار سوف تحرق جسده وتحطم الساطمة أعضائه . وأخيراً فكل رجل يهمل أذانه حتى لا يسمع هذا الأمر سيطارده أوزيريس وتطاردايزيس زوجته ويطارد هورس أولاده ، مع أمراء تاجوسر الذين يؤدون مهمتهم ،^(٢٥) وضع حريحور Heri-hor كبير كهنة آمون تمثاله في المعبد ليستقر بجوار المعبود ولكي يجيبه عندما يخرج في الموكب . والويل لمن ينقله من مكانه ولو مضت سنوات عديدة . إنه يصبح هدفاً لغضب آمون وموت وخسوس . ويمحى اسمه من جميع أسماء القطار المصرى وسيموت جوعاً وعطشاً ،^(٢٦) وأصدر امحتب الثالث مرسوماً لتنظيم مقر كا « الروح » وصفيه امحتب ابن حابو Harpu . ووضع هذا المبنى تحت رعاية آمون رع سونتير طالما بقي المبنى على الأرض . والذين ينالونه بأى تلف فإنهم يتعرضون لغضب آمون : « أنه سيسلمهم لنيران الملك في يوم غضبه ويقذف الثعبان الاله على جباههم ، ويفتك بلحمهم ويلتهم أجسادهم ، ويسبحون مثل أبوبي Apopi في صبيحة يوم رأس السنة ولن يستطيعوا ازدراد قرايين الموتى ولن يصب عليهم ماء النهر . ولن يخلقهم ابناؤهم في مراكزهم . ويهتك عرض نسائم أمام أعينهم . . . ويكونون هدفاً لسكين يوم المذابح . وتبلى أجسادهم إذ يقاسون الجوع ولن ينالوا طعاماً . »^(٢٧) كل شيء مرتبط بالآخر في أى بلد فخافة الآلهة والرعب من العقاب

في الآخرة كانوا كافيين لصيانة المعابد والمقابر طالما كان رجال الأمن أمناء
يقظين ، يقومون بأداء الحراسة في غرب حليبه . إلى أن جاء يوم أنسى فيه
الشرطة أداء واجبهم ، فقدت التحذيرات المرعبة المنقوشة على جدران
المقابر كل قيدها وأول أعمال السلب والنهب حدثت على ما نعلم في السنة الرابعة
عشرة من حكم رمسيس التاسع ولا شك أنه لم يكن العمال الأول ، فنذ سنوات
طويلة كانت تنهب المقابر ، دون أن يعلم شيئا عنها الأمير خر Kher وهو سيد
الجبانة والذي يرأس رجال الشرطة الميجاوو وفرقة الحراس العديدين
ولم يبد أحدهم أدنى اهتمام لوضع حد لهذا الأجراء الآثم : والذي قام بإبلاغ
هذه الفضيحة في تقريره إلى الوزير وإلى لجنة كبار الموظفين هو باسر
Paser حاكم المدينة ، بالرغم من أن هذا الأمر لم يكن يخصه وكان
هذا التقرير جد خطير ، ومثيرا للذعر . فاضطر الأمير خر باور رع
Paourâ - إذ كان هو الذي يمس به الاتهام مباشرة إلى إجرائه تحقيق بوساطة
أعوانه من رجال البوليس . فاختيرت مجموعة من المقابر لجردها في المنطقة
الشمالية من الجبانة وبدى العمل بمقبرة الملك أمنحتب الأول الذي كانت
ذكراه عزيزة على أهالي البر الغربي (الشاطئ الأيسر لنهر النيل) وكان
الأمير باسر يؤكد في تقريره بأز هذه المقبرة قد نُهبت ولكنه كان قد
أخطأ إذ أن مقبرة الملك الصالح (أمنحتب الأول) كانت سليمة لم تمس بسوء
كما كانت مقبرة أخرى مجاورة لمعبد أمنحتب ذاته سليمة أيضا إذ كانت هذه
المقبرة معروفة جيدا لدى الجميع لأنها كانت تحوى تمثالا يمثل الملك أتنف
Antef وبين قدميه كلبه باحكا Bakhka . وقد حاول الهووس محاولة محسكة
لسلب مقبرتين أخريين ولكنهم لم يتمكنوا من الوصول إلى غرفة الدفن وبمعكس
ذلك كانوا قد نجحوا تماما في السطو على مقبرة الملك سخمارع شدتاوى
Sekhemare Chedtaoui ابن الشمس سبك أم ساف Sekhemsaef ، فوجدت

القاعة التي كان يرقد فيها هذا الملك مع زوجته المسكوتوب عاش Noubkhas خالصة من كل ما كانت تحتوى عليه . ووجدت خمس مقابر ملكية أخرى سليمة ولكن نهب مقبرتان من تلك المقابر الأربع التي كانت مخصصة لمنشدي بيت عبادة آمون رع سونثير أما الجبانة المجاورة التي كان يرقد فيها المغنون وأهل البلد وأجدادهم فقد كانت في حالة يرثى لها .

فقد سطا اللصوص على جميع القبور التي بها ونهبوها وكان المجرمون قد اقتزعوا الموميات من توابيتها الخشبية أو الحجرية وتركوها ملقاة على الأرض ، بعد أن نزعوا منها الذهب والفضة وسرقوا جميع الأثاث الجنائزية . وعندما ألقى القبض على بعض هؤلاء اللصوص وتم استجوابهم ، أرسل الأمير « باوورع » Psourâ المحضر الذي سجلت فيه أقوالهم إلى اللجنة التي كلفت بالتحقيق معهم .

وهذه الشخصيات الهامة ما كان يحق لها إطلاقاً أن تفخر بما فعلت ، وما كان ينبغي لها إلا أن تفكر في شيء واحد هو إلقاء القبض على المجرمين وطرد كل أولئك الذين تسبوا في إقتراف تلك الجريمة الشنيعة وإنزال عقوبة شديدة بهم لإهمالهم أو لتفاهتهم مع المجرمين ولعنهم ، بدلاً من أن يتخذوا هذا الإجراء منذ بداية الأمر ، أخذوا يصبون جام غضبهم على « پاسر » حاكم المدينة الذي اضطرهم اضطراباً إلى التخلي عن جودهم ، وأخذ يهدم أيضاً بأن يرفع تقريراً لفرعون نفسه حتى يأمر بالقبض عليهم جميعاً . . . والتخلص من هذا الشخص الذي سبب لهم الضيق والحرج كففوا شخصاً يدعى پاخارو وصناعته عامل في المعادن ليقابل پاسر ويروي له كذبا بأنه اشترك مع عصابة في سلب المساكن الكبرى (المقابر) .

(م ٢٣ - الحياة في مصر)

وطبىعى أن الأمير خر الذى كان يعلم حقيقة الأمر والذى أعد عدته لهذا التلغيف أجرى تحقيقاً أثبت فيه عدم صحة التهمة ثم اجتمعت لجنة التحقيق برئاسة الوزير واستدعت العامل المذكور وشركاه المزعومين كما استدعت الشاكى والمتهمين الذين أشار إليهم . ولخص الوزير الموضوع وذكر نتيجة التحقيق قائلاً : « لقد عابنا الأماكن ، التى زعم حاكم المدينة بأن عمال قصر «أوزير مارع ميامون» Ousirsra Miamoum قد وصلوا إليها أو دخلوا فيها ، فوجدناها سليمة . وقد تبين لنا أن كل ما قلناه كان غير صحيح ، استجوبنا العمال وواجهناهم بأسر وأوضح لنا فعلاً أن هؤلاء العمال لم يكونوا يعملون مكان أية مقبرة من المقابر فى ميدان فرعون التى أشير إليها فى تقرير الاتهام الذى قدمه حاكم المدينة . . . ولذلك افتنع بأسر بأنه قد اقترف كذباً . أما العمال الذين كانوا ينتمون جميعاً إلى آدون رع سونير كبير الكهنة ، وهو الذى يستحق أن نحوم حوله كل الشبهات ، فقد أخلى سبيلهم وأعيدوا إلى أعمالهم . (٢٨٠) وبالرغم من الرغبة الملحة من جانب رجال الشرطة فى أن يفضوا الطرف عن أعمال الهوص ، إلا أنهم لم يجدوا مناصاً من إلقاء القبض على بعض هؤلاء الذين سرقوا مقبرة الملك سوبك إم ساف Sobekemsaf وقد أمكننا أن نعرف كيف كان الهوص يسرقون المقابر وذلك بفضل أوراق التفتيش التى وصالت إلى أيدينا . : لقد اشترك بناء يدعى أمن بانوفر Ampanofar وكان تابعاً للكهنة الكبير آدون رع سونير امحتب ، مع سبعة عمال آخرين يعملون فى البناء أو التجارة . وانضم إليهم مزارع آخر ونوف كان لاغنى عنه لأنه هو الذى كان ينجز نهر النيل فحافاً وإياباً حاملاً المسروقات دون أن يلفت أنظار الفضوليين . وكان هؤلاء الهوص

يعملون قبل ذلك بأربع سنوات، عندما اعتزموا السطو على هرم سبك إمساف
ولكنه لم يكن يشبه في شيء الأهرام أو مقابر النبلاء التي اعتدنا سلبها،
فحملوا معداتهم النحاسية وقاموا بحفر عمق كتلة الهرم ولم يكن هذا العمل
يتم في يوم واحد ولكنهم انتهوا أخيراً من الوصول إلى القاعات السفلى
وأضاموا مشاعلمهم وأزالوا آخر العوائق فوجدوا أنفسهم أمام ضريحى الملك
والمملكة . ولكنهم لم يأتوا إلى هذا المكان ليقوموا ببحوث أثرية ورفعوا
درب تردد غطائى الضريحين ووجدوا بداخلهما تابوتين من الخشب المذهب
لم يترددوا فى فتحهما . وكانت مومياء الملك النبيلة ممددة داخل تابوتها وبجانباها
سيف ربما كان من خرفا وعليه نقوش تمثل أغصان شجرة النخيل ومناظر
الصيد على طراز ما كان على سيف الملكة اح حتب Ah-hotep وكان
يغطى الوجه قناع من الذهب ، وفلاتد وتمائم تدلّت من العنق وكانت المومياء
مكسوة كلها بالذهب . فجمع أفراد العصاية كل الذهب والفضة والبرونز وكافة
الحلى وأشعلوا النيران فى التوابيت . كان وزن هذا الذهب ١٦٠ دين (أى
ما يعادل ١٤ كيلوجراما) وقسموه ثمانية أقسام متساوية وعبروا النيل عائدين .
وسواء كانوا قد أثرروا حول هذه الحلة أم أنهم لم يستعابوا الخفاء أمر حاتمهم
على جميع الناس . فقد أتى القبط على آتون يانوفر Amenpanofor بعرفة
حراس المدينة الذين حبسوه فى مكتب الحاكم بامر - فقام هذا الأمر بجمع
العشرين دين من الذهب التى كانت لديه وسلمها إلى كاتب الجمار ، فأتى
هذا بدوره سراحه على الفور دون عاكمة وعاد الأمر إلى زملائه الذين قاموا
فى أمانة تامة بعمل تقسيم جديد ، فأصبح نصيب كل منهم وأسفاه ١٧,٥ دين
وقد كان عليهم أن يعرضوا هذا النهص فقامت العصاية بانجاز أعمال جديدة

حتى حل اليوم الذى اعترم فيه رجال السلطة إلقاء القبض عليهم . . وقد أضاف اللص قائلا : « ولكن هناك عددا كبيرا من الأهالى قد قاموا أيضا بسلب هذه المقابر وهم مدانون مثلنا تماما . فحجز اللصوص بعض الوقت . وقد استدرجهم الخفة ونحى اعترفوا فدوهم إلى الهرم الذى نهبوه ليحتلوا طريقة ارتكاب الجريمة . وقد قرروا تسليم اللصوص الثمانية إلى كبير كهنة آمون ولكن حدث أثناء نقلهم أن اختفى خمسة ولم يبق إلا ثلاثة من الثمانية أضيف إليهم شخص كان ينتمى إلى عصابة أخرى مكونة من سبعة عشر لصا ، أما الباقون فكانوا قد هربوا ، وقد ألقي القبض على العشرة على اللصوص على كاهل رئيس الكهنة .

وبعد ثلاثة شهور من هذه الحوادث ألقي القبض على البناء آمون بانوفر وكان قد حكم على أمه بالنفى فى بلاد النوبة اقتيد أمام إحدى المحاكم . وبعد أن ضرب ضربا مبرحا ، كما ينبغي له أن يضرب ، أفضى باعتراقات جديدة : لقد نهب مع زملائه مقبرة الكاهن الثالث لآمون . وكان عدد اللصوص يبلغ خمسة رجال . حملوا التابوت الخشبى المذهب خارج المقبرة ، تاركين الموهب فى ركن من القبر ثم ذهبوا جميعا إلى جزيرة آمون إم أوبت ووضعوا الذهب جانبا ثم قسموه بينهم وأحرقوا التابوت . واستألف آمون بانوفر أعماله الإجرامية ثم قبض عليه وأُخلى سبيله ، ثم استألف أعماله إلى أن قبض عليه أخيرا واقتيد للمحاكمة . (٢٨)

وفى بادىء الأمر كان اللصوص الذين يسلبون مقابر الملوك والأفراد يتكفون من عمال المحاجر والبنائين والعمال الذين يشتغلون فى الجبابة وسرطان ما ازدادت العصابة حين انضم إليها صغار الموظفين المكلفين بخدمة

المعابد في المنطقة الغربية وعمال الجبابة وبعض رجال الدين . ورجال إحدى هذه العصابات التي كانت تضم أحد الكهنة ويدعى بن أون حب Pen-oun - Heb وأربعة من كهنة الآلهة وهم مري Mery الطاعن في السن وابنه ماي سم Paisem سمدي Sandy وباخاروا كانوا قد اشتركوا في سرقة قلادة تمثال نفرنوم Nefertoum الخاص بالملك أوزير مارع سبق إن رع كبير الآلهة . ولما انصهرت الحلية كانت تزن ٤ دبن debon و ٦ قيط qite من الذهب . وكان مري الشيخ بوصفه عميدم في السن هو الذي تولى دون شك أمر القسمة . (٣٠)

وكانت هناك عصابة أخرى اشترك فيها رجال الدين والكهنة وبعض الكتبة وعمال الحظائر ، وكانت تقوم بالسطر على بيت الذهب الخاص بالملك أوزير مارع سبق إن رع . ولا نعرف بالتحديد ماذا كان يقصد بمباراة بيت الذهب ولا أين كان يوجد هذا البيت . وكان باب الخارجى من جرانيت أبو (جرانيت الفتتين) ذا متاريس من النحاس . وكانت الأبواب الداخلية الرئيسية مكسوة جميعها بالذهب . ويبدو أن هذا المبنى العظيم لم يكن به عدد كاف من الحراس . وكان الكاهن كاوكاروى Kaonkaroi وأربعة من زملائه قد ذهبوا إليه أكثر من مرة وعادوا منه حاملين في كل مرة كمية من الذهب يستبدلون بها في المدينة بالقمح . وتشاجر أحد الرعاة ذات مرة معهم قائلاً لهم : لماذا أصبحت لا تعطوننى شيئاً ؟ ، فأنجهموا على الفور إلى رصيدهم الذى لا ينفد وعادوا معهم ٥ قيط من الذهب فاشترى نوراً بجمعة وأربعين جراماً من الذهب وأهدوه إلى الراعى .. ولكن الكاتب المكاف بمسك الدفاتر الملكية بالمسكينة ويدعى موسى Setouï mosé كان قد سمع حديث الكهنة والراعى عندما كانوا يتشاجرون فانتز هذه الفرصة وقال لهم : سأقوم بتقديم تقرير لكثير كهنة آمون ، وعلى هذا أسرع الكهنة في القيام بمحلتين وأتوا

بأربعة قيط ونصف قيط من الذهب ليشتروا بها سكوت أمين المكتبة .
 وكان توتوى Toutouy ، وهو أحد الكهنة الذين كانوا يترددون على
 بيت الذهب ، قد أراد أن يوسع نطاق أعماله . ذهب مسرعاً بصحبه نسي أمون
 Nesiamon إلى أبواب السماء وأشعلا النار فيها بعد أن سلب ما فيها من
 ذهب (٢١) واختفت كذلك كمية كبرى من الأثاث القيم بنفس هذه الطريقة
 وذات يوم خطف اللصوص الصندوق المتنقل الخاص بكبير كهنة أمون
 رمسيس ناخت وكان قد توفي منذ زمن قريب . وفي يوم آخر كانت
 عصاية أخرى تهب الصندوق المتنقل الخاص بكبير الآلهة أوزير مارع
 سلب إن رع كما استولوا على أربعين بيتاً خاصة بالملك منعمات رع
 سيني Menmatré Setoui كانت مودعة داخل خزانة قصر أوزير
 مارع Ousimarré (٢٢)

والتقارير ومحاضر التحقيق الخاصة بتلك العمليات للنهب تكون مجموعة
 ضخمة نوعاً من المستندات ولكنها لم تذكر إلا حوادث ضئيلة في ذاتها
 إذ أنها لا تشير إلا إلى سلب مقبرة ملكية واحدة . مع أن جميع المقابر
 تقريباً في وادي الملوك ووادي الملكات قد سرقت ونهبت قبل بدء عهد الأسرة
 الحادية والعشرين أى في فترة لا تتجاوز ثلاثين عاماً . ولإنقاذ مومياءات
 الفرعون لم يجد الوزراء وكبار كهنة آمون مناصاً من نقلها من توابيتها ووضعها
 في توابيت خشبية متواضعة ، بعد أن جردوها من حلها وأقنعتها الذهبية ثم
 ووريث في مخاليه .

أما مقبرة توت عنخ آمون فقد كانت المقبرة الوحيدة هي ومقبرة
 الملكة أح حتب التي لم يسط عليها اللصوص ، مع أنها كانت تقع في تلك
 المنطقة التي كانت مسرحاً لعمليات السرقة منذ بدأ اللصوص يسطون على

المقابر . ويظهر لى أنه ليس من المرجح تماماً أن تكون مقابر أسرات الملوك أمحتب وتحتمس وسينى والرعامسة قد سلبت بواسطة بعض العمال حتى ولو نظموا فيما بينهم عصابات لأن رجال الشرطة كان من اليسير عليهم أن يتعرضوا لهم فى الأوقات العادية . فى عهد الملائكين الأخيرين للرعامسة كانت مصر مسرحاً للحروب مدنية فظيعة نشبت بين رجال الدين وأنصار آمون وبين رجال الدين ومناصرى ست المنتشرين فى كافة أنحاء القطر وكان يزداد عددهم ونشاطهم بصفة خاصة بجوار قفط والهنسا وتل مدام وبى رمسيس ، فزقتها تلك الحروب شرمزق

ويجئ إلى أنه أثناء هذه الحروب قد نهبت المقابر الكبرى جميعها إما بواسطة أنصار آمون وإما بواسطة أنصار ست أو بكل من أولئك وهؤلاء على التوالى وكان عند كل منهما أنه لا يريد أن يترك لخصمه مثل تلك الكميات الكبيرة من المعدن الثمين . وأسوة بما كان يفعله كبار الرؤساء أخذت طبقة صغار الأهالى تواصل أخذ المال حيثما وجد ، ولكن فى حدود ضيقة ، لا سيما وأن المعيشة كانت قد وصلت إلى حد مريع من الغلاء نتيجة الفوضى التى كانت تسود البلاد . فالسلاح قد أصبحت نادرة ولا يمكن أن يحصل عليها إلا مقابل كمية كبيرة من الذهب الزئاف أو من الفضة الخالصة ..

كان ثمن الجاموسة الواحدة يقدر بما يزن ٤٥ جراماً من الذهب ، وقد اعترف بعض شركاء لص مشهور يدعى بوكاف Boukâf بأنهم استطاعوا أن يقتنوا أراضى زراعية أو حبوباً أو أقمشة أو عبيداً نظير نصيبهم من المسمروقات ، ولما كان القانون يحتم على من يشتري عبداً أن يسجل شرائه فى مكتب رسمى خاص ، فقد كان من العسير على الأهالى أن

بخفوا شراء العبيد . لذلك عندما بلغ الفاضل أن أناسا كثيرين من الطبقة البسيطة قد اقتنوا عبيداً أخذ يستجوهم عن مصدر أموالهم ومن أسئلة كاتب محكمة وجهت لامرأة من طيبة ندعى أرى نوفر Ary nofer : ماذا تقولين في المال الذي أحضره زوجك بانيسى Panehsy - ؟ فردت : « لم أره ، وكان الوزير يلع سائلا . » وبأى كيفية اقتنيت الخدم الذين كانوا معي ؟ فردت قائلة : « لم أر المال الذي دفعه ثمننا لهم إذ كان في سفر عندما وجدتهم » ، فألقى القضاة سؤالاً آخر : « من أين كان لبانيسى Panehsy المال الذي استغله له سوبك إم ساف ؟ » فردت قائلة : « إني حصلت على هذا المبلغ ثمناً للشعير الذي بعته في سنة الضباغ ، زمن الجماعة ١ ، (٣١) . »

لم تكن هيئة المحكمة في حاجة لأن تسأل المهمة عن تفسير ما كانت تقصده بعبارة « سنة الضباغ » ، فقد كانت هذه العبارة شائعة الاستعمال لدى العامة ولكننا نجد أنفسنا في حيرة حين نريد تفسير معنى هذه العبارة تفسيراً دقيقاً ذلك أن : بعض علماء الآثار المصرية قد اعتقدوا أن الضباغ كانت قد ظهرت في طيبة في تلك السنة ، كما يرى أهل بلادنا بعض الذئاب تطوف حول ضواحي المدن الكبرى في بعض الأحيان ، وقد ذهب بعض العلماء الآخرين إلى أن هذا التعبير مجرد استعمال مجازي . وربما كانت سنة الضباغ هذه ، هي التي انتصر فيها أعداء آمون واستولوا على مدينة طيبة ونهبوا تماماً كل ما كان في معابدها وجباناتها . لقد انحطت الأخلاق إلى حد كبير فقد صاح لص في وجه والد امرأة كانت تعمل في عصاية بورخاف قائلاً له : « أيها العجوز الأخرق ، الذي لا يصلح لشيء . » وإنك إذا قتلت وألقيت في نهر النيل فن ذاك الذي يسمى للبحث عنك ! ، (٣٢) .

كان رمسيس الثالث على صواب عندما كان يتضرع للآلهة في إلحاح

وبلغة مؤثرة أن نمنح ابنه عهدا سعيدا وأن يكون موقفاً في حكمه . لقد كان بشعر بقرب حلول الكارثة ، وتحقق شعوره بعد مرور ثلاثه أرباع قرن من وفاته تقريبا ، لقد ضعف شأن مصر بسبب هذه النكبة إذ قاست مدة ربع قرن أو ما يزيد عن ذلك ، فسادت فيها الفوضى وحدث مالم يحدث منذ عهد الهكسوس حين قام العمال والكهنة بسلب الآلهة والسطور على الموتى على السواء .

٥ - في الملحق :

بعد أن استتب النظام بدأ القمع ، وبما لا ريب فيه أنه منذ عهد رمسيس التاسع تكونت لجنة تحقيق برئاسة الوزير وهو أكبر شخصية في المملكة تلى فرعون ، فتجمعت لديها معلومات عن مدى الأضرار . ولكن يبدو لنا أنها كانت ترغب في منع الأهالي من تداول الحديث فيها أكثر مما كانت غيرة على معرفة الحقيقة . لقد كان يلتقى القبض على اللصوص ، ثم يشتري هؤلاء حريتهم مقابل القليل من الذهب ثم يستأنفون أعمالهم . . وينتهزون فرصة نقلهم من سجن حاكم المدينة إلى سجن كبير الكهنة ليفروا إلى الفضاء الشاسع في الحقول . ولكن بعد تكرار حوادث السلب التي حدثت في السنوات الأخيرة من عهد رمسيس التاسع ، تكونت لجنة تحقيق أخرى كان بين أعضائها الوزير وسعاة الملك وأمين الخزينة واثنان من حملة المظلات والكتابة وبعض المنادين . وقامت اللجنة هذه المرة بأداء عملها بصورة جديّة . وكثيرا ما كان الشاكون يلتمسون من تثال الملك المقدس استرداد ما سرق من متاعهم أو ليحصلوا على إبرادها بأكمله . غير أن الأمر كان على جانب كبير من الخطورة ، ولذلك ترك الملك المقدس مكانه . ولجأ القضاء إلى الوسائل التي ثبت من قبل أنها تؤدي إلى معرفة الحقيقة .

وفي بداية جلسة التحقيق التي خصصت لاستجواب كبار اللصوص الذين سرقوا المقابر ونهبوها ، قال الوزير للرأى بوخاف : « لقد كنت مع عصابتك في هذه الحملة وقد أمسك بك الإله وأتى بك إلى ووضعك تحت سلطان فرعون ، فاذكر لى أسماء كل من كانوا معك في المقابر ؟ » فلم يتردد المتهم في ذكر أسماء ستة من شركائه . ولكن المحكمة لم تستكشف بهذا إذ ضرب بوخاف بالمرأوة . فأقسم أنه سيقولكم . فأعيد استجوابه من جديد : « قل بأى وسيلة انتقلت إلى المقابر الكبيرة المقدسة ؟ » فرغم أن المقبرة التي دخلها كانت قد اقتحمت من قبل ، فلم تصدق المحكمة وأمرت بضربه من جديد حتى وضع هو حدا لذلك بأن صاح قائلاً : « أقسم بأى سأقولكم ! » وبهذه الوسيلة أمكن أن يتزعم منه ذكر أسماء ثلاثة عشر شخصاً ، ثم قال « أسقشهد بآمون وأسقشهد بالملك العظيم بأن إذا كنت قد أخفيت اسم واحد من شركائى فإنى أتحمّل الجزاء بدلا منه ! » (٢٥) ويبدأ بعد ذلك تتابع الشركاء في صورة ملة وسرعان ما يلحق بهؤلاء أشخاص آخرون ذكرت اسمائهم خلال التحقيق . ويقسم المتهمون بالآلا يكذبوا ولا استحقوا النفى إلى بلاد النوبة أو بترت بعض أعضائهم أو شددت أجسامهم إلى الأخشاب . لقد صادفتنا العبارة الأخيرة من قبل ، فكثيرون من كانوا قد تأمروا ضد رمسيس الثالث قد حكم عليهم بأن يشدوا إلى الخشب . وقد ظن بعض علماء الآثار المصرية أن معنى هذا أن يرفضوا على « خازوق » ولكن ليس هذا مؤكدا . إذ نرى بعض مناظر أفراد على خازوق على النقوش البارزة الآشورية ولم نرها إطلاقا على النقوش المصرية . ولست نرى أحيانا فردا شد إلى عمود خشبي ليضرب . (٢٦) لذلك فإنى أفترض أن المحكوم عليه ربما كان يشد إلى عمود إلى أن تواتيه منيته . وقد يجب المتهم أحيانا هلى سؤال القاضي : « ويل لى ! ويل لجسدى ! » ولكن

القاضى - دون أن يتأثر بذلك وربما كانت إجابة المتهم غير مرضية غالبا ،
فبأمر بضربه . وكان الضرب على عدة أنواع إذ ذكرت ثلاثة ألفاظ مختلفة
بادجانا Padjana ونادجانا Nadjana ومانيني Manini وذاق بعض المتهمين
الأنواع الثلاثة على التوالى ، ولكننا لا نستطيع أن نحدد بالدقة الفرق
بينها . كان الضرب بالعصا يتم على الظهر ولكن كان أيضا
على الأبدى وعلى الأقدام . فهذه المعاملة الحازمة كانت كثيرا ماتحل
عقدة اللسان ، ولكنها لم تنجح دائما . وكثيرا ما يسجل كاتب الجلسة بأنه
بالرغم من الضرب مرتين أو ثلاثا فإن المتهم لم يعترف . والأرجح أنه كان
يحجز تحت تصرف العدالة . وقد يحدث أن القاضى يرتبك إذا لم يحصل
على اعتراف أو على معلومات فيدعو المتهم البائس إلى أن يذكر اسم شاهد
نفي يستطيع أن يعاونه على تبرئته .

وكان من النادر أن يطلق سراح متهم . وعندما دخل ذات مرة نافخ
البوق المسمى آمون خاو Amonkhaou قاعة التحقيق سأله الوزير : « ما
هى الوسيلة التى استخدمتها مع حارق البخور مدمسو Chedaoukhonsou
حينما وصلت إلى المقبرة التى أخذت منها الفضة بعد سطو العصوص عليها ؟ »
فقال : « وبل لى اويل لجدى ! لقد كنت أقول لزميل بات جاو نافخ
البوق ، أثناء مشاجرتى معه : « سيقتلونك بسبب السرقات التى تقوم بها فى
الجباة . . . » فاستجوبوه مرة ثانية وهو يضرب على أقدامه وعلى يديه ،
فقال : « لم أر أحدا غير من ذكرت . » فأعادوا استجوابه مع ضربه
بطريقة النادجانا مرتين ثم بطريقة المانيني فقال : « لم أر شيئا . . . »
لقد ذكرت لكم مارأيتة . » وأعادوا استجوابه فى اليوم العاشر من الشهر
الرابع فى فصل الصيف فوجد أنه يرى من السرقات ، وأطلقوا سراحه .

وكان هذا البائس قد استحق الحرية حقا. (٢٧) وبفضل كل هذه المستندات نتاح لنا مشاهدة عدد كبير من التحقيقات. أما الأحكام التي صدرت فإنها لم تصلنا ولا نعلم ما كان قد حكم به من عقوبات. فهو لاء المساكين إما أنهم قد لقوا حتفهم أثناء تعذيبهم وإما أنهم قضوا حياتهم البائسة في المناجم والمحاجر.

٦ — استقبال رهبا المول المؤمنين

رأينا فيما سبق أن رجال الحكومة كان يسند إليهم بصفة خاصة استثمار الأراضي الملكية ومقاومة أعمال عصابات الصرصر والحكم بالعدل بين الناس وتجميع الضرائب ، وفي زمن المجاعة كان عليهم أن يمدوا الشعب بالمواد الغذائية . كانت تلك هي المهام العادية التي تسند إليهم . على أن هناك بعض الأحيان مهمات أكثر تكريرا كان يختص بها بعض المقرين .

ويبدو أن مهمة استقبال مندوبي البلاد الأجنبية عند قدومهم إلى مصر ، ومصاحبهم حتى مثلهم بين يدي فرعون كانت على ما يظهر أشدها متعة وكان هؤلاء الرسل الأجانب يأتون إما ليدفعوا تعويضا حريا أو ليلتمسوا من الملك أن يكون راضيا عن بلادهم أو ليرفعوا إلى أسماع الهيئات العليا أن في بلادهم الثابتة إحدى الأميرات قد انتابها مرض لم تستطع أن تشفى منه ، وأن الوسيلة الوحيدة لاسترداد صحتها هي الالتجاء إلى علم أحد كبار الأطباء المصريين أو زيارة الألهة الرحماء لها .

وكان في إمكان مندوبي الرتو ونهارينا الاثنين من أقصى حدود آسيا أن يستخدموا حسب رغبتهم الطريق البري ، وفي هذه الحال كان يقوم باستقبالهم حراس الحدود عند طريق هورس ، كما كان في

إمكانهم أن يأتوا بطريق البحر . وكانت سفنهم تشبه السفن المصرية ولا يمكن أن يشير هذا دهمشنا إذ أن المصريين كانوا فيها يختص ببناء السفن تلاميذ أبناء جبيل .

وعندما كان الرؤساء السوريون يصلون إلى الميناء ، كانوا يجرئون البخور ويمبرون في تهليل وتكبير عن سرورهم لأنهم قد أنعموا رحلتهم الطويلة في سلام . وفور وصولهم يفرغون بضائهم في حين يفتح المصريون على الأرصفة ، المطاعم والمشارب وبعد ذلك يتصلون بموظف مصري يصحبهم إلى مقر الوزير . وكان موكبهم من أمتع المراكب . ومن المحتمل جدا أن الجماهير كانت تحتشد لمشاهدتهم أثناء مرورهم . وكان الفنانون الذين كان عليهم أن يرسموا هذا الموكب ذات يوم على مقبرة الوزير ، يطيئون النظر إليهم في انقياء شديد . وكان الرجال يرتدون أزرا مطرزة بخيوط صوفية متنوعة الألوان ومحلة بطرر ، وكان بعضهم يرتدون جلابيب طويلة ذات أكمام ، تقفل من الأمام بواسطة رباط ومشابك متناسكة وأحيانا يكونون متشعبين بوشائع كبيرة من الصوف . وقد يحمل البعض منهم دلايات تعلق في أعناقهم . وكانت النساء تزين بشباب ذات هذب وكان التماس يقودون الخيول والديبة ومغار القبيلة التي لا يزيد حجمها عن حجم العجل إلا قليلا . وكانوا يحملون على أكتافهم جرارا ، تحتوي على سمغ الترنبتين والقطران والعسل والزيت وسلالا مليئة بالذهب أو بأحجار اللازورد . وكان المصريون يفضلون المنتجات الصناعية والعبات والأسلحة وأدوات الزينة والأواني المعدنية . وكان السوريون قد بلغوا في هذه الصناعة مهارة فائقة تبلغ حد الإعجاز . ولم يعودوا يكتبون كما كان الأمر في بداية عهد الأسرة الثامنة عشرة بصناعة جرار ذات مقابض على هيئة الزهور

أو بالسكتوس ذات الإفريز أو العاسوت التي تحتوى على باقات من النباتات الصناعية ، فقد أصبحوا ينتجون كؤوسا ذات أرجل كسيت برسوم منقوشة أو مطعمة أو محلاة بالنباتات أو برؤوس آدمية أو حيوانية مجمعة حول قاعدة السكاس أو حول منتصفها أو على الغطاء . وكان لبعض هذه الأواني ثلاثة انبعاجات وثلاث رقاب وكانت أغلظها على هيئة رأس بس أو رأس العقاب . وأفداح تكون قاعدة يبرز منها مبنى مكون من عدة طوابق أو يسند على القاعدة شكل أبو الهول رأسه رأس امرأة .

وأحيانا كانت الأفداح على عكس ذلك مستقرة فوق رجلين أداركل منها ظهره للآخر . . . ولندكر أيضا أشكال الرؤوس ، مثل رأس بس ، أو رأس امرأة ، وقد جعلت لها مقابض من عاج طبيعي أو صناعي ومحلاة أيضا بزخارف كثيرة .

لم تكن لمثل هذه الأشياء أى فائدة عملية فهى مجرد حلية ومع ذلك فقد كانت تال رضى المصريين لأنهم كانوا يبادرون بإرسالها إلى معانهم ليقبل منها ما كان سهلا يسيرا . ويمكن تقدير مدى اهتمام المصريين لهذه المنتجات الأجنبية إذا لاحظنا الرسوم التى تمثلها بعناية كبيرة على المقابر مثل مقبرة أمى سبا (Amierba) . (٢٨)

ولم تكن مواكب أهل الجنوب أقل روعة من مواكب الآسيويين . فقد كانوا يسرون راقصين على دقات الدفوف والقلائد تحلى أعناقهم ، وذبول الفهود معلقة على أذرعتهم وقد حلقت رؤوسهم ماعدا ثلاثة خصلات غزيرة من الشعر وترتدى نسائهم أزرا وثيابا ذات كرايش ويحملن أطفالهن داخل سلال خلف ظهورهن ، وقد حمل عديم إلى أربعة أطفال ويحضرون معهم دروعا من الجلد ، وعاجا وريش نعام ويصنعون جلود الفود الرقطاء وجرارا وأمتعة . ويمجرون بحبال قرودا وفهودا

وزرافات طويلة العنق. ولا يمكن أن نقارن إحدى هذه المراكب بالموكب الذى قدمه هوى Houy حاكم كوش إلى توت عنخ آمون (٢٩) فكان ولى العهد يستقبل زملاءه المصريين وهو لا يزال يضع حول عنقه القلائد الذهبية التى كان قد أهداه إياها الملك ، وهم بدورهم يحبون راكبين ويلبسون قدميه أو رداءه . وقد اختار أغلب النوبيين ملابس المصريين ليرتدوها مع احتفاظهم ببعض زينتهم القومية . وشعرهم الطويل قد صفف على هيئة تشبه القلسوة يشدها تاج مثبت فيه ريشة نعام . وتندلى من آذانهم حلقات كبيرة الحجم . وحول الرقبة قلادة من الخرز . وتلمع أساور ضخمة حول معاصمهم . ويحمل بعضهم جلد الفهد فوق ظهورهم تعلوه مجموعة تحتوى على حزام وحالة وستر أمامى رسمت فوقه شمس ذات أشعة مضيئة ويرتدى الأمراء فى رشاقة ثيابا شفافة ذات ثنيات والطوق الذى يستعمله المصريون ، ويستعملون صنادل . وكان أولادهم مثل أبناء المصريين يتركون على خدشهم الأيمن خصلة طويلة من الشعر المصفر وذبول الفهود معلقة على أذرعهم . أما حاملو القرابين فلم تكن بأذانهم إلا حلقات بسيطة تكون من أقراص من الذهب ودلايات .

ويشمل هذا المشهد محاررين يركبون على الأرض ملتصقين بسعة الحياة ، وحملة القرابين يقدمون أكياسا مليئة بانهطور وحلقات ذهبية فوق صوان ، كما يقدمون جلود الفهود والزراف والنيراز ذات القرون الضخمة التى تشكل أطرافها رسم اليد .

ويتقدم جماعة من الأمراء ، ملك الإنايم (كوش) الذى يستقل عربة تكاد تحمى عربة المصريين والاسبويين ، إلا أن ما يبرزها هى أنها ذات مظلة ضخمة

تتكون من ريش النعام . ويجرها ثوران لافرون لها . ويتبع هذه العربة بعض الأسرى وقد قيدت أيديهم ووضعت أطواق حول أعناقهم . وينتهي الموكب بجماعة من الزنجيات يحملن فوق ظهورهن أطفالهن الصغار في سلال ويسجن أولادهن الأكبر سنا وقد حلقوا شعر رؤوسهم تماما حسب تقاليد البلاد وأنهن عاريات الأجساد حتى خصورهن ويحملن مثل الرجال أقراطا في آذانهن وحلقن على أذرعتهن ذبول الفهود وفي مفاصلهن أساور ضخمة الشكل .

وأهل الجنوب وإن لم يسكنوا مرة مثل الفينيقيين في الصناعة إلا أنه ظهر فيهم صناع ماهرون جدا ، ويبدو أن الحكام المصريين لبلاد النوبة ، كانوا يلقبون باسم أبناء كوش الملكيين قد بذلوا جهدا كبيرا للنهوض بالصناعات المحلية ، وهذا ما يلاحظ حين نرى هوى يتأمل السلع المعروضة أمام عينيه والتي سيقدمها بنفسه إلى مملكته . ولم يقتصر النوبيون على صناعة الأشياء المنقولة عن النماذج المصرية مثل المقاعد والأسرة والوسائد والعرابات ، بل إنهم كانوا يصنعون أيضا أسلحة تختلف عن أسلحة المصريين . فكانت الدروع الجلدية التي يصنعونها تحاط حافتها بشريط من المعدن ، وتثبت بالمسامير ، وكثيرا ما كانت تحلى بزخارف تمثل مناظر مقتبسة من سجل حياتهم الرسمية . وما كان يشاهد شكل أبو الهول ، وله رأس كبش ، ويبدأ الإهداء بأقدامه أو يرى فرعون يصرع نوبيا برمح . كما كان المصريون يقدرون تماما المصنوعات الذهبية التي تمثل قرى الزوج ، صفت فوق منضدة صغيرة أو داخل سلال وتمثل كوخا على شكل هرم مرتفع جدا تظله أشجار النخيل وأشجار الدوم بينما يتسلق الأطفال والقرود الأشجار ليمطفئوا نهارها . ويطوف في القرية الزراف وحراسها وحول أطراف القرية زوج يحبون . وقائمة المنضدة الصغيرة محلاة برسوم

تمثل زفوجا شذوا إلى عمود وإلى خرطوش باسم الملك . كما محتوى على مناظر؛ تمثل جلود الفهود وسلاسل من الذهب تتدل على المائدة . هذه هي أروع ما يحتويه المعرض وتعد في نفس الوقت خير ما ابتدعته صياغة الذهب في بلاد النوبة من الوحي المصرى .

وكان نائب ملك كوش الذى أحضر كل هذه الكنوز من بلاد الجنوب فضلا عن سبائك الذهب وخشب الأبنوس والعاج والذى كان يمكنه أن يفتخر ويزهو بمق بأن حكمه كان موقفا وأنه تمكن من جعل السلام يستتب في عهده . - قد استحق بمدايرة الشاء وحسن الجزاء .

الفصل الحادى عشر

النشاط الداخلى داخل المعابد

١- القوى

قال هيرودوت إن المصريين كانوا أشد الناس تدبنا (١) فكانوا يعتقدون أن كل شيء فى العالم ملك للآلهة وأنهم منبع كل خير وأنهم على علم برغباتنا الدنيوية وأن فى استطاعتهم فى كل وقت أن يتدخلوا فى أحوال البشر . وإذا كان رمسيس الثانى قد هجره جنود جيشه وأحاط به الإعداء أمام قادش وإذا كان قد تمكن من أن يتفادى المهالك ، فما ذلك إلا لأن صوته قد وصل إلى طبيه واستجاب له آمون . وإذا كان قد توافر جو منمض خلال الفصل الردىء أثناء رحلة خطيبة رمسيس الثانى الأميرة الحينية ، فما ذلك أيضا إلا لأن المعبود سوتنخ لم يكن يرفض له شيئا ، وإذا كان عمال حفر الآبار قد عثروا على المياه فى صحراء إيكايكا Ikayta فلأن والده حابي قد أحب رمسيس الثانى أكثر من كل الملوك الذين سبقوه . على أن الفكرة بأن الآلهة تميز بعض الأشخاص ، قد شجعت ، أحيانا ، على رغبات جنونية فقد قيل إن الملك أمنوفيس أراد ، وهو على قيد الحياة ، أن يرى الآلهة . (٢) والأمير حرنخت Hornexht ابن أوسركون الثانى والملسكة كاروم Karom تمنى أن يساعده الصقر المقدس عندما يشترك مع الفهود فى الصحراء والطيور فى السماء (٣) حتى يفهم حديثها الذى لا يعلبه إلا قلة من العارفين بالأسرار ، وأن يدرك الرسالة الهامة التى اختارت الآلهة أن تعهد إليها بها . وكان كثيرون يميلون إلى الاعتقاد بأن فى استطاعة المحظوظين من البشر أن يتحكموا فى الطبيعة

والسما والارض والليل والجمال والمياه ، وأن يزيلوا عقبات الزمن
والفضاء (١) كانت هذه مجرد أفكار جنونية عابرة . وعندما أملى رمسيس
الثالث ما دون على بردية هاريس Harris لم يطلب من آلهة مصر بأجمعهم
الكبير منهم والصغير ، إلا الأشياء البسيطة المعقولة : أبدية سعيدة لنفسه
وأن يصبح ابنه ملكا قويا ومحترما وأن يحكم حكما زمانا طويلا ويمنح فيضانات
عالية عديدة . ويعتقد أنه جدير بكل هذه الرعاية إذ أن الآلهة قد أقامته
مكان أبيه كما انها وضعت هورس في مكان أوزيريس ، لأنه لم يظلم أحدا ولم
يسرق ولم يخالف أوامر الآلهة وكانت رغبات الخاصة سواء أكانوا أغنياء أم
فقراء ، متواضعة ، فالآباء المحرومين من الأولاد يطلبون من احتب
Imhotep أن يرزقهم ولدا . وعندما كان يتاوى بطارده أخوه الذى
أصيب بجنون وأصبح نائرا يتذكر أن في إيكاز المعبود حراختى أن يميز
بين الصواب والخطأ . ومعلوم للجميع أن كافة الآلهة تشفق دائما على
الفقراء ، وأنه عندما نشد أحوالهم ضيقا ، يبق المعبود عوننا لهم ، فهو القاضى
الذى لا يقبل رشوة ولا يؤثر على الشرود : وفي المحكمة نرى أن الفقير
الذى لا يملك فضة ولا ذهباً ليقدّمها للكتاب ولا يملك ملابس ليقدّمها
لخدمهم ، يكتشف أن أمون يتحول إلى وزير ليظهر الحقيقة ويؤيد نصر
الضعيف على القوى (٢) . وأحد الكتاب كان يعتمد على المعبود تحوت
ليصبح مبرزاً في مهنته ، كان يقول : « تعال إلى ياتحوت ، أيها الأيبس*
المكرم ، المعبود الذى تحبه الآشمنون ، أمين سر المعبودات التسعة ، تعال
إلى واهدى وأعطنى علماً بملكك ، لأن عمالك يفوق الأعمال كلها جمالا
وحسنا ، وقد وجد أن الذى يؤديه على خير الوجه يصبح أميراً » . (٣)

وكثيراً ما يعبرنا هذا التدين الشديد والمعقول في نفس الوقت : فتذوق

الآلهة للترف شعور عام يوجد في كل الأزمان وكافة البلاد ، ولكن ثروة المعابد في عصر الإمبراطورية الحديثة قد فاقت حد التصور ، فنذ أن تولى أحموزا العرش ، أصبحت الأموال التي تفيض على الحاجة وكل ما يقتصد يكس في المعابد وكانت تشيد معابد جديدة ، أما التي كانت موجودة فقد أصبحت توسع وتجميل وترمم أسوارها وأبوابها ، وذلك فضلا عن صناعة المراكب المقدسة وإقامة تماثيل ، واستبدال اللبب بالأحجار وتغيير الأخشاب المحلية بأخشاب ثينة مستوردة من الخارج وعمل نكسبات بصفائح الذهب لقمع المسلات الهرمية الشكل وجدان البيت الكبير * وتزويد كل القاعات بالاثاث المطعم بالذهب والأحجار الكريمة . ونحن نعرف أن هذه الأمور كانت منذ زمن بعيد الشغل الشاغل لاهتمام كل الملوك . ولا نستطيع أن نشك أنه في زمن اخناتون وربما في السنوات الغامضة ، أي التي لا نعرف عنها إلا الشيء اليسير جدا ، والتي سبقت تولية ست ناخت قد حدث بعض التخریب الذي يماثل ما قد حدث بالفعل على نطاق واسع في عهد آخر الرعامسة ولكن عهودا مجيدة وزاهرة جاهدت بنجاح في إصلاح ما أفسده أولئك المفسدون .

ولا يسعنا إلا أن نقفدى بالإغريق والرومان فنشاركهم الدهشة لكثرة عدد المعبودات المصرية وغرابة أشكالها ، فأحدى الصور الصغيرة لبردية فى المتحف المصرى بالقاهرة تمثل إحدى الكاهنات ، ابنة ملك ، واسمها إيزيت أم حب Isitembab تركم فى حركة بالغة الرشاقة على حافة

✱ المتحور به الحد أو قصر فرعون

بركة ماء أمام تمساح تمدد على الناحية الأخرى من البركة تحت جذع شجرة صفصاف. (٧) وتشرب هذه الكاهنة من مياه البركة التي كان يبلغ فيها الحيوان دون أن يعثرها أى اشمزاز. كان يرنو إليها بكل هدوء دون أن يتحرك. وهذا التمساح هو المعبود سوبك أحد الآلهة ذوى الشهرة الواسعة. وكان لعبادته مركزان أحدهما فى الفيوم سماه الأغرريق كروكو ديوبوليس Crocodilopolis والثانى فى سومنو* Soumenou جنوبى طيبة، وفى معابد وهياكل كثيرة منتشرة فى أنحاء البلاد.

أما سكان منف وعين شمس فكانوا يفضلون الثور على التمساح، وكان يطلق عليه اسم حابى Hapi فى منف ومرأوير Merouer فى عين شمس، وكان يعرف ببعض الصفات التى تحدث عنها الكتاب الإغريق (٨) وعندما تبت هذه الصفات على واحد منها كانوا يسجلون بعناية يوم ميلاده ويدخلونه معبد يتاح فى احتفال عظيم، وكانوا يطعمونه الحلوى ويغمرونه بكل أنواع الحمية والاحترام طيلة حياته وإذا مات حزن عليه الشعب بأكله وارتنى ملابس الحداد، ثم يحنط بعد ذلك وتعد له مقبرة خاصة ليدفن فيها كما يدفن أمير من الأمراء.

وفى الأشمونين طيور ايبس Ibis مقدسة. وكان الطائر السعيد الذى يقع عليه الاختيار يحظى بالتشريفات الإلهية. وكانوا يحضرون الطائر ايبس ميتا وحنطا ليدفن فى كهف كبير جدا تحت الأرض. وكانت الصقور مقدسة فى كل مكان وليس فقط فى مدينة نحن Nekhen التى سماها الإغريق هيراكونبوليس Hierakonpolis ولكن أيضا أمام نحن فى مدينه نخب Nekheb وفى

كل الأماكن التي يسميها المصريون الآن دمنهور (مدينة حورس) أو سنهور (جاية هورس) وفي أماكن أخرى مثل ائريب Hathirib التي رمت جبانها بأكلها بواسطة المنقذ جرحوف تانيس وجدت بعثتنا حديثا هياكل عظمية للصقور في قدور صغيرة من الفخار .

وفي باسط Bast كان الأهالي يعبدون القطعة .

وفي إميت Imit كان الأهالي يتعبدون للشعبان الخفيف . . واجيت ، أما الفلاحون في إقليم طيه فكانوا يقدمون لنفس الشعبان الذي يطلقون عليه اسم رنوت Renoutet بشائر المحاصيل .

ولم تكن هذه الرعاية الدينية مقصورة على الحيوانات وحدها ، فقد كان للخضروات نصيبها منها . كان الأزواج والرجال والنساء ، منفردين أو مزدوجين يدنون في احترام من شجرة الجيز وأيديهم مبسوطة لجمع المياه التي تصبها تلك المعبودة الخفيفة داخل الشجرة . وكان لسكن مدينة شجرتها المقدسة ، كما كان لها معبودها المحلي ، ولكن هذا المعبود لم يكن كافيا ليرضى حماسهم الديني . وفي كل مدينة ، مهما كانت ضئيلة الأهمية كان الإله المحلي يتحد مع معبودات أخرى قد أنت في يوم ما من مدينة قريبة أو بعيدة ، فعندما شيد رمسيس الثاني مقر إقامته الموجود في الدلتا الشرقية جمع فيه طائفة كبيرة من المعبودات فكان آمون موجودا بجوار ست ، عدوه اللدود في الماضي وفي المستقبل . وتوم Teum معبود أون وبتاح Ptah معبود منف ومعبودات الدلتا مع معبودات سوريا وفينيقا ، كأن لم يكن لدى المصريين آلهة كافية في بلادهم فراحوا يتعبدون لآلهة البلاد المجاورة لهم . وقد أبدل قاتل أوزيريس رأسه ، الذي كان يشبه رأس الكلب السلوقي برأس بشرية ، وارندى زى أتباع المعبود بعل واتصف بصفاتة . ووضع على رأسه

خوذة مديية. كان يلعب من ثياها قرص الشمس ، وقد برز فيه قرنان جادان وتدل من قتها شرط طويل يصل حتى الأرض ومزرد مطرز ومزين بطرر . ولم تكن عشيقته اخت ايزيت بل الكنعانية انتا Aita . (١١) وعندما جاءت عشتروت Astarte للمرة الأولى إلى مصر استقبلتها المعبودات المصرية بالاحترام الذي يليق بمسكته . (١٢) وعندما شيد رمسيس الثاني حصنه بين مصر وسوريا لم يتركه دون حماية الآلهة فاختر معبودين مصريين هما آمون وواجيت ومعبودين آسيويين هما سوتخ وعشتروت . (١٣) ومنذ عهد الملك توت عنخ آمون ، بدأ المعبود الكنعاني هورون Houroun الذي كان أيضا على هيئة الصقر مثل هورس كان يحاول خلع هذا الأخير الذي كان شفيح النظام الملكي من قديم الزمن . (١٤) وفي منف كان هناك حتى بأكله يسكنه أهال صور فكان عبارة عن عالم صغير يضم جميع العقائد المصرية والأجنبية ، وطيه التي تسمى المدينة ذات المائة باب كانت جديرة بأن تسمى المدينة ذات المائة معبود .

٣ - الكهنة .

إننا نعلم أن كل معبد كان عبارة عن مدينة صغيرة يعيش داخل أسوارها موظفون وشرطة وصناع وزراع ، كالأول كانوا يعيشون في مدينة عادية ومع أن هؤلاء القوم كانوا تابعين للمعبد إلا أنهم لم يكونوا من الكهنة والذين يطلق عليهم لقب « دني » هم أوابو Ouâbou الأطهار ، وايت تتر Iteter الآباء المقدسون ، وحم تتر Hemotter الخادم المقدس ، وخرى حيت Kheryhebo كهن الأطوار الذي يمسك بيده برناج الاحتفال مدونا على رق مطوى ، وأعضاء الأونوت Ounout ، هيئة عليية تتكون على الأقل من اثني عشر شخصا إذ أن كلمة أونوت Onout تعني ساعة .

هؤلاء الكهنة كانوا يتناوبون فيما بينهم كل ساعة حتى يضمّنوا إقامة المراسم الدينية ليلاً ونهاراً . وكان يوجد في كثير من المعابد رئيس للأشرار يتم بالمراسم المقدسة التي سوف نتكلم عنها فيما بعد . والكاهن سم ؛ ولم يكن موجوداً ضمن كهنة آمون ، كان يلعب دوراً هاماً في أون ومنف . أما في طيبة فكان على رأس كهنة آمون أربعة من الخوّنوترو Hemen neterou ، وبالرغم من البساطة التي تبدو من مدلول اللقب ، الخادم الأول للإله ، فقد كان من أهم الشخصيات الكبيرة في مصر وفي أون On . كان رئيس كهنة أتوم يلقب بالنبي الكبير أورما Our ma أما الذي ينتمي إلى بتاح في منف فكان لقبه « رئيس الفنانين » . وفي الأشمونين كان كبير الخمسة من الكهنة وهو رئيس معبد تحوت وفي كثير من المعابد كانت الشخصية الرئيسية هي خادم مقدس كما هو الحال في معبد آمون . وقد أخذنا عن الإغريق في الاستعمال الحديث تسمية الخوّنوترو بالأنبياء ، إذ أنهم كانوا أحياناً يفسرون الإرادة الإلهية . ولكننا غير واثقين من أن هذه الوظيفة كانت هي الوحيدة التي يزاولونها وأنها كانت مقصورة عليهم وحدهم . ومهما كان اللقب الذي يحمله رجال الدين فإنهم كانوا حريصين ، في عهد الإمبراطورية الحديثة ، أن يتميزوا في مظهرهم عن بقية المواطنين ، فكانوا يحتقرون الملابس ذات الثنيات والأكام الطويلة ويكتفون بارتداء مآزر طويلة تاركين الجزء العلوى من الجسم عارياً ، كما كانوا يحرسون على حلقة شعر الرأس والذقن والشارب .

ولما كان من عادة المعبد أنه كان كثيراً ما يستضيف عدداً من الآلهة لذلك لم يكن رجال الدين ملزمين بأن يكرسوا حياتهم كلها لخدمة مقبوض واحد ، فسيقى Setouy ، كبير كهنة ست ، كان في نفس الوقت مسئولاً

عن أعياد بانبدد Banbeded ومكافا بالقيام بشعائر المعبودة واجبت
Ouedjit التي تحاكم الأرضين . ونبونف Nebounef الذي عينه رسيس
الثاني كبيراً لكهنة آمون لم يكن متنسباً مطلقاً لكهنة هذا الإله ، بل كان
كبير كهنة عنصور في تيجنى Tjiny ، وحاحور في دندره . وآئن Anen ،
أحد كبار كهنة آمون ، لم يستطع أن يرقى إلى الدرجة العليا ، فواسى
نفسه عندما عين كبيراً للأنبياء وكاهناً في أون من مونتو ، وهي مدينة في
إقليم طيبة .

وكان يشترك عدد كبير من النساء في المراسيم الدينية وكان لكل
معبد فريق من المغنيات كان عليهن أن ينشدن ويغنين ويحركن الصلاصل
أو الصاجات ، أثناء إقامة الشعائر الدينية .

ولم يقيم هؤلاء النسوة في المعبد بل كن يقمن مع أسرهن ، إذ تتطلب
خدماتهن غير حضورهن بضع ساعات في بعض الأيام . يقابل ذلك أن
النسوة اللواتي يكون هيئة الخنزير Khenerit كان ينبغي لمن الإقامة في
المعبد لأن كلمة خنز Khener تدل على السجن أو على الأماكن المظلمة تماماً
داخل المعبد أو القصر . وكان يطلق على رئيسهن أسماء الزوجة المقدسة
للمعبود ، اليد المقدسة أو الساجدة المقدسة ، وقد ظن البعض أن نساء هذا
الحريم المقدس كن يكون هيئة من « غانيات المعبد » كما كان الحال في جبل
البلد الذي كانت تتغلغل فيه الحضارة المصرية . ولكن ليس ثمة
دليل على أن مثل هذا النظام قد وجد إطلاقاً في مصر . والواقع أن بعض
مغنيات آمون كن يتصفن بعبادات مستهجنة وكن يترددن على الأماكن
المشبوهة ، ولكن من الخطأ أن يبنى الإنسان حكمه بناء على هذا المثل الوحيد

المحفوظ على بردية بمتحف تورين . (١٥) ليعمه على كل موسيقيات آمون . وهذا لا يبرهن على أنه قد فرض على النساء الملاحقات بالمعبد أن يكن مثل نساء جليل في مملكتهم في الأعياد إذ كن يفرطن في عرضهن للأجانب ويدفعن لحزينة المعبد المكاسب البسيطة التي يحصلن عليها من مثل هذه المعاشرة .

وكما كان الموظفون يعينون عادة من بين أبناء عائلات الموظفين ، كان الكهنة كذلك في غالب الأحيان من أبناء الكهنة . (١٦) وهكذا كان باكن خونسوابن الكاهن الثاني لآمون إذ ألحق بالمدرسة عندما كان عمره خمس سنوات كي يعد ليكون فيما بعد من هيئة رجال الدين . أما أبناء وأحفاد الكاهن الكبير روى روى Romé-Roy فكانوا جميعا من رجال الدين ، وكان ابنه الأكبر يقيم بجانبه ككبير ثان للكهنة ، وكان الابن الثاني يتولى الشعائر الدينية في معبد غرب طيبة ، كذلك كان حفيده كاهنا ، ومع ذلك فقد يحدث أن تتعارض نوايا الأسر مع ميول الأبناء ومواهبهم ، وقد علمنا من خطاب إداري أن الوزير قدم ثلاثة من الشبان ليكونوا كهنة في قصر مري أن بتاح الكائن في معبد بتاح ، ولكن أحد الموظفين الذين لم يكونوا يقيمون وزنا لحقوق رجال الدين مثله مثل أولئك الذين أشار إليهم منشور ستي Scitoui الذي سبق أن تحدثنا عنه قبض على هؤلاء الشبان الثلاثة وبعث بهم إلى الشمال ليصبحوا ضباطا . فكان هذا مثلا صارخا لسوء استعمال السلطة فانبرى أحد الكتاب على الفور لإبلاغ هذا الحادث وطالب بعودة هؤلاء الشبان الثلاثة . (١٧)

والتلاميذ الذين كانوا يعدون أنفسهم ليصبحوا من رجال الدين ، كانوا يتعلمون كأندام قواعد اللغة والكتابة ولكن كان عليهم أن يدرسوا

أشياء أخرى كثيرة. كان ينبغي لهم أن يعرفوا صور المعبودات وألقابهم وصفاتهم ومزاياهم وقصصهم وأن يدوا بكل ما يختص بالشعائر الدينية والعقائد ولم يكن هذا بالأمر الهين. (١٨) وكان عليهم أن يؤدوا امتحاناً في نهاية الدراسة ومن كان منهم جديراً بالاندماج في هذه الهيئة، كان يخلع ملابسه ويستحم ويخلق له ويطيبونه بالمطور ثم يرتدى زى رجال الدين كاملاً قبل أن يسمح له بدخول أفق السماء، ورغم سيطرة الخوف على قلبه بفكرة القدرة الإلهية فإنه كان يستطيع في النهاية أن يقترب من المعبود في قدس أقداسه. (١٩)

٣ - العبادة

كانت الشعائر التي تقام في جميع معابد مصر باسم الملك وعلى نفقته تعتبر فلاسراً يتم في دجى الظلام في قدس الأقداس دون أن يشترك الشعب فيه مطلقاً. ويظهر الكاهن القائم بالعمل نفسه قبل كل شيء في «بيت الصباح» ويأخذ المبخرة ويشعلها ويتقدم نحو المذبح مطهراً الأماكن الملحقة به برائحة البخور. ولما كان التابوت الذي يحوى التمثال الخشبي المذهب للمعبود أو المعبودة مغلقاً، فإن الكاهن يفيض الختم المصنوع من الطين ويسحب المزلاج ويفتح المصراعين فيظهر التمثال المقدس، وعندئذ يسجد الكاهن ويخثر التمثال ويدهنه بالطيب، ويسبح الأناشيد التعمدية. وكان التمثال حتى تلك اللحظة عبارة عن قطعة قبة لاروح فيها، فيه الكاهن الحية بأن يقدم له على التوالي عين حورس التي اقتزعها منه عدوه ست وعثرت عليها الآلهة، وتمثالاً صغيراً للمعبودة معات - Maat الحقيقة - ابنة رع. ثم يسحب المعبود بعد ذلك من التابوت ويبدأ الكاهن في تزيينه، كما لو كان يزِين

الملك ، فيغسله ويبخره ويلبسه ثيابه ويعطره ثم يعيده إلى داخل التابوت ، ويضع أمامه كل أنواع الأطعمة التي كانت تأتي عليها النيران بعد ذلك . وبعد إتمام التطهير الهائى بالنظرون والمياه والتربتين ، كانت تختتم الشعائر الدينية ، ولا يبقى بعد ذلك إلا أن يعلق التابوت ثم يسحب المزلاج ويوضع الختم . وعلى أثر ذلك ، ينسحب الكاهن إلى الخلف مولياً وجهه نحو الإله مزيلاً أثر خطواته . (١٠)

وفى مقابل تلك العناية وهذه العطايا كان المعبود يهب الملك الحياة وليست الحياة الجسدية على الأرض فحسب بل أيضاً حياة الاعتماد مع المعبود ، مع مستقبل تكتشفه أعياد سعيدة لا نهاية لها مدى الأبدية كلها . أما الشعب الذى كان لا يشترك مطلقاً فى هذه العبادات اليومية ، فكان يكتفى بأن يعرف أن فرعون ما دام يتمتع برضا آبائه الآلهة ، فإن كل أنواع البركات ستعم مصر . وكانوا يترقبون فرص خروج المعبود — التى ستحدث عنها فيما بعد — للاستفادة منها إلى أقصى حد ، ولذا كان فى انتظار هذه الأيام السارة ، فقد كان فى إمكان من يريد أن يدخل إلى قصر المعبود ويرتاده ، أن يقدم قرباناً يسيراً للمعبود فيعبر الفناء ويخترق المرج الذى يمرح فيه بحرية تامة الكباش أو العجل المحفوظ الذى يتجسد فيه المعبود ، وأن يقترب من بركة الماء التى يسبح فيها التماسح الذى يمثل المعبود سوبك . ولم يكن ثمة ما يمنع من أن يضع أحد الأهل تحت أقدام آمون ، — إذا كان من أهالى طيبة أو تحت أقدام يتاح إذا كان من أهالى منف — لوحة تذكارية صغيرة من الحجر الجيري حفر عليها شكل المعبود وبجانبها أذن ، بل عادة آذان كثيرة يبلغ عددها ثلاثة أو تسعة وأحياناً أكثر من ذلك ، إذ يصل عددها إلى ٤٨ أو ٣٧٨ أذناً وعيوناً . كانت هذه طريقة ساذجة لإجبار المعبود على الانصياع له والنظر إليه وإجابة طلباته المختلفة من مزايا ونعم ومنافع عديدة

ما عدا الموت ، لأنه يعلم جيداً أن هذه الدعوة لا تجيبها المعبودات . (٢١)

وتوجد في كل معبد تماثيل أو لوحات أطلق عليها اسم « إشافية » (٢٢) وكان الوجه الرئيسي للوحة مزينا بالطفل هورس غاريا ، واقفاً على تمساح وقائضاً يديه على ثعابين ، وفوق هذا المعبود الصغير رسم المعبود بس Bes ذو الوجه العايس ، وقد سجل على ظهر اللوحة ، أو في أسفلها كيف أن ثعباناً لدغه أثناء غياب والدته ، في مستنقعات أخيميت . فلما سمع رئيس الآلهة صياح والدته كلف المعبود تحوت بأن يتولى شفاء الجريح ، كما كان يسجل أيضاً كيف قام رع بشفاء باستيت Bastit عندما لدغتها عقرب . وكيف أنقذ أوزيريس عندما ألقاه أخوه في النيل بطريقة خارقة للطبيعة من بين أنياب التماسيح . أما التماثيل فكانت تمثل شخصيات مقدسة اشتهرت أثناء حياتها بالعمل حواة للثعابين . وكانت أنعام هذه التماثيل أو اللوحات على قواعد وسط بركة ملأى بالمياه تتصل بواسطة قناة أو مصرف ببركة أخرى حفرت في الدرجة الأخيرة من سلم القاعة ، فإذا لدغ أحد رشت المياه على اللوحة التذكارية أو على التمثال فتتشبع بمفعول النصوص السحرية والكتابات وتتجمع المياه في أسفل وبشرها الجريح ، وعندئذ لا يتطرق السم إلى قلبه ولا يحرك صدره لأن هورس هو اسمه ، وأوزيريس اسم أبيه ونابت الناحية اسم والدته . وعندما يشق الجريح فليس عليه ألا أن يتقدم بصلاة خاصة للقديس الذي كان صاحب الفضل في شفاؤه أو كان وسيطاً في برئه ولم يكن هذا يقضيه من أن يقدم ليطاهر أو للآب الألهي الذي رش عليه الماء عملة منسوبة القيمة .

إلا أن أصحاب هذه الإلتباسات المتواضعة والتي رفعوها للآلهة في خشوع وخضوع في هذه المعابد الفخمة سواء أكانت في طيبة أو في منف أو في المدن الكبرى . وكانوا يؤمنون إيماناً في قدرة أمون وبتاح ، ولكلهم

كانوا يفضلون زيارة هذين المعبودين الكبيرين في معابد بسيطة صغيرة تتفق مع مكانهم المتواضعة ، بعيدين عن الرجال الرسميين . وقد اتخذ عمال الجبانة شقيقة لهم المعبودة الثعبان وكانوا يطلقون عليها اسم «مرسجر» Messenger حجة السكوت . ، وكانت تفضل السكنى في أعلى الجبل الذى يشرف على القرية . وعندما كان المرء يتحدث عن القمة كان لا يعرف تماماً هل يتعلق الأمر بالمعبودة أو بمقرها . وذات يوم استشهد أحد موظفى الجبانة وكان يدعى نفرابو Nefarabou بكل من المعبود بتاح والمعبودة قة الجبل ولكنه كان حائثا فى زعمه ، فأصيب بالعمى بعد قليل ، وقد اعترف يائمه أمام بتاح الذى كان قد أصابه بالعمى فى وضع للنهار ، وشهد بمدلة هذا الإله الذى لا يفوته أى شئ ، ولكن بالرغم من ذلك فإنه لم يشف من عاهته . فاعترف فى خشوع أمام قة الغرب الفادرة العظيمة فأتت إليه ، مع نسيم منعش وأنته آلامه . لأن قة الغرب رحيمة بكل من يتوسل إليها . (٢٢)

ويمكن الحكم على مدى شعبية معبد مرسجر الصغير والإقبال المنقطع النظير عليه من وفرة عدد اللوحات التذكارية والنذور التى وجدت هناك . وقد شعرت المعبودة براحة تامة لقرىها من معابد آلهة أخرى عظيمة . وكانت زيارتها ميسرة إلى حد كبير . فعندما مرض أحد العمال المشتغلين بخرقة المقابر توسل أبوه وأخوه لآمون الذى يمكنه أن يشفى أيضا من كان فى العالم الآخر فحضر كبير الآلهة فى سرعة ربيع الشمال كأنه نسمة منعشة لينطس ذلك المسكين التعس ، لأن الإله لا يقبل أن يمضى عليه يوم كامل وهو ساخط فلا يستمر نأثره إلا لحظة ثم يزول دون أن يترك أدنى أثر . (٢٣)

هؤلاء العمال الذين اتخذوا «مرسجر» ، حجة السكوت ، شقيقة لهم قد اتخذوا أيضا شقيقا آخر هو امحتب (٢٤) ، أول ملوك

الأمير الطورية الحديثة الذي نحت له مقبرة في وادي الملوك ، وكان أول من استخدم العمال وأول من أنعم على الأهال الذين تجمعوا في دير المدينة . وسرعان ما انتشرت عبادته حتى أصبحت له عدة هياكل في طيبة ، في البير الغربي .

وقد وجدت آثار معبد لأمحتب ، له الحياة والصحة والقوة ، المنتسب إلى الحديثة . وقد عرفت أسماء ثلاثة آخرين يطلق عليهم اسم « أمحتب » : « أمحتب ساحة المعبد » ، « أمحتب الذي يبحر عبر المياه » ، « أمحتب حاحور » ، وكان عيد هذا الشفيع الطيب يستمر أربعة أيام ولا يكف العمال خلالها من وزجانهم وأولادهم عن القناء والشراب . وكان رجال الدين والذين يحملون التمثال أثناء سير الموكب ، وأوتك الذين يظلمونه ويروحون له بالمرأح ويخرونه ، كانوا جميعا من العمال .

وكان العمال يتقون فيه إلى حد كبير ، حتى أنهم كانوا يطلبون منه أن يفض منازعاتهم . وكان قضاؤه ينطوى على السلام ويتصف بالسرعة وفقلة النفقات ، مما لا يتوافر لقضاء يتولاه الوزير وكتابه ، وقد عبرت إحدى الشاكيات بقولها : « كن عوناً لي يا مولاي ! لقد أنارت والدق وأخوتي نزاعاً ضدي ، لقد ترك لها المرحوم والدها نصيبين من نحاس وإرادا يقدر بسبعة مكايل من الحبوب . فاستوات الأم على النحاس ولم تغط لها إلا أربعة مكايل . وفي قضية أخرى ، قام أحد العمال بصنع ثابوت وأحضر الخشب إلى فقته وقدر التكاليف والمجهود بما يوازي ٣١٥٥ دين ولم يقبل صاحب العمل أن يدفع له سوى ٢٤ دين فقط . وعندما سُرقت ملابس أحد عمال النقش ، تقدم العامل بشكواه ووضعها أمام تمثال الملك المقدس ، قائلاً : « تعال إلى اليوم وأعني

ياسيدى ، فقد سرقوا منى قطعى ثيابى . فقرأ الكاتب يافاً بعض المنازل وعندما وصل إلى منزل الكاتب أمون نخت Amon Nakht أكد الشاكي أن ثيابه توجد لدى ابنة أمون نخت ، ولما سئل المعبود أكد صحة هذا الادعاء . وقد عورض عامل يدعى خلمواس Khaemouas فى ملكية المنزل الذى كان يضع يده عليه ، فسألوا التمثال عن رأيه فأبد الملكية فى انحناءة قوية .

وكانت أكبر المعبودات تتنازل لخدم صغار الناس برأى مفيد أو نهى نزاعاً شائكاً ، وربما كانت تقلد فى ذلك أعمال الملك المقدس : فرئيس الشرطة كان مشتركاً فى أجد المراكب المقام تجيداً لإيزيس ، قالت صورة المعبودة المقدسة نحوه ، من أعلى المركب ، فاقىء هذا الرجل أن حظى برقى سريع .

وفى العاصمة كانوا يستشيرون بصفة دائمة المعبود الكبير الذى ينتمى إلى طيبة (أمون) فعندما اتهم أحد أتباع أمون بإخفاء أشياء يحتفظ بها وضعوا المعبود فى المركب المقدس وحملوه إلى مكان معين فى المعبد وكتبوا عبارتين متناقضتين الأولى : يا أمون رع سونتير Amonrasontir يقولون إن نحتمس يحتفظ بالأشياء التى اختفت ، والثانية ، يا أمون رع سونتير يقولون إن نحتمس لا يحتفظ بشيء مما أختنى ، ولما طلب إلى المعبود أن يجيبى رأيه فيما إذا كان يقبل أن يحكم فى هذه القضية رد عليهم بكلمة « نعم » . فوضع المكتوبان أمامه وأوماً أمون مرتين إلى المكتوب الذى يرى منهم فأطلق سراح نحتمس على الفور وأعيد إلى وظيفته واسترد مكانته من جديد ، بل أسندت إليه أعمال أخرى تتطلب الثقة . وذات مرة ، أثناء سير الموكب ، سأل كبير الكهنة المعبود أمون عما إذا كان من المستطاع أن تقصر مدة المحكوم عليهم بالنفى فى الواحة الكبرى ، فرد عليه (٢٥٠ - الحياة فى مصر)

برأسه نعم، (٢٦) وإذا كان ملك الآلهة لا يستنكف أن يرد على أبسط العامة فكان يسره بالأحرى أن يشغل بالمهام الكبرى للدولة : فعندما أراد رمسيس الثاني في بدء حكمه أن يعين كبير كهنة آمون اشترك المعبود في حضور مجلس الاستشارة حيث نلت أسماء المرشحين وجميع من كان من حقه أن يشغل المنصب ، الواحد تلو الآخر ، والاسم الوحيد الذي حظى بموافقة هو نبوتف Nebounef . وأعتاد حرم محور كبير الكهنة أن يستشير خونسو في عدد كبير من الموضوعات ، وعندما كان عرش إثيوبيا غاليا اصطف الأمراء أمام آمون واختار من بينهم المرشح الذي ولاه العرش . (٢٧)

والمستندات والوثائق التي بين أيدينا لا توضح لنا تماما كيف كان المعبود يظهر رغبته في الاختيار لأنها لسوء الحظ ، غير واضحة وضوحا كافيا . قد يعتقد بعض علماء الآثار ، وربما كانوا متأثرين بقصة دون كيشوت ، أن أجزاء جسم كانت تتحرك آليا ، فدون أن تجيب كلاما كان في إمكانها أن ترفع أو تنخفض أذرعها وتحرك رأسها وتفتح أو تغلق فيها . وقد يكون متحف اللوفر هو الذي يحوى التحفة الوحيدة المعروفة لتمثال يتكلم ، وهي على هيئة رأس ابن آوى وفكه الأسفل متحرك ويظل فم هذا الأنوبيس مفتوحا عادة لا يقفل ، إلا إذا شد بخيط (٢٨) وفي بعض الأحوال الأخرى كانوا يأتون بالمعبود الذي يرغبون في استشارته محمولا فوق أعناق الكهنة فإذا انحنى إلى الأمام فعنى هذا أنه موافق ، وإذا عاد بظهره إلى الخلف فعنى هذا أنه يرفض الموافقة (٢٩) . ولم تكن نتائج هذه الاستشارات واضحة دائما وعندما يعين المعبود شخصا لمنصب يمكننا أن نقول بلا شك إن هذا التعيين سبق الاتفاق عليه من قبل . وعندما يري المعبود متهما فلا يعقب

أحد على قضيته بل تحفظ ، وما على الذين سرقوا إلا أن يبحثوا عن اللصوص بعيداً عن ذلك الذى يرى . ولكن ماذا عساه يحدث لو اتهم المعبود شخصاً بأنه مذنب ؟ أفضل حل له هو أن يعيد المسروقات أو يدفع الثمن الذى يطالبونه به . أما إذا رفض فى عناد ، فإنه يعامل معاملة لص كاذب ويعاقب عقاباً مضاعفاً جليداً بالعصا . أما إذا كان الأمر يتعلق بالتحكيم فى منازعات فلا شك أن الطرفين كانا قد وعدا مقدما بقبول نتيجة التحكيم ، مهما كان الأمر .

وكان فى معبد آمون شرطة وسجن . وفى البر الغربى كان رجال الحدود الميجاوى Medjaou على أتم استعداد لتنفيذ أحكام المعبود بالقبض على المخطئين دون إهمال .

٤ -- خروج المعبود

كان فى استطاعة المؤمنين أن يتقربوا إلى معبودهم داخل المعبد فى أى وقت وأن يفضوا إليه بمشاكلهم وبما يشغل بالهم أو يعيروا له عن عرفانهم بالجميل . على أن المعبود كان يخرج من مكانه فى المعبد مرة واحدة على الأقل ، كل عام ، فى موكب كبير ليطوف بالمدينة وبالضواحي المحيطة بها . وكان الأهالى بأجمعهم ينتظرون بفارغ الصبر هذه الزيارة التى يقوم بها المعبود ، كما كانت تترقبه المدينة فى شوق كبير ، وقد عرفت بعض هذه الزيارات بتجمع الأهالى وازدحامهم من أقصى البقاع . قد شاهد هيرودوت حشداً من المراكب مملوءة بالرجال والنساء تتجه ناحية باسط Bast بمناسبة عيد المعبودة باستيت Bastit . ولم تنقطع النسوة عن تحريك الصاجات ورنينها ، بينما كان الرجال يعزفون على الناي . وكان البافون يغنون ويصفقون

بأيديهم ، وعندما يمررون بمدينة كان سيل حشدهم يتضاعف . وكان الحجاج
يمرحون مع أهالي المدينة ويرجمون إليهم مزاحا صاخبا يلقي نجاوبا
من الأهالي بنفس الأسلوب . وكان كثيرون ، بدافع المشاركة يتركون
أعمالهم بالمدينة يبروا عن قرب الاحتفال بالعيد الذي كان يستحق ذلك
فعلا . لأن سبعمائة ألف حاج بمجرد أتمام الاحتفال الديني كانوا يبدأون
المرح ويستسلون للذات لاهين فرحين إلى أقصى حد . وكانوا يبالغون
في مزاحهم بعض المبالغة نظرا لأنهم كانوا يتناولون كميات وفيرة من النبيذ
في باسٲ وإنا صدقنا ما قاله هيرودت — وقد يكون مبالغا فيه إلى حد ما —
أنهم كانوا يتناولون في خلال أسبوع من أعياد باسٲ كمية من النبيذ تفوق
ما يستهلك في أرض مصر كلها خلال عام كامل . (٢٠)

• — خروج العبرود من

كان وجود الملك ورجال البلاط في العاصمة يفضى على موكب خروج
المعبرود بهجة الأعياد الوطنية . وقد اتفق عيد تنويع رمسيس الثالث مع عيد
مين Min ، معبود فقط Coptos والصحرَاء وإله الخصب . وكان يحتفل
به في الشهر الأول من فصل شمر Chemou ، عندما يبدأ حصاد القمح (٢١)
ويتحد الملك مع المعبود ، في وقت واحد ، في ربابة الاحتفال بالعيد
فيخرج رمسيس الثالث من قصر الحياة والصحة والقوة بها كالشمس المشرقة ،
مكتفا فوز محفة منتقلا من قصره إلى مسكن والده مين ليتأمل جماله .
وتتكون هذه المحفة من مقعد كبير ذي مساند جانبية أقيم فوق قاعدة مرتفعة
يتوجها لطف ، له أربعة أذرع طويلة . وكانت نحتاج إلى أثنى عشر رجلا
على الأقل لحملها وكانت جوانب هذا المقعد مزينة بأسد يسير وبأبو الهول .
وأما ظهر المقعد فقد زين برسم معبرودتين مجنحتين تضفيان عليه الحماية ،

ومكان موطن^١ الأقدام ، المزود بوسادة ، فقد ثبت أمام المقعد . وكان أبناء الملك وكبار موظفي الدولة يتنافسون تنافسا كبيرا لينالوا شرف حمل هذه المحفة الملكية . وكانوا يظنون سيدهم من أشعة الشمس بمظلات من ريش النعام ويروحون له بمراوح ذات أيد طويلة تصل إلى مستوى وجه الملك . وتسير في مقدمة الموكب مجموعة كبيرة تتكون من بقية أبناء الملك وكبار الموظفين ، يحملون الشعارات الملكية كالصولجان والقضيب* والعصا والبلطة ويرى أحد رجال الدين بين هذا الجمع يحمل ملفا يتضمن برنامج الاحتفال وينظم كل تفاصيله . وهناك كاهن لا ينقطع طول مسير الموكب عن تحريك مبخرنه تجاه الملك لأنه يجب أن يحتفل بملايين الأعياد ومئات الألوف من السنين التي تعبر عن أبدية على عرشه . ويسير أكبر أولاد الملك ، وهو ولي العهد مباشرة أمام حامل المحفة . أما النصف الثاني من الموكب فكان مكونا من الختم ورجال الجيش . وفري في الموكب نفس الأشخاص الذين قابلناهم من قبل وهم يحيطون بالملك حين يكون على رأس جيشه أو عندما يندفع مهاجما في معركة أو يطارد الثيران المتوحشة . وقد حمل أحد الرجال سلما صغيرا يستعمله الملك حينما يهبط جلالته إلى الأرض . أما العسكريون فكانوا مسلحين بالبدبايس والرماح والدروع .

وعندما يصل هذا الموكب إلى مسكن المعبود من بهبط الملك من محفته ويقف أمام هيكل المعبود وبه مقصورته التي تحتوى على تمثاله . ويقوم فرعون بمباشرة مراسيم تبخير المعبود وتطهيره بسكب المياه المقدسة عليه ، ثم يقدم القرابين لأبيه الذي يمنحه الحياة ، وتفتح بعد ذلك الأبواب ليُشاهد الناس جمال المعبود الواقف أمام هيكله . أما جسد المعبود وأطرافه التي لم تكن أيزيس قد فصلتها بعضها عن بعض ، فكانت داخل غطاء محكم ، وفوق

رأسه غطاء على هيئة الماوان تبرز منه ريشتان صلبتان وشرائط يتدل حتى يصل إلى الأرض ، وله لحية مستعارة ثبتت في ذقنه ، وحلية للصدر تتدل من رقبته . ويتكون هيكل المعبود من عناصر عديدة : كوخ قعى الشكل على هيئة خلايا النحل وتشبه إلى حد كبير مساكن أهالي بونت ، وهذا الكوخ متصل بعمود رفيع يعلوه قرنان وصاري ربطات به ثمانية حبال يتسلقها زنوج ، وأخيرا مربع من الأرض زرع فيه نبات الخس . كان من معبودا منذ عهد قديم جدا وقد جاب أماكن كثيرة قبل أن يصل إلى قفط حيث حمل إليها متاعا مختلف الأنواع .

وكافوا يتلون ترانيل راقصة وهم يرفعون التمثال من تابوته ليوضع فوق محفة يحملها أثنان وعشرون كاهنا ، لازى منهم سوى الرؤوس والأقدام أما بقية أجسامهم فكانت مغطاة بالستائر المزينة بالورود التي كانت تتدل من المحفة . وثمة كهنة آخرون في المقدمة وعلى الجوانب وفي الخلف كانوا يحركون باقات الزهور ويحملون مراوح ذات أيد طويلة ومظلات بينما يحمل كهنة آخرون صناديق الملابس الخاصة بطقوس هذا المعبود . وتحمل مجموعة أخرى صغيرة من الكهنة الصندوق الذي يحوى نبات الخس مرفوعا على حامل .

ومنذ تلك اللحظة كان على الملك أن يقود الموكب ، وقد استقبل بخوذة الرأس الزرقاء التي كان يلبسها عندما غادر قصره ، تاج الوجه البحرى وأمسك بيده عصا طويلة ودبوسا .

وبلاحظ حضور الملكة هذا الاحتفال . وينضم إلى الموكب مخلوق جديد ، هو ثور أبيض ، يحمل بين قرنيه قرص الشمس تعلوه ريشتان طويلتان ، هذا الثور يمثل تجسد المعبود ويطلق عليه عادة في أغلب الأحيان

أيم ، ثور أمه ، وبثولى كاهن ، حابق الرأس قد نعى نصفه الأعلى ، نبخير الملك والثور وتمثال المعبود فى آن واحد .

ويلاحظ خلف هذه المجموعة ، حاملو القرايين وحاملو الأعلام ، وهى أعلام الآلهة التى كانت قد اصطحبت المعبود مين فى أسفاره وهجرته ، وأصبحت هذه الآلهة تشترك فى كل أعياده وهى تعالب وصقور وطيور والأيديس والثور الرائد وأعلام الأقاليم ومن بينها الإقليم الثانى فى الوجهة البحرى خم Khem حيث كان مقر المعبود مين ، كما يرى سوط ودبوس . ويتبعهم بعدئذ الأصدقاء القدماء المعبود مين ، من الملوك الأجداد السابقين التى تحمل تماثيلهم الخشبية المذهبة على أكتاف عدد يماثلها من رجال الدين ، فالأول للملك الجالس على العرش والثانى لمينا مؤسس الملكية ثم تمثال نب خورع Nehkherourê الذى أعاد الوحدة بين الوجهين ، ومعظم ملوك الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة . ولم يسمح بأن تتضمن هذه المجموعة الملكة حتشبسوت ، التى كان لابن أخيها نحتمس الثالث بعض الأسباب الوجهية التى حملته على كراهيتها ، وكذلك أخناتون والملوك الذين تولوا الحكم بعده ، وبعض الملوك الذين لم يسكن حكمهم مجيدا فقد أبعدوا بدورهم عن هذا الاحتفال .

ثم يتحرك الموكب إلا أنه يتوقف عدة مرات قبل أن يصل إلى قدس الأقداس وهو المكان المقصود فى نهاية المطاف ، وفى هذه المراحل يستمع المشتركون فى الموكب إلى ترانيل راقصة أخرى لا نفهم منها شيئا كثيرا ، فالجزء الأكبر من نصه كان غامضا لا يفهمه حتى أغزر الكهنة علما ، فى عهد الرعامسة ، وهذا مما يزيد فى قدسيته . ولنتذكر فقط أن الآلهة كانت ترقص للمعبود مين ، وكان يتبعها زنجى من بلاد بونت وكان يطلق فعلا على

المعبود مين ، والد الزوج . وكانوا يرسمون وجهه بلون أسود إذ أن أتباعه
الأوائل كانت دماؤهم مختلطة نوعا ما بالدماء الزنجية .

ثم يصل أخيرا التمثال والموكب إلى الميدان الذى أقيم فيه قدس الأقداس
ليستقر فيه مين ، ويحمل كاهنان أعلام سحرة الشرق ويقفان أمام المعبود مين
بينما يقدم فرعون من جديد قرابين عظيمة أخرى . وما كان يتم في هذه اللحظة
الحاسمة قد انضج لنا في جزء من نشيد كان يرتل فيما بعد :

« سلام عليك يامين يامن حملت أمه منه ! كم هو سر عجيب ما فعلته
بها في الظلام ! ، وجاء في فقرة من نشيد آخر أن مين ، ثور أمه قد أحضرها
ووهبها قلبه . بينما كان خصره دائما بجانب خصرها . » (٢٢) وفي الواقع ، لم
تدكن هى أمه الحقيقية ، تلك التى أنجب منها ولدا ، ولكنها كانت إيزيس التى
ولدت هورس ، هذا الذى توج ملكا على الوجهين مصر العليا ومصر السفلى .

ولإحياء ذكرى هذا الحادث الكبير ، وضع الملك فوق رأسه التاج
المزدوج ، والتماسا للحماية وضع صقر نخيت Nekhabit بدلا من صلي
واجيت Oudjrit . وقد أطلق سهامه في اتجاه الجهات الأصلية الأربع
ليقتضى على أعدائه ويطلق بعدئذ حرية الطيور الأربعة المسماة أبناء هورس
وهي أمست Amset وحاني Hâpi ودواموتف Douamoutef وقبح سنوف
Qebhserouf ، التى ستملن في جميع أنحاء العالم كيف أن الملك جدد ما سبق أن
فعله هورس قبل أى مخلوق آخر عندما توج رأسه بالتاج الأبيض والتاج
الأحمر . وكانت هذه الطيور من النوع الذى يهاجر سنويا تأتي من الشمال في
فصل الخريف وتعود في الربيع .

إن تولية ملك نبي ومحبوب من الآلهة كفيلة بأن تعضي على أرض مصر
كل أنواع الخير والبركات ، وقد آن الأوان لتمجيد خصوبة البلاد ،

فوضعت التنايل على الأرض وكون المجتمعون دائرة حول الملك والملكة .
وقدم أحد الموظفين منجلا للملك من النحاس كفت بالذهب وباقية من
الفلال بوتي Boti لا تزال الأرض التي أنبتته عالقة في جنوره ، وكان هذا
مثالا مصغرا للحقل الممتد إلى أبعد حدود البصر من البحر حتى الشلال .
يقطع الملك السنايل من أعلاها كما كان يفعل حاصدو إقليم طيبه بينما ينشد
أحد الكهنة نشيدا جديدا لمن المقيم في الحقول المنزرعة ، وقبل أن يغزو
حقله أقام سيد الصحراء السابق في الوادي الذي كان خصيبا فيما مضى ، والذي
يصل هذه المدينة بوادي روهانو Rohanou كما أنه أنبت المراعي التي تغذي
الماشية ، ثم تقدم حزمة القمح للمعبود والملك الذي يحتفظ بسذلة منها
ثم ينشد آخر نشيد ، وفيه تفخر والده من بقوة ابنها المنتصر على أعدائه .

وينتهي الحفل بعد إتمام هذين النشيدين ، فيعاد التمثال إلى تابوته
ويستأذن الملك من المعبود وهو يقدم له البخور ويسكب عليه الماء
المقدس ، ثم يقدم له قرابين جديدة ، فيشكره المعبود من في إيجاز . وبعد
ذلك يلبس الملك من جديد الخوذة الزرقاء التي كانت فوق رأسه عند بدء
الاحتفال ويعود إلى القصر .

وحسب ما نعلم كان المعبود والملك وأعضاء الأسرة الملكية والكهنة
وكبار الموظفين هم وحدهم مع الشخصيات الأخرى الذين يظهرون في
حوكب خروج من الكبير ، لأن الفنانين المسؤولين عن الرسوم التي وردت
على جدران معابد الكرنك ومدينة حابو قد نسوا الشعب . وكان المزارعون ،
في ذلك الوقت من العام جد مشغولين بالعمل في الحقول ، ولكننا نستطيع
أن نفترض أنه كان يوجد في المدينة بعض الناس ممن كانوا يتمكنون من أن

يوفروا من الوقت ما يتيح لهم أن يصطفوا في الطرق عند مرور المعبود مين
وثره الأبيض .

٦ - عيد أوبت الجبل

كان الاحتفال بالعيد الجبل لأمون في أوبت Opet ، يفوق كثير
احتفال المعبود مين ، إذ أنه كان احتفال الشعب بأجمعه . كان يقع خلال
الشهرين الثاني والثالث من الفيضان أى في الوقت الذى تصل فيه مياه
الفيضان إلى أقصى زيادة ، ووقتئذ لا يكون للمزارعين أى عمل ، أما
القوارب فتتحرك بسهولة لا فى مجرى النيل الكبير فحسب بل فى القنوات
وخارج القنوات لأن الأرض كلها كانت مغطاة بالمياه . (٢٣) ولم يعد مستطاعا
الاتمقال فوق الجسور . إذ تأكل بفعل المياه ، وأعدت للعمل جميع القوارب
والمعديات والأطواف . ومن معبد أوبت بالكرك تبدأ احتفالات العيد (٢٤)
فيتخذ الباعة الجائلون أمكنتهم حول الأعمدة الضخمة للمعبد حيث كانوا
يعرضون على المارة البطيخ والرمان والعنب والتين الشوك والطيور المذبوحة
التي نظفت وأعدت للطهي أو التامة النضج والخبز . وفى داخل المعبد كان كل
رجال الدين على أتم استعداد للعمل . وأول شيء كانوا يفعلونه هو التوجه إلى
داخل القاعات بحثا عن المراكب الموضوعة على قواعدها والقوارب التي يمكن
حملها والخاصة بمعبودات طيبة وكانت مراكب آمون أكبر هذه المراكب ،
ويمكن التعرف عليها بسبب رأسى الكباش الذين يزينان مقدم المركب
ومؤخرها . أما مركب موت موت Mout فيزينها رأسا سيدة . فوق كل منهما
زينة للرأس على هيئة نسر إذ أن أسم زوجة آمون (موت) ، يكتب بعلامة
النسر والدركب الثالث مركب خونسو وتتميز برأسى صقر . ثم تحمل هذه
المراكب على الأكتاف وعمرها حاملوها فى أافية المعبد وبين أعمدته ثم

يسرون في الطريق المقام على جانبيه تماثيل لأبوالهول ذات رؤوس كباش ، ويمتد الطريق حتى المبنى الكبير . ويرتدى حاملو المركب مآزر طويلة ذات حمالات ، وهم حليقو الذقون ورؤوسهم عارية . ويسير أحد قارعي الطبول في مقدمة المركب ، وكان رجال الدين الذين ألقوا جلد الفهد على أكتافهم يحرقون البخور في المباخر ذات الأبدى ، ويرمون الرمال ويرفعون بأيديهم مظلات مفتوحة ومراوح .

واصطف على طول الرصيف أسطول هام . ولا تتسنى المقارنة بين مركب آمون ومركب المعبودة مركب خونسو وبين بقية المراكب الأخرى التي يمكن حملها والتي أخرجت من مخابها . فهي بمثابة معابد حقيقية عائمة يصل طولها إلى ١٢٠ أو إلى ١٣٠ ذراعاً . وبذلك تفوق في الطول أثير المراكب التي تخرج عباب النيل وكانت تزين بزخارف جد فاخرة وتصنع من أجود أنواع خشب الصنوبر الذي ينبت فوق المدرجات (في لبنان) وقد هيء ليطفو بالرغم من ثقل وزن الذهب والفضة والنحاس والفيروز واللازورد (وقد بلغ جملة وزن الذهب المستعمل في صناعة السفينة أربعة أطنان ونصف) . وقد زين هيكل المركب ، على غرار جدران المعابد بالنقوش المحفورة التي تمثل الملك وهو يؤدي الشعائر المعروفة التي اعتاد أن يؤديها أمام آمون ، ويقام على ظهر المركب ، في الوسط بيت كبير ، تعلوه ظلة توضع على سطحها المراكب التي يسجل حملها ، والتماثيل ، وكل الملحقات الصغيرة التي أتى بها من المعبد في احتفال خاص . وكان يسبق هذا البيت الكبير مسلتان وأربعة من صواري الأعلام ، مثله في هذا مثل المعبد الحقيقي وانتشرت في كل مكان تماثيل أبوالهول وتماثيل صغيرة وتماثيل كباش ضخمة عُلقت في مقدمة ومؤخرة المركب . أماما مركب موت وخونسو

وكذلك المركب الملصكية . فبالرغم من أنها كانت أقل حجما إلا أنها كادت تماثلها روعة .

ولم يكن بالأمر الهين أن تتحرك هذه المراكب وحدها ، فكانت تشد أولا إلى مجرى النهر ، وهذا يتطلب استخدام جيش بأكمله ، مسكونا من جنود بلا بسهم الرسمية ، مرتدين مآزرهم الحربية ومسلحين بالحرايب والبلط الصغيرة والذريع . يحيط بهم حمة الأعلام والشارات ، والبجاعة . وقبل بدء العمل يرتلون نشيدا لأمون ويمسك الرجال المسكفون بسحب المراكب الحبال المفتولة وبشجهم الرؤساء ، بل كان الأهالي الذين هرعوا إلى الشاطئ يعاونونهم أيضا . وأثناء ذلك كانت النساء تحرك الصلاصلا والصاجات ، ويصفق الرجال بأيديهم ، ويقرعون الطبول بمصاحبة الأنغام اللذيذة وانايد الجنود ، ويرقص الزنوج متشابكين ويشبون منتشين ويمر بين الأهالي ناخو النفير والجنود وقد وضع كل منهم ريشة في شعره . وأخيرا يكون قد مر الوقت العصيب ، وتم سحب المراكب المقدسة إلى مجرى النيل الكبير بعد أن عاونتها مراكب شراعية أو مراكب تعمل بالمجاديف ، تحت إشراف « رئيس » كان يفرق بسوطه . ويتبع هذا الموكب الساحر قوارب من كل الأنواع والأحجام « ويرى قارب صغير أبيض ، على شكل طائر ، له دفة هيتت على شكل رأس آدمى محملة بما كولات حتى الحافة ، كما يرى أحد بحارته وقد أخذ بعيد ترتيب حمرائه ، وآخر يشكل هرما من الفاكة والخضر .

والأهالي الذين أتوا من كافة الجهات ليشاهدوا هذا الاحتفال ويشاركون فيه بقدم ما يستطيعون ، قدم ملأوا شاطئ النيل . وكان يجمعهم هذا المنظر أعجاب ، وقد أقيمت الخيام والمشارب في كل مكان ولا يفتأ التموين من الطعام يتدفق من كل ناحية ، وكان يرد على هيئة قطعان من الثيران والمجول

والغزلان والطيوس والطيور والماعز البرى ، هذا بجانب سلال الفاكهة والبخور اللازم لتطيب الهواء وتنقيته. وعندما تذبح الثيران سرعان ما يسلخ جلدها في المجازر التى أقيمت فى العراء ، وتقطع إلى أجزاء ثم ينقلها الحاملون إلى البيوت الصغيرة ذات الأعمدة والزخارف المبهجة ، على بعد خطوات ، حيث الطهاة يعدون الطعام . ولا ينقطع الجنود الليبيون عن دق الطبول وعلى رنين الصلاسل والصاجات المتواصل ، تتمايل الرافعات وصدورهن عارية .

والهدف من هذه الرحلة التيلية هو أوبت Opet القبلية حيث يكون آمون معبود السكرتير ضيفاً على مدينة الأقصر لمدة بضعة أيام وليس لدينا معلومات دقيقة عن الطريقة التى كان يقضى بها آمون وقته . ولم يكن آمون إلا حديث عهد ضمن مجموعة المعبودات المصرية . وقد استقر فى طيبة فى أوج عهدها التاريخي . والمصريون هم الذين جعلوا له من موت زوجة ومن خونسو ابناً ، إذ يتعين أن يكون لأقوى معبود أسرة إلا أننا لانعرف له أسطورة خاصة . وكما أن آمون ورث عن مين بعض ألقابه وبعض صفاته ، فقد استطاع أن يعبره بعض عناصر من قصته الأسطورية . وقد يمكن حينئذ خلال هذه الحفلات التى لا تنتهى ، تمثيل بعض فصول من أسطورة آمون ، سواء كانت صحيحة كلياً أو جزئياً ، أمام فرعون ، عن المساعدة الفعالة إلى قدمها آمون لرئيس الثانى عندما أحاط به أولئك الجنود اللثام من الحيثيين .

ومهما يكن من أمر فإن الاحتفال كان ينهى بمجرد عودة الاسطول المقدس وكانوا يجمعون من المراكب الكبرى ، الزوارق الصغيرة ويعودون بها إلى أماكنها داخل المعابد ، التى كانت بها منذ أربعة وعشرين يوماً مضت . ومرة أخرى يتسكون نفس الموكب ، يتقدمه قارعو الطبول مخترفاً طرق الكباش ، غير أنه يعود فى كثير من الهدوء وقليل من الضجة . وكان

الملك بعد هذا الموكب على ثقة نامة بأنه سيمتلك كل الخيرات التي يمكن أن ينالها إنسان من المعبودات وهي : طول حياة رع - ومهمة قوم - والحصول على سترات الخلود وهو متول عرش هورس في سرور ونشاط، والانتصار على جميع بلاد الدنيا - وقوة آمون أبيه المتجددة كل يوم - وتولى ملكة الوجهين - ويكون له شباب الجسد والأبنية التي لا تبلى ولا تهدم مثل السماء للأبدية وتكون الطيور الرشيقة طوع وإرادته وتبقى دورة قرص الشمس دائما أمام وجهه .

أما الشعب فقد أكل وشرب وهلل وأخذ يمرح ما يقرب من شهر كامل . وقد قرعنا بمشهد عظيم وشعر أن خير به وحتى حياته وحرية وقف على هذا الرجل الذي يشبه الآلهة والذي طاف بوالده آمون بين معبدي الكهنة .

٧ - عيد الوادي

يقلع مركب آمون المقدس من مرساه للاحتفال بعيد آخر ، هو عيد الوادي . (٢٥) وكان يعبر النيل تشده المعبودات ، ويفسر بعض العلماء (هذه العبارة) بأن المتسكرين الذين يضعون أقنعة ضخمة على مثال سحرة أفريقيا الاستوائية هم الذين كانوا على هيئة المعبودات وكانوا يسحبون المركب . وهذا على أية حال مجرد تفسير خاطيء كما لو كنا نفترض أن الأطباء والقابلات والمرضعات والمرضعات عن كانوا يعنون بالملكة أو بطفلها الحديث الولادة كانوا يرسمون على هيئة معبودات على جدران معابد الأقصر والدير البحري . ويبدو أن ليس لهذه المناظر أدنى قيمة مثالية بل تبرهن فقط على مدى العناية التي كانت الآلهة تمنحها لفرعون ومدى تقبها لكل أعماله وتقديرهم للجهد الذي يبذله في سبيل تجميل مدينة آمون .

وعيد الوادى كانت مدته أقصر من مدة عيد أوبت إذ كانت تستمر عشرة أيام فقط ، فيخرج الملك من القصر مرتدياً زياً بسيطاً يتبعه حاملاً المظلات وخدمه ويرتدى قبل أن يدخل المعبد فوطه ، فاخرة ، ويضع فوق رأسه أغلى غطاء للرأس فيه قرص الشمس وریش وثعابين الكوبرا وقرون الثور وقرون الكباش . والغرض من هذه الرحلة هو دعوة آمون لزيارة معابد الضفة الغربية ، فيتخذ هو الأعمدة في معبد الرمسبوم مكاناً مختاراً يستريح فيه ، ويستقبل ملك الآلهة ، زيارة المعبودات شفعاء الموتى . وهكذا يترك نغمسـال الملك المقدس امنحتب الأول معبده محملاً على نقالة يرفعها ويحيط به آخرون يحملون الأسواط الملكية ومهركون مراوح ذات أيدٍ طويلة ومظلات ، وكانت تنتظر الملك ، في قناة قريبة ، مركب مقدس يحمله إلى الأوزيرحات Ousirhat* (٢٦) وعندما يجتمع شمل المعبودات كلها تقام الحفلات لصالح العدد الكبير من الموتى الذين يرفقون في سرايب الجبل الغربي .

٨ - الأسرار الربنية

لم تكن الاحتفالات بخروج المعبودات تطول أياماً عديدة ، ولم تكن تجذب إليها وفوداً كبيرة من الأهالى إذا لم يكن منظم الاحتفالات قادراً على جعل المشهد متنوعاً ، فسرعان ما يمتزى الإنسان الملل من رؤية مركب عمه بالذهب بصفة دائمة أو من مشاهدة رقص مستمر على دق الطبول . فلأجل اجتذاب اهتمام الأهالى ، فكروا منذ أقدم الأزمنة في تمثيل أشد الوقائع إنارة في حياة المعبودات وأفضل من ذلك أيضاً أن يتولى الحجاج أنفسهم تمثيل دور هؤلاء الآلهة . ويعلم المصريون جميعاً أن أوزيريس كان ملكاً

* أوزيرحات هي مركب آمون المقدس الكبير .

محناً ، كما يعرفون كيف قتله ست وألقى به في النيل وكيف وصل جسده إلى أرض جبيل وكيف عاد منها إلى آخر القصة ، وكانوا جميعاً يستطيعون الاهتمام في شوق لتمثيل هذه المأساة المثيرة وكان في إمكان الكثيرين منهم القيام بالأدوار الصغيرة ، أما الأدوار الهامة فتترك للـحترفين .

وأكثر تمثيلات أوزيريس إنارة هي تلك التي كانت تمثل في أيدوس (Abydos) وأبوصير (Bousiris) ، حيث يبذل المخرجون مجهوداً عظيماً في أدق التفاصيل سواء في ذلك ما يختص بالملابس أو الإخراج وكافة ما يلزم للتمثيلية كان يعمده الموظفون في دقة وعناية (٢٧) وكانت تتضمن هذه التمثيلية .. موكبا يقوده المعبود أوب واوات فاتح الطرق ، وكان الأعداء يحاولون اعتراض موكب سير المعبود ولكنه كان يصل منتصراً حتى داخل المعبد .. أما تمثيل قتل المعبود فكان يجري في احتفالات عيد آخر أو في فصل ثان أو كانت تروى وقائع القصة على الأقل . فيتوجه المتفرجون ويتجه موكب عظيم إلى مقبرته ، وفي حفلة أخرى يمثل مقتل أعداء أوزيريس فيعم الجمهور الفرح عندما يرى المعبود وقد أعيدت إليه الحياة ويعود إلى قصره في أيدوس مستقلاً المركب نشمت Nechmet وفي أبوصير Bousiris ، يعرفون عود أوزيريس بالجبال وكانت الجماهير ترتص وتقفز وقد غمرها السرور ، ومن بين الأمالي تمثل جماعتان سكان Pé & Dep به ودب البلدين المتفارين وكانتا تتعاركان بالسكم والرفص تمهيداً لاعتلاء هورس العرش . وفي سايس Saïs حيث شاهد هيرودوت تمثيلات ليلية على حافة البحيرة المستديرة مثلث فيها قصة المعبود بكل تفاصيلها وما جرى فيها من آلام وعذاب وما تضمنتها من تلك الرحلة العجيبة إلى جبيل وتحول المعبود إلى عمود .

كما اتبعت لهيرودوت الفرصة في أن يزور پاپيريس l'apremis في شمال شرق مصر وهي مدينة كرسست لست ، قاتل أوزيريس وقد شاهد فيها إحدى التمثيلات من نفس النوع وليس هذا مستغربا لأن ست كان معبودا محاربا . وقد نقل تمثال المعبود وهو في تابوته خارج الاملاك المقدسة بحرسه رجال الدين ولما حان وقت عودته كان يوضع فوق عربة ذات أربع عجلات . وما لبث أن هجم أكثر من ألف شخص مسلحين بالعصى الغليظة على الكهنة الذين كانوا يحرسون التمثال ، وأنت لهؤلاء إمدادات من الرجال . وأصبحت الاشتباكات عنيفة . وفي نهاية المعركة ، كانت الأعين المصابة والجناجم المكسورة تفوق الحصر . ومع هذا فإن أهل المدينة زعموا أن هذا لم يكن إلا مجرد مزاح . ويرمز هذا إلى أن ست عندما أراد أن يدخل بيت أمه ولم يعرفه الخدم فتعوه من الدخول فذهب وأحضر نجدة أبعدت عن طريقه من كانوا يريدون منعه من الدخول (٢٨)

وفي أمبوس* في مصر العليا كان جوفينال Juvenal قد شاهد تمثيلا مشابهاً ولكنه لم يكن بصيرا كبيرا ودوت إذ أن احتقاره للمصريين جعله يعتقد أنه يشاهد معركة حقيقية بين فريقين متعادين فقال إن حتما قديما فرق بين أمبوس وندره ، لأن أهالي كل من هذين البلدين يحترق معبودات الآخر . وحدث أن إحدى البلدين كانت تحتفل بعيد معبودها وقد أعدت المناضد والامرة لمدة أسبوع وكان الجميع يرقصون على نقات المزمار عندما ظهر أهالي البلد الآخر وابتدأت في الحال معركة كانت أولا بقبضات الأيدي ثم تطورت بالقذف بالأحجار ثم أخذوا يتقاتلون بالسهم ، وأخيرا هرب أهالي ندره ونزكوا خلفهم واحدا منهم على الأرض . فأمسك به أهالي

* في إقليم التنتين وهو بعيد ست .

أمبوس وقطعوه إربا والنهوا لحه نيثا. (٢٩) وفي الواقع أن أمبوس التي يطلق عليها المصريون اسم نوبت Noubit كانت إحدى مدن ست أمادنдре فكانت من أملاك حاتور . وقد وقعت مشاجرات في أمكنة كثيرة مجاورة بين أم هورس ومريديها ، من ناحية ، وبين المعبود المخرب المحب للشجار ، من ناحية أخرى ، وما شاهدته جوقينال كان إحدى هذه المعارك التي رسمت في العصر المتأخر وتنطوى على الصخب أكثر مما تنطوى على ضرر حقيقى (٣٠) .

ويوجد في كل الأقاليم ، وفي كافة المدن ، من الطقوس الدينية والقصص الخلية ما يمكن أن يستخلص منه مادة غزيرة للتمثيلات . ولا يمكن الشك عندما نتصور فقط نخامة المعابد وعدد رجال الدين والموظفين الذين كانوا يشتركون في الحفلات إلى أى حد كان الشعب المصرى محبا للانتقاد والوم . ففرعون نفسه هذا المعبود الذى لم يكن ليتسنى لأحد الاقتراب منه دون أن تعثره الرعشة من الخوف كان هدفا للنقد فقد قيل عنه في القصص إنه قد ضرب خمسمائة عصا (٣١) وقد خدعته نساؤه وهو أعجز من أن يتحمل المسئولية أو يتخذ قرارا فكان بذلك عبدا للمستشارين والسحرة ، وفي غفلته يسرقه مهندسوه . كذلك شأن المعبودات فإنها تنطوى على كافة العيوب والذائل وتتصف بالضعف البشرى بأنواعه ، لاكرامة لها . وكان على المجلس في اجتماعه أن يختار بين هورس وست ليحل محل أوزيريس في القيام بمهامه ، وظل الأمر معلقا ثمانين عاما دون أن يبت فيه وبقى كل من المتنافسين ينتظر الحل . ولم يكن يقابل استهتار ست وعريده . إلا غباوته وبلاوته . وكان هورس ، عندما يضرب ، يبكي كطفل . وعندما دعى سيد العالم المعبودة نايت Neith لتبرهن له عن مدى احترامها لقراراته ، لم نجد افضل من أن ترفع رداءها أمامه . (٣٢) أما المعبود شو فيقال إنه تصب ذات

يوم من حكم العالم ، فطار إلى السماء . والمعبود جب Geb الذى خلفه فكر في أن يضع على رأسه الثعبان الكوبرا الذى مكن شو من أن يفوز بكل انتصاراته . ولكن ياله من مغرور ! مديده ليمسك الصندوق الذى به الكوبرا ، فالثعبان ، ابن الأرض ، انتصب فجأة وألقى كل سمومه على وجه المعبود ، فلما شعر بقسوة الحرق وشدة الألم ، أخذ يجرى على غير هدى بحثاً عن الترياق . (١٣)

وفي المسرحيات الشعبية التى كانت تمثل داخل المعابد ، إما فى الآفنية أو أمام الصروح ، أو على حافة الأحواض المقدسة ، كانت المعبودات تعامل بطريقة أليفة تنطوى على البساطة تقلد أساطير المعبودات المقدسة ولم يقتصر التقليد على التمثيل فقط ، بل كانوا يجعلون الأبطال والآلهة يتكلمون ولم تصل إلى أيدينا أى تمثيلية مصرية من هذا النوع ، وينبغي أن نقنع ببعض النصوص مثل بردية الرمسيوم التى أعاد نسخها الملك سباكون Sabacon من أصل قديم وقد ورد فيها فقط ذكر عناوين بعض المناظر وبعض الردود أو الملحوظات اللبقة وأجزاء بسيطة من محادثات مدونة فوق بعض المناظر من الحياة الخاصة فى المقابر ، وخاصة فى مقابر الدولة القديمة ، على أن وجود هذا المسرح يمكن أن يعتبر أمراً مؤكداً خاصة بعد أن عثر المعهد الفرنسى فى أفقو على لوحة تذكارية لممثل هزلى محترف يقول فيها : كنت أصحب سيدى فى كل جولاته دون أن أكل أو أمل من إلقاء أدوارى . وكنت أرد على سيدى فى كل أدواره . فإن كان معبوداً كنت ملصكاً ، وإذا قتل أحداً كنت أعبد الحياة للقتيل . (١٤)

وكانت هذه التمثيليات المسرحية دون شك ، أهم مميزات تلك الاحتفالات

والأعياد التي كانت تظل ممتدة أياماً كثيرة دون أن يعترى الشعب المصرى الملل أو السأم.

٩ - بيت الحياة

كانت أكثر المعابد تتضمن داخل أسوارها مدارس، وليس فقط مدرسة للأولاد الصغار لتعلم القراءة والكتابة ولكن أيضاً معاهد فنية يتعلم فيها الرسامون والحفاريون والمثالون، الذين يستخدمون مواهبهم في تمجيد فرعون والآلهة. وكانت هذه المعابد تضم أيضاً مكتبات تحفظ فيها وثائق المعبد ومجموعة من النصوص المختلفة الأنواع، نسخها عدد كبير جداً من الكتاب وبها أيضاً كتب في علم الأخلاق والآداب والفلسفة، التي كانه يحتاج إليها صغار الطلبة، كما كانت تضم كتباً فنية. وعندما أراد الملك نفرحتب Neferhotep أن يطلع على كتب قوم، قالت له الحاشية: فلتدخل جلاتكم المكتبات ولتتفضلوا بالاطلاع على الأحاديث المقدسة، وقد وجد الملك بالفعل كتاب منزل «أوزيريس ختي أمتيو Osiris Khentiamentiu» سيد أيدوس^(١٥). وكانت بعض المعابد تحتوى على أبنية أكثر أهمية من ذلك تسمى «بيت الحياة»^(١٦).

ويذكر لنا الملك رمسيس الرابع نفسه أنه كان يتردد بانتظام على بيت الحياة في أيدوس. وباطلاعه على مدونات نحوت السنوية، التي كانت محفوظة هناك أمكنه أن يعلم أن أوزيريس هو أشد المعبودات غموضاً، وأنه هو القمر وهو النيل وهو الذى يملك في العالم الآخر. ويهبط إليه إله الشمس كل ليلة، ويكون الروح المتحدة التي تحكم العالم. ويدون نحوت أوامره، وعندما اطلع على تلك المدونات الحولية التي يعرف وقائعها كما لو كان هو الذى درستها، نين له تنوع الموضوعات التي تناولها البحث والموضوعات التي

يمكن الإفادة منها . وعندما أراد أن يحصل لنفسه على تابوت من حجر بنحس
Bekhen من وادى روهانو Robarou وجد في الحوليات أخبار البعثات
السابقة التي أحضرت الكثير من التوابيت والتماثيل إلى مكان الحقيقة ،
والمعابد

وعندما عين الأمراء والعسكريين وكبار الموظفين الذين يكونون الهيئة
العليا لبعثته لم ينس أن يضيف إليهم كاتباً من « بيت الحياة » . وعندما
استقبل أحد الرعاسه سفير أمير بختان Bakhtan رأى لزماً عليه أن
يستشير كتاب بيت الحياة قبل أن يرد عليه . وعندما اكتشف في عهد
بطليموس فيلادلف كبشاً مقدساً جديداً . أرسل سكان مدينة مندىس طلباً
إلى الملك يلتمسون فيه أن يسمح بأن يفحص كتاب بيت الحياة هذا
الكبش .

وقد بين لنا مرسوم كاتوب أن هؤلاء الكتاب كانوا يشتغلون بالفلك ،
كما كانوا يشتغلون أيضاً بالسياسة وهكذا كان اثنان من كتاب بيت الحياة ،
من بين الذين تأمروا ضد رمسيس الثالث . ومن بين هذه الشواهد وغيرها
يمكن أن تستنتج أن بيت الحياة كان عبارة عن هيئة مكونة من العلماء ورجال
الدين وذوى الخبرة العباقرة ، وهم الذين يحافظون على التقاليد الدينية وهم
الذين يحررون حوليات الملوك والمعابد وهم الذين يسجلون الاكتشافات
العلمية وتقدم الفنون . وهم للذين اخترعوا الكتابات السحرية ذات الرموز
الخاصة . ويبدو في الحقيقة أن هذه الاكتشافات وهذا التقدم قد نشأ في
بيوت الحياة .

ويشير هذا كله إلى أن المعبد كان مركز الحياة المصرية ، وهو قبل كل شيء منزل المعبود وفيه تقام شعائر العبادات والشكر على ما أنعم به على البشر من خيرات وهو أيضاً مركز النشاط الاقتصادي والثقافي . وقد أنشأ به رجال الدين ، المصانع والمحازن والمدارس ومكتبة ، وفي المعبد ، وفي المعبد وحده كان يمكن أن يكون لنا الحظ الذي ناله أفلاطون بمقابلة العلماء والفلاسفة وفي المعبد أيضاً نشأت وتكونت التمثيليات التي استمدت موضوعاتها من القصص والأساطير والتقاليد القديمة والتي كانت عند المصريين بمثابة الدراما والكوميديا (مآسى الحياة وملاهيها) .

الفصل الثاني عشر

الجنازات

١ - السجود

كتب لنا كل من بتاح حطب Ptah hotep الحكيم ، وسنوحى المغامر عن الشيخوخة في صراحة فوصفاها بأنها سن القبح ، و سن الضعف الجسدى والمعنوى. ويصبح الإنسان ضعيف البصر ، ثقيل السمع ، ضعيف الذاكرة: لا يستطيع أن يقوم بعمل إلا وهو يشعر بإعياء شديد ، ولا ينتفع بالطعام الذى يأكله . (١) ومع ذلك فقد كان المصريون جميعاً يتمنون أن يبلغوا هذه السن المرذولة ، مثلهم في هذا مثل سائر البشر . والشيخ الذى احتفظ بمظاهر الشباب بفضل العناية الصحية وبقيت قواه المعنوية سليمة كان يثير إعجاب الجميع . فكبير الكهنة روى Rome - Rov قد أقر بأنه بلغ الشيخوخة وهو فى خدمة آمون الذى غره بمطقه ، حيث يقول : إن أعضاء جسمى تتمتع بصحة طيبة - بصرى قوى ، والطعام الذى ألقاه من معبده يبقى فى فمى . (٢) وقد تناول الحديث فى البلاط الملكى رجلاً مسناً من الطبقة الوسطى قيل إنه بلغ من العمر ١٠٠ سنة وأكل بشية حتى اليوم خمسمائة رغيف من الخبز ، وكتف ثور ، ويشرب مائة جرة من الجمرة . ولكن لم يذكر بوجه التحديد إذا كان يأكل كل هذا الطعام فى يوم أو خلال شهر أو فى فصل من حصول السنة أو فى سنة بأكملها . وكان هذا الرجل المسن ساحراً عالماً ، وقديراً قوياً . فاعتزم فرعون استدعائه ليقم بحواره ، ووعد بأن يطعمه أطايب الطعام التى يمنحها الملك من المتون المخصصة لأفراد الخاشية ويتمتع

بكل ذلك حتى يلحق بآبائه في الجبانة . وقد كاف ابن فرعون نفسه بالقيام بهذه الدعوة . . فقطع مسافة طويلة من الرحلة في سفينة ، ثم قطع مسافة ثانية على كرمى محمول على محفة لأن العربات لم تكن قد عرفت بعد . فوجد من كان يبحث عنه ممدداً على حصيرة أمام باب بيته ، وكان أحد الخدم يروح له بالمروحة . وآخر يلدك له قدميه . . وعندما حياه الأمير ، أجاهه في بشاشة قائلا :

« سلام عليك ، سلام عليك يا ديديف حر Didifbar ، أيها النجل الملكي المحبوب من والده . ليمنحك أبوك خوفاً ذو الصوت العادل ، أثناء العاطر وبعل شائك ، لتكون مثل من بلغ أشده من الرجال . ولتتمكن ووحك (الكا ka) من إحباط محاولات أعدائك . . ونفسك (الباه ba) تعرف الطريق السرى الذي يوصلك إلى البوابة ، فد الأمير ذراعيه وعاونته على القيام وقاده ممسكا بيده حتى شاطئ النهر . فوصل الإثنين في ثلاثة سفن إلى القصر الملكي حيث قابلهما الملك فوراً . وعبر الملك عن دهشته لأنه لم يسبق له أن تعرف بهذا المواطن الوقور أ كبر رعاياه سناً ، فأجاب الضيف ببساطة نبيلة وكان تعبيره مثالا للبلق ، قال : « مولاي وسيدى إن من بأنى هو الذى يستدعى - فقد دعيت وهأنذا قد حضرت . » (٢)

وما كانوا يسمونه ، في العرف السائد ، بالشيخوخة السعيدة ، لم تكن الشيخوخة الخالصة من الأمراض أو العاهات بل كان يجب أن يصحبها السخاء أيضاً أو على الأقل سعة العيش ، والذي يصل إلى مرتبة الشخص المحترم أمأكخو Amakhou لم يكن يكفل له العيش في أيام الشيخوخة فحسب ، بل كان يمكنه أن يعتمد على أن يكون له قبر جميل . فعندما عاد منوحي من المنفى منع منزلا تملكه ، ويصلح لأحد رجال الحاشية . اشتغل كثير من

العمال في بنائه وكانت أعمال النجارة فيه من الخشب الجديد ، وليس من مخلفات مبان قديمة . كان يؤتى إلى بالطعام من القصر الملكي ثلاث مرات وأربعا كل يوم ، علاوة على ما كان يمدنى به دائماً أنجال الملك . وبعد أن كان سنوحى يتسلم القرايين الجنائزية الملكية ، أصبح الآن يقوم بالإشراف على تشييد بيته الأبدى ، فزوده بالآثاث ونظم في دقة كل ما يتعلق بصيانة مقبرته وبالحفاظلة على المراسيم الجنائزية .^(١) وكان هذا العمل مما يسر له كل شيخ طاعن في السن ، وخاصة إذا كان هذا الشيخ صديقاً للملك ، وكان الملك أن يمنح أو أن يرفض ، وفقاً لرغبته ، هذا اللقب أماخو Amakhou المرغوب فيه بين الناس . وبما أن الملك كان بناء على وصف المداحين له ، حبيب القلب وعادلاً وقديراً وعليها بكل شيء . فقد كان الأهالي واثقين من أنه لن يرضى بالإفهام بهذا اللقب على أحد من خدموه بإخلاص .^(٢) وكان كبار الدولة يتخذون أعمال الملك نموذجاً يحذرونه .

لقد كان عدد الخدم والموظفين كبيراً لدى حكام المدن والولايات ورؤساء الدين وقواد الجيش ، وكل من بلغ من هؤلاء الخدم والموظفين سن الشيخوخة كان السيد الرحيم يلحتمهم بوظيفة يسيرة تناسب وقوام المضمحلة وبذلك يكفل لهم العيش والمأوى إلى أن تحين ساعتهم . لذلك كان فرعون ، بالرغم من أنه لم يغفر لسنوحى فراوده عندما كان في سن الشباب لا يرغب في أن يجرمه من حقوقه الأساسية ، فسمح له بأن يعود إلى مصر عندما علم أنه أصبح على وشك الشيخوخة . ذلك أن مصر لم تكن تفرط في شيوخها كما لم تكن تضحى بأبنائها . على أنى لا أريد أن أجزم بأنه لم يحدث في هذه الأرض المباركة أن وارثاً متمجلاً أهى عمر أحد مورثيه الذى كان يعلن جهاراً وفي إصرار عن رغبته الملحة في أن يعيش إلى سن

العاشرة بعد المائة . لقد حدث أن ملوكا خلعوا عن عروشهم ، ولكن يلاحظ أن أمنجات الأول الذي حكم نحو عشرين سنة ، عهد بالحكم الفعلى إلى ابنه . وقد عاش بعد ذلك حياة مستقرة ما يقرب من عشر سنوات . استطاع خلالها أن يدون وصاياه الصارمة . والملك آپريس Apries ، وقد هزم وخلع عن عرشه ، ربما استطاع أن يحتفظ بحياته ، لو أنه لم يستثر غضب المصريين بقسوة لا مبرر لها . وعلى الجملة فقد كانت مصر من البلاد التى تغنى بالمعمرين فى حياتهم .

٢ - زده الأعمال

ينخطئ كثيرأ من يعتقد أن المصريين القدماء كانوا يرغبون فى الانتقال من أرض الأحياء ، فهم يعلمون أن الموت لا يستمع لآى شكوى إنه لا يلين لضراعة أو شفاعاة . وعشنا يتذرع الإنسان بأنه لا يزال شابا ، إذ أن الموت يحتطف الطفل وهو رضيع من بين ندى أمه ، كابدرك الرجل عندما يصبح طاعنا فى السن ، (٦) وعلى كل ، فما قيمة تلك السنين التى يعيشها الإنسان على الأرض مهما طالأت ؟ إن الغرب هو أرض الرقاد والظلام المالحك ، هو المكان الذى يقيم فيه من جاء إليه ، وهؤلاء الراقدون المكفنون فى لغائهم لا يستيقظون إلا لرؤية أخوتهم وليكنهم لا يرون آباءهم ولا أمهاتهم وتنسى قلوبهم زوجاتهم وأولادهم ، والماء العذب الذى تمنحه الأرض لمن يعيش عليها هو بالنسبة لى ماء آسن ، يأتى الماء بالقرب من كان على الأرض ، أما الماء الذى يجاورنى فهو آسن . (٧)

إن خير ما يعبر به رجل متدين عن العالم الآخر هو أن الإنسان يتخلص فيه من منافسيه ومن أعدائه ، وأنه يجد الراحة أخيرا ، كى لاحظ أن

بعض المتشككين أخيراً . يذهبون إلى القول بأنه ، لا يعود إلينا أحد من الموتى ليقول لنا كيف حال المتوفين وماذا ينقصهم حتى تطمئن قلوبنا إلى أن تأتي الساعة التي سنذهب فيها بدورنا إلى حيث ذهبوا ، . ويقول هذا الحكيم أيضاً ، إن كافة المقابر تنهار ، وقد طمست أيضاً معالم مقابر الحكماء القدامى ، كأن لم توجد من قبل ، (أ) .

ومع ذلك لم يستنتج من قول هذا الحكيم أنه من العبث أن يعد المرء مقبرته في مثل تلك العناية وأن يفكر في أمر الموت ، قبل أن يأتيه بمدة طويلة ، ولو أنه قال ذلك ، ما استطاع أن يقنع معاصريه . لأنهم كانوا وهم في عهد رمسيس ، يماثلون أسلافهم من عهد بناء الأهرام ، يقومون بإعداد انتقاهم من هذا العالم إلى الآخرة ، في عناية ودقة . لأن انتقال الموتى إلى العالم الآخر ، كان يعد اختباراً رهيباً : إنه وزن أعمالهم . فالملك الطاعن في السن الذي حرر وصاياه لمرى كارع Merikare ، كان يحذر أبنه من القضاة الذين يظلمون الناس . وقد قاده هذا الموضوع إلى الحديث عن نوع آخر من القضاة :

« يجب ألا تؤمن بأن كل شيء سينتهي إلى عالم النسيان في يوم الحساب ، لا تعتمد على طول سنى الحياة ، فإن الحياة عند الآلهة ساعة واحدة مما تعدون ، ذلك أن حياة الإنسان تستمر بعد وفاته ، وأن أعماله تتكدر بحواره . ومن تقدم بين يدي قضاة الموتى دون ذنوب ، كان بمثابة إله . واستطاع أن يسير في حرية مثله في هذا مثل سادة الأبدية (١) لقد واثقتنا ابن رمسيس أوسر مارع ، فرصة لا مثيل لها ، إذ دخل الامنتيت Amentit حياً ، حيث شاهد الإله الكبير أوزيريس جالسا

على عرشه الذهبي الخالص ، متوجاً بالتاج ذى الريشتين وعن يساره الإله الكبير أنوب ، وعن يمينه الإله الكبير تحوت كما كان عن يساره آلهة نصح البشر في الأمتيت ، وعن يمينه الميزان المقام في الوسط أمامهم حيث كانوا يزنون السيئات مقابل الحسنات بينما كان الإله الكبير تحوت يقوم بدور الكاتب المسجل ، وأنوب يتحدث إليهم ، كان المتهمون يقسمون إلى ثلاث فئات : فئة كانت سيئاتهم تفوق كثيراً حسناتهم ، وهؤلاء يسلمون إلى الكلية المريعة أمايت Amait وفئة كانت فضائلهم تفوق رذائلهم ، وكان هؤلاء بمقادير لينضموا إلى مجلس الآلهة . وفئة أولئك الذين كانت سيئاتهم تعادل حسناتهم كانت توكل لهم خدمة المعبود سوكر أوزيريس - وهم منقلون بالنهاية . (١٠)

كان المصريون يعرفون تماماً أن عدداً قليلاً جداً منهم سوف يمثل أمام القاضي الأعظم ، دون أن تكون له ذنوب ، فكان ينبغي لهم إذن الحصول من الآلهة على الصفح عن السيئات وأن يتطهروا من أدرانهم . وكان هذا الرجاء شائعاً جداً بين الناس وكثيراً ما ذكر في الصلوات الجنائزية .

• لقد انمحت خطاياي وطرححت ذنوبي جانباً وانهارت معاصي ، (١١)
إنك تلقى ، بخطاياك لدى نن نسوت Nen-nisout . (١٢)

• تطهرتك الساحرة الكبرى . . عليك أن تعترف بخطيئتك التي سوف تمحى ، لعمل أشياء مقابل كل ما تكون قد فعلته (١٣) . تحية لك يا أوزيريس في ديدو Dedon إنك تستمع لحديثه ، فتمحو ذنوبه ، وترفع صوته فوق صوت أعدائه وتثبت قواه في محكمة هذه الأرض (١٤) إنك ثابت بينما يسقط أعداؤك ، وكل ما يقال عنك من شر ، لا وجود له . إنك تمثل بين يدي مجلس الآلهة الكبير وتخرج منه صادق القول . (١٥)

وقد وضع الفصل الخامس والعشرون بعد المائة بأكله من كتاب الموتى لتخليص المذنبين من أدرانهم وخطاياهم ، وكان المصريون ينسخون هذا الفصل على ورق البردى ليوضع داخل التابوت بين ساقى المومياء . ويحبل لقارى . هذا الفصل بأن ما جاء به ما هو إلا قرار سابق لحماكته ، لكنها محاكمة يدور كل شئ فيها على خير ما يرام ، ولسبب لا نعله ، سميت قاعة المحكمة ، قاعة الحقيقتين ، يجلس فيها أرزيريس على العرش داخل معبد صغير ، وتقف خلفه شقيقته ، أيزيس ونفتيس ، بينما يصطف في الداخل أربعة عشر من النواب ، وقد نصب في وسط القاعة ميزان كبير ، حلى مسنده (فى أعلاه) نارة برأس الحقيقة ونارة برأس أنوبيس أو رأس نحوت . ويتربص وحش بجوار الميزان لحراسته . ويلاحظ في وسط القاعة كل من نحوت وأنوبيس وفي بعض الأحيان هورس والحقيقتان وهم جميعاً منهمكون فى العمل ويقوم أنوبيس بإدخال الميت مرتدياً ثوباً من الكتان فيجبي القاضى وكاهن الآلهة الحاضرين ، قائلاً : نحية لك أيها المعبود الكبير . سيد الحقيقتين ، لقد أتيت إليك ماثلاً أمامك . وعندما أحضرونى إليك رأيت كمالك ، إن أعرفك وأعرف اسمك وأعرف اسم الآتين والأربعين معبوداً الذين بجوارك فى هذه القاعة : قاعة الحقيقتين ، إنهم أولئك الذين يعيشون حراساً براقبون الأشرار ويرتوون من دمهم فى هذا اليوم الذى أعد لوزن الطباع والأخلاق أمام السكائن الطيب ، ثم يسرد تصريحاً مطولاً عن برادته ، فى عبارات سلبية : « لم أرتكب إثماً ضد البشر لم أسىء معاملة أحد من رجالى لم أكفهم القيام بعمل ما فوق طاقتهم لم أفر على الآلهة ولم أعذب الفقير ، لم أجوع أحداً ولم أطفف فى الكيل ، لم أقل فى القياس بالقصة ، لم أغش فى مساحة الحقول ولم أقل فى الوزن . لم أحذف شيئاً من ثقل الميزان ، لم أغش فى الوزن ، لم أنزع اللبن من فم الأطفال الصغار لم أعوق سير المياه فى موسم الفيضان ، لم أعطل سير الإله عند خروجه . »

وبعد أن يكون قد دافع عن نفسه سنا وثلاثين مرة بأنه لم يقم بعمل ما هو مسكروه في نظر الأتقياء ، ينتهى إلى القول بأنه كان طاهرا ، لأنه كان أنف معبود النسيات ، منبع حياة كل من عاش في مصر . ثم يكرر ما قاله لإظهار برامته كأنه يخشى ألا يصدقوه ، فيعيد إقراره الدال على برامته ، متوجها نحو الاثنين وأربعين معبودا بالتوالى ، والذين كان قد حياهم عند دخوله القاعة . وهم يحملون ألقابا مفرقة مثل : واسع الخطوة ، مبتلع الظلام ، مهشم العظام ، آكل الدم ، الصائح ، ملعن القتال ، وبعد أن يذكر كل اسم ينشئ ذنباً من ذنوبه ، ويستطرد قائلاً إنه لم يكن يخشى أن يقع تحت طائلة سلاح القضاة لأنه لم يسب الإله ولم يهن الملك لغضب ولكن لأنه قام أيضاً بعمل ما قاله الناس وما وافق عليه الآلهة ، فإنه قد أَرْضَى الإله بعمل ما يحبه ، أعطى الخبز للجائع والماء للعطشان ، وكسى العارى وأعار معديته لمن أراد عبور النهر . وهو ممن يقابلون بالترحاب حين يراهم الناس فقد قام بعمل الكثير من أعمال البر والتقوى تلك الأعمال التى تستحق المدح . ومن أمثلة ذلك أنه استمع إلى حوار القطة والحمار الذى نأسف جداً لعدم معرفتنا له . ولم يكن ليبقى إلا أن نستخلص النتيجة العملية من هذه التجربة أو هذا الاختبار ، فعلى إحدى كفتى الميزان وضع قلب من تجرى محاسبته وعلى الكفة الأخرى تمثال صغير للحقيقة ، ولكن ماذا يحدث لو افترضنا أن القلب قد تكلم ، فكذب صاحبه : لتلافى هذا الخطر صيغ الانبهاًل ، موضوع الفصل الثلاثين من كتاب الموق وهاك نصه :

يا قلبي ويا قلب أمى ويا مصدر تصرفاتى لا تشهد ضدى ، لا تعترضنى أمام القضاة ، لا تجعل وزنك يعلو فى غير مصلحتى أمام سيد الميزان فإنك الروح فى صدرى والخالق الذى يمنح السلامة لأعضاء جسمى ، لا تسمع

جان تفوح من اسمي رائحة كريهة ، لا تقل أكاذيب ضدى أمام الآلهة . وبعد أن يناشد القلب بهذا التوصل ، يستمع صامتا إلى هذين الاعترافين ، وكانت النتيجة محققة النجاح ، فإن أنوبيس يوقف ذبذبة الميزان ويعلن أن الكفتين متوازيتان ولم يبق على تحوت إلا أن يسجل نتيجة هذا الوزن مقرر أن الطالب قد انتصر وأنه ماع خرو صادق القول ، وبهذا ينضم إلى ملكة أوزيريس أحد الرعايا الجدد . أما الغول الذى كان يأمل فى أن يلتم هذا القادم الجديد فانه يظل باقيا فى انتظاره . هل كان المصريون يعتقدون حقيقة أنه يمكن أن ينكر الانسان ذنوبه كتابة ليحورها من ذاكرة الآلهة والناس . قد ورد فى بعض المؤلفات الحديثة عن العقيدة الدينية للمصريين القدماء أن الفصل الخامس والعشرين بعد المائة من كتاب الموتى هو نص سحرى ، وكلمة سحر ، تعنى أشياء كثيرة ، يجب على علماء الآثار المصرية ألا ينسوا أبدا أن الكتاب الذى يشمل البحث عن طريقة إعادة الرجل الطاعن فى السن إلى شباب يافع ، قد وصف بأنه نص سحرى ، وعندما تمت دراسة هذا المؤلف ، تبين أنه عبارة عن وصفات للتخلص من مظهر الشيخوخة البغيضة مثل التجمعات والحبوب واحمرار الجلد (١) ويبدو لي أن مصنف الوصايا لمرى كارع ، عندما قرر أنه لا يمكن لإنسان أن يمدح القاضى الأعظم ، فلم يكن إلا معبرا عن رأى السائد فى هذا الصدد ، ويمكن التاكيد أن المصرى عندما يكون قرر أنه طاهر ، أو زعم فى إصرار بأنه لم يكن قد اقترف ذنبا ، فربما يكون قد تخلص حقا ، خلال حياته من ذنوبه ونقل خطاياهم . هذا هو الاعتقاد الجازم الذى كان يجرده من الخوف من الآخرة .

وكان الهدف الجوهري أن يعلن أنه أصبح ماع خرو Maa-kherou

اعنى الصادق القول ، ولم يكن أحد يستحق هذا اللقب إلا إذا دافع شفوياً عن نفسه أمام القضاة. وليس من الممكن إحصاء عدد المصريين الذين دونت أسماءهم على اللوحات التذكارية أو الجنائزية أو التوابيت أو جدران المقابر وقد وصفوا بأنهم ماع خرو . وقد ظن البعض أن هذه العبارة هي مجرد أمنية دينية كان يستعملها الأحياء إما لأنفسهم أو لأقاربهم أو لأصدقائهم. وأن هذه الأمانة لا تستجاب إلا في الآخرة . وكان هذا الاعتقاد سائداً إلى حد أن أصبحت عبارة ماع خرو تعتبر عملياً كأنها مرادفة لكلمة المرحوم. (١٧) وعلى كل ، فإننا نعلم أن أفراد من المصريين كانوا قد حملوا هذه العبارة أثناء حياتهم كان هذا هو حال خوفو الذي اتهمه الإغريق بعدم التقوى ، في حين أنه كان ماع خرو عندما كان يستمتع لأولاده وهم يقصرون عليه الواحد تلو الآخر ، قصص المحرة وكان هذا أيضاً حال پارميس وقت أن كلفه حرمب بإدارة أعمال معبد أوبت الكبرى قبل أن يصبح الملك. رمسيس الأول (١٨) كما كان حال كبير شعب ماشيشنق Ma Cheebang ولم يكن قد ولي بعد ، ملكا باسم شيشنق الأول (١٩) وباكن خونسو كبير كهنة آمون ، كان ذا صوت عادل عندما تفضل عليه رمسيس الثاني وسمح له بأن يقيم تماثله في المعبد حيث اختلطت بجماعة المرضى عنهم (٢٠) وكان عمر رمسيس الثاني حينذاك ٩١ سنة ، وقد عاش بعد ذلك بضعة سنوات . وأحد خلفائه ، رمسيس ناخت كان أيضاً قد لقب بنى القول الصادق (ماع خرو) كما نرى ذلك في نقوش وادى الحمامات التي تسرد موضوع الخلة الكبرى التي أرسلها رمسيس الرابع إلى جبل بنجن في السنة الثالثة من حكمه .

ولكنه كان حياً أيضاً في السنة الرابعة في عهد ملك يرجح أنه لم يكن إلا رمسيس الرابع أو رمسيس الخامس (٢١) وبجمل إلى أن هذه الأمانة

تكفى لإثبات أن المصريين كانوا يصبحون ماع خرو في حياتهم وهم لا يزالون يسرون على أقدامهم . ولكن كيف كان الحصول على هذا اللقب الجليل مستطاعا ؟ وقد كان أوزيريس أول من حمل لقب ماع خرو . وعندما كانت زوجته الوفية قد ردت إليه الصحة الكاملة والحياة ، كان هو قد رفع دعوى ضد قاتله ست أمام المحكمة المقدسة برياسة الإله رع ويمكن من استصدار حكم بإدانته (٢٢) .

ولم ترض إيزيس أن تظل معاركها وعلامات تقاניה وإخلاصها لزوجها معصورة في عالم النسيان ولذلك قامت بوضع أسرار جد مقدسة يتخذها البشر مثالا ووسيلة للتسلية . وفي هذه الأسرار كانت تمثل الآلام التي تحملها أوزيريس وكانت لا تزال تمثل حتى عصر هيرودوت . وفي الأزمان القديمة التي ترجع إلى عهود أقدم من ذلك بكثير ، كانت تمثل أيضا معركة أنصار أوزيريس لتخليص جسد سيدهم والعودة به منتصرا إلى معبد أيدوس . كما مثلت أسرار الخماكة وقد ورد في الفصل الثامن عشر من كتابه الملقى ببيان عن المدن المحظوظة التي جرى فيها تمثيل هذه الأسرار وهي : أون On وديدو Didou وإميت Imit وخم Khom وبه Pê ودب Dep ورختي Rekhti في الدلتا وروسيئاو Ro-setaou وهو أحد أحياء مدينة منف وفارف Narek في مدخل الفيوم وأيدرس في مصر العليا . وبدى أن كل مصري تقي كان يمكنه أن يضمّن خلاصه في الحياة الأخرى إذا هو اتبع ما قام به أوزيريس . فقد ورد في نهاية الفصل الخامس والعشرين بعد المائة تحذيرا لا يمكن توجيهه إلا إلى الأحياء : يتلى هذا الفصل حين يكون المرء غليظا ونفيا ، مرتديا ملابس الحفلات ومنتعلا نفلا أبيض اللون مكحول (م ٢٢ - الحياة في مصر)

العنين بالسكل الأسود، مدهون الجسم بالزيت والبخور من أجود الأنواع ، وبعد تقديم قربان كامل من العجول والطيور والربنتين والخبز والبيرة والخضر ، وقد أضاف أيضا النص المقدس ما يأتي : « ومن قام بعمل ما ذكر نفسه فإنه يصبح قتيلا * ويكون أولاده أشداء ، وينال رضا الملك وكبار الدولة ولا ينقصه شيء . إطلاقا ، ويتهى أخيرا بأن يكون من حرس أوزيريس . » ويمكن الآن أن نتصور سر هذه المحاكمة التي كان يمكن أن يتخلص فيها المصريون من ذنوبهم . ومن كان منهم يعتبر أن أيامه معدودة وأنه على وشك الرحيل إلى الأبدية ، إما لأنه أصبح شيخا أو لأنه مريض ، وإما لأن إحدى التحذيرات السرية التي كان يبعث بها أوزيريس في بعض الأحيان إلى من سيلحقون به قريبا في ملائكته قد مسته . (١٢) فإن هؤلاء جميعا كانوا يتجهون أفواجا إلى إحدى تلك المدن التي ذكرتها سابقا . وكانوا يتخذون لأنفسهم الاحتياطات الميمنة في الوصية التي سبق أن أشرت إليها : فكانوا يحرصون بنوع خاص ألا ينسوا أن ينفقوا ما يلزم لتقديم القربان الكامل .

وتوحي تلاوة الفصل الخامس والعشرين بعد المائة بأن سر المحاكمة كان يشمل فصلين . فأوزيريس ، هو الذي يقوم في أول الأمر بإثبات براءته ، فيخاطب المعبود رع ويثبت بست وثلاثين عبارة ، السالفة الذكر ، بأنه لم يرتكب إثما في أى لحظة من السنة . فيردد المؤمنون بدورهم صدى هذا الإقرار المعبر عن البراءة ويشعرون بارتياح وقوة للحكم الذي صدر ببراءة المعبود . ولم يكن هذا مع ذلك كافيا . فترك أوزيريس أريكة المتظلمين (المتوسلين) ليجلس على مقعد القاضي ، فيقوم المؤمنون بتلاوة الاعتراف

* في النص أخضر والراد القوة وسلامة البدن .

الثاني السبي ويتقدمون كل بدوره نحو الميزان ، الواحد بعد الآخر وكل منهم يحمل شكل قلب من اللازورد نحت عليه اسمه ، ويوضع هذا القلب في إحدى كفتي الميزان ويوضع في الكفة الأخرى تمثال يمثل الحقيقة ، ويستطيع كل من الحاضرين أن يتحقق من أن الكفتين متعادلتان فيعلن رسمياً بأن المدان ، طاهر الصوت ، ويسجل ذلك . وكان يمكنه أن يعود ، بعد ذلك إلى مقره وهو متأكد من أن أبواب الآخرة لن تغلق في وجهه .

٣ - إعدام المفجرة :

الآن وقد أصبح كل مصري مطمئن النفس فلم يعد له إلا أن يكرس كل جهوده لحيته الأبدى * .

أما الملوك فكانوا يبادرون دائماً إلى عمل ذلك قبل أوانه بزمان طويل ، ذلك أن بناء هرم ولو كان متوسط الحجم لم يكن أمراً هيناً فكانت توفد بعثات كبيرة حقيقية لنقل كتل الجرانيت والمرمر حتى هضبة الجزيرة أو سقارة . ومنذ بداية عهد الإمبراطورية الحديثة نقلت الجبانة الملكية إلى وادي الملوك غربي طيبة . وخلفاء رمسيس الأول ، بالرغم من أنهم كانوا أصلاً من الدلتا ، فقد قلدوا هؤلاء الذين خلعواهم ليتولوا العرش مكانهم واستمروا في الحفر في جبال طيبة لإنشاء هذه السرايب التي كان يبلغ طولها أحياناً نحو مئة متر ، وكانت تزخرف جدرانها بزخارف عجيبة تملأ كل جوانبها وغرفها .

وتمثل هذه النقوش رحلة رع الليلية في المناطق الاثنتي عشرة في العالم السفلي ، ومكافئته ضد أعداء النور ، وليس شيء من كل هذا يذكر ما قام الملك بعمله خلال حياته . لم تكن هذه النقوش تتعلق بالآثرين

إذ أن المقبرة الملكية لم تكن قد أعدت لاستقبال أى زائر ، فإنها كانت مكانا مغلقا وكان ينبغي أن يظل مدخله سريا . (٢٤)

ولكن مقابر الأفراد كانت على عكس ذلك تماما ، كانت المقبرة تحتوى عادة على جزئين مختلفين تماما ، القبر ويحفر داخل بئر ويكون في حقه ، وأعد لدفن الميت . وعندما يرقد المتوفى في تابوته بعد اتمام المراسيم الأخيرة ، يسد مدخل القبر بإقامة جدار عليه وتردم البئر وبعد ذلك كان يجب ألا يقلق أحد وحدته . وكان يقام فوق هذا القبر مبنى أعد لزيارة الأحياء . وواجهة هذا المبنى كانت تقام داخل فناء ، حيث تعرض لوحات تذكارية وجنازية تتناول كل ما كان للمتوفى من فضائل وكل ما قام به من خدمات ، بقصد إثارة إعجاب الأجيال القادمة .

وفي داخل هذا الفناء ، وبحوار حوض المياه قد تغرس أشجار النخيل والجيز (٢٥) وكان هذا الفناء يؤدي إلى قاعة عرضها عادة أكبر من طولها أما زخرفتها فكانت أخاذة حقا . إذ أن سقف القاعة نفسه قد زخرف بزينات نباتية ورسوم هندسية ذات ألوان زاهية . والنقوش التى تكتسب الجدار أو الأعمدة كانت تمثل حياة المتوفى في أعظم مراحلها الخاصة . ويوصفه من كبار الملاك كان يراقب أعمال الحقل ويقتنص الغزلان في الصحراء ويليقي عصا الرماية على الطيور المائية والحربة على فرس النهر ويساهم كذلك في صيد السمك . وكرئيس لورش آتون كان يشرف على أعمال النقاشين والنحّاتين والصياغ والنجارين الذين يعملون في خشب الأبنوس . ويوصفه أحد كبار الموظفين كان يجمع إيرادات المملكة . وكجندي ، كان يقوم بتدريب الجندين الجدد . وقد رسم وهو في قاعة العرش ، يقدم للملك أفواجا عديدة من المندوبين الأجانب الذى وفدوا من بلاد لا تعرف مصر .

وظهورهم محدودة ثن من ثقل الجزية التي يحملونها ملتسمين من الملك
نسمة الحياة .

وبعد أن يقوم الزائر بتفقد هذه القاعة يجد نفسه في عمر كبير ، يرى
على جدران المتوفى وهو في سفينة متجهة نحو أيدوس ويرى على الجانب
الآخر من الممر مراحل الدفن وقد تمت طبقا للراسيم المعروفة . ويؤدى
هذا الممر إلى قاعة أخيرة لا تعبر النقوش التي على جدرانها إلا عن مدى
تقوى المتوفى ، فيرى وهو يعبد الآلهة وكان يصب المياه المقدسة تكريما
لهم ، ويقدم لهم موقدا تتأجج فيه النيران ، ويتلو الأناشيد وفى مقابل ذلك ،
كان يكافأ بالتهام الأطعمة التي تتجدد دائما والتي كان يستحقها نظرا لتقواه
وفطنته . (٢٦)

وبدسى أن التابوت كان أهم قطعة فى الأثاث الجنائزى . وكان نفر حطب
فى حياته قد تفقد أكثر من مرة المصنع الذى كان يصنع فيه تابوته فشاهد بهذا
مشواه الأخير ، يحرق فوق مقعدين صغيرين والعمال حوله . بعضهم جالسون
وبعضهم واقفون وكلهم عاكفون على تليعه والحفر عليه وطلائه بالرسوم .
كما شاهد أيضا الكاهن وهو يرش عليه المياه المقدسة . (٢٧)

ولم يكن الملك ولا الأغنياء يكتفون بتابوت واحد - فكانت مومياه
بسوسنس Psousennès بالرغم من أن القناع الذهبى يحمها ، كانت موضوعة
داخل تابوت فضى على شكل مومياه ، وهو موضوع فى تابوت آخر من
الجرانيت الأسود يطابق التابوت السابق تماما فى شكله . وكان تابوت
الجرانيت موضوعا بدوره داخل صفحة مستطيلة الشكل منسعة نوحا
ومزخرفة من الداخل ومن الخارج برسوم تمثل الآلهة المكلفة بحراسة

المومياء . وقد رسم على طول الغطاء المققب صورة المتوفى متسجماً بصفات أوزيريس ، بينما رسمت على غطاء التابوت من الداخل المعبودة نوت إلهة السماء تحوط بها القوارب وبجوعات . الكواكب وجسمها الافرقت الرشيق يمتد بضعة سنتمترات فوق تابوت الجرانيت الأسود . أما الملك فيتمتع بجمال المعبودة وهو محقق فيها دائماً بعينه المصنوعتين من الحجر ، بينما تمنحه تلك المعبودة قبله الأبدية .. وبهذا تتحقق أهم الفئيات التي كان يرجوها كل مصري لحياته الأبدية ، وهي أن يصبح من سكان السماء سائحاً بين النجوم التي تجمل الراحة والكواكب السيارة التي تجمل الهلاك . وقد نقش على جوانب التابوت ، يستطيع أن يرى من خلالها إما رع أو أوزيريس وكذا الأبواب التي كان يعبرها كلما أراد الخروج من قصره أو العودة إليه . وبديهي أن الآثا كان يختلف من فاحشي النوع والفخامة طبقاً لمقدرة المتوفى . فكان آثا توت عنخ آمون يفوق كل خيال أو تصور : أسرة للزينة وأسرة للراحة وأرائك وعربات ومراكب ودرايب وصناديق وخزائن ، ومقاعد ذات مساند ومقاعد عادية ومقاعد صغيرة ، وكافة أنواع الأسلحة وكافة أنواع العصي المعروفة في عصره ، وأدوات للزينة ولعب وأطباق وأدوات للمائدة وأشياء خاعة بالعقيدة الدينية .

وبوصفه عضواً في ملكة أوزيريس ، كان على الملك أن يسكر . فروض التقوى التي كان قد قام بها في حياته ، وكرت أسرة ومليك كان عليه أن يواصل استقبال أطفاله وأقاربه وأصدقائه ، ورعايا ملكته . وكان عليه أن يدمم بالطعام . وليتمكن من تحقيق هذه الفكرة ، كانت تعدله أطباق وأدوات بوفرة . وكانت توضع جانباً ، قطع عديدة من أواني المائدة الملكية ، بقصد نقلها إلى المقبرة ، كما كانت تغطي الطيور أيضاً وقطع اللحوم والأفاكة والحبوب والمشروبات ، وعلى الجملة كل ما يؤكل ويشرب .

كان يستكمل التابوت بخزانة خشبية أو حجرية وبأربع أوان. تلك التي نسميها خطأ الأواني الكانوية . وكانت هذه الأواني معدة لتوضع فيها أعضاء الجسم الداخلية التي تنزع منه أثناء عملية التحنيط ، وكانت الأواني توضع تحت رعاية الآلهة الأربع والآلهات الأربع ، فأمست Amset أحد هذه الآلهة كان له رأس آدمي ، وحابي Hapi له رأس قرد يشبه السكلب .

ودوامونف Douamoutef له رأس ابن آوى وقبح سنوف Qebehsenouf له رأس صقر . ففطاه الإناث الأول كان يمثل رأسا آدميا . بينما كانت الثلاثة الأخرى تمثل إما رأس قرد أو ابن آوى أو صقر . وكان بعض المهرفين يظنون أن هذا غير كاف ولذلك كانت تصنع لهم تواييت صغيرة من الذهب أو الفضة ذات أغطية وأوعية تشبه التواييت الحقيقية . وكانت توضع فيها اللقائف الصغيرة المخططة ثم توضع هذه التواييت الأربعة الصغيرة في أوران من المرمر .

إن حقول مالو Maou التي كان أوزيريس مسيطرا عليها كانت بمثابة حديقة كانديد Candide ، تعد أجمل بقعة في العالم ، ولكن كان يجب أن تمهد للزراعة كما تمهد أى أرض زراعية حقيقية ، فيجرى حرثها وبذرها ، واقتلاع حشائشها وحصدها . وصيانة قنوات الري بها وإجراء أعمال أخرى لا ندرك بالضبط مدى فائدتها: إذ كان يجب مثلا نقل الرمل من شاطئ نهر إلى الشاطئ الآخر وهذه الأعمال التي يعتبرها مالك الأرض أعمالا طبيعية وضرورية كانت بالعكس ، لا تطاق بالنسبة لأولئك الذين قضوا حياتهم في البطالة أو كانوا يمارسون مهنة أخرى غير مهنة الفلاحة .

لم يعتقد أى شعب بقدر ما اعتقد المهرليون بأن التماثيل سواء التي تمثل أشياء أو

أحياء كان لها إلى حد كبير قوة فعالة وخواص الشيء الذى تمثله ، وبذلك يكون قد وجد الدواء تماما . كان يكفي أن تصنع تماثيل ليسكون فى إمكانها أن تقوم بعمل المتوفى نفسه . وكانت هذه التماثيل تصنع من الخرف المطفى ، وبعض الأحيان من البرونز ، وكانت على شكل مومياء . وفى بعض الأحيان كان الوجه يشبه وجه شخص بالذات . وإنا نعتقد بحق بأن المقصود فعلا كان تصوير شخص بالذات . وإذا لم يقصد من التمثال الشبه التام فإن الغرض من صنعه قد يصل إليه الإنسان على أى الحالات بالكتابة المنقوشة عليه أو فوق قاعدة على الأقل ، وذلك بذكر اسم ولقب الشخصية المقصودة والى سيجل التمثال محلها ، « اوزيريس كبير كهنة آمون رع سوتير حورنختى *Amonrasonty* Hornekhti » ، وكثيرا ما كان النص الذى ينقش على قاعدة التمثال يبين تماما الأعمال التى ينبغى للتمثال أن يؤديها . فقد كتب على قاعدة تمثال أوزيريس ، « أيها التمثال إذا كان اوزيريس قد نودى عليه واستدعى وكلف بالقيام بكل الأعمال التى يجب أن تعمل هنا ، فى الجبابة ، كما يقوم الإنسان بعمل ما يخصه لاستغلال حقوله ورى أراضيه ونقل الرمل من الشرق إلى الغرب ومن الغرب إلى الشرق ، واقتلاع الحشائش الضارة كما يعمل الإنسان تماما فى أموره الخاصة ، فاعليك إلا أن تقول : هاأنذا أفعل » .

وعندما اندفع المصريون نحو هذا الاتجاه ، ضاعفوا من صناعة هذه التماثيل ليتلافوا إلى الأبد القيام بأعمال السخرة الثقيلة الوطأة . وكانوا يقومون بنقش الآلات والأجولة بين أيدي التماثيل أو على ظهرها ويضمون إلى العمل المكتبة والملاحظين إذ كان لا مفر من أن يوجد الموظف الذى استدعى الضرورة وجوده بجوار كل فرقة من فرق العمال الزراعيين . وأخيرا صاروا يصنعون بالجملة كل أنواع الآلات والأشياء فى صورة مصغرة ويضعونها تحت

تصرف التماثيل الصغيرة . فكانوا يصنعون مثلاً ، النير ، للسقامين وحاملى
الرمال وسلالا ومقاطف وقنوسا ومعاول إمامن البرونز وإمامن الخرف .
وهذه الأدوات كان يكتب عليها اسم التماثيل التى كانت تخصها وذلك لتلافى
سرقتها أو استخدامها فى أغراض غير التى قصدت منها أصلاً . (٢٨)

وقد أوحى هذه الفكرة إلى صناعة تماثيل صغيرة ، تصور نساء عاريات
لوضعها فى خدمة المتوفى . فكان للملوك والأمراء محظيات فى حياتهم ولم
يرغبوا فى فقد هذه العادة التى ألفوها فى العالم الآخر ، فقد وجدنا من هذه
التماثيل فى مخدع بسوسنس . كان البعض منها يحمل اسماً ينتمى إلى أصل
ملكى والبعض الآخر مجرد اسم امرأة . وإننا لنشفق على هذا الملك لو أنه
كان يختار محظياته فى حياته كما لو كان يختار عرائس يلمو بها . (٢٩)

كانت المومياة مفرمة بالزينة وبالحلى تماماً مثل الأحياء . وعلى كل
حال فقد كانت المومياة تزين غالباً بالجواهر التى كان يستعملها المتوفى أثناء
حياته ، وفى أغلب الأحيان كانت تصنع جواهر وحلى جديدة لهذه المناسبة .
وهناك قائمة بما كان يلزم لمومياة ملك أو أحد كبار الشخصيات : (٣٠) القناع
من ذهب إذا كان الملك أو للأمراء المقربين من أصل ملكى ومن الورق
المقوى أو من المصيص المطلى إذا كان للأفراد . الجيد ويتكون من لوحين
رقيقين صلبين من الذهب مغلفتين على شكل نسر مبسوط الجناحين .

قلادة واحدة أو أكثر من الذهب ، ومن الأحجار ومن الخرز المصنوع
من الخرف مكون من عدة صفوف من الخرز أو قطع صغيرة ولها قفل واحد
أو قفلان ، وتزود فى بعض الأحيان بدلاية من الذهب أو من الأحجار
المتساوية الحجم من الخرف ، وبحلية للصدر واحدة أو أكثر من حلية
هذه سلاسل . والشكل الذى كان يستعمل عادة هى الجواهر المنحثة حاملة
فى أجنحتها إيزيس ونفتيس . وكان ينقش على ظهر الجعران دعاء القلب

المشهور : « يا قلبى ، ويا قلب أوى ويا أيها القلب الذى لازمتنى فى جميع أطوار حياتى ، لا تنفك لتشهد ضدى أمام القضاة ولا تجعل كفة الميزان تنقلب فى غير مصلحتى أمام حارس الميزان اذ أنك الروح (السكا) التى فى جسدى والإله خنوم الذى يحرص على أن تكون أعضاء جسمى سليمة ، لا تجعل اسمى تفوح منه رائحة كريهة ولا تسيء إلى سمعتى ولا تفتر على الكذب أمام الإله . »

جعارين أخرى بعضها ذات أجنحة والبعض الآخر ليس له أجنحة ، تحمل نقوشا واسمها دون إطار . وقلوب من أحجار اللازورد ذات سلاسل نقش عليها اسم المتوفى .

أساور بعضها لين وبعضها صلب ، بعضها مفرغة ، وبعضها صلب للمعاصم والأذرع والأغخاذ ولقصبه الأرجل . وحلقة للأصابع . — أصابع الأيدي وأصابع الأقدام . وخواتم لكل الأصابع .

ونعال :

ونمائم وتمائيل صغيرة للآلهة تعلق فى رقبة الميت أو تشبك على حلقة الصدر :

واسكن أنوب Anoup وتحوت Thot من الآلهة التى يناط بها بنوع خاص مهمة حماية المتوفى ، وذلك للدور الذى يقومان به أثناء عملية وزن الأفعال وقد يختار غيرهما أحيانا . ولم يستخف بأمر الصقور أو النسور ذات الأجنحة المبسوطة ولا برؤوس الصلال ، إذ أن الصل هو الحارس للمزلاج الذى يحكم غلق أبواب مختلف أقسام العالم الآخر . كما لم يستخف بنائم أوزيريس وإيزيس ولا بالعين السليمة (اوجا) .

وكان ينبغي أن يضاف أيضا إلى كل هذه الرينات نماذج النماثيل المصنوعة من عدة أشياء مثل العصي ، والصولجانات والأسلحة والشعارات الملكية أو الإلهية التي كان يحسن دائما أن تكون في متناول الأبدى .

ولم يكن أمرا هينا أن يقوم الإنسان باختيار الأشياء وطلب صنع أشياء مختلفة ومعقدة إلى هذا الحد ، فإن ذلك يتطلب إتفاق أموال كثيرة وملاحظة تنفيذ صنع هذه الأشياء ومراقبة العمال للتأكد من حسن صنعها . إذ أن مستقبل الميت كان يتعلق إلى حد كبير بمدى العناية التي يبذلها لإعداد بيته الأبدى وأثاثه وحليه مهما ظن في هذا الصدد بعض المفكرين المسكتبيين ، إذ أن العالم الآخر ليس مكانا للراحة والهدوء فحسب بل أنه مليء بالمكائد التي لا يمكن التخلص منها إلا إذا اتخذت في هذا الشأن الاحتياطات الكافية تماما .

٤ - واهبات لاهوتيين

كان المصري الطاعن في السن يعرف كيف يشيد بيت المستقبل ، بيت الأبدية . وكان يقوم بزخرفته وفقا لذوقه وامكانياته وعهد إلى التجارين وصانعي العربات بصنع مختلف أنواع الأثاث . ثم حصل من الصائغ على الحلي وعلى مجموعة وافرة من التعاويذ والنماذج . ويبدو أنه لم يجد ينقصه شيء من الضروريات التي يحتاج إليها في العالم الآخر ، ومع ذلك فلم يكن راضي النفس ، إذ كان يعتقد أنه لم ينل كل ما يصبو إليه ، ويجب على ذريته أن يعنوا بأمره بأمانة وتقوى ولا يسكني أن يؤدوا واجباتهم الأخيرة نحوه بنقله في احتفال لائق إلى مقر إقامته الجديدة فحسب بل يجب عليهم أن يعنوا بروحه مستقبلا من جيل إلى جيل .

قال أحد نبلاء المصريين : « لقد عمدت بوظائفي لابني خلال حياته - حررت له وصية بالإضافة إلى الوصية التي حررها لي والدي. وأقيم بيتي فوق أساساته وحقل ظل في مكانه وبيتى ثابت الأركان وكل ما أمتلك باق في مكانه فابني هو الذي سيجعل قلبي يحيا على هذه اللوحة التذكارية . سيعمل من أجلى . . سيكون وريثا وابنا صالحا ، وكانت العقيدة السائدة أن الابن يحى اسم الأب والأجداد ، وكان ذلك يذكر دائما في النصوص الجنائزية . فكان حابي جفائى Hapi-Djefai حاكم أسبوط قد عين فجله كاهنا لروحته و « وبوازي هذا التعبير ، ما نغير عنه بعبارة ، منفذ الوصية . . فالأمرال التي قد يتسلمها الابن بهذه الصفة هي أموال ممتازة يجب أن تقسم بين الأولاد الآخرين بل والابن نفسه لا ينبغي له أن يوزعها على أولاده ، فعليه أن يسلمها كاملة لواحد من أولاده يعينه ليتولى الإشراف على مقبرة الجد وملاحظة المراسم الدينية التي تؤدي لإحياء ذكراه . كما يجب أن يشترك هو شخصيا في أداء هذه المراسم . (٣١) »

كانت هذه الحفلات تقام بنوع خاص ، بمناسبة عيد رأس السنة وعيد أواجا الذي كان يحتفى به ثمانية عشر يوماً بعد عيد رأس السنة في المقبرة وفي معبد أوب واوات سيد إقليم أسبوط وفي معبد أنوب سيد الجبانة أيضاً وكان كهنة أوب واوات يذهبون إلى معبد أنوب قبل رأس السنة بخمسة أيام ، ويضع كل منهم رغيفاً للتمثال الموجود بالمعبد . . وفي اليوم السابق لعيد رأس السنة يعطى أحد موظفي معبد أوب واوات إلى كاهن القرين شمعة سبق أن استعملت في المعبد ويقوم كبير كهنة معبد أنوب بعمل مماثل فيسلم شمعة سبق أن ساعدت في إنارة معبد أنوب لشخص يسمى رئيس موظفي الجبانة الذي يذهب بها إلى المقبرة

بمصاحبة حراس الجبل حيث يقابلون هناك كاهن القرين ، ويعطونه هذه الشمعة .

وفي يوم رأس السنة يقدم كل من كهنة أوب واوات رغيفاً من الحبز لتمثال حابي جفأى عندما تنتهى إنارة المعبد . ثم يصطفون خلف كاهن القرين ويحتفلون بذكراه . ويقوم كذلك من جانبيهم كل من رئيس الجبانة والحراس بإعطاء رغيف وبيرة وهم يحتفلون باحتفال مماثل ، وفي مساء يوم رأس السنة يقوم موظفو معبد أوب واوات الذين سبق أن أعطوا شمع عشية الأمس بتقديم شمعة ثانية . ويقوم كبير كهنة أنوب بدوره بمثل هذا العمل وتستخدم الشموع التي قد بورت لأنها سبق أن استخدمت في المعابد لأنارة تماثيل المتوفى ، كما كان الأمر في الليلة السابقة .

وقد تكرر إقامة هذه الحفلات بأكلها تقريباً بمناسبة عيد أواجا Ouga . وفي معبد أوب واوات يعطى كل الكهنة رغيفاً أبيض للتمثال . ثم يكونون موكباً خلف كاهن القرين لتمجيد حابي جفأى . ثم تضاء شمعة ثالثة طول الليل أمام التمثال .. ثم يتجه موكب كهنة نحو أنوب الدرج التذكاري الضخم الذى يؤدى إلى مقبرته وهم يرتلون أناشيد لتمجيده . ويضع كل منهم رغيفاً أمام التمثال الموجود فى هذا المكان ، وتضاء له الشموع مرة أخرى .

أما الكاهن الذى يؤدى مراسم الخدمة الدينية ، فعندما ينتهى منها يقدم خبزاً ورجعة لنفس هذا التمثال . ويقوم شخص آخر وهو رئيس الجبل فيضع أرغفة وجرار الجعة بين أيدي كاهن القرين لتخصص للتمثال .

وبزعم حابي جفأى بأنه لم يترك فى عالم النسيان فى أعياد أوائل الفصول

أو جيلين مهمما أحاطها مؤسوها من ضمانات . أو بعبارة أدق كانت إرادات هذه المؤسسات تقول لصالح الموتى الحديثين (٢٣) وقد رأينا ملوكا وبعض الخاصة يؤمنون أنهم يؤدون عملا صالحا عندما يقومون بترميم الأبنية الجنائزية ويزودون أطعمة موائد القرايين . ولكن الكثير من هذه المنشآت قد انهارت نهائيا خلال الحرب ضد الكفار . وقد أصبحت مصر في أعقاب تلك الحرب وخلال الفوضى التي تبعتها في حالة انهيار أو على الأقل في حالة من الفقر فأصبحت عاجزة تماما عن الاهتمام بأمر الموتى القدماء .

٥ - التحنيط

لم يعد هناك شيء في هذه الأرض يجلب للمصرى البقاء ، بعد أن أخطره أوزيريس - وقد كان لدى المصرى الوقت الكافى لإتمام بناء بيته الأبدى ، واتخاذ الترتيبات التي أوحى بها إليه عقيدته الدينية واحترامه للتقاليد المتبعة . وفي اليوم الذى يعرفه إلى الشاطئ الآخر وهو التعبير الذى كان يستعمله المصريون ، لأنهم كانوا لا يحبون استعمال كلمة الموت .

كان أقاربه يظلون في حالة حداد مدة لا تقل عن سبعين يوما . فكانوا يرفضون كل عمل يتطلب مجهوداً ، ويلزمون البيوت ، ساكتين واجبن ، وإذا اضطروا إلى أن يخرجوا فقد كانوا يلطخون وجوههم بالطين كما فعل أنوبيوس عندما اعتبر أنه فقد أخاه الصغير ، وكانوا يلطمون باستمرار قبة رؤوسهم بأيديهم (٢٤) . وإنما كانت ثمة مهمة أخرى عاجلة تتطلب اهتمامهم وهي تسليم الجثة إلى المحنطين واختيار طريقة التحنيط . وكان التحنيط على ثلاثة أنواع كما ذكر هيرودوت ودiodore . فالتحنيط من الدرجة الأولى كان يتطلب

مزبدا من العناية ووقتا طويلا.. كان ينزع المخ من الجمجمة كما كانت تنزع كافة الأعضاء الداخلية عدا القلب، وكانت تعالج على حدة بمواد خاصة وتوزع إلى أربع ربطات توضع كل منها في أوانى كأطب الأربعة وكان يستعاض بكية من مواد التحنيط عن هذه الأعضاء التى انتزعت من الجسم، بعد تنظيف الجسم مرتين. ثم يملح الجسم بالنظرون وهو إحدى المواد التى تتوافر بوادى النظرون والملاحات الموجودة فى غرب الفيوم، كما كان يوجد فى منطقة السكاب نجب Nekheb. وكان المصريون يستخدمونه فى مختلف الأعمال وخاصة فى تنظيف بيوتهم. وفى نهاية مدة السبعين يوما، كانت تغسل الجثة ثم تلف بأربطة مقصوفة من نسيج الكتان ومشبعة بالصمغ وكان هذا العمل يتطلب لإتمامه إلى مواد مختلفة لا يقل عددها عن خمسة عشر مادة منها: شمع النحل لتغطية الأذان والعيون وفتحة الأنف، والفم والقطع الذى أجراه الجراح لفتح البطن، وخيار شنب والدارصينى وزيت خشب الأرز وهو فى الحقيقة الزيت الناتج عن شجرة العرعر، والصمغ والحنة وثمار العرعر والبصل ونيدز النخيل (عرق البلح). وعدة أنواع من المواد الراتنجية ونشارة الخشب والزفت والقطران. وبديهي أن النظرون كان هو المادة الأساسية. وكانت تملب بعض هذه المواد من الخارج وبصفة خاصة الزيت والقطران إذ كانا يستخرجان من شجر الصنوبر فى لبنان، لذلك عندما كانت تعطل السياحة بمرأ إلى جبل، ينتاب المحنطين وعلام الأثرياء السكابة والحزن لاضطرابهم إلى اللجوء إلى مواد أخرى للاستعاضة بها عما ينقصهم. (٢٤)

وعندما ينتهى هذا العمل، يصبح الجسد هيكلًا عظميا مكسوا بمجلد أصفر اللون، ولكن الوجه يظل محتفظا بشكله الأصلي، وبذلك التعرف عليه. بالرغم من الحدود الغائرة والشفافة الدقيقة فبعد مرور عدة قرون، يمكنه

أن تصور عندما نرى مومياة سيتى الأول Setou I كيف كانت ملاح هذا الملك العظيم وتعبير وجهه ملاما يتاح لكثير من الأجسام المنحطة .

ولقد كان الوقت لكساء المومياة وتزيينها بالحلى . وكانت تعلق العقود والقلائد والتقايم وتوضع الأساور والكفوف والخواتم والصدائل . ويمكن الجرح الذى قام به الجراح الذى استخرج منه الأعضاء الداخلية كانت توضع فوقه صفحة سميكه من الذهب على شكل ورقة قد نقشت عليها عين أوجا وأحيانا كانت تلك العين ترصع فوق الصفحة الذهبية لأن خاصيتها شفاء الجروح ، كما توضع أربعة آلهة لحراسة الأوتار الكانوية ثم توضع أيضا نسخة من كتاب الموتى بين ساقى الجسد ، لأنه المرشد الذى لا غنى عنه فى الآخرة . وبعد ذلك يلف الجسد بأكمله والأعضاء بلفائف من الكتان . ثم يوضع القناع على الوجه ، وكان ذلك القناع مصنوعا من القماش ومن خليط المرمر المسحوق والجير لعامة الناس . أما قناع الملوك وبعض الشخصيات الكبيرة فكان يصنع من الذهب وكان يربط بخيوط إلى ثياب من خرز . (٢٥) ثم تلف الجثة أخيرا بأكلمها بكفن يثبت بوساطة شرائط متوازية . وبدلاً من هذا الكفن كانت مومياة شيشق التى وجدت فى تانيس فى القاعة الداخلية لمقبرة بسوسنس ذات غطاء من الورق المقوى - رسمت عليه بطريقة ارتجالية استخدمت فيها وريقات ذهبية ولوحات دقيقة جسدا من القيشاني الأزرق أشكال الزخارف المنقوشة أو التابوت الفضى . (٢٦) وكانت تمثلها إلى حد ما . ولو أتبع خلال اجراء هذه الأعمال السالفة ، للنجارين وصانعى العربات والسلاح وغيرهم من الصانع المتخصصين الذين اشتركوا فى انجاز المهمة الخاصة بالاثاث الجنائزى بالفراغ من عملهم فى همة ونشاط كان من الممكن (م ٢٨ - الحياة فى مصر)

الشروع في وضع الجثة في التابوت وإجراء مراسم الدفن بعد وفاة الميت
بشهرين ونصف الشهر .

٦ - الرفقة وفكوبين موكب الجنائز

كانت طريقة الدفن لدى المصريين مثيرة ومفجعة في آن واحد (٣٧) .

فكان أهل الميت لا يخشون أن يتظاهروا أمام الجميع بالبكاء والإفراط
في أداء الحركات التي تعبر عن حزنهم العميق طيلة سير الموكب . وقد كان
أهل الميت يخشون ألا يعبروا عن حزنهم تعبيراً كافياً فكانوا يستأجرون
التدابين والناتحات ، الذين لا يكون إطلاقاً ولا يكفون عن الصراخ
والعويل . وكانت النساء تلطم رؤوسهن بأيديهن ، بينما كانت وجوههن ملطخة
بالطين وصدورهن عارية وثيابهن ممزقة . أما الأفراد وأكثرهم رزاة
أولئك الذين اشتركوا في هذا الموكب فلا يؤدون حركات بمغالة كهذه
ولكنهم كانوا يذكرون أثناء سيرهم فضائل الميت . قائلين على سبيل المثال :
« ما أجمل ما يأتيه .. لقد كان يملأ قلب خنسو إلى حد أنه تمكن من أن
يصل إلى الغرب برفقة أجيال وأجيال من أتباعه وخدمه » . (٣٨) أما ما يلي
هذا القطع من الموكب فكان بمثابة موكب نقل أثاث تماماً (٣٩) . فكانت فرقة
أولى من الخدم تحمل الفطائر وباقات الزهور وجراراً من الفخار وأوانٍ
من الحجر وصناديق معلقة على حافتي نير وهي تحتوي على التماثيل الصغيرة
« الشوابتي » وملحقاتها . وفرقة أخرى أكثر عدداً من الأولى كانت تحمل
الاثاث العادي وهو عبارة عن مقاعد وأسرّة وخزائن وأصوفّة دون أن
تعمل العربّة ، أما الأمتعة الخاصة والصناديق التي تحوي الأواني الكانوبية ،
والعصى ، والصولجانات والتماثيل والشبابي ، فكانت تكلف فرقة ثالثة

بحملها . وأما الجواهر والقلائد والصقور والنسور ذات الأجنحة المبسوطة والطيور ذات الرأس الأدنى وأشياء أخرى قيمة فقد كانت تعرض على صوان وتحمل جهارا . كالو كانوا لا يخشون بطش هؤلاء الهدهماء العديدين الذين كانوا يشاهدون مرور الموكب . وكان التابوت يوضع داخل نعش مزين تجره بقرتان وبعض الرجال . ويتكون هذا النعش من ألواح من الخشب ذات إطارات غير مثبتة أو من هيكل خشبي تتدلى منه ستائر من قماش مطرز أو من الجلد ، وكان يوضع في قارب تحيط به تماثيل أيزيس ونفتيس أما القارب نفسه فكان يوضع بدوره فوق زحافة .

٢ - عبور النيل

كان الموكب يسير ببطء حتى يصل إلى شاطئ النيل . حيث كان في انتظاره أسطول صغير من القوارب (١٠) وأما القارب الرئيسى فكانت مقدمته ومؤخرته مقوستين في رشاقة إلى الداخل ، وتنتهيان في شكل بمخرعات من نبات البردى . وبه غرفة كبيرة مبطنة من الداخل بأقشة مطرزة وسيور من الجلد . وفي هذه الغرفة كان يوضع النعش ، ومعه تماثيل أيزيس ونفتيس ، ويقوم كاهن بحرق البخور وهو يغطي كتفيه بجلد فهد ، بينما تواصل النائمات اللطم على رؤوسهن . ويقتصر عدد نوتية هذا القارب على بحار واحد ، يتحسس عمق الماء بمدى طويل ، إذ أن القارب الذي يحمل التابوت كان يجره مركب أخرى ذات عدد كبير من النوتية بقيادة قبطان يقف في مقدمة المركب يعاونه نون يتحكم في المؤخرة المركب . وهذه المركب القاطرة تحتوى على حجرة واسعة تجتمع النائمات فوق سطحها

متجهات نحو النعش وقد كشفن عن صدورهن ويواصلن الصراخ ويأتين بحركات تتم عن الحزن الشديد ، وهالك بعض ما يقلنه في ندهن ، لذهب سريعا نحو الغرب . . إلى أرض الحقيقة . إن نساء القارب يمكن كثيرا وكثيرا جدا . . مع السلامة . . مع السلامة أيها الممدوح يا جميل الصفات . اذهب بالسلامة نحو الغرب . اذهب بالسلامة أيها الممدوح . وإذا شاء الإله فسناكم أتم الذين تسرون نحو هذه الأرض التي يتساوى فيها الناس . . متى حان الموعد الذي يحل فيه يوم الأبدية .

ولكن ما شأن أهل جبل كبنيت Kabenit هنا وهي مركب معدة للسفر في أعلى البحار ، بينما المركب الخاصة بالنعش لم تصنع إلا لتعبر النيل فقط ؟ على أنه يوجد بينهما تشابه كبير ، إذ عندما تمكنت أيزيس من أن تسترد الشجرة المقدسة التي كانت تحوى جسد زوجها أوزيرس حملتها فوق مركب كانت متأهبة للإقلاع متجهة نحو مصر وهناك احتضنتها وأخذت تروىها بدموعها وهكذا ففعل سيدات الأسر تعبيراً عن حزنهن فوق القارب أثناء عبور النيل .

وكانت تستعمل أربع سفن أخرى لنقل أولئك الذين كانوا يرغبون في مصاحبة المتوفى حتى مثواه الأخير ، وتوضع فيها أيضا كافة الآثاث الجنائزى . أما من لم يكن يرغب في الذهاب بعيدا فكانوا ييكون على الشاطئ ويوجهون إلى صديقهم ، تمنياتهم الأخيرة : « لعلك تبلغ بسلام غرب طيبة ، أو كانوا يقولون أحيانا : « إلى الغرب . . إلى الغرب ، أرض الأبرار ، إن المكان الذى كنت تحبه يتجمع أسى وحسرة عليك ! . . »

وقد أنت اللحظة التي ترفع فيها المرأة التكللى صوتها الناحب :

« يا أخى .. يا زوجى .. يا حبيبى .. ابقى .. استقر فى مكانك ولا
تبتعد عن المكان الذى تسكنه . واحسرتاه إنك تذهب لتعبر النيل ، أبها
التوتية لا تتعجلوا .. اتركوه .. إنكم ستعودون إلى بيوتكم بينما هو ذاهب
إلى أقطار الأبدية .. »

٨ — الصعود إلى لقبرة

إن الاستعدادات على الشاطئ الآخر كلها معدة لمقابلة المركب^(١) فالناس
قد تجمعوا وأقيمت حوانيت صغيرة تحوى مجموعة وافرة من الأدوات
الخاصة بالمراسيم الجنائزية لأولئك الذين لم يكونوا قد أتوا معهم بما يكفى
منها . وقد أمسك أحد الرجال بمقدمة المركب الأولى وسرعان ما ينزلون
الركاب والنفس والاثاث جميعه إلى الشاطئ .. ولا يلبث أن ينتظم المركب
مرة أخرى بنفس الترتيب السابق تقريباً ولكن بعدد أقل من المعزين
حين غادروا مسك المتوفى .

فيجر زوج من البقر الزخافة التى تحمل مركباً من طراز عتيق ، وأخذت
كل من أيزيس ونفثيس مكانهما ، وكان السائقون يحمل كل منهم سوطاً ،
ويسير بجوارهم الرجل الذى يحمل لفافة البردى أما نساء الأسرة والأطفال
والندابات فيسرن أينما وجدن مكاناً فى المركب . وأحياناً تحرك إحدى
النساء الصاجات . أما زملاء الفقيد فيسيرون فى تأثر عميق بانتظام ووقار شديد ،
والعصى فى أيديهم ، يتبعهم المحالون وهم يواصلون الحديث عن صديقهم الفقيد
ومموله ويستعيدون ذكرياتهم معه ويبدون ملاحظاتهم عن الأجل وضررات
القدر وعن عدم الاطمئنان إلى دوام الحياة وقصر مدتها وعندما يمر المركب
أمام منازل بنيت بأعواد ، ترى جماعة من الناس يقفون على مقربة منها وهم

يلوحون بأيديهم بمواقد . مشتعلة وبعد أن يجتاز الموكب منطقة الأراضى الزراعية يسير قليلاً حتى يصل إلى سفح الجبل اللبني إذ تبدأ الأرض ترتفع رويداً رويداً ويبدو الطريق شاقاً وهراً فتحل البقرتان ويجر نفر من الرجال الزحافة وعليها النعش وعند الضرورة يرفعون النعش على أكتافهم ، يتقدمهم الكاهن وهو لا يكف عن رش المياه المقدسة من أبريقه بينما يبقى ذراعه ممدوداً ممسكاً بالمبخرة المشتعلة الموجهة نحو النعش . وفى هذه اللحظة فإن حاحمور تخرج من الجبل على هيئة بقرة مخترفة طريقها بين آجام أوراق البردى الذى نما بمعجزة فوق الصخور الجرداء لتستقبل القادمين الجدد .

٩ - وراعا أبناها المومياة

وفى مشقة كبيرة ، يصل الموكب إلى القبر (١٢) وقد أقيمت هناك بضاحوانيت صغيرة يعد فيها بعض الناس مواقف ذات مقابض ويملاون أزياراً كبيرة بالماء لتبريدها ، ومعبودة الغرب حاضرة بجموار اللوحة التذكارية ، وهى وإن كانت مخفية عن الأنظار إلا أنها ترى على هيئة صقر يقف فوق مجثم ويرفع التابوت من النعش ثم يوضع ملاصقاً للوحة التذكارية . وتجلس امرأة القرفصاء بجواره وهى تحتضنه بشدة ويضع أحد الرجال فوق رأس المومياة قمعاً معطراً يشبه ذلك الذى كان يوضع فوق رؤوس المدعوين فى حفلات الاستقبال والناحبات والأطفال وأفراد الأسرة يلطمون رؤوسهم فى عنف شديد يفرقوا ما كانوا يفعلونه عند بدء تشييع الجنازة . أما الكهنة فكان عليهم أن يؤدوا مهمة خطيرة كان من واجهم أن يعدوا مائدة بما عليها من مواد غذائية من خبز وأباريق ملئت بالجمعة . وكان عليهم أيضاً أن يضعوا أدوات غريبة مثل قاذوم وسكين مقوس على هيئة ريشة نعام ونموذج لفخذ عجل ولوحة منتهية بطرفين مستديرين . وهذه الأدوات سوف يستخدمها الكاهن

لإبطال مفعول التحنيط حتى يستطيع المتوفى أن يسرد استهلال أطرافه
وجميع أعضائه: إنه سيصر من جديد . وسيفتح فيه ليتكلم وبأكل . وسوف
يمكنه من تحريك ذراعيه وساقيه .

وقد حان وقت الفراق . وتتضاعف إمارات الحزن . فتقول الزوجة:
«إني زوجتك يا مريت رع - لا تتركني أبها العظيم ، هل في نيتك أن
أبتعد عنك ؟ إذا انصرفت عنك فستبقى وحيداً . هل سيرافقك أحد
ويتبعك ؟ لقد كنت تحب المزاح معي والآن أصبحت تسكت ولا تتكلم ؟»
وعلى أثر هذا يأتي صدى أصوات النساء قائلات بالخراب .. وباللذاهية !
.. لا تكفوا .. لا تكفوا .. لا تكفوا عن النواح لقد رحل الراعي
الطيب إلى الأبدية . وقد ابتعدت عنك حشود الناس فأنت الآن في البلد
الذي يحب العزلة . أنت الذي كنت تحب السير على قدميك تقيدك الآن
اللفائف والأكفان . أنت الذي تمتلك أفضل وأثمن الثياب ، أصبحت تنام
الآن في لفائف الأوس* !

ولا يبقى بعد ذلك إلا إزال التابوت والآثاث الجنائزي كله وترتيبه
داخل القبر (١٣) . لقد أصبح النعش فارغاً . فيأخذه الكهنة ، الذين كانوا قد
استأجروه ليشيعوا به هذه الجنازة ، ويعودون به إلى المدينة حيث كان في
انتظاره عملاء آخرون .

وضع التابوت المصنوع على هيئة مومياء في تابوت آخر من الحجر
على هيئة حوض مستطيل الشكل أعد من قبل ونحت ونقشت عليه النصوص
ووضع في مكانه منذ مدة طويلة . ثم توضع حوله عدة أشياء مثل العصي
والأسلحة والتمائم في بعض الأحيان ، ويغطى بعد ذلك بغطائه الحجري

الثقل وتوضع الأواني الكافورية بجانب التابوت ، داخل صندوق خاص وكذا الخزائن والصناديق وبقية الأثاث بأكله . وحذار أن ينسى ما سيكون من أهم الأشياء فائدة المتوفى وهى المراتب الغذائية والتي تعبر عنها بعبارة «الأوزيريات النابتة» ، وهى عبارة عن إطارات من الخشب على شكل أوزيريس «مخطأ» وبداخلها كيس من القماش الخشن . كان يملأ هذا الكيس بخليط من الشعير والرمل ، يسقى بانتظام لمدة عدة أيام فكان ينبت الشعير وينمو كثيفاً قوياً وعندما يصل طوله حوالى اثنى عشر أو خمسة عشر سنتيمتراً كان يحفف ثم تلف الأعواد بها فيها قطعة من القماش .

وكانوا يملأون بهذا العمل حث المتوفى على العودة إلى الحياة إذ أن أوزيريس قد نما بهذه الطريقة وقت بعثه من بين الأموات . وفى العصور السابقة كانوا يحصلون على نفس هذه النتيجة بوضع جرار مكونة من قطعتين داخل المقبرة فالقطعة الأولى الداخلية تحتوى على كمية من الماء والقطعة الأخرى الخارجية كانت ذات ثقب توضع بها بجلة من من نبات اللوتس فنبت الجذور من النبات وتدخل الثقب وتصل إلى الماء وتنبث منه سيقان من عنق الجرة الوحيد أو الثلاث فتحات ويزدهر ، وكانت هذه العادة شائعة الانتشار فى عهد الدولة الوسطى ، ولكنها تركت ، منذ أن اتبعت طريقة «الأوزيريات النابتة» . فاللوتس هو نبات رع Ra وكان هذا انتصار جديد لعبادة أوزيريس على العبادة القديمة وهى عبادة الشمس. (١١)

لقد تم إعداد القبر تماماً ولم يبق على السكاهن وأعوانه إلا أن يرحلوا . وكان البناء يسد الباب بحداد ، أما الأقارب والأصدقاء الذين رافقوا المتوفى حتى مقره الأبدى فإنهم لن يفترقوا ويعود كل منهم إلى منزله على الفور بل يبقوا ، إذ أن الانفعالات الشديدة قد جعلتهم يشتهون الطعام . فالخمالون الذين كلفوا بنقل أشياء عديدة لاستعمال المتوفى ، كانوا قد حرصوا على أن يتزودوا ببعض المؤن للأحياء . وعلى ذلك كانوا يجتمعون إما داخل المقبرة أو في الفناء الذى يؤدى إليها . وإما فى أحد الأكشاك المبنية بالأعواد على بعد قليل من المقبرة (١٠) . وكان لاعب القيثارة يدير وجهه نحو المكان الذى ترقد فيه المومياء ويبدأ بتواشيح يصحبها بأغان تذكر بأنه بفضل ما قاموا بعمله لأجل المتوفى فإنه لا بد من أن يكون فى حالة طيبة جداً : «أنك تاشد رع ، وخبر هو الذى يسمع ، ونوم Toun هو الذى يجيئك ، وسيد الكون الأعلى يحقق ما تمنيه - ورياح الغرب نهب مباشرة نحوك حتى تلس أنفك ، ورياح الجنوب تتحول من أجلك إلى رياح شمالية إنهم يوجهون فك نحو ضرع البقرة حيسات Heat . ستصبح طاهراً لتشاهد الشمس . وتغتسل فى الحوض المقدس . وكل أعضائك فى حالة جيدة . وتظهر براءتك أمام رع وتكون دائم الخلود أمام أوزيريس وتسلم القرايين فى ظروف مواتية . وتأكل كما كنت تأكل على الأرض ويكون قلبك مطمئناً فى الجبابة . وتصل إلى الأبدية فى سلام . ويقول لك آلهة دوات Douat : تعال إلى روحك - كما Ka - فى اطمئنان كبير ، وكل البشر الموجودين فى العالم الآخر ، فإنهم رهن تصرفك . وأنت مدعو لتبليغ الشكاوى للسكان الأكبر . إنك تسن القانون يا أوزيريس جانفر Osiris Tja-nefer المبرور. (١١)

وإكراما للأب المقدس نفر حنب Neferhotep يقوم حازف آخر فيعزف على القيثارة ألعانا أشد حزناً وحسرة (١٧). لن ينسى أن للبيت مكانة ممتازة حقاً . فكم من مقابر انهارت واندثرت قرابينها ، وتلوث خبزها بالتراب . ولكن ، جدران مقبرتك أنت محكمة البنيان فقد غرست الأشجار حول مستنقعك . وروحك البا Ba تبقى في ظلها تزوى من مياها ، وقد ترامى له أن الفرصة ساحة تماماً ليتفلسف قليلاً ، ولقد تسلم الأجساد وتذهب إليها منذ عهد الآلهة ويحل مكانها الجيل الجديد . وطالما أن رع يشرق كل صباح ويغرب نوم Toutou في الغرب ، فإن الرجال يتكاثرون والنساء يلدن وكل الأنوف تستنشق الهواء . ولكن كل من يولد يأوى يوماً إلى مكانه ، ولذلك يجب التمتع بالحياة ، ومن العجب أن العازف يوجه هذه النصيحة إلى من كان راقداً في تابوته ، بينما يتصور الحاضرون أنهم هم المقصودون بها وهم يلهمون في شهية الطعام والشراب ويعودون إلى مدينتهم وهم ينعمون بامتعاش كبير ، بل يكونون أكثر انشراحاً عما كانوا عليه قبل ذهابهم إلى المقبرة .

على هذا النحو كان يحتفل بتشييع جنازة مصرى ثرى ، ولا داعى للقول بأنه لم يكن يعمل مثل هذا الاحتفال للطبقات الصغيرة . فالقائم بعملية التحنيط لم يكن يعبا بفتح البطن واستخراج الأحشاء منه بل كان يكتب في بحقته في مؤخرته مسائل دهنى مستخرج من ثمرة العرعر ، وإشباع الجسد بملح النطرون . أما من كانوا أشد فقراً فكان يستعاض بزيت العرعر بمظهر آخر أرخص منه ثمناً . وبعد إعداد المومياء بمثل هذه الطريقة ، كانت توضع في تابوت وتحمل إلى مقبرة قديمة مهجورة ، وأصبحت تستعمل حالياً كمقبرة عامة . وكانت ترص فيها التوابيت فوق بعضها إلى أن تصل إلى السقف وعلى أية حال فلم تكن المومياء تجرد تماماً من كل ما هو لازم لها في العالم

الآخر، إذ كان يوضع داخل التابوت بعض أدوات وصنادل من البردى المجذول وخواتم من البرونز أو من الخنزف وأساطير وتماثيل وجمارين ونجمة أوجا Oudje (تميمة العين السليمة) وتماثيل صغيرة للمعبودات من الخنزف المطلي أيضاً . وكان ثمة أماس أشد فقراً فلم يكن لهؤلاء إلا أن يوضعوا في إحدى المقابر العامة وكان يوجد في طيبة جبانة خاصة بالفقراء في وسط جبانة الأثرياء في العساسيف . ويلقى فيها بالموميات وهي ملفوفة في قماش خشن من السكتان ، ثم تغطى بقليل من الرمال ، وسرعان ما تلتقى فوقها مومياء أخرى (٤٨) . وما أسعد من كان من بين هؤلاء الفقراء يذكر اسمه أو ينتش منظره في مقبرة وزير أو أحد أبناء حكام بلاد النوبة لأنه كان يواصل القيام بخدمة سيده في العالم الآخر كما كان يفعل في حياته في الدنيا .

ولما كان كل عمل يستحق أجراً فسوف يعيش من ثمرة جهده وسوف يفتتح إلى حد ما من المزايا والخيرات التي وعد بها المحظوظون الأغنياء ، لأنهم كانوا عادلين .

١١ - المعوقون بين الأزهياء والعموات

إن الذين يصفون الأمانيت Amentit بأنه مكان للراحة والسلام فإنهم كانوا يكونون عنه فكرة ساذجة جداً وجميلة جداً . ولقد كان الميت كثير الشكوك والظنون عديم الثقة . ميالاً إلى الانتقام كان يخشى القصوص الذين يجذبهم الذهب والفضة المودعان في القبر ، كما كان يخشى اعتداه المارين العمديين ، بل كان يخشى أيضاً عدم اكتراثهم به وهم الذين كانوا يغامرون بالانتقال بين أرجاء جبانة المدينة الواسعة في الغرب ، كما كان يرتاب في الموظفين المنوط بهم صيانة الجبانة . ولذلك فمن كان لا يقوم منهم بأدائه واجبه في جد وإخلاص كان الميت يهدم بأشد العقوبات : سوف يسلمهم إلى نار الملك

في يوم غضبه . . . وسوف يفرقون في البحار التي سبتلع أجسادهم . ولن ينالهم شرف التكريم الذي يمنح لأفاضل الناس . ولن يستطيعوا ازدراد القرايين المعدة للدفن . ولن يسكب أحد عليهم المياه المقدسة من النهر الممتلئ بالماء . ولن يتقلد أولادهم وظائفهم . وتنتك حرمان نسائهم على مرأى منهم ولن يسمعوا أقوال الملك في يوم سعيه ، حيث يكون مبهجاً . أما إذا كانوا يحسنون القيام على المنشأة الجنائزية ، فسيقدم لهم كل ما هو خير . . . وسيمن عليهم آمون رع صونتيير Amonraonier بحياة طويلة مستقرة . وسوف يكافئكم الملك الذي يحكم في عصركم على طريقته .

وسوف تمنحون وظائف عديدة فضلاً عن وظائفكم . وتسلمونها من ولد إلى ولد ومن وارث إلى وارث ، وسوف يدفنون في الجبانة بعد أن تتجاوز أعمارهم مائة وعشر سنوات . وستضعف لهم القرايين . (٤٩)

ومن جانب آخر فقد كان يوجد أيضاً موتى أشرار ، فبعضهم كان السبب فيه إلى حد كبير أبناءهم الذين أهملوا شأنهم ولكن الكثيرين منهم كانوا يميلون بطبعهم إلى عمل الشرودون أدنى سبب أو مبرر سوى أنهم كانوا يميلون إلى الشر وكان ينبغي للآلهة أن يمنعهم عن الأذى ولكنهم كانوا يضللون المراقبة والحراسة عليهم وكانوا يتركون مقابرهم ويزعمون الأحياء . (٥٠) وأغلب الأمراض التي كان يعانيها الأحياء كانت تمزى إلى حزن الأموات الأشرار ذكوراً أو إناثاً . وكانت الأم تمشى بأسهم على طفلها ، وتقول : إذا كنت جئت لتعانق هذا الطفل فإنى لا أسمع لك بأن تمنأقه ، أما إذا كنت قد جئت لتهدئة هذا الطفل فإنى لا أسمع لك بأن تهدئه ، وإذا كنت جئت لكي تمنضى به فإنى لا أسمع لك بأن تأخذه منى . (٥١)

وكان المصريون يترددون كثيراً على المساكن الأبدية وذلك إما بدافع

الرهبة أو بدافع التقوى . فكان أهل الميت أبواه والأطفال والأرامل يصمدون إلى التل ويحضرهم معهم بعض الأاطمة وقليلًا من الماء ليضعوها فوق مائدة القرايين بجوار اللوحة التذكارية ، أو بين شجر النخيل الذي يظل فناء المدخل ثم يرتلون الصلوات تلبية لرغبة المتوفين فيقولون : « ألوف من أرغفة الخبز وجرار من الجمرة وثيران وطيور وشحوم ودهون وبحور وأقشة وحبال وكل ما يجلبه النيل من خيرات وما تنتجه الأرض وما يعيش منه الإله تقدمه لروح فلان .. المبرور المرحوم .. »

وكان هم شديد ، يعترى أحياناً من يبتهل على قبر شخص عزيز عليه ، وقد سبق أن ذكرنا اعتراف الزوج الذي لا لوم عليه ، والأرمل الوفي الأمين وإذا كنا نعرف فضائله ومزاياه العديدة فذلك لأن هذا المسكين قد أفرغته المحن العتيقة والتجارب ، فنذ أن فقد زوجته لم يوفق في أى عمل ، فأقدم على تحرير رسالة طويلة لها ، وقد وصلنا نصها ، وبعد أن أوضح فيها كل ما كان قد فعله من عمل طيب خلال حياة الفقيدة وبعد وفاتها ، وقد عبر عن آلامه من أن يعامل بمثل هذه القسوة . « أى شر فعلته حتى أصل إلى مثل هذه الحال التى أعانيها الآن ؟ وماذا جنيت حتى ترفض يدك على بينا لم أنسب لك فى أى ضرر ؟ إني استشهد بألهة الغرب بما ينطق به فى » ويحكم بينك وبين كتابي هذا . (١٢)

وصاحب هذه الرسالة الذى عاش فى العصر الأول للعامة خضع لعادة قديمة مشبته لنا بصفة خاصة معروفة بأمثلة أقدم عهدا منها وكان هو الدليل أو البرهان على أن الناس كانوا يعتقدون دائماً بغائدها ونتائجها الناجمة . وفى عهد الدولة الوسطى كان الناس يؤثرون أن يكتبوا للميت على الأواني

التي كانت تحوى الطعام المعد له ، وذلك ليسكونوا أكثر اطمئنانا إلى أن الرسالة سوف لا تمر دون أن يطلع عليها . ومن أمثلة هذه الرسائل تبليغ أحد الأجداد بأن هناك مكيدة الغرض منها حرمان حفيده من حقه في الميراث ، وبهم الميث أن يعترض على هذه المكيدة ، وعليه إذن أن يستدعى أعضاء أسرته وأصدقاءه لمساندة من يراد سلب حقه إذ أن الابن عندما يؤسس منزله ، فإنه يؤسس بيت آبائه وبحي اسمهم . فإذا فقد أمواله فإنه يجل الشقاء والتعاسة لأسلافه كما يجلها أيضا لذريته .

ومهما بلغت درجة تقوى المصريين نحو أموالهم ، فإنها لم تكن تكفى لإرضاء جحافل من كانوا يرقدون في الجبانات وما كان يفعله إنسان لو ألبسه أو لجدوده لا يستلزم منه أن يؤديه لأسلافه ، لأنه لا توجد تهديدات ولا لعنات يمكن أن تلزمه بذلك وقد أتى اليوم الذى تنبأ به عازف القيثارة ، وقد تنبأ به من قبل أحد حكماء العهد القديم حين تحدث قائلا : « إن أولئك الذين شيدوا هنا أبنية بحجر الجرانيت وأقاموا قاعة داخل الحرم .. تصبح موائد قرايئتهم خالية من كل شئ ، مثلها مثل موائد البائسين الذين يموتون على شاطئ النهر دون أن يتركوا ذرية . » (١٣)

وعلى ذلك نكاد أن نصبح الجبانة موضع تجمع الفضوليين الذين كانوا يمرون بالمقابر ويقرأون دوناً كثرات النقوش التي عليها . وقد شعر بعض هؤلاء بنفس الميل الذى يعنزى السياح المعاصرين حين يتركون أثراً لمرورهم بالمكان ولسكنهم كانوا يضيفون عبارات تبين حسن نياتهم وتقوام . فكثيراً ما كتب مثلاً بأن الكاتب فلانا أو الكاتب فلانا قد حضر هنا لزيارة هذه المقبرة . مقبرة أتى فوكر Anteloker وأنهم قد صلوا كثيرا وكثيرا جداً

وقد كتب آخرون يقولون بأنه قد أسعدهم أن يتحققوا من أن هذه المقبرة في حالة جيدة - قالوا : ولقد وجدوها مثل السماء من الداخل ، وقد قال أحد الذين يحملون اسم أمنمحات بغاية التواضع أن الكاتب ذا الأصابع الماهرة ، الكاتب الذى لا مثيل له في مدينة منف بأجمعها قد زار المبنى الجنائزى للملك العجوز زوسر وقد أدهشه بأن يرى عليها عبارات ركيكة مليئة بالأخطاء وأن كانت لا بد أن تكون امرأة لا عقل لها وليس كاتباً قد ألهمه نحوت موهبة الكتابة . ويجب علينا أن نبادر لتحديد في دقة بأنه لم يفقد الكتابات الرائعة التى نقشت أصلاً بمعرفة الفنين الذين كانوا أيضاً من العلماء ، وإنما اعترض فقط على هذا الزائر الجاهل المتسرع الذى سجل بعض كتابات سخيفة بالقلم العادى في زمنه دون أى فن . وفي عهد رمسيس الثانى اعترزم كاتب الخزينة حاد ناخنى Hadnakhti بأن يقوم برحلة بقصد التسلية في غرب منف بصحبة أخيه بانخنى Panekhti كاتب الوزير : يا إلهة غرب منف أجمعين ويا جميع الآلهة التى تحكم الأرض المقدسة حريا أوزيريس وإيزيس ، ويا أيتها الأرواح العظيمة الموجودة في غرب عنخ تاوى Onkhtnou . أمنحونى وقتاً طيباً طويلاً أحياه لأخيم أرواحكم ليتنى أحصل على حدث عظيم تعقب شيخوخة طيبة حتى أستطيع أن أتمتع بمشاهدة غرب منف ككاتب مكرم جداً ومثلكم بالذات ، « إن بطل إحدى الروايات التى كتبت في العصر المتأخر - ولكن المفروض أنه عاش في عهد رمسيس وهو يدعى تنوفر كانتاح كاتب يبدو أنه لم يخلق على هذه الأرض إلا ليتجول ويتنزه في جبانة منف ، مردداً النصوص التى كتبت على مقابر الفراعنة وعلى اللوحات التذكارية لكتاب بيت الحياة وكذلك الكتابات الأخرى المسجلة في المنطقة . إذ كان يهتم

بالكتابة اهتماما بالغاً (٥١) وكان لتوفر كتابتاح Neuforkaptah مناسف
كان عالما مثله ومهتما أيضاً بالآثار اسمه ساتساخامواسر أوزير مارع
Setna-khamouas ousirmaré (ابن رمسيس الثاني) وكان قد
اكتشف في منف تحت رأس إحدى المومياءات تعويذة سحرية وهى
المدفونة على البردية رقم ٢٢٤٨ إحدى مقتنيات متحف اللوفر (٥٢) إلا أنه قد
اكتشفت أخيراً نقوش على واجهة هرم أوناس الجنوبية فى سقارة
تفيد أن رمسيس الثاني كان قد عهد إلى ولى عهده خامواسيت
Khamouasit كبير كهنة أون أن يعنى باستعادة اسم أوناس ملك الجنوب
والشمال الذى كان قد محى من على هرمه وذلك لأن ولى عهده، خامواسيت
كان ميالاً جداً لترميم المباني الأثرية للملك الجنوب والشمال التى كانت
صلابتها مهددة بالانهيار (٥٣) وهل كان قد خطر ببال هذا الحكيم الذى
تقدم على مارييت وعلى خبراء مصلحة الآثار المصرية أنه بعد قرون عديدة
مرت فى النسيان سيقوم رواد من بين أبناء الإبراهيم (وهكذا كانوا يبرون
عنم كانوا لا يعرفون مصر) ، بدورهم بالكشف عن الجبانات فى الجنوب
وفى الشمال ، وانهم سيعيدون إلى الحياة أسماء أسلافه وأجداده ومعاصريه
ويكتبون عنهم ما يمكن من مزيد التعرف عليهم .

وأملى أن يكون أولئك الذين وهبوا من الجلال والصبر على قراءة كتابتنا
هذا حتى نهايته ، قد كونوا فكرة صحيحة عن طريقة حياة هؤلاء القوم ،
وهى حياة دون شك تذكر كلها بكل فخر وإعجاب . ولم يكن الشعب
المصرى كما كان يعتقد ربنان قطيعاً من العبيد يقوده فرعون مجرداً من كل
رحمة وعاطفة ، ويتحكم فيه الكهنة النهمين المتعصبون ، حقيقة أن عدد

المحرومين كان دون شك في عصر الرعاسه كبير اجدا إذ كان يغالى في استعمال
العصى ولكن مع ذلك يظهر لنا أن فرعون وموظفيه كثيراً ما كانوا يشبهون
الرؤساء الأدميين الذين عملاً الرحمة قلوبهم وكان الدين هو الوازع على المواصله
والسلوى .

على أنى أرى فى حياة هذا الشعب الصغير أن أوقات السعادة كانت
تفوق كثيراً أوقات التعاسة .

مراجع

مراجع عامة

المراجع القديمة : تراجع مؤلفات الكتاب الأقدمين وبصفة خاصة هيرودوت :
الكتاب الثاني وديودور : الكتاب الأول .

واسترابون : الكتاب السابع عشر .

وبلوتارك : ايزيس واوزيريس (الترجمة الفرنسية لمايرونيه

Mario Maunier باريس ١٩٣٤ وجوفينال (Juvenal) الهجاء

رقم ١٥ .

المراجع الحديثة : ومن المؤلفين الحديثين :

ولكسنسون : أخلاق وعادات قدماء المصريين ، طبع عام ١٨٧٨ في
ثلاثة أجزاء .

ماسيرو : التاريخ القديم لشعوب الشرق القديمة ، طبع في باريس
١٨٩٥ - ١٨٩٧ . الفصول الأربعة الأولى من الجزء الأول ، والفصل

الخامس من الجزء الثاني . القصص الشعبية في مصر القديمة - الطبعة
الرابعة باريس ١٩١٥ - في عهد رمسيس وأشور بانيبال - باريس

ف . لوريه : مصر في عهد الفراعنة طبع باريس عام ١٨٨٩

أ . أومان : مصر والحياة المصرية في العهد القديم - أعاد كتابته
هرمان وانكي طبع توبنجن عام ١٩٢٣

- ديانة المصريين - الترجمة الفرنسية باريس ١٩٣٧

فلدروز بترى : الفنون والحرف في مصر القديمة (الترجمة الفرنسية)

طبع بروكسل عام ١٩٢٥

موتيه : مناظر من الحياة الخاصة في المقابر المصرية في عهد

الدولة القديمة - طبع باريس وستراسبورج عام ١٩٢٥

أ . لوكس : المواد والصناعات المصرية القديمة . الطبعة الثانية في

لندن عام ١٩٣٤

مقدمات كتب تيتوس Tytus التذكارية وسلسلة الكتب عن مقابر طيبة للوولفديفز .

مقبرة قن آمون في طيبة Kenu-Amun ومقبرة نفرحتب Neferhotep في طيبة .

الملاحظات المدونة على اللوحات التي تكون جزءاً من أطلال فرسنسكي Wreszinski

التلخيصات الرئيسية

Ann. S. A. E. : Annales du Service des Antiquités de L'Égypte, 39 vol., Le Caire, 1900—1939.

حوليات مصلحة الآثار : ٢٩ مجلداً ١٩٠٠ — ١٩٣٩ القاهرة .

Az : Zeitschrift für ägyptische Sprache und Altertumskunde 80 vol., Leipzig, 1863—1940.

مجلة اللغة المصرية والتاريخ القديم ٨٠ مجلداً لينجز ١٨٦٣ — ١٩٤٠ .

Bibl. æg. : Bibliotheca ægyptiaca. Bruxelles, depuis 1931^a contient en particulier :

I. A. Jan H. Gardiner, Late-egyptian stories.

V. V. W. Erichsen, Papyrus Harris I.

VII. Alan H. Gardiner, Late-egyptian miscellanies.^(١)

المكتبة المصرية . بروكسل منذ عام ١٩٣١ تحتوي على الأخص الأول — جاردنر (ألان) : قصص العهد المتأخر .

الخامس : اريكسون — بردية هاريس الأولى .

السابع : ألان . هـ . جاردنر : متنوعات من العهد المتأخر .

Caire. Cat. gen. : Catalogue general des antiquités égyptiennes du musée du Caire,

الدليل العام للتحف المصري :

J. E. A. Journal of egyptian archaeology, London (Exploration society) , depuis 1914.

مجلة علوم الآثار المصرية . لندن (جمعية الحفائر) منذ عام ١٩١٤ .

Kemi. : Revue de philologie et d'archéologie égyptiennes et coptes, 9 vol., Paris. 1928—1942.

كيمي : مجلة فقه اللغة والآثار المصرية والقبطية ٩ مجلدات باريس

١٩٢٨ — ١٩٤٢ .

Mem. Tyt. : Robb de Peyster Tytus Memorial Series (New York, depuis 1917) contient :

I. N. de Garis—Davies. The tomb of Nakht at Thebes, 1917.

II. III. of the Same, The tomb of Puyemre at Thebes. 2 vol. 1922—1923.

IV. of the Same. The Tomb of Two sculptors at Thebes. 1927.

V. of the Same. Two Ramesside Tombs at Thebes 1927

سلسلة تيطس التذكارية : سلسلة روب دى بايستر تيطس التذكارية .
نيويورك منذ ١٩١٧ تحتوى على :

الأول : نورمان دى جلريس ديفز — مقبرة ناخت فى طيبة ١٩١٧
الثانى والثالث — نفس المؤلف : مقبرة پرى أم رع فى طيبة مجلدان

١٩٢٢ — ١٩٢٣

الرابع — نفس المؤلف — مقبرة قاشين فى طيبة ١٩٢٧

الخامس — نفس المؤلف — مقبرتان من عهد الرعامسة فى طيبة ١٩٢٧

Med. Hapu : Oriental Institute of Chicago. Medinet Habu

I. Earliar Historical records of Ramses III by the epigraphic Survey.

II. Later Historical records of Ramses III by the epigraphic Survey.

III. The calender, the Slaughterhouse and minor records of Ramses III, by the epigraphic Survey.

Oriental Institute Publications J. H Breasted ed.

مدينة حابو — المعهد الشرقى بشيكاغو :

الأول : النصوص التاريخية الأولى لرئيس الثالث — دراسات فى الكتابة .

الثانى : النصوص التاريخية المتأخرة لرئيس الثالث — دراسات فى الكتابة .

الثالث : التقويم — الجزر والنصوص الصغرى لرئيس الثالث .

دراسات فى الكتابة .

مطبوعات المعهد الشرقى — المحرر ج . ه . برستد .

Miss Ir. : Mémoires publiés par les membres de la mission archéologique française au Cairo, 18 vol., 1884—

1896. en particulier, tome V (divers tombeaux

thébains dont Rekhmara, par Bénédict. Maspero,

Scheil) et XVIII, Boussac, Le tombeau d' Anna.

مذكرات الحملة الفرنسية : مذكرات طبعها أعضاء بعثة الآثار الفرنسية فى

القاهرة ١٨ مجلدًا ١٨٨٤ - ١٨٩٦ .

وبالأخص الجزء الخامس (مقابر مختلفة في طيبة منها مقبرة رخمارع لبنيديت
وماسبيرووشيل) والثامن عشر بوساك : مقبرة أنا .

Topographical bibliography : Topographical bibliography
of ancient Egyptian hieroglyphic texts, reliefs
and paintings, by Bertha Porter and Rosalind
Moss, 5 Vols. Oxford 1927—1937.

الفهرس الطبوغرافى : الفهرس الطبوغرافى للنصوص الهيروغليفية
والتقوش والرسوم المصرية القديمة . تأليف برتاپورتر وروزالند موس :
٥ مجلدات اكسفورد ١٩٢٧ — ١٩٣٧ .

Th. T. S. : The Theban tomb series, edited by N. de Garis-
Davies and Alan H. Gardiner, 5 vol, 1915—1932,
contient :

- I. The tomb of Amenemhet (No 82) .
- II. The tomb of Antefoker, vizier, of Sesostri I,
and of his wife senet.
- III. The tombs of two officials of Thutmosis the
fourth (nos 75 and 90).
- IV. The tomb of Huy, viceroy of Nubia in the
reign of Tutankhamun (no 40).
- V. The tomb of Menkheperresonb & Amenemose
and another (nos 86, 112., 42 and 226).

سلسلة مقابر طيبة - تحرير نورمان دى جاريس دافيزوالن جاردينر : ٥ أجزاء
١٩١٥ - ١٩٣٢ . وتحتوى على :

- الاول : مقبرة أمنمحات (رقم ٨٢) .
- الثانى : مقبرة انتف أوكر وزير سبوسترس الاول وزوجته سنت .
- الثالث : مقبرة موظفين من عهد تحتمس الرابع (أرقام ٧٥ ، ٩٠) .
- الرابع : مقبرة هوى حاكم النوبة في عهد توت عنخ آمون (رقم ٤٠) .
- الخامس : مقبرة من خبر رع سنبل وأمن موزى وآخر (أرقام ٨٦ ، ١١٢ ،
٤٢ ، ٢٢٦) .

Urk : Urkunden des ägyptischen Altertums, in Verbindung
mit K. Sethe und H. Schafer Herausgegeben von
G. Steindorff :

- I. Urkunden des alten Reiches (4 fasc.) (Leipzig ,
depuis 1902) .
- II. Hieroglyphische Urkunden der griechisch. römischen
Zeit (3 fasc.) .
- III. Urkunden des alteren Aethiopenkönige (2 fasc.) .
- IV. Urkunden der 18. Dynastie (16 fasc.) .

مستندات التاريخ المصري القديم اشترك في التأليف كورت سيتا وشافر
وقام بالتحرير شيندورف .

- الأول : مستندات الدولة القديمة (أربعة أجزاء - ليبيج سنة ١٩٠٢)
الثاني : المستندات الهيروغليفية في العهد اليوناني - الروماني ٣ أجزاء .
الثالث : مستندات ملوك أثيوبيا الأقدمين (جزءان) .
الرابع : مستندات الأسرة الثامنة عشر (١٦ جزء) .

Wr. Atl. : wieszinski Atlas zur Altaegyptische Kultur-
geschichte. 2 Teile, Leipzig depuis 1913.

أطلس فرسنسكي - أطلس عن تاريخ حضارة مصر القديمة - جزءان - ليبيج ١٩١٣ .

بيانات

مقدمة

- (١) على سبيل المثال جوفنال - الهجاء رقم ١٥ وميرودوت الكتاب الثاني ٣٥ .
- (٢) موتيه : مناظر الحياة الخاصة في المقابر المصرية في عهد الدولة القديمة
استراسبورج ١٩٢٥ :
- (٣) نيوبرى : بنى حـ ن جزء الاول (لندن ١٨٩٣) الاوحات ٢٨ ، ٣٠ ،
٣١ ، ٣٨ .
- (٤) جريفت ونيوبرى : البرشه : الجزء الاول (لندن ١٨٩٤) الاوحات
١٣ ، ١٧ .
- (٥) كلتر - مقبرة توت عنخ آمون : ٣ أجزاء لندن ١٩٢٣ - ١٩٣٣ - موتيه
تانيس . باريس ١٩٤٢ الفصل السابع .
- (٦) ودراسة هذه الفترة - راجع موتيه : قصة أواريس . باريس ١٩٤١
الفصلان الثالث والرابع .

الفصل الأول

المساكن

- (١) رسم الموحة في بيتري : اللاهور ، كادون وغراب لوحة ١٤ .
- (٢) الوصف العام للمدينة ولأهم مبانيها في بندقيرى . وفاريل العمارة باريس ١٩٣٦ — لوحة مختصرة صحيفة ٦٣ .
- (٣) رسم عام للكرانك — القهرست الطبوغرافى . الجزء الثانى ، مجلد ٩٨ و ٩٨٢ .
- (٤) أطلس فرسنسكى — الجزء الثانى ٣٠ ، ٣١ .
- (٥) القهرست الطبوغرافى — الجزء الثانى ١١٢ .
روبيشون وفاريل : فى مصر : الغلاف .
- (٦) المعهد الشرقى للجامعة شيكاغو — رسائل رقم ١٥ ، ١٠ ، ٢٨ ورقم ١٨ — صورة غلاف المكتب .
- (٧) أنظر على سبيل المثال ، الرسوم المدونة على معابد مدينة حابو وأيدوس ،
(مدينة حابو — أطلس فرسنسكى الجزء الثانى ١٨٤ — ١٩٠)
- (٨) موتيه : قصة أواريس . باريس ١٩٤١ . الفصلان الثانى والرابع .
- (٩) موتيه : تانيس . باريس ١٩٤٢ : ٩ ، ٢٣ ، ١٠٧ ، ١٢٨
- (١٠) برديّة هاريس — الجزء الأول ٧٨ ، ٨
- (١١) نفس المصدر ٦
- (١٢) نفس المصدر ٢٧ — ٢٩
- (١٣) شاسيناه : دندره الجزء الأول ، اللوحة ١٥
- روبيشون وفاريل : معبد الكاتب الملكى المنحوت بن حابو القاهرة ١٩٣٦ ، ٣٥
- (١٤) بندقيرى : نفس المرجع ١١٤ ، ١٤٠
- (١٥) فوج روس — الآبار الكبيرة فى تانيس — راجع كيمى الخامس من ٧١ — ١٠٣
- (١٦) بوزنز : الحكم الفارسى الأول لمصر . القاهرة ١٩٣٦ ، ١٥ — ١٦

- (١٧) حوليات مصلحة الآثار المصرية : المجلد ١٨ (١٩١٨) ص ١٤٥
(١٨) كيمى ٨
(١٩) حوليات مصلحة الآثار المصرية : المجلد ٣٠ ص ٤٠ ، ٤١
(٢٠) المكتبة المصرية : المجلد السابع ص ١٢
قارن قصة أواريس صفحة ١٣٥ ، ١٣٦
(٢١) المعهد الشرقى لجامعة شيكاغو -- رسائل رقم ٧ ن ١ -- ٢٣
(٢٢) حوليات مصلحة الآثار المصرية : المجلد الحادى عشر (١٩١٠) من ٤٩ - ٦٣
(٢٣) بردية هاريس الاولى ٢٩ ، ٨
موتقيه : تانيس الجزء الثانى
(٢٤) بيترى : تل العمارنة ٢ - ٤
ديتشر : صورة الجدران فى مدينة اخناتون . مجلة الآثار المصرية . المجلد
السابع . اللوحة الأولى والثانية
(٢٥) سلسلة تيطس التذكارية : الخامس ٢٨ - ٢٩
ولنزل تيوبى Thoubouï ماسيرو : القصص الشعبية الطبعة الرابعة ١٤٧
(٢٦) ديفز : نقر حتب ١٤
(٢٧) پندلبرى : الكتاب السابق ذكره ١٢٧ - ١٤٩
(٢٨) نفس المرجع ١٥٢ ، ١٥٣
(٢٩) أطلس فرسنسكى الأول ٦٠
مذكرات الحملة الفرنسية المجلد ١٨ الجزء الأول .
مستندات التاريخ القديم : المجلد الرابع ١٠٤٦ - ١٠٤٧
(٣٠) أطلس فرسنسكى الأول ٢٧٨ حديقة مين نخت Mia-nekht
(٣١) حديقة رخ هارح : أطلس فرسنسكى الأول ٣
وسبك حتب -- نفس المرجع الأول ٢٢٢
امنحباب -- نفس المرجع الأول ٦٦
وقن آمون -- ديفز ، فن آمون ٢٧
احدى صور الجدار رقم ٣٧٩٨٣ من مقتنيات المتحف البريطانى ، مرسومة

- في أطلس فرنسكى المجلد الأول ٩٢
(٣٢) ديفز : منزل المدينة في مصر القديمة - سلسلة مطبوعات متحف متروبوليتان
الأول مايو ١٩٢٩ ص ٢٣٣ - ٢٥٥
(٣٣) حدى هذه القطع موجودة في متحف القاهرة والثانية في متحف اللوفر .
أنظر كيمى . الثامن .
(٣٤) ديفز نفس المرجع ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧
(٣٥) بردية ايبس . أوصاف رقم ٨٤٠ ، ٨٥٢ ، لوحة ٩٧ ، ٩٨
(٣٦) مجموعة من أكداش عثر عليها محفوظة في حالة جيدة في مقبرة يويا وتويو
Youia & Touiou وفي مقبرة توت عنخ آمون .
وتوجد أشكال جميلة مرسومة على جدران المعابد والمقابر ، وعلى سبيل
المثال سلسلة تيطس التذكارية الخامس ٥ ، ٩ ، ٢٥
والرابع ٧ - سلسلة مقابر طيبة الأول ١٥ - ١٦
والخامس ٤١ ، ٤٣
(٣٧) صور جدران قصر اخناتون في بندلرى - نفس الكتاب صفحة ١٤
مجلة الآثار المصرية : السابع .
(٣٨) وجدت مجموعة رائعة من هذه الأواني في الممرات السفلى في الهرم المدرج
ويمكن مشاهدتها في سقارة . وعن الأواني التي مصدرها أبو رواش -
راجع كيمى : السابع .
(٣٩) موتايه الأواني المقدسة والدينيوية في مقبرة بسوسنس
بيوت : الآثار ٣٨ ١٩٤١ ١٧ - ٣٩
ماسبيرو : بحث في الفن المصرى باريس ١٩١٢ من ١٨٩ - ٢١٦
ادجار : كنز تل بسطة - المتحف المصرى الثانى ٩٣ ، ١٠٨
قرنييه : كتالوج المتحف المصرى - الحلى والجوهرات ١٠٤ ، ١٠٦
(٤٠) مدينة حابر ٣٨ ، ٥٥
(٤١) ديفز : فن آمون ١٣ ، ٣٠٤
(٤٢) موتايه : الحياة الخاصة - لوحة ١٤ وص ١٤٥

المَصْلُ الثَّانِي

الزمن

- (١) ماسيرو : أنشودة لانييل ١٢، ٨، ٢ .
- (٢) بردية هاريس الأولى ٣٧ م ١، ٤١، ٦٤، ٥٢، ٢، ٥٦، ١٢ .
- (٣) موريه Moret قتل المعبود في مصر بريس ١٩٢٧ ص ١٠، ١٣ .
- (٤) منشور كانوب : المستندات ج ٢، و ص ١٣٨ .
- (٥) مدينة حابو : الثالث ص ١٥٢
- (٦) بردية شستريتي الأولى — انظر ج ١
- (٧) بردية أنستاس الرابعة ١٠، ١، ٣ .
- (٨) أنشودة لسيروستريس الثالث
سيته ، ليستوكة ٦٧
- (٩) نقوش المهندس حروروع Horeure — كيمي الثاني ص ١١١-١١٢
- (١٠) بردية إبرز ١٨، ٢، ٦١، ٤٠-٦١، ٦٥
- بردية براين الطبية ١١، ١٢، بردية هيرست ٢، ١٧، ١٠، ١١
- (١١) استرابون . السابع عشر ٤٦
- (١٢) أسبوط الأول ٢٧٨ (عقل حابي جفائي الثاني) .
- (١٣) ديفز : فن — آمون ٣٨ - ٣٩
- (١٤) حوليات مصلحة الآثار المصرية التاسع والثلاثون ٢١٩، ٣٩٩
- (١٥) بردية ساليه اربعة ، التي درسها شاباس ، تقويم أيام السعد وأيام النحس في السنة المصرية . باريس وشالون ١٨٧٠ ، ومكتبة الدراسات المصرية
الثاني عشر ١٢٧
- بدج صورة طبق الأصل للكتابة الهيروغليفية في المتحف البريطاني الثاني
— لوحة ٨٨ جريفك ، بردية بينري ، ص ٦٢ ولوحة ٢٥
- (١٦) فيما يتعلق بالمعبود ست (Ares) Seth في باريسيس — راجع هيروت
الثاني ٥٩، ٦٣

- (١٧) ساعات النهار ، شاسناه : ادفو الثالث ٢١٤ ، ٢٢٩ ساعات الليل : بوشر :
نصوص مقابر تحتمس الثالث وامنوفيس الثاني ٨ - ٧٧
- (١٨) المستندات الأولى ١٠٦ (أوقى ٢٦)
- (١٩) المستندات الأولى ١٣٠
- (٢٠) أرمان - رانكى ، مصر والحياة المصرية في العهد القديم ٣٩٩ ، ٤٠٢
سلوى : الوسائل البدائية في تقدير الوقت (مجلة الآثار المصرية السابع
عشر (١٩٣١) ١٦٦ - ١٧٨
- (٢١) مجلة الآثار المصرية - السابع عشر - اللوحات ١٩ ، ٢٢
كيكى ، الثامن .
- (٢٢) مجلة الآثار المصرية : السابع عشر ١٧٠ - ١٧٤
- (٢٣) ماسبيرو دراسات مصرية الأول ١٨٥ - ٦
- (٢٤) المستندات الرابع ٦٥٥
- (٢٥) سنوحى ب ١٠ ، ١٢ ، ٢٠ مكتبة الدراسات المصرية السابع ٢٠
يوميات قادش ٥
- (٢٦) ديودور الأول ٧٠
- (٢٧) بردية هاريس ٥٠٠ الرابعة ١ ، ٢
- (٢٨) فاندنيه وأبادى : شقف الدير البحرى المنقوش أرقام ٢٣٢٧ ، ٢٣٢٩ ،
٢٣٤٢ ، ٢٣٤٤ ، ٢٣٤٧
- (٢٩) ماسبيرو : تاريخ الثاني ٢٩٤ ، ٢٩٥
- (٣٠) ماسبيرو : التاريخ الثاني ٤٣٣ ، ٤٤٤
- (٣١) المستندات - الثالث ٦١ ، ٦٢
- (٣٢) جلدتر - أوراق البردى المدونة بالهيراطيقية في المتحف البريطانى .
السلسلة الثالثة لندن ١٩٣٥ الجزء الثانى لوحات ٨٠ ، ٥
- (٣٣) نفس المرجع - الجزء الأول ٢٠ ، ٢١
- (٢٤) هيروdots الثاني ٨٣ - سورديل : هيروdots والديانة في مصر
باريس ١٩١٠ الفصل السادس :

الفصل الثالث

الأمرة

- (١) پتاح - حتب (طبعة ديثو) الموعظة رقم ٢١
- (٢) المستندات . الرابع ٢ - ٣ .
- (٣) المستندات . الرابع ٣٠ ، ٣١
- (٤) اللوفر . ج . ١٠٠ ، ماسبيرو : الدراسات المصرية الأول ٢٥٧ ، ٨
- (٥) بردية هاريس ٥٠٠ أغاني الحب الثاني ٩ ، ١١ ، مولر الشعر الغرامى
في مصر القديمة .
- (٦) جلودنر بردية شستر بيتي رقم ١ لوحات ٢٥ ، ٦ - ٢٦
- (٧) نفس المرجع ٨ ، ٢٢
- (٨) نفس المرجع ٢٢ ، ٨ ، ٢٣ ، ١
- (٩) نفس المرجع ٢٣ ، ٢ - ٤
- (١٠) نفس المرجع ٢٤ - ٤ - ٧
- (١١) نفس المرجع ٢٤ ، ١٠ - ٢٥ ، ٦
- (١٢) بردية هاريس ٥٠٠ ، الأغاني القرامية الرابع ٢ والخامس ٣
- (١٣) ماسبيرو : القصص الشعبية : الطبعة الرابعة ١٢٨
- (١٤) نفس المرجع ١٩٧ ، ٢٠٣
- (١٥) ديثو : نقر حتب ٣١ ، ٣٧ في سلسلة نيطس الرابع ص ٥ لخامس ٥ - ٧
ويجب ألا ننسى أن الألفاظ التي تعنى القراءة لها معان متسعة بجانب معناه
المحدد فكلمة *lot* تعنى والد وتعنى بعض الأحيان الجد وسن *Sn* وسنت
Snt التي تعنيان أخ وأخت قد تعنيان في بعض الأحيان أعضاء جماعة
وفعل سنن *Senn* يعنى « اتحد » .
- (١٦) ماسبيرو : القصص الشعبية - الطبعة الرابعة ص ١٢٩ - ملاحظة رقم ١
موريه : النيل والحضارة المصرية ١١٠ ، ٣١٨ - ٣١٩
- (١٧) هيرودوت الثالث : ٣١

- (١٨) - سلسلة مقابر طيبة الأول صفحة ٤ ، أ ٢ الثامن ولأربعون ٥٠
 (١٩) ماسبيرو القصص الشعبية الطبعة الرابعة ١٣٠
 (٢٠) شرقي : دستور الزواج في مصر في مجلة المعهد الفرنسي للآثار الشرقية
 بالقاهرة ١٩٣٧ ، ٤١ وما يليها .
 (٢١) ليناج في مجلة المعهد الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة الثامن والثلاثون
 ٥٩٩ ، ٢٣٣

- (٢٢) مثل من كثير من الأمثلة - انظر تيطس التذكارية الرابع ١
 (٢٣) پتاح - حتب - طبعة ديثو ٣٠٩ ، ٣١٠
 (٢٤) ماسبيرو القصص الشعبية الطبعة الرابعة ٢٩ ، ٣١
 (٢٥) نفس المرجع الطبعة الرابعة ٣ ، ٢١
 (٢٦) نفس المرجع ٣٨ ، ٤٠
 (٢٧) نفس المرجع ٤٣
 (٢٨) نفس المرجع ١٤٨ ، ١٦٩
 (٢٩) بردية شستر بيتي رقم ١١ الوجه ٤ - ٥
 (٣٠) المتحف البريطاني رقم ١٠٢٧ - ماسبيرو ودراسات مصرية .
 (٣١) بردية ليدن ٣٨ - سيتا وجلودتر خطابات مصرية إلى (الموتى) .
 (٣٢) بردية أوديني Orbiney الثامن ٧ ، ٨
 (٣٣) نفس المرجع التاسع ٨ - ٩
 (٣٤) بردية وستكار Weetcar ماسبيرو : القصص الشعبية الطبعة الرابعة ٢٨
 (٣٥) بردية بولاق الأخلاقية الثاني ١٣ ، ١٧
 ~ ماسبيرو - التاريخ الثاني ٥٠٢
 نفس الإنذار في نصائح پتاح حتب طبع ديثو ٢٨٧ - ٨
 ، إنها لحظة قصيرة لحلم من الأحلام ، إن الإنسان يموت لرغبته في معرفة
 تلك اللحظة .

- (٣٦) نصوص الأكفان : فصل ١٤٦ المجلد الثاني ١٨٠ وما يليه .
 (٣٧) المتحف البريطاني ١٠٠٥٢ ، الخامس عشر ، ٤ ، نص آخر من نصوص
 (م ٣٠ - الحياة اليومية)

(المقابر كان أيضاً متعدد الزوجات (بدت: بردية ميير Pret : Meyer Papyri)

١٣ ، ٥ ، ٦

انظر أرمان — وانكى : مصر ١٧٧

(٣٨) مجلة المعهد الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة ١٩٣٧ ، ٤١ ، ٥٩٩

(٣٩) البحار الفريق ١٦٨ ، ١٦٩

(٤٠) مجلة المعهد الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة ، الحادى والأربعون ، ٣١

(٤١) استرابون : السابع عشر ، ٥ ، ٢

(٤٢) ديودور الأول ، ٨

(٤٣) أنظر على سبيل المثال وصايا حانى جنفاى لولده فى أول نصوص العقود

(أسبوط ١ ، ٢٦٩ ، ٢٧٢) .

(٤٤) بردية أوربى التاسع ٨ - ٩

(٤٥) بردية هاريس ٥٠٠ - الخامس ظهر البردية - الرابع ٢ ، ٤

(٤٦) هيروdot : الثانى ، ٨٢

(٤٧) بردية سالييه الرابعة مكتبة الآثار المصرية - المجلد الثانى عشر ١٥٣ ، ١٥٤

١٦٠ ، ١٦١

(٤٨) بردية أيبس ٩٧ ، ١٣ ، ١٤ . الأوصاف ٨٣٨ ، ٨٣٩

(٤٩) ماسبيرو القصص الشعبية - الطبعة الرابعة ١٥٦ ، ١٥٧

(٥٠) جاردنر بيت الحياة . مجلة الآثار المصرية - الرابع والعشرين (١٩٣٨) ١٧٥

ماسبيرو القصص الشعبية - الطبعة الرابعة ١٣٠ . ملاحظة ١

(٥١) نقوش برلين رقم ١٤٥٠٦ أطلس فرسفى الأول ٣٨٧

(٥٢) بردية بولاق الأخلاقية السادس ١٧ وما يليه - أنظر ماسبيرو : التاريخ

الثانى ٥٠٢ ، ٥٠٣

(٥٣) ديفز قن - آمون اللوحة ٥١ و ص ٩

(٥٤) باجرى ٤

(٥٥) المستندات - الرابع ٣٤

(٥٦) ديفز : قن - آمون ٣٥ - جماعة مني الخدم خلف مقعد سيدم

- (٥٧) المكتبة المصرية -- السابع ٣
 (٥٨) نفس المرجع : السابع ٦٦ ، ٦٧
 (٥٩) ديفز : نفر حثب ٤٣
 (٦٠) المستندات : الرابع ١١
 (٦١) جاردنر : أربع برديات من الأسرة الثامنة عشرة من كاهون - اللاهون -
 مجلة اللغة المصرية والتاريخ القديم : المجلد الثالث والأربعون ٢٧٨٦٩
 (٦٢) أوراق البردي في المتحف البريطاني ١٠٠٥٢ ، الحادي عشر ٤ ، ٩ . قالت
 متهمة أخرى أنها قد اقتنت عبيدها من منتجات أملاكها . (نفس المرجع
 العاشر ١١ وما يليها)
 (٦٣) جاردنر قضية - نجمت عن شراء عبيد - مجلة الآثار المصرية الحادي
 والعشرون (١٩٣٥) ١٤٠ - ١٤٦
 (٦٤) المستندات - الأول ٧٥
 (٦٥) ديفز - خمس مقابر طيبية الثاني ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٩
 (٦٦) تيطس التذكارية - الخامس ٣٤
 (٦٧) ديفز خمس مقابر طيبية ٤
 (٦٨) مذكرات الحملة الفرنسية الخامس ٥٤٧
 (٦٩) ج . فاندييه وأبادي : كتالوج شقف دير المدينة المرسوم ٢٠٣٥ ، ٢٠٣٧
 ٢٠٢٨ ، ٢٠٤٠
 (٧٠) نفس المرجع : ٢٠٠٣ ، ٢٠٠٤
 (٧١) أطلس فرسفي الأول ١٢٣
 (٧٢) نيوبري بنى حسن الرابع ٥
 (٧٣) المتحف البريطاني ٣٧٩٧٧ في أطلس فرسفي الأول ٤٢٣
 (٧٤) تيطس التذكارية الخامس ٢٥
 (٧٥) مذكرات الحملة الفرنسية الخامس ٥٥٢ على قطعة الشقف رقم ٢١٤٤٣ في
 متحف برلين (إرمان ديانة المصريين اللوحة ١١) . قطعة تداعب قردا

- (٧٦) محفوظات متحف التاريخ الطبيعي في ليون الرابع عشر ٢٠ المقبرة
رقم ٢١٧ في طليه
(٧٧) قطعة الشقف رقم ٢٢٠١ من الدبر البحرى
(٧٨) تيطس التذكارية الأول ١٠
(٧٩) تيطس التذكارية الخامس ٣٠
(٨٠) كوينتس : أوزة النيل . محفوظات متحف التاريخ الطبيعي في ليون
الرابع عشر ١ - ٦٤ :
(٨١) المكتبة المصرية السابع ١٠٢ (بردية لاننج ٣ ، ٥ ، ٨)

الفصل الرابع

الخدمات المنزلية

- (١) ميرو دوت الثاني ٣٧ - ترد بعض الأحيان صور الفساليين ، أطلس فرسكي الأول ٥٧ - فارينا الصورة المصرية ١٦٥ .
- (٢) سنوحى ب ٢٩١ - ٢٩٢ .
- (٣) نفس المرجع ٢٩٣ - ٢٩٥ . موتيه : جيل ومصر ٦١٠
- (٤) جيكييه . قروش الأشياء (Jequier : les frises d'objet)
- (٥) على سيل المثال الوزير بتاح موزى Ptah . Mose واللوحة ٨٨ في ليون ، طبعها فاروى (Varille) ومنوعات لوريه Loret Mélango
- (مجلة المعهد الفرنسى للأثار الشرقية بالقاهرة ١٩٣٠ - ١٩٧٠)
- (٦) كويل : مقبرة حسي لوحة ٢١
- (٧) جيكييه : نفس المرجع ، لوكل : المواد المصرية القديمة - بردية ايرس ٦٥ ، ١٠ - ١١ ٤٥٣ - ٤٦٣ أوصاف ٦٦ ، ٧ - ٩ - الصناعات الطبعة الثانية ٧٩ - ٨٤ - ٤٦٤ - ٤٦٥ أوصاف ٦٦ ، ١٥ - ٤٦٨ أوصاف
- (٨) بردية ميرست ١٠ ، ٤ - ١١ - ١٤٤ - ١٤٨ أوصاف - بردية ايرس ٨٦ ، ٤ ، ٧٠٥ أوصاف ٨٧ ، ١٦٠٣ - ٧١٤ - ٧٢٠ أوصاف بردية ايرس ٦٧ ، ٣
- بردية ميرست ١٠ ، ١٥ ، ١٥ ، ١٥٧ ١ - ١٥٨ أوصاف
- (٩) لوريه : لتحويل الرجل الطاعن في السن إلى شاب .
- منوعات ماسبيرو : الأول ٨٥٣ - ٨٧٧
- (١٠) أطلس فرسكي الأول ٤٤
- (١١) المتحف المصرى - الكتالوج العام .
- بنيديت (Benedite) . أدوات الزينة
- ارمان - رانكى . مصر . . لوحة ١٧ ومثلها .

- فارينا : الصورة المصرية ١٧ .
- (١٢) بردية أوربى ٢، ٣٠٩، ٢٠٣
- (١٣) ديفز : خمس مقابر طيبة ٢٦، ٤٤
- سلسلة مقابر طيبة الخامس ٩، ١٠، والرابع ١٧ ويطس التذكارية ١ ،
- ١٢، ١٨ - الرابع ٧، ٨، ١١ والخامس ٣٠
- (١٤) المستندات - الأول ١٠٢
- (١٥) زوجان من النحال من الذهب وجدت في مقبرة بوسنس
- موتيه : تانيس ١٥٦
- (١٦) بردية أيرس ٧٨، ٤ وما يليه .
- أوصاف ١٦٦، ٦١٧، ٦٢٠ - ٢، ٨١ وما يليه ٦٤٧، ٦٤٨ ، بردية
- هيرست ١٢، ٨ ، أوصاف ١٧٣ - ٢٠٥
- (١٧) ديفز : العجانة الرابع ٢٦ مدينة حابو ٧٥، ١١٢
- (١٨) ديفز : نفر حتب ٣٦، ٣٧، ٤١، ٥٠ - سلسلة مقابر طيبة - الرابع ٦
- يطس التذكارية الرابع ١، ٥ والخامس ١، ٩، ٢٥
- (١٩) ديفز : نفر حتب ١٥، ٣٦، ٣٧، ٥٠، ٥٢
- يطس التذكارية الرابع ١، ٥ والخامس ١، ٧، ٩، ٢٥
- (٢٠) بردية في المتحف البريطاني رقم ١٠٠٥٢ ، الحادى عشر ٧ - ٨
- أنتظر فاندويه : الجامعة في مصر القديمة القاهرة ١٩٣١
- (٢١) سنوحى ب ٨٦ - ٨٨
- (٢٢) البحار الفريق ٤٧ - ٥٢
- (٢٣) أطلس فرنسكى الثاني ١٨٥ - ١٨٨ مدينة حابو ١٧٣
- (٢٤) بردية هاريس الأول ١٣، ٧، ٨، ٢٠ - ٣ - ١١، ٣٥ ب من ٨ - ٤
- ١٣ أ ٥١،
- (٢٥) بردية هاريس الأول ٢٠ - ١٣ - ١٥، ٧١ ب ٩ - ١٠
- (٢٦) موتيه : الحياة الخاصة . الفصل الخامس ، والامبراطورية الحديثة أطلت
- فرنسكى ١٨٨ مدينة حابو ١٧٣

(٢٧) مدينة حابو ١٤٨ ، ١٦٠ ، ١٥٢ بردية هاريس الأول ٢٠ ب ٥٣ ب

(٢٨) المستندات - الثالث ٥٤ (يعاينى ١٥٠ - ١٦٣)

(٢٩) بردية هاريس الأول ٢٠ ب ١٢ - ٢١ أ

الأول ٦٥ > ٧ - ٨

(٣٠) لوريه : الثوم عند قدماء المصريين مجلة أبو الهول (سفنكس)

١٩٠٥ ، ص ١٣٥ - ١٤٧

(٣١) سفر العدد - الأصحاح الحادى عشر : ٥

(٣٢) هيرودوت الثانى ٣٨ - ديودور الأول ٢ و ٣٣

(٣٣) ف لوريه النباتات الفرعونية رقم ١٥٢ ، ١٢٨ ، ١٢٩ - ١٥٧

(٣٤) بردية شستريتي الأول والثانى ١٠ - ١٢

وكبير نباتات الحدائق في مصر القديمة ١ - ٦

(٣٥) ديودور : الأول ، ٢٤

(٣٦) - ف لوريه : النباتات الفرعونية رقم ١٤٦

جمع الوزير رخاوع في نفس الوقت بذور الخرنوب (الحروب) والعمل

(مستندات التاريخ المصرى القديم ج ٤ ، ١٠٤٠ - ١٠٤١)

مدينة حابو ١٤٦ ، ١ ، ٢٨١ ، ٢٨٦

بردية هاريس الأول ٢٨ ، ٤٦ ، ٤٨

(٣٧) شتيندورف ، وولف : جباة طيبة ليزج ١٩٣٢ - ١٨

(٣٨) ديفز : فن آمون ٥٨ - ٩

أطلس فرسنسكى الأول ٢٥٥ ، ٢٨٦ ، ٣٢٥ - ٦ ، ٣٥٦

(٣٩) بردية أبيرس ٦ - ١٤ ، ١٠ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٣٠ ، ٢٠ ، ٢٠٠

بردية هيرست ٢ ، ١٢ ، ٣ ، ١٣ ، ٣٤

(٤٠) هيرودوت : الثانى ، ٧٧

(٤١) أطلس فرسنسكى الأول ٨٤

تيطس التذكارية الأول ٢٢ ، ١١

مجلة الجمع المصرى الحادى والعشرون ٢١٥

- (٤٢) بردية هاريس الأول ١٦ ، ٢٠ ب ، ٣٦ ، ٦٥ -
 تيطس التذكارية الأول ٢٩
 أطلس فرسنكي الأول ١٦ ، ٢٢
 (٤٣) أطلس فرسنكي الأول ١٨٠ ، ٣٥٦
 موتيه : الحياة الخاصة ٢٣١ - ٢٣٦
 ديفز : خمس مقابر طيبية ٢٨
 (٤٤) سلسلة مقابر طيبة الثاني ١١
 (٤٥) بندابرى - حفائر تل العمارنة - ١٣٩
 (٤٦) موتيه : الحياة الخاصة ٢٤٢ - ٢٥٤
 ديفز فن - آمون ٥٨
 سلسلة مقابر طيبة الثاني ٨ - ١٠
 ديفز خمس مقابر طيبية ٣٩
 (٤٧) المكتبة المصرية ، السابع ، ٤١ - ٤٢
 (٤٨) المجلة المصرية - الثامن والخمسون ، ٢٥
 (٤٩) نيوبرى : بنى حسن - الجزء الثاني ٦
 مجلة المعهد الفرنسى للآثار الشرقية - التاسع ، ٨ ، ٩
 (٥٠) فارينا : الصورة المصرية ١٧٠
 (٥١) ديفز العمارنة - الثالث ٤ - ٦
 (٥٢) سلسلة مقابر طيبة الثالث ٦
 نقوش بارزة من مقبرة حرجب ٢٠٣٦٥
 (٥٣) ارمان - رانكى - مصر ٢١٨
 (٥٤) كيمى ، الثامن .
 (٥٥) أسبوط الأول - العقود الخامس والسابع والتاسع .
 (٥٦) ديفز : مسرحة من عهد الامبراطورية الحديثة غير مألوقة الشكل .
 مجلة الآثار المصرية العاشر ٩ - ١٤ .

مستندات الرابع ١١٧ ، هل تسمح بأن نضيء لك المصباح أثناء الليل إلى أن تشرق الشمس ؟

- (٥٧) ماسبيرو - تعليقات أضمحات الأول لابنه سنوسرت الأول ص ١٠
 (٥٨) المكتبة المصرية - السابع ٢٧ - ٢٨ .
 (٥٩) المكتبة المصرية - السابع ٥ - ٦ حوليات مصلحة الآثار الأربعة ٢٠٥
 (٦٠) المكتبة المصرية ، السابع ، ٧ .
 (٦١) صور المآدب وردت كثيراً على جدران مقابر طيبة مثل : باحيري ٦ - ٧
 وديفنز : فقرحتب ١٨ وسلسلة مقابر طيبة ١ ، ٦ ، ١٥ ، والثالث ٤ - ٦
 والثالث ، ٢١ .

- تيطس التذكارية الأول ١٥ الرابع ٥ .
 أطلس فرسنسكي الأول ١٠٧ ، ١٠٨ ، ٩١ ، ٩٢ .
 (٦٢) بتاح حتب ، طبع ديفنو : ١٨ العظة ٢٧٧ ، ٢٨٨ .
 (٦٣) يضاف إلى الملاحظة رقم ٦١ :
 أطلس فرسنسكي ، الأول ، ١٤٥ .
 ديفنز : العمارة الخامسة ، ٥ .

ف . لوريه : ملاحظة عن الآلات الموسيقية في مصر القديمة في دائرة معارف الموسيقى ، لوفيناك باريس ١٩١٣ ، ١ - ٣٤ .

ث . جيرولد : تاريخ الموسيقى منذ بدايتها حتى نهاية القرن الرابع عشر ، باريس ١٩٣٦ . الفصل الأول . صورة بهلوان : أطلس فرسنسكي الأول ، ١٧٩ ، وأخرى : ماسبيرو تاريخ ، الثاني ، ٥٢٩ .

(٦٤) المتحف البريطاني ٣٧٩٨٤ - بنيديت مقبرة نفر حتبو المجمع الفرانسي :
 الخامسة ، لوحة ٤ ص ٥٢٩ - ٥٣١ . وماسبيرو دراسات مصرية ،
 الأول ، ١٧٢ - ١٧٧ .

(٦٥) ماسبيرو : دراسات مصرية ، الأول ، ١٧٨ وما يليها (ليدن K . G)
 (٦٦) هيرودوت ، الثاني ، ٧٨ بلوتارك : ايزيس وأوزيريس ، ١٧ .

لوسيان : الحداد ٢١

- بقرون : المجلد ٣٤ ،
 (٦٧) باحيرى ، ٧
 (٦٨) ديفز : نقر حثب ١٨
 أطلس فرنسكى الأول ٣٩٣ (بروكسل ٢٨٧٧) .
 أطلس فرنسكى الأول ١٧٩ .
 (٦٩) أطلس فرنسكى الأول ٤٩ ، ٤١٨
 مجلة المعهد الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة السابع والعشرون لوحة ٧
 (مقبرة ٢١٩ فى دير المدينة) .
 ليفر بت أوزيوس ٥٠
 بيعنخى ١٣٣ .
 (٧٠) موتليه . الحياة الخاصة ، ٣٧٢ - ٣٧٦
 يونكر : الجميزة ، الرابع ، ٣٧ .
 (٧١) ماسيرو : قصص شعبية . الطبعة الرابعة ١٤٢ (ستناخامواس والمومياءات
 شرحه ٢ (تأثير الدروع) .
 (٧٢) موتليه : الحياة الخاصة ٣٦٨ ، ٣٧٢ .
 ايتون : متحف بوسطن للفنون الجميلة ٢٥ (عام ١٩٣٧) صفحة ٥٤ .
 وثمة تفسير آخر لهذه اللعبة أورده زكى سعد . رسم عن ذكريات طفولته
 انظر خاسا لويزا فى حوليات مصلحة الآثار عدد ٣٥ عام ١٩٣٧ صفحة :
 (٧٣) ديفز . العمارنة ، السابع ١٨ .

الفصل الخامس

الحياة في الريف

- (١) المكتبة المصرية السابع ١٠٤ (لانسج ، الخامس ٧ ، السابع ٧) .
- السابع ٨٣ (سالى الأول والخامس والسادس ٩) .
- (٢) هيروودوت ، الثانى ، ١٤ ، ديودور ، الأول ، ٣٦
- (٣) موتيه : الحياة الخاصة ٢٥٨ - ٢٦٠
- (٤) وردت وسومها في ديفز . نفر حتب لوحة ٤٦ - ٤٧ .
- تيطس التذكارية لوحة ٢٨ - ٢٩ ، ودراسة في ديفز حتب ص ٧٠
- (٥) توجد معظم هذه الاسماء في اشينجلبرج .

"Bemerkungen zuden hieratischen Amphorinschriften des Ram-ssens" in A.Z. LVIII 25 .

انظر موتيه - مأساة أواريس طبعة باريس سنة ١٩٤١ . الصفحات ١٥٣-٤٤
وفي تيطس التذكارية - لوحة ١٩ - وفي طرق هورس في شرق الدلتا كانت توجد
كروم أيضاً

- (٦) بردية هاريس الاول ٧ ، ١٠ ، ١٢
- (٧) وردت الرسوم في باجيرى لوحة ٤
- أطلس فر نسيكى ، الأول ، ٢٣٨ ، ٣٥٥ ، ٢٨٢ ، ٢٦٥
- سلسلة مقابر طيبة الثالث ٣٠
- ديفز نفر حتب لوحة ٤٨ .
- تيطس التذكارية الاول ٢٢ .
- الخامس ٣٠ ، ٦٨ ، ٣٤٥ ، ١٢ ، ٢٣٠ .
- ليففر : بت أوزيريس - لوحة ١٢ .
- (٨) موتيه : الحياة الخاصة ٢٦٧ .
- (٩) رسم هذا المنظر واضحاً في مقبرة بوى رع تيطس التذكارية الثانى لوحة ١٢

والتقطير الخبز بصفة عامة أنظر الصفحات من ٢٨٥ ، ٢٨٢ .

(١٠) بت أوزيريس - النصوص ٤٣ ، ٤٤ .

(١١) تصوير زراعة الجبوب : تيطس التذكارية . الأول ١٨ (ناخت) .

تيطس التذكارية الخامس . ٣٠٠ (أبوى . Apouy) سلسلة مقابر طيبة الثالث ٩

أطلس فرنسكى ٤٢٤ (المتحف البريطانى ٢٧٩٨٢) أطلس فرنسكى

(منا Meana) أطلس فرنسكى : الأول ١٠٩ ، ٥١ ، ١٩٣ - ٥

(خاحات Khembhat) ، أطلس فرنسكى الأول ٨٢ ، ٣٨٥ ، ٤٢٢ .

٢٦١ ، ٥٨ ، ٢٧٩ ، ٣٦٦ ، ٢٠ ، ١١ ، ١٤ ، ١٤٢ ، ٦١ ، ١١٢ ، ١٩٠

باحيرى ٣ .

(١٢) اوربى الثانى ، ٣ .

(١٣) كان هذا يمارس منذ عهد الدولة القديمة .

موتيه : الحياة الخاصة ١٨٣ وما يلها .

(١٤) اطلس فرنسكى الأول ١١٢ (بانمضى) .

(١٥) باحيرى ٣ .

(١٦) بت أوزيريس ١٣ .

(١٧) المكتبة المصرية السابع ١٠٤ (بردية لا نسج) .

(١٨) باحيرى ٣ .

(١٩) هيرودوت الثانى ١٤ ، أطلس فرنسكى الأول ٥٧ ب .

باحيرى : لوحات ٣ - ٤ .

كيسر . مجلة المجمع المصرى ١٩ (١٩٣٧) ص ١٤٧ - ١٥٦ .

(٢٠) ايزيس وأوزيريس ٧٠ (De Isis et Osiris 70) .

(٢١) موتيه : الحياة الخاصة ١٩١ .

موريه : قتل المعبود فى مصر وباريس ١٩١٧ ص ٣٣ - ٣٥ .

(٢٢) ديوتير نوم (Deteronome) ١١ ، ١٠ ، ١١ .

(٢٣) مناظر مسح الأرض : سلسلة مقابر طيبة الثالث ١٠ .

- أطلس فرنسكى الأول ١١ ، ١٩١ ، ٢٣٢ ، أنظر سوزان برجر بعض
مناظر صح الأرض .
مجلة الآثار المصرية العشرون ٥٤ اللوحة العاشرة .
(٢٤) المكتبة المصرية الرابع رقم ٤ ومجلة الآثار المصرية الثامن ١٩٣ وما يليه .
(٢٥) أطلس فرنسكى الأول ١٤ - ١٠ .
(٢٦) بت أوزيريس المنص ٥٢ .
(٢٧) موتيه - الحياة الخاصة ٢٠٢ .
(٢٨) بت أوزيريس - النسان ٥١ ، ٥٢ .
(٢٩) نقوش ليدن البارزة : ٢ كتالوج رقم ٥٠ (أطلس فرنسكى العشرون
١ و ٤٢٢) وتبين نقوش منف البارزة التى تنتمى إلى الدولة القديمة أن المحصول
موضوع دائما على ظهر حمار (موتيه الحياة الخاصة ٢٠٦) .
(٣٠) أطلس فرنسكى الأول ٦١ (بانحسى) .
(٣١) باحيرى ٣ . رسوم متائلة ، أطلس فرنسكى الأول .
(٣٢) أطلس فرنسكى الأول ١٩٣ ، ٣٤٦ ، ٢٣١ .
(٣٣) تبطس التذكارية الأول . ١٢٠ وما أشير إليه فى الملاحظة رقم ٣٢ .
(٣٤) مزمو ١٢٦ ، ٥ .
(٣٥) تبطس التذكارية الأول صفحة ٦٤ . ومن وينفريد سن . بلاكان .
بعض مظاهر عروسة القمح ، مجلة الآثار المصرية - الثامن ٢٣٥ :
(٣٦) جوتيه . أعياد الإله مين ٢٢٥ Mid .
(٣٧) تبطس التذكارية الخامس ٣ - أطلس فرنسكى الأول ١٩ ، ٤٢٢ -
(ليدن - كتالوج رقم ٥٠) ، ١٩٣ ، ٣٤٦ قطع الكتان مثل أيضا على
مقابر الدولة المتوسطة فى بنى حسن والبرشه ومير ، أنظر بت أوزيريس
لوحة ١٣ .
(٣٨) ما سيرو . القصص الشعبية (الطبعة الرابعة) ٤٣ .

(٣٩) جاليارد : على عصفورين مرسومين في مقابر بنى حسن . كيمي الثاني
١٩ - ٤٠ .

(٤٠) موتيه . الحياة الخاصة ٣٦٠ - ٣٦٥ .

(٤١) أطلس فرسنسكى الأول ٣٣ (براين رقم ١٨٥٤٠) .

(٤٢) بردية هاريس الأول ٢٠ - ٨ .

(٤٣) جاليارد . وشم المصريين في الدولة القديمة بحثا عن استئناس حيوانات .

مجلة علم الاجناس وعلم الاجتماع ١٩١٣ .

(٤٤) بردية لانسج - لوحات ٨٠ ، ١٠٠ ، ١٠٠ .

(٤٥) سجل أمير السكاب رنى Renny ١٢٢ بقرة ، ١٠٠ خروف ، ١٢٠٠

ماز ، ١٥٠٠ خنزير . المستندات - الرابع ٧٥ .

(٤٦) جاهد رمسيس الثالث في سبيل زيادة الثروة الحيوانية في مصر ، د لقد

أعدت لك (آمون) قطمان الماشية في الجنوب وفي الشمال والثيران والدجاج

والماشية الصغيرة ، قيلفت مئات الألوف عدا ، مع ملاحظين للثيران وكتاب

وملاحظين للحيوانات ذات القرون وخفراء وعدد وفير من الرعاية للاشراف

عليها . (بردية هاريس الأول ٧ - ٩) .

والمأمن البرى قربان مقبول دائما لدى الآلهة .

وقد أرسل رمسيس الثالث العبادين لاصطيادها في الصحراء (بردية

هاريس . الأول ٢٨) .

(٤٧) سلسلة مقابر طيبة . الرابع ٨

(٤٨) قطعة من الثقاف من دير المدينة ٢١٥٩ .

ماسبيرو - التاريخ الجزء الثاني ٣١٩ (فارس من مقبرة حرمحب في

متحف بولونيا) .

(٤٩) ماسبيرو : مصر في سلسلة Ars Una

(٥٠) موتيه : الحياة الخاصة . الفصل الثالث .

- (٥١) نيوبرى : البرشه . الاول ١٨ .
 (٥٢) ليفغر : بت أوزيريس . النصوص ٤٨٠ ، ٤٦٠ .
 (٥٣) تيطس التذكارية الثانى ١٢ (بو ايم روح) أطلس فرنسكى الاول
 ٢٦٤ (أنا) .
 (٥٤) سلسلة مقابر طيبه الثالث ٣١ .
 أطلس فر-نسكى الاول ١٨٣ (أوسر حات) .
 (٥٥) تيطس التذكارية الخامس ٣٠ ، ٣٤ .
 (٥٦) أطلس فرنسكى الاول ٣٩٠ .
 (٥٧) موتيه : الحياة الخاصة ، كل الفصل الاول .
 أطلس فرنسكى الاول ٤٣٣ (المتحف البريطانى ٣٧٩٧٧) .
 أطلس فرنسكى الاول ١١٧ (باكى) .
 أطلس فرنسكى الاول ٢ (منا) .
 (٥٨) موتيه : الحياة الخاصة ٧٣ .
 تيطس التذكارية الثانى ١٥ ، ١٨ ، ١٩ . مجاء الحرف ١٩ ، ٢٠ .
 (٥٩) أطلس فرنسكى الاول ٢٥٠ .
 (٦٠) أطلس فرنسكى الاول ٢٥٠ (حرجب) .
 تيطس التذكارية الخامس ٣٠ ، ٣٥ (أبوى) .
 تيطس التذكارية الثانى ٦٥ (بو ايم روح) .
 موتيه . الحياة الخاصة ٢٢ - ٤١ .
 (٦١) أطلس فرنسكى الاول ٣٥٤ ، ١١٧ ، ٤٠ ، ٣٤٣ ، ٧٠ ، ٢٩٤ ، ٢٠ ، ٢٠٠ ، ١٨٣ ، ٧٧ .
 تيطس التذكارية الاول ٢٤ .
 ديفز . فن آمون ٥١ .
 (٦٢) سلسلة مقابر طيبه اللوحة ١ ومن ٢٨ (امنعحات) .
 أطلس فرنسكى الاول ٢٧١ (امنعحات) .

- (٦٣) تيطس التذكارية الخامس ٣٠ .
- تيطس التذكارية الأول ٢٤ .
- أطلس فرنسكى الأول ٢ ، ٣٤٣ ، ٤٢٣ .
- (٦٤) موتيه : الحياة الخاصة ٤٢ .
- تيطس التذكارية الخامس ٣٠ .
- أطلس فرنسكى الأول ١٨٤ ، ٢٤٠ ، ٣٤٤ .
- تيطس التذكارية الأول ٢٢ — ٢٣ .
- تيطس التذكارية الثانى ١٥ .
- أطلس فرنسكى الأول ٣٤٩ .
- (٦٥) موتيه . الحياة الخاصة ٦ - ٨ ، ٦٦ .
- في معبد ادفو تقول المعبودة سحت (سيثات) الملك :
- ، انى أهيك جميع المصافير في مستقعاتها ، (أدفو الثانى ١٦٤) .
- (٦٦) سلسلة مقابر طيبه الخامس ٩ .
- (٦٧) بردية هاريس الأول ٢٨ ، ٣ - ٤ .
- (٦٨) سلسلة مقابر طيبه الثانى ٦ - ٧ .
- سلسلة مقابر طيبه الأول ٩ .
- أطلس فرنسكى الأول ٥٣ .
- تيطس التذكارية الثانى ٧ .
- ديفز خمس مقابر طيبه ١٢ ، ٢٢ ، ٤٠ .
- (٦٩) ديفز فن آمون ٤٨ .
- (٧٠) ديفز خمس مقابر طيبه ١٢ .
- (٧١) ديفز خمس مقابر طيبه ٢٣ - ٢٤ . أطلس فرنسكى الأول ٥٣ ، ٣٢ .
- (٧٢) أطلس فرنسكى الأول ٣٦ .

الفصل الثاني

الفنون والحرف

(١) لوحة العام الثامن ، عثر عليها في أون . (حوايات مصلحة الآثار المصرية ٢١٩) .

(٢) انجلباك : حاجر صحراء النوبة الغربية والطريق القديم إلى توسخا Tushka (حوايات مصلحة الآثار المصرية ١٩٣٨ ، ٣٦٩ — أنظر سيته : المبانى والتماثيل الحجرية في مصر القديمة وأسمائها برلين ١٩٣٣ ص ٤٩) .

(٣) كويات وموتيه : النفوش المهيروغليزية والمهيراطيقية في وادي الخمامات . القاهرة ١٩١٢ .

(٤) نفس المرجع : النقوش ٢٣١ — ٢٣٧ ، ٢٤٠ ، ٢٢٣ ، ١٢ ، ٢٢٢ ، ٢١٩ ، ١٠٨٧ ، ١٠٠ .

(٥) نفس المصدر . النقش (النجس) ١٩ ، أنظر صفحة ٣٤ .

(٦) نفس المصدر . النقش ١١٠ .

(٧) نفس المصدر . النقش ١٩١ .

(٨) نفس المصدر . النقش ١٩٢ .

(٩) لوكلان مواد وصناعات مصر القديمة — الطبعة الثانية لندن ١٩٣٤ ص ٦٣

(١٠) سلسلة مقابر طيبة الرابع ٤ نص أممي Amoni في بنى حسن (نيوبرى : بنى حسن الأول ٨) .

بردية هاريس الأول ١٠ إلى ٧ . خريطة مناجم الذهب في متحف تورين (٢١ م — المياة في مصر)

- (١١) نصوص معبد الرديسيه : جولدشف . مجموعة أعمال ثالث عشر ٧٥ وما يليه المكتبة المصرية الرابع رقم ٤ .
- (١٢) لوحة رمسيس الثانى التى وجدت فى كوبان على بعد ١٠٨ كيلومترا جنوب أسوان والآن فى متحف جرينوبل . ترسون لوحة كوبان القاهرة ١٩٢٢ .
- (١٣) ديودور الثالث ١١ — ١٣ .
- (١٤) التماثيل الصغيرة التى وجدت فى تابوت حرناخت فى تانيس (كىمى التاسع أرقام ٩٤ — ١٠٣) كانت مصنوعة بكل وضوح من ذهب غير نقى .
- (١٥) لوكس : مواد وصناعات مصر القديمة ٣٥٢ .
- لوريه : الفيروز عند قدماء المصريين كىمى الأول ٩٩ — ١١٤ .
- (١٦) لوكس : نفس المرجع ٣٤٨ .
- نيوبرى : دراسات مقدمة إلى جريفث ٣٢٠ .
- (١٧) لوريه . نفس المرجع . فى كىمى الأول ١١١ — ١١٣ .
- (١٨) ليسيسوس : التماثيل ، الثالث ٢٦ ، ١٠ .
- أطلس فرسنسكى الأول ٦٤ ، ٣٤١ ، ٣٤٢ .
- (١٩) أطلس فرسنسكى الأول ٥ .
- (٢٠) نيوبرى : البرشه الأول ١٦ — ١٦ .
- (٢١) ديفز : قن — آمون ٣٨ — ٤٠ .
- (٢٢) تيطس التذكارية . الثانى ، ٢٣ .
- (٢٣) سلسلة مقابر طيبة الخامس ، ١٤ ، الثالث ٨ .
- (٢٤) فرنيه : الحلى والجواهرات المصرية . القاهرة ١٩٠٧ الجزء الثانى .
- (٢٥) أطلس فرسنسكى الأول ٣١٦ — ٣١٧ نيوبرى : رخ ما رخ ١٨
- أنظر بقية العمليات فى مصانع الحلى فى سلسلة مقابر طيبة الثالث ٨ — والخامس ١١ — ١٢ وتيطس التذكارية الثانى ٢٣ والرابع ١١ . أطلس فرسنسكى الأول ٢٦٣ ، ٥٩ ، ٥٠ ، ٢٢٩

- (٢٦) موتيه . الحياة الخاصة ٢٩٨ - ٣١١ أطلس فرسكى الأول ٣١٤ -
٣١٥ ، ٤٢٠ ، تيطس التذكارية الرابع ١١
(٢٧) تيطس التذكارية الخامس ٣٧ .
(٢٨) سلسلة مقابر طيبة الخامس ١١ - ١٢ الثالث ١٠ تيطس التذكارية الثاني ٢٣
أطلس فرسكى الأول ٣٠٧ ، ٢٢٧ .
(٢٩) سلسلة مقابر طيبة الخامس ١٢ .
(٣٠) موتيه : الحياة الخاصة ٣١١ - ٣١٤ .
(٣١) دائرة المعارف الفوتوغرافية للفن - الآثار المصرية في متحف اللوفر
٧٤ - ٧٧ .
(٣٢) موتيه : الحياة الخاصة ٣١٥ - ٣١٨ . أطلس فرسكى ٣١٢ - ٣١٣
نيوبرى . رخ مارع ١٧ - ١٨ .
(٣٣) ديفز : فن آمون ١٣ - ٢٤ .
(٣٤) أطلس فرسكى الثاني ٢٥ ، المستندات الرابع ٦٢٦ - ٦٤٢
(٣٥) تيطس التذكارية الثاني ٣٧ - ٣٨ .
(٣٦) المستندات الرابع ١١٥٤
(٣٧) لوحة العام الثامن لرمسيس الثاني في حويلات مصلحة الآثار المصرية ١٩٣٩
هجاب الحرف ١١١ في البردى
(٣٨) ساليه ، الثاني ٣ ، ٩ . بردية انستاسى السابع ١ ، ١
(٣٩) اللوفر ١٤ - أنظر ، سوتاس في مجموعة أعمال السادس والثلاثين ١٥٣
(٤٠) سلسلة مقابر طيبة الأول ٨
(٤١) المستندات الأول ٢٣
(٤٢) مجموعة أعمال الرابع والعشرون ١٨٥
(٤٣) المقبرة ٣٥٩ في طيبة أنظر ، مجلة فقه اللغة والتاريخ المصرى القديم ، الثاني
والأربعون ١٢٨ - ١٣١

- (٤٤) شقف رقم ٢١٤٤٧ في برلين - راجع مجلة AZ الرابع والخمسون ٧٨ .
أنظر رويشون وفارى : معبد السكاتب الملكى امحتب ابن حابو - القاهرة
١٩٣٦ ص ٩ .
- وقد اختلفت في أن ألقاب الامير وألقاب السكاتب تنسب إلى رسام محترف .
- (٤٥) أطلس فرنسكى الاول ٣١٩ - ٣٢١ .
- سفر الخروج الاول ١١ - ١٦ .
- أنظر مالون : العبرانيون في مصر روما ١٩٢١ ١٣٤ - ١٣٨ .
- (٤٦) هجاء الحرف الثامن . الخامس ٧٥ والثاني ٣٨٥ .
- (٤٧) ديفز : فن آمون ٥٩ .
- (٤٨) سلسلة مقابر طيبة الثالث ١ .
- (٤٩) أطلس فرنسكى الاول ٤٤ .
- (٥٠) موتيه في كيمى الرابع ١٧٨ - ١٨٩ ، هجاء الحرف .
- (٥١) ليفر : تاريخ كبار كهنة آمون في الكرنك ١٦١ - ١٦٢ .
- (٥٢) المصدر نفسه ١٢٨ .
- (٥٣) اعترافات بالنفى : كتاب الموتى ١٣٥ أ .
- العبارة ٦ يقرر الميت : إنى لم أجبر فى أى يوم الناس على عمل فوق طاقتهم .
- (٥٤) ماسبيرو : التاريخ الثانى ٥٤٠ - ٥٤١ بريدية تورين ٤٢ ، ٢ - ٣ .
- ٤٦ - ١٧ .
- (٥٥) أطلس فرنسكى الاول ٢٠٠ .
- (٥٦) دارسى : عائمة فينيقية عن رسم مصرى .
- المجلة الأركيولوجية ١٨٩٥ ٢٨٦ - ٢٩٢ .
- واللوحة ١٤ - ١٥ موتيه : تراث الفن السورى ١٢ .
- (٥٧) المستندات الاول ١٥٧ .
- سوتاس : دراسة نقدية عن عقد بيع متقولات في عهد الأهرام باريس ١٩١٣ - ١٩١٤ .
- (٥٨) جلودز : أوبع برديات من الأسرة الثامنة عشرة من كهون (اللاهون -
فيوم) مجلة فته اللغة والتاريخ المصرى AZ للقديم ١٩٠٦ ٢٧ - ٤٨ .

- (٥٩) جلودنو : بردية شستريتي الأولى لندن صفحات ٤٣ - ٤٤ .
(٦٠) بردية رقم ١٠٠٥٢ في المتحف البريطاني لوحات ١١ ، ١٤ ، ٣٠ .
بردية رقم ١٠٠٥٣ لوحة ١١١ ، ٦٠ ، ١٦ ف
(٦١) بردية شستريتي الأولى - الظهر . د ، ص ٤٣ .
(٦٢) جلودنو . قضية تقيجة شراء عبيدين .
مجلة الأنار المصرية ١٩٣٥ ١٤٢ .
(٦٣) ونامون الثاني ٤٠ - ٤٢ (المكتبة المصرية - الأول)

الفصل السابع

الرحلات

- (١) نصوص الأكفان الأول ١٠ .
- (٢) أوديني — الثامن ١ .
- (٣) أوني ١٩ — ٢٠ .
- (٤) أسبوط الثالث ١٠ — ١١ .
- (٥) ماسبيرو — التاريخ الثاني ١٢٣ .
- (٦) استرابون . السابع عشر ٤٤ ورد رسم سباحين على جدران مقبرة مرووكا وعلى حمة قائد يوسف أوندى باوند
- (٧) بردية ١٠٠٥٢ في المتحف البريطاني — الثالثة عشرة ١ — ١٥ .
- (٨) بردية شستيفي — الأول ، الخامس ٣ — ٦ (هورس — ست) .
- (٩) موتييه . الحياة الخاصة ٣٧٩ — ٣٨٠ .
- (١٠) المكتبة المصرية السابع ٣٧ .
- (١١) سلسلة مقابر طيبة — الثالث — اللوحة السادسة .
- (١٢) سلسلة مقابر طيبة الأول — اللوحة الثانية عشر .
- بعثة الحملة الفرنسية الخامس — ٥٨٢ ، ٥١٧ .
- أطلس فرنسكي — الأول — ٣٠٨ .
- (١٣) سلسلة مقابر طيبة الرابع اللوحات الحادية عشرة والثانية عشرة .
- (١٤) سلسلة مقابر طيبة الرابع اللوحات الثانية والثلاثون .
- أطلس فرنسكي الأول ١٩٩ ، ٣٢٣ .
- (١٥) أطلس فرنسكي الأول ١٣٩ .
- (١٦) ياحيري — ١ للوحة الثالثة .

- (١٧) حمامات ١٩٢ .
(١٨) أطلس فرنسكى ١٢١ .
بمئة الحلة الفرنسية الخامس ص ٢٧٧ واللوحه الثالثه .
(١٩) نيوبرى : بنى حسن الاول اللوحه الثلاثون ، الثانى اللوحه الرابعه .
(٢٠) أطلس فرنسكى الثانى - اللوحه السادسه .
(٢١) حويات مصلحه الآثار التاسع والثلاثون ص ٥٧ :
(٢٢) حمامات ١٩٩ .
(٢٣) حمامات - الاول .
(٢٤) مستخرج بالمسكنه المصريه ، العاشر ص ١٨٣ - ٢٣٠ . أنظر جاردنر :
مجلة القاهره العلميه ، الثامن ص ٤١ .
(٢٥) بردية هاريس الاول - لوحات ٧٧ - ٧ - ٨
(٢٦) البحار الغريه - ١٤٩ - ١٥١
(٢٧) بردية هاريس الاولى - لوحات ٢٨ ، ٣ - ٤
لوحات ٤٨ ، ٢
(٢٨) موتقيه قصه أواريس ١٩ - ٢٨ ، ٣٥ - ٤٣
(٢٩) موتقيه جبيل ومصر ٢٣٦ - ٢٣٧
٢٩٥ - ٣٠٥
Duned : Byblia Grammata دونا
بيروت ١٩٤٥
(٣٠) ونامون الثانى ٥١ - ٥٢ ترجمت
لماسيرو الطبعه الرابعه ٢١٧ - ٢٣٠
(٣١) بردية هاريس الاول - اللوحه الثامنه ٨
(٣٢) موتقيه قصه أواريس ٢٦ - ٢٨
(٣٣) يوجد أم مستندعز رحلات المصريين إلى بلاد بونت في معبد حاشيسوت

في الدير البحري (نافيل : الدير البحري الثالث ٦٩ - ٨٦ والمستندات الرابع ٣١٥ - ٣٥٥)

أما عن هذه الرحلات في عهد تحتمس الثالث فانظر المستندات الرابع ١٠٩٧ ، أطلس فرنسكي الأول ٣٣٤

وفي عهد امنوفيس الثاني انظر أطلس فرنسكي الأول ٣٤٧ - ٣٤٨ . وفي عهد حرنمحب Horonmheb ، أطلس فرنسكي الثاني ٦٠ - وفي عهد رمسيس الثاني وفي عهد رمسيس الثالث برديه هاريس الأول ٧٧ - ٧٨ .
(٣٤) موتيه : قصة أواريس ١٣١ - ١٣٣ .
(٣٥) المصدر نفسه ٢١ .
(٣٦) حمامات ١١٤ .

(٣٧) استرابون السادس عشر ٢٢

(٣٨) لا يوجد هذا التعبير الا في برديه هاريس الأولى وعلى لوحة لتحتمس الأول (جوتييه : القاموس الجغرافي الثالث ٣٣) وترجم موقدي Mouquedi المياه المقلوبة ، ذلك أن المصريين لاحظوا أن يجري مياه نهر الفرات ، على عكس يجري مياه نهر النيل ، من الشمال إلى الجنوب ، وقد كتب المصريون ، الذين عرف عنهم حب الفكاهة ، أسم أقليم قديه Qedo كما لو كان مشتقا من فعل قدى Qdy (مقلوب)

(٣٩) نصوص تحتمس الثالث في جبل بركل ، المجلة المصرية ، التاسع والستون ٢٤ - ٣٩

(٤٠) لوكل المواد والصناعات المصرية القديمة الطبعة الثانية ص ٧٣

(٤١) لازورد نقرر وود ذكره منذ عهد ادولة الوسطى ضمن نقوش رحالة يسمى خيتو Khetو مجلة الآثار المصرية الرابع اللوحة التاسعة ، وضمن قائمة بالأحجار الكريمة (شاسيفاه - بالانك ، حفائر أسيوط ص ١٠٨ ، ٢١٢) ، وكذلك في نصوص رمسيس الثاني (بيل - النصوص الهرماتيقية الأول ١٤٥ Piehi Inscr . hier) وقد وجدت

في مقبرة بسوسنس عقدا من الذهب مطعما بالفيريز وقد نقش على أحد
أجزائه كتابة بالحظ المساري ، وقد حل المسيو (دورم M. Dhorme)
رموز اسم إحدى البلاد المجاورة لايلام (عيلام Elam) وأسم ملكه
وأمية أكديميا النقوش ، عام ١٩٤٥

(٤٢) لوحة الأمير بختان ترجمت في القصص الشعبية لماسيرو ونشر الأب
تريسون في مجلة الكتاب المقدس ترجمة حديثة جدا مع صورة قنوغرافية
للوحة عام ١٩٢٣

(٤٣) تل أوجا حرو سنة طيب من سايس ، استدعاء قبيل ليعوده بوزر :
احتلال الفرس الأول لمصر ١ — ٢)

(٤٤) أريان الهند الخامس ٥ ، ديودور الأول ٥٥ ، استرابون السادس
عشر ٤ ، ٤

الفصل الثامن

فرعون

- (١) بردية هاريس - الأولى ٥٧ ، ٣ وما يليها .
- (٢) كريتس : لوحتان لا متوفيتان الثاني ١٢ .
- (٣) جوتييه : النصوص الكبرى الاقتحائية لمعبد ابيدوس .
الجملة المصرية AZ ، الأربعون ، الثامن ، ٥٢ - ٦٦ .
- (٤) النصوص الرابع ٧٦٥ .
- (د) موريه (Moret) . بعض الطبائع الدينية في المعبد الفرعوني .
باريس ١٩٠٣ .
- (٦) بيعنخي ٢٥ - ٢٦ : المستندات الثالث ١٤ .
- (٧) بيعنخي ٨٥ - ٨٦ : المستندات الثالث ٢٧ - ٢٨ .
- (٨) بيعنخي ١٠٣ - ١٠٥ : المستندات الثالث ٣٨ - ٤٠ .
- (٩) موتيه : قصة أو اريس ١٠٨ - ١١٠ .
- (١٠) ليففر . تاريخ كبار كهنة آمون في الكرنك ١١٧ وما يليه .
- (١١) لوحة رقم ٨٨ في ليون ، نبذ لويه ٥٠٥ .
- (١٢) توجد رسوم للملك في زيه السكامل في الكرنك والأقصر و ابيدوس وفي
كل المعابد وانظر بصفة خاصة مدينة حابو ١٢٣ - ١٢٤ .
- (١٣) وجدت في مومياءات شيشنق وبسوسنس في تانيس مجموعة كبيرة من أدوات
الزينة الملكية : موتيه : تانيس ١٤٦ - ١٥٧ .
- (١٤) ديودور - الأول ٧٠ .
- (١٥) كيمي - الثامن .

- (١٦) النصوص أ ٨ في معبد الرديسية : المكتبة المصرية الرابع .
- (١٧) حمامات ٢٤٠ و ١٢ بينا يقدر ان جلودر أنه يحتل قليلا جداً أن يتوجه الملك بذاته إلى وادى الحمامات (مجلة الآثار المصرية الرابع والعشرون ١٦٢)
- (١٨) هذه هي لوحة كوبان الموجودة الآن في متحف جرينوبل وطبعا ترينسون القاهرة ١٩٢٢)
- (١٩) أمدا نبوان نف Nebounnef نفسه هذه الاستقمامات في نصوص مقبرته في طيبة (المجلة المصرية AZ) الرابع والأربعون ٢٠ - ٣٥ وليفقر نفس المرجع ١١٧ وما يليه .
- (٢٠) ماسبرو : القصص الشعبية الطبعة الرابعة ٧٩ - ١٠٣ .
- (٢١) البعثة الفرنسية - الخامس ٤٩٦
- (٢٢) ديفز المارة - السادس ٣٩ - ٣٠
- (٢٣) حفلات توزيع المكافآت وردت رسومها بكثرة في مقابر الامبراطورية الحديثة ، ديفز ، المارة الأول ٦ ، ٣٠ الثالث ١٦ - ١٧ والرابع ٦ والسادس ٤ - ٦ ، ١٧ - ٢٠ د ، وديفز نفر حتب ٩ - ١٣ ، الوفر ٢١٣ ، البعثة الفرنسية الخامس ٤٩٦ ، المقبرة ١٠٦ في طيبة (بورتر وموس الأول ١٣٤) ،
- (٢٤) ديفز نفر حتب ١٤ - ١٨
- (٢٥) أنظر النصوص البارزة لمقبرة حرمع (ليندن)
- (Beschreibung der ägyptischen sammlung IV 21—24)
- (٢٦) ليفقر تاريخ كبار كهنة آمون في الكرنك ١٩٤ - ٥ ، نصوص تتعلق بكبار كهنة آمون روى - روى Rome — Roy وامنحطب لوحة ١١
- (٢٧) درست هذه الرسوم بأسباب في موقته . أطلال الفن السورى في مصر في عهد الامبراطورية الحديثة باريس ١٩٣٧ الفصل الأول .
- (٢٨) ديودور الأول ٥٣ .
- (٢٩) لوحة عثر عليها في معبد موتو في أرمنت Ex oriente lux ١٩٣٩ ، ٩

(٢٠) لوحة كبرى عثر عليها في الجيزة - طبعة قارى في مجلة المعهد الفرنسى الآثار الشرقية بالقاهرة - الحادى والأربعون ٣١ وما يليه

(٣١) كوينتس ، لوحتان لامنوفيس الثانى ٦ - ٧

بعض نصوص تشيد بقوة أمنتب الثانى البدنية ، المستندات الرابع ٩٧٦ - ٧ ، حوليات مصلحة الآثار المصرية الثامن والعشرون ١٢٦ مدامود

١٩٢٦ - ١٩٢٧ مجلة متحف مترو بوليتان للفنون ١٩٣٥ الثانى ٤٩ - ٥٣

(٣٢) بيغنخى ٦٤ - ٦٩ ، المستندات الثالث ٢١ - ٢٢

(٣٣) مدينة حابو ١٠٩ - ١١٠

(٣٤) لوحة تحتس الرابع التى وجدت بين غلى أبو الهول بالجيزة نشرها أرمان

Sitzungsberichten pr. A. K. ١٩٠٤ ، ٤٢٨ - ٤٤٤

(٣٥) لوحة نباتا نشرها ريزنر ، الآثار المنقوشة في جبل بركل

(Reissrer Inscribed Monuments from Gebel Barkal A. Z.)

المجلة المصرية التاسع والستون ٢٤ - ٣٩ ونقوش امنصحات ، المستندات

الرابع ٨٩٠

(٣٦) مدينة حابو ٣٥ د ١١٦ ، ١١٧

(٣٧) قصيدة قادش نشرها كوينتس ٨٣٨ - ٣٣٩ .

(٣٨) ديفز العمارة الثالث ٣٠ - ٢٤ ، ٤ ، ٦ ، ١٨ ، ١٣ الرابع ١٥ .

(٣٩) الكتالوج العلم للمتحف المصرى ٣٦٠٠٢ .

(٤٠) موتيه : قصة أواديس ١١٦ - ١٢٩

(٤١) لوحة دواج رمسيس الثانى - حوليات مصلحة الآثار الخامس والعشرون -

المكتبة المصرية السابع ١٢

أظفر موتيه : قصة أواديس ١٣٤ - ١٣٥

(٤٢) ديفيريا : بردية تورين القضائية وبرديتا دى ورولان ،

(Deveria : Le papyrus judiciaire de Turin et les papyrus
Eec et Rollin, Paris 1868).

المكتبة المصرية الخامس

- (٤٣) بردية تورين القضائية العمود الرابع ٢ - ٦
(٤٤) بردية لى رقم ١ و بردية رولان
(٤٥) بردية تورين القضائية العمود الثانى
(٤٦) نفس المرجع العمود الثالث
(٤٧) نفس المراجع العمود السادس
(٤٨) ماسبيرو المومياء الملكية ٧٨٢
التاريخ الثانى ٤٨٠

(٤٩) شارف :

Derhistorische Abschnitt der Lehre für König Meri Kare
München. 1936.

ماسبيرو . نصاب امتحانات الأول لابنه سنوسرت الأول - القاهرة ١٩١٤

A. de Buck in *Melanges Maspero I* Cairo 1935 - 8 , pp.
847-52, B. Gunn in (J.E.A. XXVII (1941) pp, 2 - 6.

A. Volten, *Zwei altägyptische politische Schriften*,
Copenhagen 1945.

- (٥٠) هذه هى بردية هاريس الأولى ، ويوجد منه عهد قريب نسخة سهلة فى
المكتبة المصرية ، الخامس . ويعد تريسون فهرسا لهذا المستند الهام .
(٥١) بردية هاريس الأولى ٧٩ ، ١ - ٥ .
(٥٢) نفس المرجع ٢٢ ، ٣ - ٢٣ ، ٤ .

الفصل التاسع

الجيش والحرب

- (١) المكتبة المصرية - السابع ٢٦ .
- (٢) المكتبة المصرية - السابع ٢٧ .
- (٣) المستندات الرابع ٩٩٩ . الكأس في كتاب قرنيه : الحلى والمجوهرات المصرية لوحة ٢٠ .
- (٤) شميليون . ملاحظات وصفية ، ٨/٥٢٧ .
- المستندات . الرابع ٩٩٥ .
- (٥) المستندات . الرابع ٩٩٧ .
- (٦) عرفنا أنباء محاجر ومكافآت نب آمون Nebamon من نصوص ورسم مقبرته في طيبة (رقم ٩٠) .
- سلسلة مقابر طيبة الثالث أنظر بصفة خاصة اللوحات من ٢٤ - ٢٩ .
- (٧) المستندات الرابع ٩١١ - أطلس فرنسكي الأول ١٨٦ ، ٢٨٠ .
- (٨) سلسلة مقابر طيبة الثالث ٣١ ، ٣١ - ٣٣ .
- (٩) قصيدة قادش ، نشرها كوينتس ١٧٢ - ١٨٥ .
- (١٠) بردية هاريس الأولى ٧٨ ،
- (١١) هيروودوت الثاني ١٦٤ - ٨ ،
- ديودور الأول ٦٤ - ٧٣ ،
- (١٢) أطلس فرنسكي الأول ٢٣٦ ،
- (١٣) ديفز : العمارنه الثالث ٣١ ، ٣٩ ،
- أطلس فرنسكي الثاني ١٣ ،
- (١٤) النقوش البارزة لمعبد رمسيس الثاني في العرابة المدفونة ،
- كوينتس : معركة قادش لوحة ٢٢ أطلس فرنسكي الثاني
- (١٥) بردية هاريس الأول ٧٦ .
- (١٦) ماورد في مدينة حابو ١١٢ .

- (١٧) كافايناك : سيلوليومما وعهده
باريس ١٩٣٢ ٧٠ - ٧٢ (حوليات سيليل صفحة ٢٧)
(١٨) لوحة كارنافون في مجلة الآثار المصرية J.E.A. الثالث ٩٥ - ١١٠
موتيه : قصة أواريس ٩٤ ،
(١٩) لوحة صيقى الأول ، التي وجدت في بيسان
نبد لوريه ، مجلة المعهد الفرنسي للآثار الشرقية الثلاثون
(٢٠) ماورد في مدينة حابو ، ٢٩
(٢١) موتيه : بقايا الفن السورى ٣٢ - ٣٣ كيمي الرابع ٢٠٠ - ٢١٠
(٢٢) المصدر نفسه : ٣٤ - ٣٦
(٢٣) أطلس فرنسكى الثانى ١
(٢٤) موتيه : نفس المرجع ٢٧ - ٣٨ .
(٢٥) مدينة حابو ١٦ ، ٣١ ، ٦٢ : مدينة حابو ٢٥ بشأن أغطية منقوشة
الميون خاصة بتمثال سوتخ : أطلس فرنسكى الثانى ١٨
(٢٦) مدينة حابو ١٧ - ٣١
(٢٧) أطلس فرنسكى الثانى ٣٤ ، ٤٠ ، ٤٣ ، ٤٤
(٢٨) المستندات الثالث ٨ (ييغنى ٩ - ١٢)
(٢٩) مجلة الآثار المصرية (J. E. A.) الحادى والعشرون ٢١٩ - ٢٢٣
(٣٠) موضوعات طبعة فيرمان ديدو Fir nin - Didot الأول ص ٢٠
إلى آدين هذا المرجع إلى الميسوجان يويوت (Jean Yoyotte) وتوجد
أمثلة أخرى متشابهة في موتيه : مأساة أواريس ٢٩ ، ٢١٥
(٣١) كتاب الموتى ١٢٥ ب - عبارة ١٥ : أيها المنذر بالمعركة (سرخرو)
يا من تمت إلى أونس ، وأونس إحدى بلادست
(٣٢) المستندات الرابع ٦٤٩ وما يليها
(٣٣) بردية ١١١٦ متحف الإرميتاج . Musee de l' Ermitage
٩١ - ٩٨ : موتيه قصة أواريس ٢٩

- (٣٤) بناء على ماورد في قصيدة قادش ، وبصفة خاصة مجموعة قراوات قادش ،
أنظر كوينتس ، موقعة قادش القاهرة ١٩٢٨ أطلس فرنسكى الثانى
- (٣٥) إستنادا إلى نص بارز من مقبرة حر محب فى سقارة ، وهو موزع بين
متحفى بولونيا وبرلين - أطلس فرنسكى الأول ٣٨٦ ومجلة الآثار المصرية
(I . A) السابع ٣٣
- (٣٦) المستندات الثالث ١٤ - ١٧ ،
- (٣٧) قصيدة قادش ٢٩٥ - ٣٢٠
- (٣٨) قصيدة قادش ٣٢٣ - ٣٣٠
- (٣٩) مدينة حابو ١٨ - ٢٠
- (٤٠) مدينة حابو ٧٢
- (٤١) مدينة حابو ٣٢ ، ٣٧
- (٤٢) مدينة حابو ٤٢
- (٤٣) موتيه بقايا الفن السورى ١٠-٥
- (٤٤) مدينة حابو ٩٥
- (٤٥) مدينة حابو ٩٤
- (٤٦) موتيه ، البقايا ١٠ - ١١
- (٤٧) أطلس فرنسكى الثانى ٣٤ - ٣٥
- (٤٨) مدينة حابو ٩ أطلس فرنسكى الثانى ١٦٥ - ١٦٦
- (٤٩) مدينة حابو ١٠ - ١١ ، ٢٤
- (٥٠) أطلس فرنسكى الثانى ٣٩
- (٥١) كوينتس ، لوحتان لامنوفيس الثانى ١٩ - ٢٠
- (٥٢) مدينة حابو ٨٥ - ٦ (قصيدة عن الحرب الثانية فى ليبيا الأسطرون ٣٦ -
- (٢٤) المنظر ، المرجع نفسه ٧٥
- (٥٣) بردية هاديس الأولى ٧٧
- (٤٤) موتيه ، البقايا ٢٢ - ٣٦

الفصل الخامس

المكتبة والقضاة

- (١) ماسيرو : دراسات مصرية الثاني ١ - ٦٦ أنظر كتاب جلودر طبع
أ كسفورد ١٩٥٢
- (٢) ليفغر : تاريخ كبار كهنة آمون في الكرنك الفصل الثاني .
- (٣) جوتيه : حاشية المعبود مين . Min. القاهرة ١٩٣١ .
- (٤) أنظر لوحة العام الأربعمائة في كيمي الرابع ٢١٠ - ٢١٢ .
- (٥) المستندات الرابع ١٠٢٠ - ١٠٢١ .
- (٦) منشور نوري Nouri - المكتبة المصرية الرابع .
- (٧) ليفغر : نفس المرجع ١٢٧ - ٨ .
- (٨) بردية بولاق الأخلاقية - السابع (ماسيرو : التاريخ ، الثاني ٥٠٣)
- (٩) الصدق والكذب - بردية شستريتي الثاني ٥
- (١٠) ماسيرو انشودة للنيل الصحيحة الثالثة عشرة ص ١٩
- (١١) بردية انتاسي الأول ١٣ ، ٥ وما يليه في جلودر النصوص المصرية
المهراطيقية - ليزج ١٩١١ : ١٦ - ٢٤
- (١٢) المكتبة المصرية السابع ، ٢٣ - ٢٤ - نصوص مائة في المكتبة المصرية
السابع ٣٥
- (١٣) المكتبة المصرية - السابع ٤٧
- (١٤) المكتبة المصرية - السابع ٤٧ (تابع ما سبق)
- بليت وروسي : أوراق البردي الهيراطيق في تورين
(Pleyte et Rossi : Les papyrus hiératiques de Turin) .
- بردية بولاق الأخلاقية ٣ - ٦ ، ١١ .
- (٢٢ - الحياة في مصر)

- (١٥) بردية بولاق الأخلاقية
(١٦) نبذ لوريه مجلة المعهد الفرنسى للآثار الشرفية بالقاهرة
الثلاثون ، ٤٩٧
(١٧) المستندات الرابع ١٠٤٤ - ١٠٤٦
(١٨) ليففر نفس المرجع ١٢٧ وما يليه
(١٩) حوليات مصلحة الآثار - الأربعون ٦٠٥
(٢٠) ماسيرو التاريخ الثانى ٣٤٧
(٢١) المكتبة المصرية - الرابع
(٢٢) المكتبة المصرية السابع ٥ تاريخ ثلاثة تلاميذ مبعوثين إلى الجيش
(٢٣) المستندات الأول ٢٣
(٢٤) أسيوط الأول ٢٢٣ - ٢٢٩
مقبرة بولام رع فى طيبة تحتوى على نفس التحذيرات (كىمى الثالث
٤٦ - ٤٨)
(٢٥) نقوش معبد الرديسيه ، المكتبة المصرية الرابع
(٢٦) ليففر نفس المرجع ٢١٣
(٢٧) اللوحة ١٣٨ فى المتحف البريطانى فى رويشون وفارى معبد الكاتب
الملكى أمنتعب ابن حابو ٣ - ٤ .
(٢٨) عرفت هذه الأحداث بوساطة بردية أبوت :
مولى : المستندات الميراطيقية الثالث ١٦ وما يليها .
وبردية أمهرست وليوبولد . طبعها كابرولودنر بروكسل ١٩٣٩ .
(٢٩) بردية المتحف البريطانى رقم ١٠٠٥٤ . وجه البردية ١ ، ٧ .
(٣٠) بردية المتحف البريطانى رقم ١٠٠٥٤ . وجه البردية الثالث ٧ - ٩ .
(٣١) بردية المتحف البريطانى رقم ١٠٠٥٤ ، ظهر البردية الثالث ٦ - ١٦ .

- (٣٢) بردية المتحف البريطاني رقم ١٠٤٠٣ الأول ٦ وما يليه -
 اريك بيت ، برديات ماير أ ، ب .
- (٣٣) بردية المتحف البريطاني ١٠٠٥٢ الثاني ١٤ - ٣٠ الحادى عشر ٤ - ٩ .
- (٣٤) المرجع نفسه الثالث ١٦ - ١٧ .
- (٣٥) المرجع نفسه الأول ٦ ، الثاني ١٦ .
- (٣٦) إلى مقبرة مرووكا ٤ جنوبا .
- (٣٧) بردية المتحف البريطاني ١٠٠٢ الرابع ٦ - ١٤ .
- (٣٨) للرجوع إلى مواكب رؤساء البعثات السياسية من بلاد الشمال أظفر
 كتابي : بقايا الفن السورى فى مصر فى عهد الامبراطورية الحديثة
 باريس ١٩٢٧ .
- (٣٩) سلسلة مقابر طيبة الرابع ٢٣ - ٣٠ - راجع أطلس فرنسكى الاول
 ٢٢٤ ، ٥٦ ، ٣٥ (أميسيباه (Amiseba) ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ (حرجب)
 ٢٦٥ ، (أنا) ، ٢٧٠ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ (امنوزى) ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ،
 ٣٣٦ ، ٣٣٧ (رنخارج) ، ما سبيرو التاريخ الثانى ٢٦٩ (معبد فايت
 أويل) مدينة حايو ١١ .

المكتبة الثانية عشر

النشاط في المآبد

- (١) هيرودوت الثاني ٣٧
- (٢) جوزيف : ضد ابيون الاول ٢٢٢ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ .
- (٣) كيمى التاسع ٤٠ .
- (٤) وكذلك الكاهن الذى اقترح على ننوفر كابتاح Nonoferkeptah أن يريه كتابا مكتوبا بخط يد تحوت فى قصة ساتنا (Setna) (ماسيرو : القصص الشعبية الطبعة الرابعة ١٣١)
- (٥) المكتبة المصرية السابع ١٦ ، ١٧ .
- (٦) المكتبة المصرية السابع ٦٠
- (٧) كوينتس : بعض آثار من طقوس عبادة سبك لوحة ١١ .
مجلة المعهد الفرنسى للآثار الشرقية . الثامن والعشرون ١١٣ - ١٧٢ .
- (٨) هيرودوت الثالث ٢٨ - ٢٩ . استرابون السابع عشر ١ ، ٣١ .
بلوتارك ايزيس وأوزيريس ٤٣ أميان مارسيلان الثانى والعشرون ١٤ .
- (٩) هيرودوت الثانى ٦٧ اكتشفت جبابة ايبس حديثا فى الصحراء أمام الاشموين قريبا من مقبرة بت اوزيريس (Petosiris) .
- (١٠) موتيه . مأساة أواريس ١٤٠ - ١٤١ ولوحة ٦ .
- (١١) ألن جلودنر . بردية عشروت فى دراسات مقدمة إلى جريفث ٨٣
- (١٢) موتيه . مأساة أواريس ١٣٤
- (١٣) المرجع نفسه ١٤٢ - ١٤٣ .
- (١٤) المكتبة المصرية السابع ٨٨ - ٩١ .

- (١٥) بيت وروسي : أوراق البردي الهيراطيقي في تورين .
- (١٦) يخاطب حابي جفای (Hapi - Djefai) من أسيوط أعضاء مجلس المعبد قائلا : « إني ابن كلهن مثل أمي واحد منكم » (أسيوط الأول ٢٨٨) .
- (١٧) المكتبة المصرية السابع .
- (١٨) مين موزيه الذي عاش في عهد رمسيس الثاني كان رئيس أسرار السماء والأرض وأقاليم العالم السفلي (الوفرة ٢١٨) .
- (١٩) أرمان : ديانة المصريين ٢٢٣ .
- (٢٠) عرفت الطقوس بفضل ثلاث برديات من متحف برلين والنصوص البارزة بمعبد أبيدوس .
- موريه : طقوس العبادة اليومية المقدسة في مصر .
- باريس ١٩٠٢ .
- (٢١) بلوك : ملاحظات على بعض لوحات يطلق عليها « للأذان » كيمي الثاني ١٢٣ - ١٣٥ :
- (٢٢) لأكو : التماثيل « الشافية » في مصر القديمة .
- آثار بيوت الخامس والعشرون ١٩٢٢ .
- أرمان : ديانة المصريين ٣٥٥ .
- ليقفر : التماثيل الشافي في متحف اللوفر . نبد لوريه ٨٩ وما يليه .
- (٢٣) لوحة ٥٨٩ ب المتحف البريطاني واللوحة ١٠٢ ب متحف تورين في أومان .
- (٢٤) لوحة ٢٣٠٧٧ ب متحف برلين .

- أرمان نفس المراجع ١٠٨٨ — ١٠٩٧ .
- (٢٥) شيرنى : عبادة امنزفيس الأول لدى عمال جباة طيبة .
مجلة المعهد الفرنسى للآثار الشرقية السابع والشررون ١٥٩ ومايلها .
- (٢٦) نافيلى النقوش التاريخية لبيدوجم الثالث (Pidodjem) .
- (٢٧) المستندات الثالث ٩٤ — ٩٥ (لوحة اعتلاء كرسى الكهنوت الأول
١٨ — ١٩) .
- (٢٨) بوريه : دليل الآثار المصرية فى متحف اللوفر ٥٣٤ — ٥٣٥ .
- لوكيانوف : التمثال المتكلم أوروحي المعبود رح حرما خيس .
- حوليات مصلحة الآثار ادميرية . السادس والثلاثون ، ١٨٧ .
- (٢٩) شيرنى : أسئلة موجهة إلى الوحى .
حوليات مصلحة الآثار المصرية — الخامس والثلاثون ، ٤١ ، أنظر مجلة
الآثار المصرية (J. E. A.) الحادى عشر ٢٤٩ — ٢٥٥ ، الثانى عشر
١٧٦ — ١٨٥ .
- (٣٠) هيرودوت الثانى ٥٩ — ٦٠ .
- (٣١) استناداً إلى النقوش البارزة فى مدينة حابو والكرونك . أنظر جوتييه :
أعياد المعبودمين القاهرة ١٩٣١ .
- (٣٢) جوتييه نفس المرجع ٣٢٠ — ٣٣١ ، ٣٣٩ — ٣٤٠ صفحة ٢٤٤ .
ويقترض ليفبير Lefebvre وموريه Moret وجوتييه ، أنه كان
بضخى بالثور ، ولكن لم ترد مطلقاً رسوم تمثل هذه الظاهرة . أما الدور
الحقيقى للثور فقد عرفه ياكوبسون فى كتابه : —

Jacobsohn : Die Dogmatische Stellung des Königs in der
Theologie der alten Aeg. Glückstadt 1939.

- (٣٣) نقوش طبعها دارسي : مجموعة أعمال ، الثامن عشر وما يليه .
- (٣٤) مثل توت عنخ آمون ، في نقوش بارزة على جدران معبد الأنهر ، أم حوادث المعبد ، أطلس فرسنسكي الثاني ١٨٩ - ٢٠٢ (اللوحات الفردية صور فوتوغرافية . أما اللوحات الزوجية فهي رسوم يدوية على التو) وقد ورد نفس الموضوع على معبد رمسيس الثالث في الكرنك (رمسيس الثالث ، المعابد ٨٦ - ٩٢) .
- (٣٥) فوكار : عيد الوادي الجليل - مجلة المعهد الفرنسي للآثار الشرقية ١٩٢٤
- (٣٦) المرجع نفسه ، لوحة ١٤ أطلس فرسنسكي الأول ١١٨ - ١١٩ .
- (٣٧) لوحة ١٢٠٤ بمتحف براين - شافر : أسرار أوزيريس في أيديوس ١١٩٠٤ .
- مناظر مقبرة خرو اف . Khrououf في طيبة في موريه ، الأسرار المصرية باريس ١٩١٢ صفحة ١١ . لوحات رمسيس الرابع ، مارييت - أيديوس الثاني ٥٤ - ٥٥ .
- (٣٨) هيروودوث الثاني ٦٣ .
- (٣٩) جوفينال الخامس عشر .
- (٤٠) يوجد بالقرب من دندره و مكان مذبحه ست أمام هذه المعبودة ، بروش القاموس الجغرافي ٣٨ :
- وجوتيه . قاموس الأسماء الجغرافي الخامس ٨٤ - ٨٥ .
- (٤١) الفرعون من خبروح سيامون في قصة ساتنا الحقيقية (ماسيرو : القصص الشعبية الطبعة الرابعة ١٦٨ - ١٧١) .
- (٤٢) التزام بين ست وحورس كما وردت في بردية شتر بيتي الأولى .
- (٤٣) جويون - أعمال شو ومنجب كيبي السادس ١ - ٤٢ .

(٤٤) لوحة ادفو لم تطيع بعد ولكن أشار إليها ديوتون « ما نعرفه عن المرح

المصرى » . (Revue du Cairo 1938)

ويمتد أنه جثث على المقاعد التي كان يجلس عليها المتفرجون .

(٤٥) لوحة العام الثاني لنفر حتب (ماوييت أيدوس الثاني ٢٨ — ٣٠) .

(٤٦) جاردنر : بيت الحياة (مجلة الآثار المصرية J. E. A.) الرابع والمثرون

١٩٣٨ ١٥٧ — ١٧٩

جمع نحو ستين نصاً تتعلق ببيت الحياة

الفصل الثاني عشر

الجنائزات

- (١) نصائح بتاح حنب . المقدمة .
سنوحى ب ١٦٨ - ١٧٠ .
- (٢) ليفر : كبار كهنة آمون ١٤٨ .
- (٣) ماسيرو : القصص الشعبية ، الطبعة الثالثة ، ٣٠ - ٣٤ .
- (٤) سنوحى ب ٢٩٥ - ٣١٠ .
- (٥) كوينتس : ترجمتان تثريظ ملكي . دراسات مقدمة لجريفيث ٣٩ - ١١٠ .
- (٦) بردية بولاق الأخلاقية - الثالث ١٦ .
- (٧) اللوحة ١٠٢٧ بالمتحف البريطاني (ماسيرو : دراسات مصرية ١٨٧ - ١٨٨)
- (٨) أرمان : ديانة المصريين ٢٧٧ .
- (٩) البردية الهرماطيقية ١١١٦ أ بمتحف الأرمناج الأول ٥٢ - ٥٧ .
- (١٠) ماسيرو : القصص الشعبية الطبعة الثالثة ١٢٣ - ١٢٨ .
- (١١) المجلة المصرية (AZ) السابع والأربعون ١٦٥ .
- (١٢) ده بوك : نصوص الاكفان المصرية ١٣٠١ .
- (١٣) نصوص الاكفان الأول ١٤٦ الفصل ٣٧ .
- (١٤) نصوص الاكفان الأول ١٥١ الفصل ٣٧ .
- (١٥) المكتبة المصرية السابع ٣٨ .
- (١٦) لوريه : لأجل إعادة العجوز إلى الشباب في نيز ماسيرو ٨٥٣ وما يليه .

- (١٧) إرمان : الديانة المصرية ٢٦٢
- (١٨) أنظر تمثال باراميس الذين عثر عليهما ليجران في الكرنك - حوليات
مصلحة الآثار الرابع عشر ٢٩ - ٤٠
- (١٩) جوتييه كتاب الملوك الثالث ٣١٨
- (٢٠) ليفغر كبار كهنة آمون ١٣٣ - ١٣٤
- (٢١) حمامات ١٢ ، ليفغر نفس المرجع ٢٦٤
- (٢٢) إرمان الديانة المصرية ١٠١
- (٢٣) أنظر خطاب أوزيريس إلى رع في بردية شتر بيتي الأول لوحة
الخامسة عشرة
- (٢٤) يذكر أنا A n n الذي عاش في عهد الملوك الثلاثة الأول الذين
يحملون أسم تحتمس أنه أشرف على تشييد المقبرة الملكية سرآد دون أن
يرى أو يسمع عنه ،
المستند الرابع صفحة ٥٧
- (٢٥) أنظر الصورة المطبوعة في كتاب إمامبرو : التاريخ الثاني ٥١٦ استنادا إلى
لوحة من عهد الامبراطورية الحديثة بمتحف القاهرة .
- (٢٦) للرجوع لتفاصيل أكثر - أنظر سلسلة مقابر طيبة - الجزء الأول .
- (٢٧) ديفز : نقر حثب ٢٧ ، أطلس فرسنسكي الأول ١٢٤ .
- (٢٨) سيلبريس : التانيل الجنازية الصغيرة . بروكل ١٩٢٣ ، كيمي التاسع
٨٢ - ٨٣ .
- (٢٩) كيمي التاسع ٧٨ - ٧٩ .
- (٣٠) استنادا إلى ما تحققت في مقبرة بسونس ،
موتيه : تافيس ١٤٦ - ١٥٧ .
- (٣١) استناد إلى نصوص عقود أسيوط . كيمي الثالث ٥٢ - ٦٩ .

(٣٢) أنظر تاريخ معبد جنازى فيرويشون وقارى: معبد الكتاب الملكى المنحطب
ابن حابو . القاهرة ١٩٣٦ .

(٣٣) بردية أوربى الثامن ٦ — ٧ وتعقيب لوريه فى كيمى التاسع ١٠٥ — ١٠٦ .
أنظر ديودور الأول ٧٢ .

(٣٤) هيرودوت الثانى ٨٦ ، ديودور الأول ٩١ لوكس : المواد المصرية القديمة
والحرف — الطبعة الثانية الفصل الثامن ،

(٣٥) قناع شيشنق الثانى الذهب قطعة قنية رائعة كيمى الحادى عشر لوحات
١٤ — ١٥ .

(٣٦) كيمى التاسع — صفحات ٦٢ — ٦٤ . واللوحه الثالثة عشرة

(٣٧) ماسيرو : دراسات عن بعض الرسوم وعن بعض النصوص التى تتعلق
بالجنازات . دراسات مصرية الأول ٨١ — ١٩٤ .

(٣٨) نفس المرجع ١٣٤

(٣٩) ماسيرو التاريخ الثانى ٥١٢ — ٣١٣ .

أطلس فرنسكى الأول ٣٨٨ — ٤٢١ .

(٤٠) ديفز نفرحتب ٢٢ — ٢٣ .

تيطس التذكورية الرابع ١٩ ، ٢٤ ، ٢٥ .

(٤١) ديفز نفرحتب ٢٠ — ٢١ .

تيطس التذكورية الرابع ٢٢ .

(٤٢) ديفز نفرحتب ٢٤ .

تيطس التذكورية الرابع ١٩ — ٢١ .

أطلس فرنسكى الأول ١٣١ ، ١٦٦ ، ٢١٧ .

(٤٣) ديفز نفرحتب ٢٥ — ٢٦ .

(٤٤) فرير آتيس واويزيس ١١٢ - ١١٣ .

باريس ١٩٥٦ .

كيمى الرابع ١٦١ - ١٦٨ .

(٤٥) ماسيرو التاريخ الثانى ٥٢٣ إن مناظر المآدب عديدة فى مقابر طيبة

ولكن يجب تمييز المآدب التى تقام بعد الدفن عن تلك المناظر الخاصة

بالحفلات العائلية . أنظر جلودنر فى سلسلة مقابر طيبة الأول ٣٦ - ٤١

(٤٦) فارى : ثلاث أغنيات جديدة لعازف الفيثار ، مجلة المعهد الفرنسى للآثار

الشرقية بالقاهرة . الخامس والثلاثون ١٥٥ - ١٥٧

(٤٧) ماسيرو : دراسات مصرية الأول ١٧٢ - ١٧٧

(٤٨) هيرودوت الثانى ٨٧ - ٨٨

إرمان ديانة المصريين ٢١٦ - ٣١٧

ماسيرو التاريخ الثانى ٥٢٥ - ٥٢٦

(٤٩) دويشون وفارى ، اصحبت ابن حابو ٤ - ٧

(٥٠) قديما منذ عهد الأهرام يندد الملك بغضب الموتى (نصوص الأهرام ٦٣) ،

وقد استمر هذا الاعتقاد حتى الامبراطورية الحديثة . بردية تورين

الهيراطيق ١٢٤ ، ١٣ - كتاب الموتى - الفصل ٩٣

(٥١) أرمان

Zaubersprüche für Mutter und Kind 1. 9, 2, 9.

ويوجد أنموذج مماثل فى ، 11. 7, 12, 3

(٥٢) بردية ٣٧١ بمتحف ليون فى جازدنر وزيتا : خطابات مصرية للموتى -

طبع لندن ١٩٢٨

(٥٣) إرمان

Gespräch eines Lebendigen mit seiner Seele p 60 ff .

فولكتر ، الرجل الذى أتمت الحياة مجلة علوم الآثار المصرية - العدد ٤٣

(عام ١٩٥٦) صفحة ٢١ .

- (٥) أن جلدنر : بيت الحياة (J.E.A) الرابع والعشرون ١٧٥ .
- (٥٥) ماسيرو : القصص الشعبية ، الطبعة الثالثة ١٠٢ ملاحظة رقم ٢ .
- (٥٦) دديوتون ولاور : إحدى قوشر غامواس على الوجه الجنوبي لهرم
أوغاس في سقاره .
- حوليات مصلحة الآثار المصرية — السابع والثلاثون ٢٠١ وما يليه .

مطبعة المعرفة - عمارة التامين ميلان لاغولفي



مطبعة البعثة

٢

Bibliotheca Alexandrina



0399692

٢٧